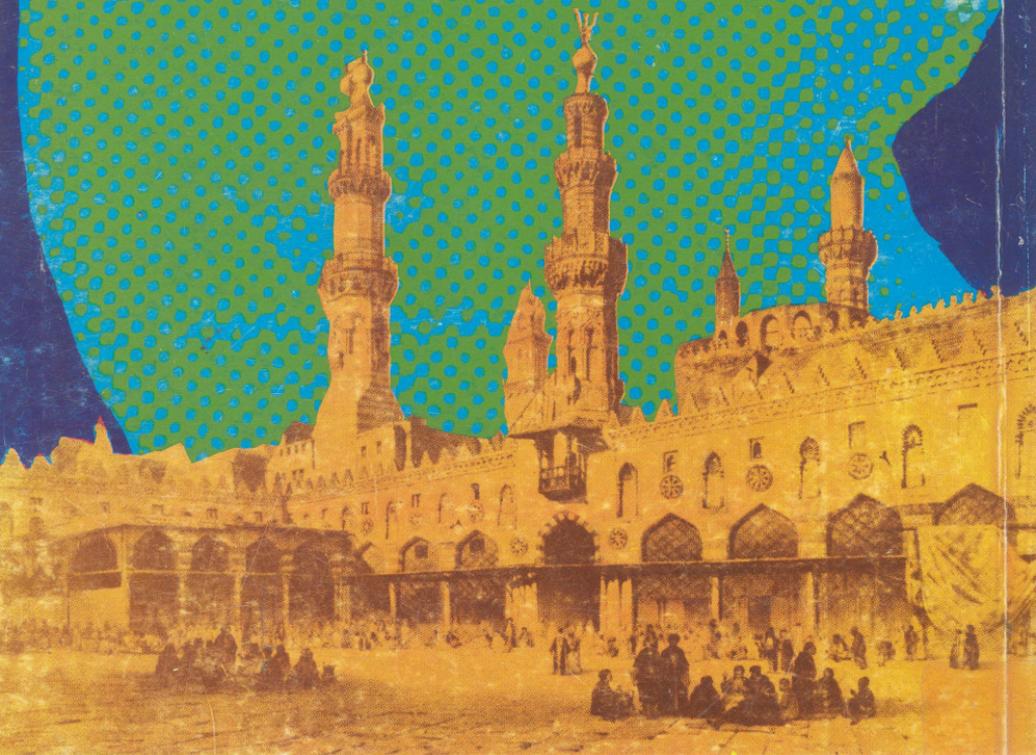


لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
<https://palstinebooks.blogspot.com>



...ودخلت الخيل الأزهر

الطبعة الثانية

جلال كشك

الى سليمان الحلبي بطل الوحدة العربية

يوم كان طريقها عبر الازهر

خطبة الكتاب

في اكتوبر ١٧٩٨ دخلت الخيول الفرنسية الأزهر ، وأعمل الجند الفرنسيون السيف في طلبته وشيوخه ونهبت الكتب ومزقت مخطوطات عمرها عدة قرون ، القتها أرضاً ووطئتها بسنابك الخيل ، ونهب بعضها اليهود الذين كانوا في خدمة جيش الاحتلال . ثم اتخذ الجنود من المسجد - الجامعة ، اسطبلًا للخيل .. وظلت فيه حتى تشفع الشيخ « الجوهري » الذي لم يقابل في حياته حاكمًا ، ظالمًا كان هذا الحاكم أو عادلاً .. ولكنه خرج عن النهج الذي الزم نابليون خطورة احتلاله المهين للأزهر وعمق تأثيره في المصريين . فأمر بالغاء عنه .. ليلقي القبض على عدد من مشايخه ويقطع رؤوسهم في سجون القلعة .

كانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ مصر ، التي يمتن فيها الأزهر على هذا النحو ، وأول مرة يتناول فيها حاكم على شيوخه الى حد الاعداء .. ذلك لأنها كانت أول مرة يحتل فيها مستعمر أجنبي مصر منذ أن كان الأزهر .

كان « الأزهر » هو رمز سيادة الأمة ، ومركز قيادتها .. وما ان سقطت « الدولة » المصرية في معركة امبابه ، حتى أصبح الغازي المحتل ، والأزهر ، وجهاً لوجه .. فقاد الأزهر مقاومة الأمة على جميع المستويات . من المقاومة السلبية التي قادها الشيوخ الكبار داخل مجالس نابليون وداخل التشكيلات الادارية التي اقامها لحكم البلاد .. الى المقاومة الوطنية العنيفة التي

قادها الشيوخ الصغار ، بتنظيم حركات سرية ، وأعمال المقاومة الشعبية - التي وصلت ذروتها بتنفيذ أهم ثورتين عرفها الشرق في ذلك الوقت - إلى أعمال الاغتيال التي نظمتها ونفذها بنجاح طلبة الأزهر .. « المجاورون » ..

كان الأزهر يمثل الكيان المتميز لهذه الأمة ، يمثل ذاتها وتراثها ، وامكانية مستقبلها .. وأدرك المحتلون ذلك كله ، لذا نزام في نفس الوقت الذي يحرون فيه المفاوضات والمساومات مع الباب العالي بهدف التفاهم معه ، ويعقدون الاتفاقيات مع فلول المالك ، ويصبح كبيرهم « مراد » بك بمثابة موظف أو قائد قوة بوليسية تابعة للمحتل الفرنسي .. في نفس الوقت كان الصدام يتصاعد يوماً بين جيش الاحتلال أو السلطة الفرنسية وبين الأزهر .. وانتهى ذلك الصراع باغلاق الأزهر وتسمير أبوابه بعد مصرع كليبر .. وفي عهد خليفته الذي أدعى الاسلام : « عبد الله جاك مينو » !!

نعم .. لقد فتح الأزهر أبوابه بعد ذلك ، لأن الحملة الفرنسية انتهت أيامها في مصر واضطرت إلى الجلاء .. ولكن هذه الحادثة ، اعني اغلاق الأزهر ، عبرت عن طبيعة العلاقة الوحيدة الممكنة بين الاحتلال الغربي ، وقيادة الأمة .

كانت الحملة الفرنسية هي طبيعة الاستعمارية الغربية ، وكانت تجربة السنوات الثلاث التي قضتها في مصر ، كافية لاقتناع هذه الاستعمارية انه ما لم تتم تصفية الدور القيادي الذي يلعبه « الأزهر » فلن يمكن لأي استعمار غربي أن يستقر على ضفاف النيل ..

لقد سقطت مصر خلال ساعات عندما كان امراء المالك يتولون الدفاع عنها ، ودخل « نابليون » القاهرة سعيداً مستبشراً حاملاً بامبراطورية « الاسكندر » .. فلما برز « الأزهر » لأنه هو وحده الذي بقي في الساحة .. وتحمل شيوخه ، المنتشرون في كل قرية مصرية ، بالوجود أو بالفكر أو بالتوقيع ،

مسؤولية قيادة مقاومة الامة ، لم يبت جيش الاحتلال ، ليلة واحدة هادئة طوال ثلاث سنوات .. ولم يسجل تاريخ الشعوب الشرقية ، قبل مقاومة الشعب المصري ، ولسنوات اخرى عديدة بعدها، مثل هذه المقاومة العامة والشاملة للوجود الغربي ، التي شهدتها مصر في الفترة من ١٧٩٨ - ١٨٠١ .

كان رفض الوجود الغربي على أرضنا رفضاً عاماً وشاملاً وعنيفاً .. وكان لا بد أن تصفى قيادة الأزهر .. لا عن طريق احتلاله بالخييل ، ولا بتسمير أبوابه .. بل بتسمير باب قيادته الفكرية للأمة .. بتغريب المجتمع من حوله .. حتى تقطع جذوره أو تذوى .. ويبدو نشازاً متخلفاً ، بل ويصبح رمزاً « للتخلف » .. ومثار السخرية والتندر ..

هذه هي المهمة التي تولاها بنجاح رجل الغرب وممثل مصالحه « محمد علي باشا » الملقب « بالكبير » مؤسس مصر « الحديثة » وباعث « نهضتها » ومسلها فريسة عاجزة الى الاستعمار الغربي .

عندما جاء نابليون بجيشه ، واجه شيوخ الأزهر ، القيادة الشرعية والواقعية للأمة ، لذلك كانت سنواته الثلاث هي سنوات حرب متصلة .. ومقاومة لا تهدأ .. ولكن بعد ثمانين عاماً من تحضير وتمدين وتغريب أسرة « محمد علي » لمصر، انتقلت القيادة نهائياً من الأزهر، وأصبحت في هذه المرة في الجيش .. فلما سقط الجيش في معركة « التل الكبير » .. سقطت مصر ، ونعم الانجليز بهدوء دام أكثر من ربع قرن .. لأن الأمة كانت بلا قيادة .. لأن قيادتها الطبيعية كانت قد نُحيت وُصفيت .. لأن عملية التغريب كانت قد تمت بنجاح .. وأصبحت البلاد ناضجة لكي يتناولها السيد الغربي .. وقد كان ..

أين فلاحو دنشواي البؤساء المسالمون الذين شنقوا عقوبة علي « ضربة شمس » .. أصابت جندي انجليزي .. ابن هؤلاء العزل من الفلاحين الاشاوس المقاتلين ، الذين دوخوا نابليون وفرسانه؟! ..

كان الاسلام هو السد الوطني الذي تتكسر عنده أمواج الغزو الغربي، لأن الاسلام هو الرفض الحضاري للغزو الغربي . وكان الاسلام يتمثل في الرفض الغريزي من جانب الجماهير ، للغزاة الأجانب الذين يهددون وجودنا الحضاري ، ومستقبلنا ، ومصالحنا .. وكان يتمثل أيضاً في القيادة المثقفة للأمة .. أي في شيوخها وتجارها وأعيانها .. (وهي القوى التي صفاها محمد علي ، بإصلاحاته ، ونظامه الاقتصادي والطبقة الجديدة التي حلت محل الأعيان المصريين) . وما من أمة تحقق استقلالها وتقدمها الا تحت قيادة طليعتها المثقفة .. شرط ان ترتفع هذه الطليعة الى مستوى ثقافة عصرها ، وشرط أن تنجح في تجميع وتوجيه طاقات الجماهير في اتجاه التحرر وكسب القوة المادية القادرة على انجاز متطلبات المرحلة التاريخية .

لذلك كان على الغزوة الاستعمارية الغربية أن تفتت مقاومة أمتنا، بتجربدها من الاسلام . وقد جربت أوروبا ابادة الاسلام بقتل المسلمين في الحروب الصليبية ، لكنها اكتشفت فشل هذا الأسلوب . وحاولت مرة اخرى ان تخرج المسلمين من الاسلام بحملات التبشير ، هذه الحملات التي لم تكن عدواناً على الاسلام وحده بل وأيضاً عدواناً على كنائسنا العربية ، ذلك ان المسيحية في المشرق العربي ، كانت من دعائم الرفض الوطني للغزو الغربي . فهذه الكنائس هي ثمرة وتجمع تاريخ دامٍ من مقاومة المؤمنين العرب للاستبداد الغربي قبل وبعد ظهور المسيحية في الغرب .. وكان أعيان النصارى في المشرق العربي ، وفي مصر بالذات جزءاً أساسياً من القيادة المثقفة للأمة ، يتحملون مسؤوليتهم الى جانب شيوخ الأزهر ، والأعيان والتجار المسلمين .. وكانت الكنائس الغربية ، والكنيسة المصرية العريقة(*) بالذات، قلاعاً لمقاومة الغزو الاستعماري الغربي . وكتابات الاستعماريين الغربيين والمبشرين الغربيين،

(*) أقدم كنائس العالم على الاطلاق .

حافلة بالحقد على الاسلام وكنيستنا القبطية معا... الى نهاية القرن التاسع عشر.. والمؤرخون الاستعماريون، لا يخفون مرارتهم وهم يتحدثون عن فشل جهود مبشرهم في كسب مسلم واحد أو قبطي واحد الى صفوفهم.

لكن التبشير لم ينجح.. فكان التغريب: أي دفع المسلمين والمسيحيين، الى استبعاد الدين من حياتهم وتفكيرهم، عزل القيادات المثقفة، تصفية دورها في المجتمع..

والآن ماذا نقصد بالتغريب؟!..

انه الجواب الخاطيء الذي طرح على شعوب الشرق منذ صدامها مع الغزو الغربي..

لقد اصطدم الغزو الغربي، بثلاثة انواع من الشعوب:

● شعوب لم تكن لديها حضارة قادرة على المقاومة، ولم يكن الاستعمار الغربي بحاجة الى استمرار هذه الشعوب.. فكان أسلوبه في مواجهتها هو الابادة الشاملة، أما من بقي بعد الذبح والحرق، فقد تم فناؤه في الغزاة، وتكون جيل جديد من الخلاسين، أو المولدين.. يتكلم نفس اللغة، ويعتق نفس الدين، ولا يكشفه إلا لونه، وتخلفه، والبؤس الذي فرض عليه بصفة أبدية.. ذلك ما تم في شعوب العالم الجديد..

● وشعوب كان الاستعمار الغربي بحاجة اليها، ولم تكن لديها حضارة ولا مقومات حضارية تمكنها من مقاومة الغزو الاستعماري، فاكتفى الاستعمار باستئصال قسم منها، وباستئناس القسم الآخر، والحاقه بمزرعته، وتلقين هذا القسم الداجن لغته وأحياناً دينه، وبالذات في المرحلة الأخيرة كاجراء وقائي لمواجهة تطورات الزمن المحتومة.. مع ابقاء حاجز أقوى من حائط الصين بين مجتمع السيد.. الانسان الأبيض، ومجتمع الكائنات غير البيضاء هكذا جرى الحال بصفة أساسية في افريقيا..

● أما الحالة الثالثة ، فهي حالة الشعوب التي كان لها تراث حضاري ، ومؤسسات حضارية ، رغم تخلفها ، لكنها تشكل عنصر رفض ومقاومة للوجود الغربي .. هذه الشعوب كانت ابادتها مستحيلة وغير مرغوب فيها ، لأن استثمارها هو جوهر الاستثمار وغايته ، (كيد عاملة رخيصة وكستهلكة لمنتجات الدولة الاستعمارية) وكان تدجينها بأسلوب استئناس الحيوان - أي بالسوط وقطعة السكر - مستحيلاً ..

هذه الشعوب عندما فوجئت بتفوق الغرب ، الذي عاشت قروناً على احتقار شأنه ، والاستخفاف به ، الى ان روعتها مدفعية نابليون في عشية القرن الثامن عشر في الطرف الغربي من آسيا ، بينما أيقظت مدفعية الكومادور « ماتيو بيرى » الامريكى ، الطرف الشرقي - اليابان - في عام ١٨٥٣ .. فكان السؤال .. كيف نواجه مدفعية الغرب !؟

وبينما اخطأت آسيا وافريقيا الجواب ، عرفته اليابان وحدها .. « كان الهدف الرئيسي هو بناء قوة اليابان العسكرية ، ولكن لتحقيق ذلك كان على اليابان ان تنتج كل المنتجات الحديثة ، وان تمتلك كل المعرفة العلمية المتاحة للغرب (١) » ..

أدرك الشرق كله تلك الحقيقة التي وعنها النخبة اليابانية في عصر « الميجي » (أو الحكومة المستنيرة) انه « لكي تبقى اليابان فيجب ان تصبح في مستوى العصر » ... كل الشرق وعى هذه الحقيقة ، وكان أكثر الجميع وعياً بها ، هم أولئك الذين وعوا خطورة التفوق الغربي .. ولكن اليابان وحدها عرفت الجواب الصحيح : التحديث لا التفريب .. لكي يتحقق التحديث لا بد من رفض التفريب .. بل نزعم انه بقدر الاصرار والنجاح في رفض التفريب ، يكون النجاح في تحقيق التحديث ..

تمسكت اليابان بدينها ، واصبح المعبد أو الهيكل جزءاً أساسياً في كل

مصنع أو باخرة ... وتمسكت بنظامها الملكي واستمرت حتى الحرب العالمية الثانية تعامل امبراطورها كإله ! يُحظر النظر اليه من أعلى! وتؤمن الجماهير، وتسلك النخبة على اساس انه ينحدر من الشمس !

وبينا كان يجري التحديث بأعلى معدل عرفته دولة الى النصف الثاني للقرن العشرين كان الياباني محتفظاً بجيائه العائلية والاجتماعية وتقاليدته وتراثه، يرتدي القفطان (الكيمونو) والقبقاب .. ويأكل على الطبلية بالعصي .. محتقراً الجنس الابيض (*) ، مقتنعاً باصرار متزايد انه خير أمة على ظهر الارض .. محتفلاً بأعياده القومية ، عيد تكريم الامبراطور ، أو عيد البنات (٣ مارس) حيث تجري في كل بيت مراسم احترام وتوقير لتماثيل صغيرة على شكل عائلة الامبراطور !! وعيد الاسلاف ، في يوليو ، حيث يجري استقبال ارواح الأسلاف وتكريمها .

ظل المسرح الياباني يقدم روايات التراث وبنفس الأسلوب منذ قرون .. وظلت المرأة في مكانها التقليدي ودورها الأساسي ، وظلت على احترامها للزوج وخلع حدائه بيديها .. واليابان هي البلد الشرقي الوحيد الذي لم تظهر فيه حركة « تحرير المرأة » .. لذلك أصبحت مجتمعاً حراً وحافظت على استقلالها ، لأنها عرفت ان المرأة لا تتحرر وحدها ، وأنه لا حرية لامرأة ولا لرجل في مجتمع ضعيف متخلف فاقد الاستقلال ، أو مهدد بفقده في أية لحظة .. وبمعكس ما بُذل من جهد في بلادنا لتعليمنا استخدام الشوكا والسكين أو آداب المائدة ، لم يحدث قط ان حاول اليابانيون الأكل على الطريقة الغربية . فالأمة التي تُلَقن انها بحاجة الى ان تتعلم آداب المائدة من عدوها هي أمة فقدت احترامها لنفسها ويستحيل ان تنجز أي تفوق ..

(*) الى جانب الكراهية الطبيعية للاستعمار الابيض فان التاريخ الياباني يقوم على احتقار اللون الابيض لأن السكان الاصليين لليابان الذين تمت ابادتهم كانوا بيض البشرة .

التحديث .. هو امتلاك كل المعرفة التي يتفوق بها الغرب، انتاج كل المعدات التي ينتجها الغرب . وكل ما تحتاجه أمة من الأمم لتحقيق هذا التحديث، هو ارادة قومية ، ونظام صالح قادر على تعبئة هذه الارادة وتوجيهها في طريق التصنيع أو التحديث إذا كانت البلد مستقلة ، أو في طريق تحرير الارادة القومية عبر حرب التحرير الوطنية ، التي يتم التحديث خلالها .

لكن يشترط قبل ذلك أن تؤمن الأمة ان تخلفها هو ظاهرة عارضة ، وان اصلتها تمكنها من تجاوز هذه المرحلة العارضة .

أما التغريب ، فيبدأ من اقناع الأمة الشرقية انها متخلفة في جوهرها ، متخلفة في تاريخها وصميم تكوينها ومن ثم فلا بد من انسلاخها تماماً عن كل ما يربطها بماضيها ويميز ذاتها ، واعادة تشكيل المجتمع على الطراز الغربي من ناحية العادات والمظاهر السلوكية مع ابقائه متخلفاً عاجزاً عن انتاج سلع الغرب .. عاجزاً عن اكتساب معرفة الغرب ، فإذا ما اكتسب بعض أفراد هذه المعرفة ، يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل في مجتمعهم فيضطرون إلى النزوح الى عالم المتفوقين .

المجتمع المُعَرَّب ، هو ذلك المجتمع الذي تزدهم طرقاته بأفخر واحداث السيارات المستوردة ، وتضم مدنه افخم دور عرض الافلام المستوردة ، ويرتدي أهله أحدث المنسوجات المستوردة ، وعلى أحدث الموضات الغربية، ويثرثر مثقفوه في قاعات - مكيفة بأجهزة امريكية أو روسية - مشاكل المجتمع الغربي وآلامه .. ويألون صفحات من ورق مستورد تطبع بحبر مستورد وبآلات مستوردة ، حول قضايا الوجودية ومسرح اللامعقول ، والجنس الجماعي، وتطور حركة الهيبيز، على بعد خطوات من كهوف مواطنيهم حيث البلهارسيا والكوليرا والتراخوما .. وكل تراكمات التخلف منذ القرن السابع عشر ..

وإذا كان الطرف الشرقي من آسيا - اليابان - قد شهد نجاح سياسة التحديث لا التغريب ، فان الطرف الغربي ، شاهد النموذج المضاد تماماً .. فتركيًا بعد الحرب العالمية الأولى وبعد قرن كامل من المعجز عن التحديث ، اندفعت - بأقصى ما استطاعت حكومة أن تجبر شعبها الشرقي - في سياسة التغريب .. كتبت من الشمال لليمين وبجروف لاتينية كالغرب ، وخلصت الاسلام وقرأت القرآن والأذان باللاتيني! ولبست البدلة والقبعة بأمر القانون .. وعطلت يوم الأحد وحولت المساجد الى متاحف ، وحررت المرأة على أوسع نطاق، وجعلت الزواج والطلاق على الطريقة الغربية المسيحية وحق الميراث ، واشترطت « فاميلي نام » (اسم عائلة) كما هو الحال في جوازات وبطاقات السياح الغربيين ! لم تترك صغيرة ولا كبيرة من مظاهر الغرب الا وقلدتها على نحو يفوق قدرة القروء .. وظلت دولة متخلفة يفتك بها الفقر، وترتفع نسبة الأمية بها عن سبعين بالمائة .. تغربت بكل طاقتها فبقت خارج نطاق الدول الصناعية أو المتمدينة .

كان التغريب هو الطريق المضمون لخسارة معركة التحديث ، وكل الدول التي تم تغريبها ، أو اختارت طريق التغريب وانشغلت في قضاياها ظلت على تخلفها .. بل وأخطر من ذلك ان « التغريب » يقضي على روح المقاومة في الأمة الشرقية ، فيجعل استعمارها من قبل الدول الغربية المتفوقة أسهل ، وحكمها أيسر ، ويجعل استغلالها أعمق وأكبر عائداً .. وأقل كلفة ومخاطراً ..

من هنا كان اهتمام الغرب بترويج فكرة التغريب بين صفوفنا .. فنذ الحملة الفرنسية ، وهناك استثمارات فكرية ، الى جانب الاستثمارات المالية ، بل وكجزء منها ، تهدف الى اقناعنا انه لا تحديث إلا بالتغريب ..

وبعد الغزوة الغربية الأخيرة ، المتمثلة في الهجمة الصهيونية، ومع اللاحاح المتزايد للجماهير في البحث عن حل يكفل لهم امتلاك المعرفة التكنولوجية

التي يمتلكها عدوهم الصهيوني والعالم المتقدم الذي يساند هذا العدو .. بادر أعداء التحديث ، أعداء استقلالنا القومي ، أعداء كل حركة بعث قومية جادة ، بادرُوا يسدون الطريق على أية محاولة لاكتشاف الجواب الصحيح على تساؤلات الجماهير ، فكان الالحاح من جديد ، على ان الحل هو التغريب ، واننا لم نتغرب بما فيه الكفاية ، ولذلك انهزمنا.. وان كل ما نحتاجه هو جرعة أكبر من القيم والتقاليد والعقائد القادمة من الغرب ، رأسمالياً كان أو شيوعياً ، وان نقطع خطوات اكثر في الابتعاد عن تراثنا ومقومات شخصيتنا ..

وبدأت عملية تزييف التاريخ ، بهدف أجهاض موجة العداة المتزايدة ضد العدو التاريخي والقومي والحضاري ، الذي شل تقدمنا وأبقانا في أسر التخلف خلال مائة وخمسين عاماً حاسمة في تاريخ العالم ثم رمانا بإبنته الشرسة المتوحشة المدججة بتكنولوجيته .. بدلاً من تنمية هذا الوعي ، وتوجيه هذا النفور من الغرب في اتجاه الحرب الوطنية ، بدأت محاولات « التحبيب » في الغرب .. فهو الذي حضرنا ، وهو الذي علمنا ، وهو الذي عرفنا لأول مرة معنى كلمة « حرية » و « دولة » و « أمة » و « قومية » بل هو الذي أخرجنا من القرون الوسطى ، وحررنا من الاستعمار التركي .. وبعث فينا الروح القومية ، فعلى يديه عرفنا أننا مصريون !.. أو عرب !..

والخلاف حول تفسير التاريخ ليس ظاهرة ترف ، ولا هو مجرد خلاف حول تفسير الماضي ، بل هو في الدرجة الاولى خلاف حول الطريق الى المستقبل .. والامم دائماً تهرع الى تاريخها ، في لحظات محنتها - تستمد منه الالهام والدعم النفسي ، بينما يلجأ خصومها دائماً الى تزييف التاريخ وتشويهه لتضليل الحاضر وافساد الطريق الى المستقبل .

والذين يروجون بعد هزيمة ١٩٦٧ للدور التحضيري والتحريري الذي لعبه غزو البلدان المتقدمة ، للشرق المتخلف ، هم في الحقيقة يطرحون اجابة - غير مباشرة - لحيرة الجماهير المعاصرة .

بل ان هذه الدراسات التي بدأ ظهورها قبيل هزيمتنا التاريخية الثانية (*) أمام الغزو الغربي المتفوق حضارياً ، ثم نُشرت على أوسع نطاق بعد هذه الهزيمة ، هذه الدراسات لا تحفي هدفها، بل تقدم بهدف: « استقصاء مقومات الدولة الحديثة في تاريخنا لنعرف أي شوط قطعنا فنعرف ما بقي أمامنا لبلوغ الهدف ».. والمفهوم الوحيد لمثل هذا النصح ، هو أن علينا ان نكمل ما بدأه الرواد مع الحملة الفرنسية .. منذ مائة وسبعين عاماً .. والرواد في مثل تلك الدراسات هم الذين تعاونوا مع جيش الاحتلال وعملوا في خدمته ، من امثال يعقوب ، بل وطلائع حركة تحرير المرأة ، هن اللواتي « درت مع جيش الاحتلال » .. الجواب اذن هو ان نفتح للحضارة المتقدمة الغازية .. مثلما انفتح الرواد للحملة الفرنسية في مطلع القرن التاسع عشر ..

فالدولة الحديثة وضعت أسسها في عام ١٧٩٨ « عندما حطم نابليون ذلك السور العثماني العظيم الذي حال دون اتصال مصر بأوروبا ثلاثة قرون كاملة . « والذين اضطلعوا بمسؤولية الحكم في ظل المحتل وبمعونته ، كانوا أول من وضع اساس الدولة الحديثة في مصر قبل محمد علي باشا بسنوات » (٢)...

واضح الى أين يمكن أن يفضي مثل هذا التفسير بالذين يبحثون منذ ٥ يونيو ١٩٦٧ عن طريق استكمال بناء الدولة الحديثة ..

تُرى - بموجب هذا الفهم - هل يمكن ادانة « الجعبري » الذي يضطلم بمسؤولية الحكم في الضفة الغربية ، والذي يرفض الحكم الأردني المتخلف ، ويتعاون مع الحكم الاسرائيلي « المتقدم » !؟

ولمواجهة هذا الفهم الخاطيء الذي يروج له ، كانت هذه الدراسات التي

(*) باعتبار ان الهزيمة الاولى هي تلك التي انزلها بنا الاستعمار الاوروي في القرن التاسع عشر.

بدأتُ في نشرها منذ عام ١٩٦٤ (*) .. أما هذا الكتاب عن الحملة الفرنسية فقد شرعت في اعداده منذ عام ١٩٦٧ واستكلت خطوطه في أواخر عام ١٩٧٠ وحالت مشاغلي دون اخراجه في عام ١٩٧١ .. الى ان فرغت له ففرغت منه . وقد حاولت ان أبين فيه أبعاد الغزوة الفرنسية ، أو اللقاء الأول بيننا وبين الغرب المتقدم وأبعاد المقاومة التي شنها الشعب المصري ضد الغزاة المحتلين ، وكيف كانت هذه المقاومة رائعة وخالدة لأنها كانت رفض أمة سليمة العقيدة ، نقية الجوهر ، لم يتم - بعد - تقريبها ولا تدجينها .. ولأنها كانت بقيادة النخبة الشرعية للمجتمع .

وكيف أن بذور البعث الحضاري المنشود كانت موجودة في طيات هذه المقاومة ، وفي صفحات هذا الرفض للوجود الحضاري . ففي ثورة القاهرة الأولى ولدت التنظيمات الوطنية ، وفي الثورة الثانية أوشكنا أن ندخل عصر الانقلاب الصناعي ، عندما صنع اجدادنا المدفع والبارود .

وفي معارك الصعيد ودمهور ولدت الوحدة العربية عندما اختلطت دماء المجاهدين من الحجاز وتونس بدماء المجاهدين المصريين ، وبلغت هذه الوحدة ذروتها بالبطل الشهيد « سليمان الحلبي » ، الذي جاء من حلب ليثار لمصر من « كليب » السفاح ..

كما كشفت زيف ما يروج عن الدور الحضاري الذي لعبته الحملة الفرنسية ، ملقياً الضوء على أعمال التنكيل الوحشي التي ارتكبتها جيش الاحتلال ضد المواطنين ، ثم كيف كان موقف الادارة الفرنسية استعماريّاً تقليديّاً عندما رفضت تشغيل المصريين في مصنع للجوخ خوفاً من ان يتعلم المصريون الصنعة!

(*) كانت البداية مقالاً في روز اليوسف . ثم سلسلة دراسات جمعتها في كتاب « دراسة في فكر منحل » . اعقبها بكتاب « القومية والغزو الفكري » .

وكيف انه مع الحملة الفرنسية كانت بداية الاستغلال الرخيص من جانب الغرب، للانقسامات الدينية في الشرق، وانه مع الغزو الغربي زادت حساسية الشرقيين بتميزهم الديني، بعكس ما تزعم المدرسة الاستعمارية، من ان المفهوم القومي الذي لا يميز بين الاديان، جاءنا هدية من الغرب !..

لقد حاولت الحملة الفرنسية ان تمزق مصر والشام الى طوائف ومذاهب وجماعات عنصرية تحقيقاً للمبدأ الاستعماري القديم : « فرق تسد » كما كشفت الدور الذي لعبه المتعاونون مع جيش الاحتلال، وبالذات ركزت على « جعبري » الغزوة الاولى : المعلم « يعقوب ». ذلك المسخ الذي يراد له ان يُنصب رائداً للقومية المصرية، وأول داعية لاستقلال مصر ؟..

كما ناقشت موقف « الجبرتي » من الحملة الفرنسية، والخلفية الحضارية المتفوقة في قيمها التي واجه بها الجبرتي، غزاة الحضارة المتفوقة تكنولوجياً ..

كذلك كشفت فضيحة « مطلق الانثى » .. إذ تزعم المدرسة الاستعمارية، ان الحملة الفرنسية أحدثت في مصر ثورة نسائية، أو حركة تحرير المرأة، من خلال النساء اللاتي عشن مع الجنود .. موضحا ان الطليعة الحقيقية للمرأة المصرية هن المصريات الباسلات اللاتي أعدمن نابليون بالعشرات، لاشتراكهن في قيادة وتنظيم وتنفيذ ثورتي القاهرة.. هن الفلاحات الباسلات اللاتي اشتركن في قتال جيش الغزو الفرنسي ..

وأحسبني قد أوضحت بهذا العرض، المنهاج الذي أنطلق منه في تفسير التاريخ، والذي أسميه منهاج « المدرسة الوطنية » في مواجهة تفسير « المدرسة الاستعمارية ». فبينما ترى « المدرسة الاستعمارية » ان القومية والتقدم والتحديث والتحرر كلها معان ومفاهيم وسلوك تكتسب من خلال التعاون مع المحتل، وبمعونته وإرشاده ..

ترى المدرسة الوطنية ان هذه المفاهيم لا معنى لها إلا إذا كانت مرتبطة

بسلوك وطني مقاوم للوجود او النفوذ الأجنبي بكافة أشكالها ، وانها لا تكتسب إلا من خلال مقاومة هذا الوجود أو هذا النفوذ ..

فالتقدمية أو الرجعية ليست موقفاً معلقاً في الهواء ، ولا قضية فكرية خارج إطار الزمان والمكان .. بل هو موقف يتحدد بأحدائي ؛ حركة التاريخ ، ومصصلحة الأمة المعنية . فلا يجوز أن نصف بالتقدمية ، المستعمر الفرنسي الذي كان يمزق حجاب المرأة الجزائرية ، ولا أن نصف بالرجعية المجاهدة الجزائرية التي كانت تتمسك بالحجاب طوال زمن الاحتلال ، كرمز للمقاومة ، وكوسيلة لها في المرحلة الأخيرة .

هناك خط عام يرسمه التاريخ في اللحظة الميمنة والمكان المعين ، تنقسم بموجبه القوى ، الى قوى المستقبل ، قوى الحق والعدل .. قوى تعمل في اتجاه التاريخ .. هذه هي قوى التقدم .. وهناك على الجانب الآخر القوى المضادة المعادية لمصالح الشعوب ، المعادية للحق والعدل .. المعارضة لاتجاه التاريخ ..

وعلى ضوء هذا التقسيم تندرج كل القضايا .. ويصنف موقع الجزئيات .. فالاستعمار ضد التاريخ .. ضد أمتنا .. ضد مصالحها .. ضد وجودها ومستقبلها .. ومن ثم فكل اصلاحاته وكل حسناته يجب ان تفهم في ضوء هذه الحقيقة .. والقوى المتعاونة معه هي الرجعية ، هي المعادية لحركة التاريخ في المدى البعيد ، هي المعادية لمصالح أمتنا ، فهمها تكن أفكارها أو مواقفها الجزئية من بعض القضايا ، فهي قد اختارت معسكرها بتعاونها مع المستعمر ، أو حتى بسليبتها من حركة مقاومته ، ولا يجوز ان تنسب للتقدم بأي حال ، لأن من يمنع عربة التاريخ من السير بأتمته ، لا يمكن ان يوصف بالتقدمية اذا ما لهث خلف عربة المستعمر ..

فالتقدمي هو من يقاوم الغزو الأجنبي لبلادنا شيخاً كان أو درويشاً ، وبصرف النظر عن الشعارات التي ينطلق في مقاومته تحتها ، وبصرف النظر

عن الموقف الذي بفجر مقاومته في شكلها المباشر ، والرجعي هو من يتعاون مع المستعمر أو يمكن لوجوده في بلادنا ..

هذا حكم عام وصحيح طالما ظل هناك استعمار ، ومستعمرات .. صحيح بالنسبة للحملة الفرنسية ، صحيح بالنسبة للحملات التي أعقبها والتي نجحت في احتلال الوطن العربي من الرباط الى الخليج ومن حلب الى عدن .. صحيح بالنسبة للغزوة الثانية ، التي يشنها الاستعمار الصهيوني ، آخر امبراطوريات الغرب .

وقد ركزت في هذه الدراسة على تفنيد كتاب « بونابرت في مصر » لكرستوفر هيرولد ، وفضح وكشف مؤلفات « لويس عوض » ، كما ناقشت بعض آراء « الرافي » غفر الله له .

ولا شك انه اذا طال الأجل ، ويسر الله سبحانه وتعالى ، فلا بد ان تعقب هذه الدراسة ، دراسة أخرى ، أو أكثر عن مرحلة « محمد علي » ثم عن مرحلة الاحتلال البريطاني ، ثم عن مرحلة الدستور والاحزاب حتى نصل باذن الله وتوفيقه الى العصر الناصري .. ويخلق ما لا تعلمون ..

وبعد ..

فما حيلتي .. وقد حرمت من فرصة تغيير التاريخ بالوسيلة الحاسمة والفعالة — أي السيف — ما حيلتي الا أن أعين اولئك الذين فضلهم الله على القاعدين ، الذين يقفون اليوم أو غداً للذود عن حرية الوطن ، وسيادته واستقلاله .. ما حيلتي الا ان أعين هؤلاء الذين يصنعون مستقبلنا المشرق ، وينسجون من حلكة الواقع فجر الغد المنتصر .. أقول ما حيلتي أنا العاجز عن القتال ، الا أن أعينهم على فهم التاريخ .. أجاهد معهم بقلمي .. أعرفهم بأن أجدادهم قاتلوا وانتصروا .. لأنهم آمنوا ...

« وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ...

اللهم فاغفر لي ضعفي وعجزتي ، ويسر لي من القراء من اذا انتفع عمل ،
ومن اذا وجد خطأ نبه اليه .. واغفر لي ما أكون قد نسيت أو تأولت
فأخطأت .

محمد جادل كشك

بيروت

رمضان ١٣٩١

اكتوبر ١٩٧١

مدخل

المدرسة الاستعمارية في تفسيرها للتاريخ ، تجعل من الحملة الفرنسية ، بداية تاريخنا القومي .. بداية تحررنا من الاستعمار التركي وخروجنا من القرون الوسطى .

ولكن الحملة الفرنسية باتفاق جميع المؤرخين هي بداية غزو الامبريالية الغربية الحديثة للشرق .. فكيف يمكن ان تصبح الامبريالية داعية تحرر ، وأداة التقدم والانعقاد ؟

ولمعالجة هذا التناقض تتقدم المدرسة الاستعمارية بثلاثة مزاعم :

الاول : هو عزل الحملة الفرنسية عن المجرى العام لحركة التاريخ ، فهي ظاهرة منعزلة عن تاريخ الاستعمار الفرنسي ، وعن تاريخ العلاقات الغربية بالشرق الاسلامي .

فالحملة الفرنسية — بموجب هذا الزعم — ظاهرة مرتبطة بالثورة الفرنسية ، وليس بالاستعمارية الفرنسية ، فالثورة الفرنسية عبّرت عن نفسها في «نابليون» الذي راح يبذر مبادئها حيثما جرت خيوله .. ومن ثم فجيش الاحتلال الفرنسي .. ليس في اوروبا وحدها ، بل وأيضاً في الشرق ، لم يكن جيشاً استعمارياً تقليدياً .. بل كان جيشاً ثورياً ، كان جيش تحرير ، التعاون معه هو تعاون

مع الثورة، او انتماء لها، هو تعاون مع اتجاه العصر، وركوب لقاطرة التاريخ.. وبالتالي فرفض الوجود الفرنسي، او مقاومة هذا الوجود، هو موقف رجعي، ورفض للتحرر والتقدم وتشبث بالقرون الوسطى .

هذا التفسير لم يكن مطروحاً على هذا النحو في عهد سيطرة الامبريالية ، بل هو تفسير حديث متأثر بالأفكار الماركسية ، وبالذات « بالمفهوم الأممي » كما فسّرتة وروّجته واستغلته الدولة السوفيتية . فقد دار النقاش طويلاً حول موقف الشيوعي ، من الجيش السوفيتي .. يوم كان هذا الجيش يعتبر طليعة الثورة البروليتارية العالمية ، الذي تتكوّن كتابه من الشيوعيين في كل بلد .. ومن ثم فواجب هؤلاء الشيوعيين هو الانضباط خلف القيادة .. ولأن المفهوم الشيوعي ينفي الامكانية —ولو النظرية— لوقوع اي تناقض بين المصالح البروليتارية ، فلا مجال للحديث عن خيانة المصالح الوطنية ، او تغليب المصلحة الروسية !

هذا المفهوم الذي أجاد بناء الدولة السوفيتية توظيفه لتحقيق مهمتهم .. لم يعيش طويلاً إذ سرعان ما تمزق بفعل نيران التناقضات القومية ، وتعارض المصالح ووقوع الانشقاق العالمي في الحركة الشيوعية ، واتفاق الجميع على وجود مصالح وطنية، لا يجوز التضحية بها باسم «الأممية» ، بل اعتبار الأممية الحقة هي الاعتراف بتعدد وتناقض الخصائص والمصالح القومية ! وانه ما ان قامت علاقة بين دولتين شيوعيتين ، حتى أثبت قانون الاستقلال بين الأمم ، أنه ما زال فعالاً .. وأن علاقة استعمارية تقوم حتماً بين الدولة الشيوعية الكبرى ، والدولة الصغرى ، شيوعية كانت او رأسمالية .. ومن ثم يهبط شيوعيو الدولة الصغرى الى مرتبة العملاء للدولة الشيوعية الكبرى .

إلا أن البعض يصر، ليس فقط على صحة قانون الأممية الماركسي — الذي ينكره على الماركسيين في نفس الوقت ! — بل ويريد ان يجعله بأثر رجعي بحيث يشمل الثورة البورجوازية ! وبما ان الثورة الفرنسية هي طليعة الثورة

البورجوازية العالمية (الماركسيون عادة لا يعترفون لثورة كرومويل بدور عالمي) .. فلا شك ان المتعاونين مع جيوش الثورة الفرنسية ، هم طلائع حركة التطور في مجتمهم ، وهم قد تعاونوا مع المحتل الفرنسي في القرن التاسع عشر بنفس المفاهيم والدوافع التي حركت الشيوعي البولندي او المجري للتعاون مع الجيش الاحمر ، الذي كان يحتل بلادهما ، «محرراً» لها ، او «يحررها» محتلاً لها !

إلا أن هذا الزعم تواجهه حقيقتان .. الاولى: هي ان الجميع يتفقون اليوم على الطابع الاستعماري للثورة البورجوازية ، وأن دورها داخل بلادها يختلف عن دورها - وإن يكن مكملاً له - الاستعماري خارج وطنها .. الحقيقة الثانية : هي ان الحملة الفرنسية لم تكن ظاهرة منفصلة عن التاريخ السياسي الاستعماري الفرنسي .

ذلك ان فرنسا ما قبل الثورة ، كانت تخطط باهتمام بالغ لغزو مصر ، وقد قام الملكيون الفرنسيون بدراسات واتصالات ، وزرعوا جواسيس وأعواناً . واستعان نابليون بذلك كله في إنجاز مهمته « الثورية » .. ومن ثم فليس من الحقيقة ، ولا من العدل والانصاف أن يستأثر نابليون او تخصص الثورة الفرنسية « بشرف » الرسالة الحضارية التي تمثلت في استعمار مصر ، بل لا بد لنا أن نشرك في الشرف حتى انطوانيت والويسيين .

يشير « كرسطوفر هيرولد » (*) الى الرواج الذي حظيت به الترجمة الانجليزية لكتاب البارون « دتوت » المسمى « مذكرات عن الترك والتتار » الذي راج بين الامريكيين في نيويورك عام ١٧٨٩ . ويستشهد بذلك على ان « الاهتمام بأحوال الدولة العثمانية المفككة الأوصال قد انتشر واستقر في جميع أرجاء العالم في اواخر القرن الثامن عشر » (١) .

(*) ج . كرسطوفر هيرولد مؤلف كتاب « بونايرت في مصر » .

ويمكننا ان نستدل ايضاً على هذا الاهتمام من انتشار الغربيين في جيش وأجهزة هذه الدولة المفككة الأوصال ، حيث كانوا يبذلون جهودهم في زيادة تفككها .

والبارون « دتوت » هذا كان ضابطاً فرنسياً عمل مدة كمستشار عسكري للجيش التركي . وفي عهد لويس السادس عشر طالب « سان بريست » سفير فرنسا في الاستانة بفتح مصر ، وعلى أثر إلحاحه ارسلت فرنسا البارون دتوت الى مصر لدراسة ثغورها ومواقعها . ووصفت مهمته بأنها « مهمة سرية لشرقي البحر المتوسط » . وكانت مهمته الحقيقية « استطلاع إمكانية الاستيلاء على مصر وإحالتها الى مستعمرة فرنسية ، لذلك أبحر الى الاسكندرية في صحبة العالم الطبيعي « سونيني » (فليس نابليون هو أول من اصطحب العلماء) على ظهر الفرقاطة « اطلانط » وواصل رحلته الى رشيد في فلوكة بعث بها اليه شيخ البلد ابراهيم بك ، وانطلقت به صعداً في النيل الى القاهرة بكل مظاهر الأبهة الشرقية ، وهنالك كانت الفوضى الضاربة أطناها تنتظره .

وبدأ « دتوت » مهمته ، فعهد الى فرنسي يدعى « لالون » بمهمة التجسس على السويس وساحل الدلتا . وقام « لالون » بمهمته خير قيام .. وعلى أساس مشروعه كتب « دتوت » تقريره لوزير البحرية الفرنسية . وأكد « دتوت » ان الاستيلاء على مصر لن يكون إلا « احتلالاً سلبياً لبلد أعزل » وأنه يرى إذاعة منشور يُطمئن الاهالي الى ان الفرنسيين قدموا بوصفهم أصدقاء وحلفاء للسلطان ومحربين لهم من ربة المالك » (٢) .

ونسجل هنا ملاحظتين :

● ان « لالون » وهو يقوم بمهمته التجسسية قد استعان — بدون شك — بعملاء محليين ، فهل نضم هؤلاء الى رواد القومية ، كما يخلع البعض هذه الصفة على المتعاونين مع الحملة الفرنسية بقيادة نابليون؟! أم نصنفهم حيث وضعوا انفسهم، مجرد جواسيس خونة لبلادهم.. وهل لأن مصر كانت مرتبطة شكلياً

بالسلطان .. يعيهم ذلك من الولا لها ، ويبرر اطلاعهم العدو المتربص على عورات وطنهم ؟

واذا سلمنا بعمالة هؤلاء هل تتغير صفتهم بتغير صفة الغازي . أي هل ان سقوط الملكية في فرنسا ، وتحولها الى النظام « الجمهوري » .. وقيام نظام « ثوري » في باريس ، يغير صفة العملاء في السويس ، ويحولهم هم او ورثتهم الى « ثوريين » اصحاب قضية ؟

● النقطة الاخرى التي تستوقفنا في فقرة «دتوت» هي نصيحته بإصدار منشور « يطمئن الاهالي الى ان الفرنسيين قدموا بوصفهم اصدقاء وحلفاء للسلطان ومحربين لهم من ربة المالك » .

ان اهمية هذه الفقرة المكتوبة من « داسوس » (*) ملك الفرنسيس ، هي فضحها لكل محاولة للربط بين مبادئ الثورة الفرنسية ، ومنشور نابليون أو الزعم بأن له اهمية خاصة ، فالخط العام للمنشور وضع في العهد الملكي ، وقبل طباعته بعشرين عاماً .. وضعه جاسوس للعهد الملكي .. واذا كان التقرير « ظل في وزارة الخارجية الفرنسية يتراكم عليه الغبار عشرين عاماً » (٣) . حتى جاء نابليون بعد الثورة الفرنسية ينفذ عنه الغبار ويستفيد منه وينفذه بغزو مصر .. ولا غرابة في ذلك ، فحتى الثورة الروسية نفذت الغبار عن تقارير القياصرة ، ووضعت بعضها موضع التنفيذ .. بل ها هي الصين الشيوعية ذاتها تنفض الغبار عن ملفات وتقارير « ابناء السماء » وتخرج من الخزائن الامبراطورية خريطة الصين القديمة .. ان الثورة لا تغير مصالح الدول ، بل على العكس ، هي في الغالب ، تعطي دفعة قوة جديدة لتحقيق هذه المصالح . ان النظام القديم ينهار عندما يعجز عن تحقيق مصالح الدولة . ولكن ما من ثورة حتى الآن (ثورة تنبع من المجتمع وليست مؤامرة مفروضة

(*) جاسوس بلغة العصر . ولعلها الاقرب الى الصحة لأنه مدسوس .

عليه من الخارج) قد تنكرت لمصالح الدولة . لذلك كانت الثورة البورجوازية الفرنسية هي استمرار للمصالح الفرنسية ، التي أصبح النظام الملكي عاجزاً عن تحقيقها .. كانت مصالح فرنسا تحتل مكان الصدارة بين المصالح الغربية في مصر قبيل الحملة الفرنسية ، كان لها قنصل عام في القاهرة ، وقنصلتان في الاسكندرية ورشيد .

« والتجار الفرنسيون الذين كانوا في القاهرة منذ العهد الملكي ، كانوا أول المرشحين باستيلاء فرنسا الثورة على مصر » (٤) .

ويقول « هيرولد » ان سيلاً من المذكرات عن المسألة الشرقية ظل يغير وزارة الخارجية الفرنسية طوال عشرين عاماً (١٧٧٠ - ١٧٩٠) : اما « عن مصر فان جميع المذكرات تقريباً أيدت الاستيلاء عليها » (٥) .

وتاليران العاقل الوحيد ، وسط منشدي المارسييليز ، يؤكد ان الاستيلاء على مصر هو جزء من سياسة « الدولة الفرنسية » . وليس ظاهرة مرتبطة بالثورة .. بل من سياسة الدولة المتطلعة الى السيطرة على التجارة ولا شيء اكثر من ذلك . فهو يكتب بعد فتح مصر الى ممثل فرنسا في الاستانة يقول له : « ان جميع تجارة البحر المتوسط يجب أن تنتقل الى ايدي الفرنسيين . تلك هي الرغبة الخفية لحكومة الادارة ، ثم انها ستكون النتيجة المحتومة لمركزنا في ذلك البحر . ومصر التي كانت فرنسا تتمنى دائماً الاستيلاء عليها ، هي بالضرورة من نصيب الجمهورية . ومن حسن الحظ ان أتاح لنا موقف الأمراء المماليك ، الذي غلبت عليه الوقاحة والوحشية باستمرار ، وعجز الباب العالي عن الانتصاف لنا منهم ، أن ندخل جيشنا في مصر . وأن نثبت أقدامنا فيها دون ان نعرض انفسنا لتهمتي الاغتصاب والجشع . ان الادارة مصممة على الاحتفاظ بمركزها في مصر بكل الوسائل الممكنة » (٦) .

وكتب الكونت « جوفيه » : ان مصر تقع على عتبة دارنا .. ولم تعد ملكاً للأتراك . فالباشا صفر ، ومصر ليست ملكاً لأحد » (٧) .

من هنا نرى ضعف حجة الذين يحاولون إعطاء الحملة الفرنسية طابعاً خاصاً بسبب من صلتها بالثورة الفرنسية كما ان التثبيت بهذا الطابع الخاص، لا يخدم الهدف الذي تروج له المدرسة الاستعمارية ، وهو تبرير الاستعمار الغربي بصفة عامة ، والدعوة الى الانفتاح للحضارة الغربية ، وقبول الارتباط بها باعتبار ان ذلك الارتباط هو الطريق الوحيد للتقدم والعيش في «مستوى العصر» .. لذلك سرعان ما ينتقل دعاة الحضارة الغربية الى الزعم الثاني .

وهو . تعميم الطابع التحريري والتقدمي ليشمل الغزو الغربي كله .. فيصبح الغزو الاوروبي للشرق عامل خير ، وعنصر تقدم محتوم .. حتى ولو لم يكن مرغوباً .. اما الآلام التي صاحبته فهي آلام التغيير التي لا سبيل الى تفادياها ، إلا بمعاناتها ! ولا أمل في التقدم دون هذه المعاناة !

وهكذا تتطور النظرة الى الحملة الفرنسية ، من اعتبارها ظاهرة خاصة ، او حادثاً تاريخياً نادراً .. الى اعتبار الغزو الاوروبي كله ، ابتداء من ابادة سكان العالم الجديد الى مذابح « ليوبولد » في الكونغو .. تطوراً تقدمياً لصالح « الحضارة » التي هي في مفهومهم كل لا يتجزأ .. هذه الحضارة التي صنعتها الانسانية بشقيها : الشق المعذب والشق المعذب .. الشق القاتل والشق المقتول .. فالقاتل كان يحضر الجنس البشري من خلال ابادة الاجزاء المتخلفة وصنع الحضارة على انقاضها .. والمقتول ساهم في الحضارة من خلال ابادته . ولا شك أن طليعة المقتولين التي أعانت القاتل في ابادة شعبها المتخلف واحتلال وطنها .. قد لعبت دوراً حاسماً وإيجابياً في « البناء الحضاري » !

انهم يفسرون علاقة الغرب بالشرق على ضوء النموذج الاميركي .. فهناك كانت ابادة الهنود الحمر هي الثمن الذي دفعه المتخلفون لكي تقوم على انقاضهم الحضارة الاميركية بكل المنجزات التي حققتها للانسانية وللتقدم البشري . ولا يستطيع مؤرخ غربي ان يقول الآن: ليت الهنود الحمر لم يبادوا .. ولم تقم الحضارة الاميركية .

وفي حالتنا نحن ، ولو ان الغزو لم يكن يحتم الابادة الشاملة ، كما حدث في حالة الهنود الحمر ، إلا أنه ما من دليل يثبت ان شعوبنا كانت قد وصلت الى حالة « الهندية - الحمراء » بمعنى انه كان يستحيل علينا أن نلحق بحضارة العصر .. (هذا اذا افترضنا ان الاختلاط السلمي بين « الهنود الحمر » والعالم القديم ، لم يكن ليفضي الى تطور مجتمعمهم وتمثلهم للحضارة الحديثة . فالحق ان « الهنود الحمر » لم تتح لهم فرصة امتحان قدراتهم الحضارية إذ جرت ابادتهم فور وطوال احتكاكهم بالحضارة الأكثر تفوقاً) .

هذا الزعم بأبديّة تخلفنا ، واستحالة تحلصنا من هذا التخلف إلا بقبول السيطرة الغربية والخضوع لها ، والتلمذ على يد المحتلين بنفس راضية .. مناقشة هذا الزعم هو موضوع الكتاب بالطبع.. لذلك ننتقل الى الزعم الثالث:

وهو القول بأن مصر (والوطن العربي بصفة عامة) كان مستعمرة تركية ، ومن ثم فكل الذي حدث هو استبدال استعمار متقدم باستعمار متخلف .. فمن الناحية الوطنية لم يخسر الوطن شيئاً ، ومن الناحية الحضارية استفاد الكثير!

والوطنيون بموجب هذا التفسير ، كانوا منقسمين الى فريقين : متعاونين مع الاتراك بدوافع دينية او مصلحةية .. ومتعاونين مع الغرب بدوافع دينية وقومية ومصلحةية .. تقدمية .. نزعات استقلالية او انفصالية ضد السيطرة التركية .. فان جاز ان نسمي المتعاونين مع الغرب عملاء .. تحتم ان نسمي كذلك المتعاونين مع الاتراك .. او بمعنى أصح الراضين للتعاون مع المحتل الغربي ، تحتم أن نخلع عليهم صفة عملاء الاستعمار التركي !

هذا الزعم اذن ، يقوم على افتراض ان مصر كانت مستعمرة لتركيا ، ومن ثم فانها كانت تنتقل من مستعمر الى مستعمر .. فما من موقف وطني في مقاومة الانتقال كما أنه لا موقف « خياني » في العمل لتحقيق هذا الانتقال او الاستفادة منه .

ولنبداً بمناقشة هذا الزعم : هل كانت مصر حقاً مستعمرة تركية ؟

الفصل الأول

قبل ان يختل الناموس

هل كانت مصر مستعمرة تركية ؟

لا شك ان البعد التاريخي الذي يفصل بيننا وبين عصر الحملة الفرنسية ، ثم الظروف الخاصة التي تحيط بتاريخ الاتراك في الشام - والجزيرة الى حد ما - قبيل زوال دولتهم ، تتيح لمثل هذا التصور ، عن العلاقة الاستعمارية بين تركيا والعرب ، أن يوجد في عقول الدارسين للتاريخ .. خاصة وان هذا التاريخ قد 'كتب في ظل السيطرة الغربية .

وعندما يقول « محمد كريم » لرسول « الاميرال نلسن » : « هذه بلاد السلطان » فان مثل هذه العبارة ترنّ في أذن العربي المعاصر وكأنها اعتراف بالاستعمار التركي .. وأن « محمد كريم » رفض الحماية البريطانية وقاوم الاستعمار الفرنسي ، لشدة تمسكه بالاستعمار التركي !

واذا كان جهلاً علمياً أن نصف السلطة العثمانية بالاستعمار ، لأن الاستعمار هو حالة معينة من التطور الاقتصادي لم تصل اليها الدولة العثمانية (*)

(*) من المدهش ان يرد بهذا القول « جاك بيرك » على لويس عوض عندما تحدث الاخير عن الاستعمار العثماني ! فرد جاك بيرك : « انا اعتبر ان الامبريالية معاصرة لظهور رأس المال وبدايتها الاولى كانت في عصر نابليون اما الاتراك العثمانيون فليسوا امبرياليين » نشرت المحاوره في الكاتب عدد (اغسطس) ١٩٦٥ .

أبدأ (ولا حتى في فترة الانتعاش التي حاولت ان تمارس فيها سيطرة حقيقية على ما بقي تحت سيطرتها من الدول العربية في اواخر عهد عبد الحميد) . بل لعل بعض الاسلاميين يعتصر قلبهم الحزن لعجز الدولة العثمانية عن بلوغ هذه المرحلة ، ويعتقدون انها لو استطاعت حقاً ان تتحول الى قوة استعمارية لكانت قد احتلت مكانها في نادي الكبار ، ولحال ذلك دون تمزيق اوصالها.. ولكانت أمام المسلمين فرصة بناء دولة عصرية كبرى . ولكنه أسف في غير محله ، فلا الاستعمار ممكن في دولة اسلامية ، ولا الأتراك كانوا قادرين على دخول عصر الامبريالية كإمبرياليين !

وسواء قبلنا تفسير المدرسة الاسلامية الذي ينفي امكانية قيام علاقة استعمارية بين دولتين اسلاميتين .. او داخل المتحد الاسلامي .. او اكتفينا بالتفسير « العلمي » الشائع للتاريخ الذي لا يقبل خلع صفة استعمارية على دولة لم تحقق ثورتها الصناعية ، ولا استطاعت ان تبدأ مسيرتها البورجوازية ، ولا كانت تجارتها تشكل نسبة يعتد بها في التجارة المصرية ، بل كانت تستورد من مصر اكثر مما تصدر لها.. وصادراتها لمصر خامات.. وصادرات مصر لها سلع مصنعة (نسبياً) . واستعانت حضارتها بالفنيين المصريين الذين اصطحبهم جيشها بالقوة من القاهرة الى اسطنبول .. سواء قبلنا هذا المفهوم أو ذاك يستحيل علينا وصف علاقة مصر وتركيا بعلاقة المستعمرة بالدولة الاستعمارية.. فلا رؤوس اموال تركية كانت مستثمرة في مصر ولا صناعات تركية كانت تصدر منتجاتها الى مصر ، ولا خامات مصرية كانت تصدر الى تركيا ، بحكم العلاقات السياسية. ولا علاقة دولة متقدمة بدولة متخلفة تقضي الى استغلال الأولى للثانية ، دون حاجة الى اخضاعها بجيش احتلال ، ولا الانتقاص من شكليات الاستقلال السياسي.. فاذا ما نحينا هذا الشكل من الاستعمار المتقدم الذي لم تصل اليه الدولة العثمانية، لا نجد حتى الصورة التقليدية لعلاقة التبعية، فلا جيش احتلال تركي مقيم في البلاد ، بل سنرى أن وصول حملة تركية الى

مصر كان يعني الحرب ، ويتحتم على هذه الحملة ان تشق طريقها عنوة الى القاهرة وتنتزعها بالقوة من المماليك .

اما العلاقة الرسمية الوحيدة التي كانت تربط مصر بتركيا ، فهي الخطبة للسلطان ، وحق السلطان في تعيين الباشا او الوالي ثم « الميري » أو الجزية . فهل كانت هذه المظاهر تعني أن مصر تابعة لتركيا ، وأنها كانت تخضع وتدار لحساب الأتراك المستعمرين في الآستانة ؟!

لقد ظل الدعاء للخليفة العباسي على منابر القاهرة الى يوم وصول السلطان سليم ! وظل الدعاء للسلطان العثماني الى الحرب العالمية الاولى ، وما من مؤرخ جاد يأخذ بهذا الدعاء غير المستجاب كظهر من مظاهر التبعية .

أما الباشا فكان يعينه السلطان في اسطنبول . ويحضر هذا الباشا الوالي ، الى مصر ، في موكب واحتفالات وطقوس تجيد تمثيلها البيروقراطية المصرية منذ تتويج اول فرعون . ومهمة الباشا هي أن يبقى في مصر أطول مدة ممكنة ، محارباً ضد مؤامرات البلاط في اسلامبول او الآستانة ، وضد قرار العزل المتوقع ، بل المحتم صدوره من المماليك . فلم يكن ثمة فعل اسهل من ان يجتمع الامراء فيقترح احدهم : « قوموا بنا نعزل الباشا » (*) !

ويلخص لنا « الرافي » الحالة التي وصل اليها وضع الباشا الممثل للسلطان ورمز النفوذ العثماني بما لا يترك مجالاً للحديث عن استعمار عثماني ، أو سيطرة عثمانية على مقادير مصر :

« وعظم نفوذ البكوات والمماليك واسترجعوا مع الزمن سلطة الحكم التي كانت للسلطين البحرية والشراكة . وصار لرئيس المماليك الذي يختارونه زعيماً لهم ويلقبونه « شيخ البلد » ، النفوذ الذي لا يعارض والكلمة التي

(*) قالها عثمان بيك في عزل سليمان باشا ابن العظم .

لا تردّ ، وصارت « مشيخة البلد » ، بمثابة امارة مصر ، وعبث المالك بالولاية وأخذوا يعزلون من لا يرضون عنه . فاذا اجتمعوا على عزله انفذوا اليه رسولا اسمه « اوده باشى » (اسمه عند العامة ابو طبق) - من ضباط الوجاقات - يذهب اليه حاملا قرار الديوان بعزله فيدخل الى مجلسه ويحييه بكل احترام ثم يثني طرف السجادة التي يجلس عليها الباشا ويعلن اليه قرار العزل بقوله : « انزل يا باشا » فتكون هذه الكلمة بمثابة أمر الخلع . وينزل الباشا من القلعة ويصبح كأحد الأفراد لا حول له ولا طول . وصارت القلعة في خلال القرن الثامن عشر بمثابة السجن للباشاوات الذين كانت تعيينهم تركيا ولاة لمصر .. وأصبح الديوان مؤلفا من الأربعة والعشرين بيكاً الذين كانوا زعماء المالك ، وعبث المالك ايضا بالجزية فكانوا لا يدفعون منها إلا ما يروق لهم دفعه ، ويقتطعون منها ما يشاءون بحجة الانفاق على مصالح البلد .

وقال الرحالة فانسليب يصف ما شاهده في مصر سنة ١٦٧٣ من استئثار المالك بالحكم : « ان كلمة البكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا يخالف لهم امراً ، وكانوا يملكون عزله » .

وقال المستشرق مارسيل : « انحصر تاريخ مصر في منتصف القرن السابع عشر الى آخره في تعاقب الباشاوات على ولايتها فتولاها ٢٢ والياً لم يكن لهم شأن يذكر في حكومتها » (١) .

والباشا هو الوالى الذي يعينه السلطان العثماني لحكم مصر باعتبارها احدى ولايات الدولة العثمانية .. ومن هذه الصورة التي يقدمها مؤرخون عرب وأجانب ، نجد ان الجهل وحده ، او الجهل وسوء النية معاً خلف القول « باستعمار تركي » او ان مصر كانت مستعمرة لتركيا .. وان مشكلتها كانت : « التحرر الوطني من حكم الأتراك » .

لنتخيل وضعاً يستطيع فيه البكوات المصريون او اي قوة مقيمة في مصر ، غير انجليزية ، تستطيع ان تجتمع وتقرر عزل المندوب السامي البريطاني ،

ثم لا يكلفها ذلك إلا ارسال رجل هزلي الثياب ، هزلي التسمية ، الى قصر الدوارة فيقتحم غرفة المندوب السامي ، ويحييه بكل احترام ويطوي السجادة الفاخرة التي تغطي غرفة مكتبه ويقول بكل هدوء وبرود: « انزل يا لورد » ! فاذا باللورد « كرومر » ، أو « ماينزلامبسون » .. أو حتى « تريفيليان » مجرداً من كل اختصاص ، بل ومدعوراً على حياته يتربح اللحظة التي يُسمح له فيها بركوب الباخرة الى بريطانيا .. وبكل سماحة صدر ، أو صفاقة ، يعين ، الباب العالي في لندن ، مندوباً آخر يأتي الى مصر ينتظر مصيره على يد المالك ، ذلك المصير الذي يقول « مارسيل » انه « لم يكن يخرج منه إلا مسجوناً ، او مطروداً او منفيّاً او مقتولاً » (٢) ... هل يمكن عندئذ أن نتحدث عن استعمار بريطاني لمصر؟! ان حكومة بريطانيا لم تكن تعين والياً على مصر ، ولكن ممثلها لم يكن سفيراً بالمعنى المعروف.. لأن مصر لم تكن تملك طرده او رفضه .. ولأنه كان فعلاً يحكم مصر .. أما الباشا العثماني ، فلم يكن يملك في مصر ولا حتى البساط الذي يجلس عليه ، وبكوات مصر يملكون اخراجه في اي لحظة شاءوا .

وبعض الباشاوات حاول ان يستخدم ذكاه في ضرب المالك ببعضهم لكي تطول مدة ولايته .. ونجح احدهم فعلاً في قطع رأس « ايواظ بيك » وسلخ هذه الرأس . ولكن سرعان ما انقلب عليه تدبيره ، واحتل أتباع « ايواظ بيك » جبل الجيوشي .. وركبوا مدافع على محل الباشا ومدافع على قلعة المستحفظان وأحاطوا بالقلعة من اسفل وضربوا ستة مدافع على الباشا ، ورموا بنادق ، فنصب الباشا بيرقاً ابيض يطلب الأمان، وفرّ من كان داخل القلعة من العسكر ، فبعضهم نزل بالحبال من السور وبعضهم خرج من باب المطبخ ، فعند ذلك هجمت العساكر الخارجية على الباب ودخلوا الديوان ، فأرسل الباشا القاضي ونقيب الأشراف يأخذان له أماناً من الصناجق والعسكر فتلقوهما وأكرمومها وسألومها عن قصدهما (بكل براءة !) فقالا لهم ان الباشا يقرئكم السلام (وعليك السلام !) ويقول لكم إنا كنا اغتدرنا بهؤلاء

الشياطين وقد فروا والمراد أن تعلمونا بمطوبكم فلا نخالفكم فقالوا لهم اعلموه ان الصناجق والأمرء والأغوات والعسكر قد اتفقوا على عزله وأن قانصوه بيك قائمقام ، وأما الباشا فانه ينزل ويسكن في المدينة الى أن نعرض الأمر على الدولة ويأتينا جوابهم . فأرسل القاضي نائبه الى الباشا يعرفه عن ذلك فأجابه بالطاعة واستأمنهم على نفسه وماله وأتباعه وركب من ساعته ونزل من باب الميدان وشق من الرميطة على الصليبة والعامة (الذي يبدو أن طباعهم لم تتغير كثيراً) قد اصطفت « يشافهونه بالسب واللعن الى ان دخل بيت علي اغا الخازندار بجوار المظفر .. وهجم العسكر ... الخ » (٣) .

كان ذلك في سنة ١١٢٣ والباشا كان اسمه خليل ولم يسمح له بالعودة الى استامبول إلا بعد ان « حاسبوه » !

وودعه الشيخ حسن الحجازي بقصيدة في مستواه (الباشا طبعاً) :

قد جاء مصر باشه	يامه ليست ملاح
ضرب مدافعاً بها	كذا رماح وصفاح

وقال ايضاً :

والباشا المعكوس قهراً أنزلوا من قلعة ولعنة قد زودوا (٤)

ولا يذكر الجبرتي بيتاً واحداً للشيخ « حسن » هذا يستنكر فيه ضرب المالك المدافع او الرمح واستخدام الصفاح ! ولكنه محقّ في اعتراضه على الباشا ، لأن سلوك الباشا هذا يشكل اخلاً بقانون العلاقات الذي يحكم المجتمع المصري ، فليس للباشا ان يتدخل في السلطة ، ولا ان يكون طرفاً في الصراع !

وعندما كان الوالي يتفق مع المالك المتغلبين ويسود الوئام بينه وبينهم كانت الدولة تتآمر على واليها ! كما تآمرت على « علي باشا » فان اهل الدولة

عينوا رجب باشا امير الحاج الشامي ورسوموا له عند حضوره الى مصر ان يقبض على علي باشا (الوالي !) ويقتله .

وقد نفذ « رجب باشا » المؤامرة بإحكام وقتل ممثل الدولة « وقطع رأسه ظملاً وسلخها وأرسلها الى الباب (العالي) ودفن علي باشا بمقام ابي جعفر الطحاوي بالقرافة ويعرف الى الآن قبره بعلي باشا المظلوم » (٥) .

وهذه التسمية تسجل مرة اخرى احتجاج العامة المصريين على إخلال الدولة العلية بقانون العلاقات بمصر .

ولإعادة الاحترام للناموس سرعان ما اتفق المالك علي « رجب باشا » فأمره بالنزول ، وأنزله الى بيت « مصطفى كتخدا » ، فاجتمعت عليه الاولاد الصغار تحت شباك المكان وصاروا يقولون :

باشا يا باشا يا عين القمله
من قال لك تعمل دي العمله
باشا يا باشا يا عين الصيره
من قال لك تدبّر دي التدبيره

« فضايق منهم فأرسل الى احد بيك الأعسر فنقله الى بيت ابراهيم جريجي الداودية واستلم اسماعيل بك ماله وخيوله وجماله وكتبوا عرض محضر كما ذكر وأرسلوه وبعد ايام وصل مرسوم بالأمان والرضا لاسماعيل بك وجماعته وولوا مصر محمد باشا النشائجي الذي عزله المالك وأنزله وأسكنوه في بيت ابن الدالي » (٦) .

« وسافر رجب باشا من حيث أتى (!) بعدما دفع المائة وعشرين كيساً التي اخذها من دار الضرب » (٧) .

تأمل تعبير الجبرتي « من حيث أتى » اي من الاستانة عاصمة الدولة العلية او الخلافة كما نطلق عليها اليوم !

وأراد « محمد باشا راغب » أن يدبر مؤامرة مع حسين بيك الخشاب « فحصل بينها محبة ومودة وحلف له أنه لا يخونه ثم أسر اليه أن حضرة السلطان يريد قطع بيت القطامشة والدمايطة فأجاب الى ذلك » .

ولكن التدبير لم ينجح ، فبعد قتل حفنة من المماليك بلغ الخبر بقية البكوات ، فاجتمعوا واستعدوا للهجوم على « حسين بيك الخشاب » ، وأرسلوا يطلبون فرماناً من الباشا بالركوب على بيت حسين بيك الخشاب (صديق الباشا !) الذي جمع عنده المفاصيد اعداءنا وقصده قطعنا فلما طلع كتخدا الجاويشية ومتفرقة باشا الى راغب باشا وطلبوا منه فرماناً بذلك فقال الباشا رجل نفذ أمر مولانا السلطان وخاطر بنفسه ولم ينكسر عليه مال ولا غلال ، كيف أعطيك فرماناً بقتله ، الصلح أحسن ما يكون ، فرجعوا وردّوا عليهم يجواب الباشا فأرسلوا له من كل بلك اثنين اختيارية بالعرضحال فان أبى فقولوا له ينزل ويولي قائمقام ونحن نعترف خلاصنا مع بعضنا فنزل بكامل اتباعه من قراميدان لما صار في الرميّة فأراد ان ينزل على شيخون الى بيت حسن بيك الخشاب يكرنك (*) معه فيه واذا بالعزب المرابطين في السلطان حسن ردوه بالنار فقتل آغا من اغواته فنزل على بيت آقبردي الى بيت ذي عرجان تجاه المظفر فأرسلوا له ابراهيم بيك بلفيه صحبة كتخدا الجاويشية خلع عليه قفطان القاءقامية ورجع الى بيته وأخذوا منه فرماناً (من القاءقام) يجير المدافع ... (٨) ، الخ .

« فلما تكامل المجلس أوقف طوائفه وماليكه بالأسلحة ثم قال لهم: تدرّون لأي شيء جمعتمكم؟ قالوا: لا . قال: تكونوا معي او اقتلكم جميعاً ، فلم يسعهم إلا أنهم قالوا له جميعاً : نحن معك على ما تريد ، فقال : أريد عزل الباشا ونزوله ، فقالوا : نحن معك على ما تختار ، ثم انهم كتبوا فتوى مضمونها

(*) يكرنك يعني يتحصن .

ما قولكم في نائب السلطان اراد الافساد في المملكة وتسليط البعض وتحريك
الفتن لأجل قتلهم وأخذ اموالهم فماذا يلزم في ذلك ، فكتب المشايخ بوجوب
إزالته وعزله قمعاً للفساد وحقناً للدماء ، فأخذ الفتوى منهم وقام فلما أصبح
صباح يوم الجمعة عاشر القعدة أرسل احمد بيك الأعسر الى الباشا يقول له :
أنت تنزل او تحارب ، فقال : بل انزل (!) وانظروا لي مكاناً انزل فيه
ونزل ذلك اليوم قبل الصلاة الى بيت محمد آغا الوالي بقوصون « (٩) .

والجبرتي في يومياته او تاريخه يؤرخ عام ١١٨٨ (١٧٠٦) بعبارة تكاد
تكون كليشيه :

« استهلت (السنة) ووالي مصر خليل باشا محجور عليه وليس له في
الولاية إلا الاسم والعلامة على الاوراق . والتصرف الكلي للأمير الكبير
محمد بيك ابو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه وإشراقاته والوقت في
هدوء وسكون وأمن والأحكام في الجملة مرضيه والأسعار رخيخه وفي الناس
بقية وستائر الحياء عليهم مرخيخه شعر :

ما الدهر في حال السكون بساكن ولكنه مستجمع لوثوب (*)
كان الناموس في احسن حالات تطبيقه .

ولنتأمل عدد الولاة الذين عزلها الشقيان ابراهيم ومراد منذ صعود
تجمعها :

« الباشا المتولى سنة ١١٩٢ (١٧٧٨) وهو المشهور بعبارة بليغة الدلالة على
وضع الدولة « الاستعمارية » في « مستعمراتها » ! وهي قوله عندما ابلغ بقرار
العزل : « وأنا أيش ذنبي ! » .

(*) لعل المؤرخين الجدد الذين يتكاثرون في مصر الآن بمعدل اكبر من معدل المواليد !
يكشفون لنا في هذا البيت صلة فكرية بين ماركس وهيجل والشيخ الجبرتي !

مرة اخرى نسترجع صورة السفير البريطاني ونتخيله يقول للبكوات الوفديين وهو يتسلم قراراً بالعزل : « وأنا أيش ذنبي؟! » (*).

« ركب الأمراء وطلعوا الى باب النيكجيرية والعزب وأرسلوا الى الباشا كتخدا الجاوشية وآغات المتفرقة والترجمان وكان حواله وبعض الاختيارية يأمرونه بالنزول الى بيت حسن بيك الجداوي وهو بيت الداودية . فلما قالوا له ذلك قال : وأي شيء ذنبي حتى أعزل ؟ فرجعوا وأخبروهم بمقالة الباشا فأمروا اجنادهم بالركوب فطلعوا الى حوش الديوان واجتمعوا به حتى امتلأ منهم فارتعب الباشا منهم فركب من ساعته ونزل من القلعة الى بيت الداودية وأحضروا الجمال وعزلوا متاعه في ذلك اليوم فكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة اشهر » (١٠) .

١١٩٤ (١٧٩٠) « عزلوا اسماعيل باشا عن ثمانية اشهر تنقص ثلاثة أيام » .

وقصة عزله ولو انها واحدة من مئات .. إلا أنها تنفرد بلحمة طريفة .. فاسماعيل باشا الذي عزله مراد كان « اصله رئيس الكتّاب باسلامبول من ارباب الاقلام وكان مراد بيك هذا اصله من مماليكه فباعه لبعض التجار في معارضة وحضر الى مصر ولم يزل حتى صار اميرها وحضر سيده هذا في ايام امارته وهو الذي عزله عن ولايته ولكنه كان يتأدب معه ويهابه كثيراً ويذكر سيادته عليه (!) وكان هذا الباشا اعوج العنق للغاية ... وكان عنده أصناف الطيور المليحة الصوت يطرب لأصواتهم اللطيفة وأنغامهم العذبة » فلما « اجتمع الأمراء وأرسلوا الى الباشا ارباب العكاكيز وأمروه بالنزول من القلعة معزولاً فركب في الحال ونزل الى مصر العتيقة ونقلوا عزاله ومتاعه

(*) يمكن وقوع حالة مماثلة اذا ما فهمنا الباشا كسفير لتركيا في مصر وليس والياً ، وهو يتسلم قراراً بابعاده من دولة مستقلة ذات سيادة كاملة .

في ذلك اليوم ... ولما أنزلوه على هذه الصورة انتهب الخدم تلك الطيور والأقفاص وصاروا يبيعونها في أسواق المدينة على الناس « وحضر من الديار الرومية (اي من عاصمة الدولة) أميرأخور وعلى يده تقرير لاسماعيل باشا على السنة الجديدة فوجده معزولاً (ولا السلطان داري !) وأنزلوه في بيت بسويقة العزى « (١١) .

هذه قصة مغامرات رومانسية .. الملوك باعه سيده ، ثم ذهب كل في طريقه .. أصبح السيد والياً على مصر وهو أحد المناصب الهامة في الدولة ، وأصبح الملوك المباع سيد الممالك في مصر .. ورغم كل الاحترام الذي كنه الملوك القديم لسيده ، فانه لم يتردد في خلعه ، ولا حالت مكانة السيد الجديدة باعتباره ممثل الدولة العلية ، دون خلعه ونهب طوره على يد أتباع عبده السابق !

أما الوالي التالي فعزله السلطان نفسه إذ استدعاه ليتولى الصدارة ، وقد أكرمه الممالك للغاية ، ربما لمنصبه الجديد . والدليل على هذا الاكرام يثبته الجبرتي : « لم يحاسبوه على شيء ونزل في غاية الاعزاز والاكرام » (١٢) . والذي بعده استبدله السلطان .

« وصل واحد آغا من الدولة ويديه مقرر للباشا على السنة الجديدة فطلب الباشا الأمراء لقراءته عليهم فلم يطلع منهم أحد وأهل ذلك مراد بيك ولم يلتفت اليه » (١٣) .

وبعد خمسة عشر يوماً من صدور فرمان الباب العالي او سلطان تركيا بتجديد ولاية الباشا : « أرسل مراد بيك الى الباشا وأمره بالنزول فأنزلوه الى القصر العيني معزولاً وتولى « مراد بيك » قائمقام وعلق الستور على بابه (!) فكانت ولاية هذا الباشا احد عشر شهراً سوى الخمسة اشهر التي اقامها بشفر الاسكندرية » (١٤) .

ولم يكن الممالك يرتاحون للعامة الذين يتصلون بالسلطان ، او « ملك

الروم « بلغة العصر .. فاذا ما خرق واحد من الاهالي الناموس واستطاع ان يحصل على مرسوم من السلطان كان بوسعه ان « يبله ويشرب ميته » - كما يقول المصريون - .

« فلما توجه السيد عبد الفتاح البكري الى ملك الروم فأكرمه ووجه له بعناية بعض الأعيان نقابة الأشراف (*) بمصر وحضر الى مصر وقرأ المرسوم الوارد بذلك وكاد ان يتم له الأمر فلم يمكن من ذلك بتقوية بعض الأمراء وحنقوا عليه حيث توجه من مصر الى بلاد الروم خفية ولم يأخذ منهم عرضاً وجعل له شيء معلوم من بيت النقابة وبقي ممنوعاً عنها « (١٥) .

فالسُلطان لم يكن يملك ولا حتى أن يعين نقيباً للأشراف . والوالي ، كما رأينا ، هو « طرطور » حقيقي .. مما يؤيد ما ذهب اليه « جوفيه » : « إن مصر لم تعد ملكاً للأتراك .. فالباشا صفر ، ومصر ليست ملكاً لأحد » (**). او كما يقول « هيرولد » : « ان مصر قد استقلت استقلالاً فعلياً ، شأنها في ذلك شأن الجزائر وتونس وطرابلس » .

لذلك لم يكن غريباً أن تفكر الدولة الفرنسية بالعمل المشترك مع تركيا لفتح مصر .. ففي عهد لويس الخامس عشر : « كان الدوق دي شوازل » كبير وزرائه من انصار فكرة احتلال فرنسا لمصر بالتراضي مع تركيا التي : « لم يتق لها في مصر سلطة فعلية في ذلك الحين » (١٦) . ويقول « مورهد » ان نابليون الذي كان يعرف حالة الدولة العثمانية ، ونبذ الممالك كل ولاء للقسطنطينية ، كان يرى من الطبيعي أن يذهب الى السلطان ، او يبعث اليه من يعرض عليه أن يستعيد الفرنسيون له ولايته الكبيرة التي سلبت منه (١٧) .

(*) نلاحظ ان عائلة البكري تستعين غالباً بقوة خارجية للحصول على نقابة الاشراف .

(**) في قاموس الاستعمار الغربي ، ان البلد الشرقي لا يمكن ان يكون ملكاً لأهله . فهو

اما مملوك لدولة كبرى او No man's land اي مباحاً ينتظر من يملكه !

بل كان على ثقة من أن « تركيا سترحب باستئصال شأفة المالك » (١٨). وفي وصايا « نابليون » التي تركها لكليبر : « ان تركيا لم تعد دولة ، بل مجموعة من الولايات المستقلة » . « ان الدولة العثمانية تنهار » (١٩) . ويقول مورهد : « وكان المالك من الوجهة النظرية البحتة - ما زالوا خاضعين للسلطان العثماني في القسطنطينية ، مرتبطين بأداء جزية سنوية اليه بمثابة منحة ، وبقبول والي عثمان يعينه الباب العالي ويوفده اليهم . والواقع انه كانت قد انقضت سنوات طويلة لم يدفع فيها المالك الجزية للسلطان . أما الوالي وقت وصول نابليون - وكان اسمه « ابو بكير باشا » فلم يكن اكثر من دمية او ألعوبة في يد المالك الثلاثة والعشرين من البكوات الذين كانت تتألف منهم حكومة مصر » (٢٠) .

هذا الاستقلال الفعلي بمصر ، والذي مارسه المالك منذ القرن السابع عشر ، لم يعدم من يحاول تحويله الى وضع رسمي ، بل وتوسيع دائرة استقلال مصر ، ومد حدودها على حساب الدولة العثمانية وسيادتها الوهمية .. ولنذكر دائماً انه منذ أواخر القرن الثامن عشر كان الخطر الأكبر هو الذي تمثله قوة مصر على الدولة العثمانية وليس العكس (*) .

(*) الحق انه يصعب جداً تسمية احد الافراد كأول من فكر في الاستقلال بمصر .. فما من حاكم قوي حكم مصر الا وفكر في الاستقلال بها ، وما من حاكم استقل بمصر الا وتطلع الى حدودها العربية .. حتى نابليون ! ففي مذكرات نابليون ما يكفي لنحبه شرف اكتشاف « القومية العربية » قبل ساطع الحصري على الأقل ! فهو يتوقع اذا ما استقلت مصر أن تستقل « الملكة العربية التي تتألف من امة تحالف الأمم غيرها مخالفة كلية بعقليتها وأوامها ولغتها وتاريخها ، وشملت مصر وبلاد العرب وشرقاً من بلاد افريقيا » . « تتمنى ولايات الدولة العثمانية من صميم فؤادها وقوع تغيير عظيم وتنتظر الرجل الذي يقع هذا التغيير على يديه » .

فالدور يبحث عن بطل منذ زمن بعيد او قل ان البطل يجد دائماً دوراً في انتظاره ! بل ان نابليون يتخطى حتى آفاق القوميين العرب المعاصرين ، ويسبق محاولات شريف مكة .. ان صحت الاتهامات التي تنسب له بأنه تطلع الى خلافة عربية ققبل قرن وربع قرن من محاولات الشريف حسين كتب بونايرت في مذكراته : « ان الاستانة لم تعرف الاسلام إلا بعد ثلاثة او اربعة قرون من وفاة الرسول (حتى نابليون كان ضعيفاً في التاريخ) وأنه لو بعث الرسول من جديد فلن يختار الآستانة لرسالته بل يختار القاهرة تلك المدينة المقدسة على ضفاف النيل ، وان الرئيس الديني للاسلام هو صديقنا شريف مكة » (٢١) .

وقبيل الحملة الفرنسية ، وقبل « بعثها » للقومية المصرية بتسعة وعشرين سنة (١٧٦٩) استقل علي بك الكبير بمصر وطرده الوالي وضم معظم الجزيرة العربية وسوريا حتى باعه نائبه وخلعه وقتله (على شكوك الجبرتي) وانفرد هو بحكم مصر .

وقامت تركيا بمحاولة لفتح مصر في عهد « مراد و ابراهيم » وجردت حملة على ولايتها .. واستطاعت أن تحتل مصر مدة خمس سنوات .. لتفشل .. وتعود مصر لحكم الشقيين مراد و ابراهيم ..

أما « الجزية » او « الميري » .. فقد تناقصت بعد استئثار المالك بحكم البلاد حتى انه في بعض السنين لا يكاد يبقى منها شيء يذكر . وانقطع فعلاً إرسال الخزانة في عهد علي بك الكبير ، وكان صافي ما يرسل سنوياً الى الاستانة ٣٦٤,٥٥٠ فرنك وسنرى ان كبير قد جمع من غرامة واحدة عشرة ملايين فرنك .

ثلاثمائة ألف فرنك هي كل ما كان يطمع فيه الباب العالي اذا ما صفت الريح ودانت له البلاد من دخل سنوي « مقداره ما بين ٣٥ الى اربعين مليون فرنك في السنة » (٢٢) .. أي أقل من واحد في المائة .. لذلك لم يكن عرض نابليون مغرباً للسلطان عندما عرض أن تكون علاقته بالبasha ، هي نفس علاقة المالك . وإن كان هو أصدق وعداً ، عندما عرض دفع الجزية .

وأول خاطر ذهب اليه تفكير المالك عندما بلغهم نبأ الغزو الفرنسي ، هو اتهام السلطان بتدبير هذا الغزو !! فواجهوا مندوبه الباشا ، أي الباشا ، باتهامهم هذا . ولا شك ان هذا الظن من المالك ومحاولة الباشا نفيه ، تعطينا صورة حقيقية لطبيعة العلاقة التي كانت تربط تركيا بمصر ، ويعطي عبارة « هذه بلاد السلطان » بعدها الحقيقي ، إذ أن السلطان لا يغزو بلاده اذا كانت « بلاده » حقاً !

قفور وصول انباء الغزو الفرنسي الى القاهرة ، عقد الديوان واجتمع البكوات والمشايخ والباشا التركي ، وفتح مراد بيك المناقشة بقوله : « ان الافرنج ما حضروا الى هذه البلاد إلا بإذن من الدولة العلية . ولا بدّ انت أيها الوزير عندك الخبر والعلم بذلك ولكن القدرة تساعدنا عليكم وعليهم » .

تحيل « علي ماهر » او « النحاس باشا » يعقد مجلس الوزراء ويستدعي اللورد « كليرن » عام ١٩٤٢ ويقول له : « ان الطليان او الالمان ما حضروا الى هذه البلاد إلا بإذن من الامبراطورية البريطانية وأنت أيها السفير عندك الخبر والعلم بذلك . ولكن القدرة تساعدنا عليكم وعليهم » !

اعتقد ان هذا الشك الذي ساور « مراد بيك » لا يترك مجالاً للبس حول طبيعة العلاقة بين مصر وتركيا . وتؤكد ما ذهب اليه كل المؤرخين من أن مصر كانت مستقلة ، في هذا الوقت ، استقلالاً فعلياً عن تركيا .

بل وعندما بدأ مراد بيك - قبل ذلك - يبني اسطولا ، ويصنع المدافع « اختلفت آراء الناس في ذلك ، فمن قائل ان ذلك خوفاً من خشداشينه وقائل من مخافة العثمانية كما تقدم في قضية حسن باشا » (٢٣) .

لم يكن للوجود العثماني من مظهر إلا الباشا الهزلي .. ومبلغ الجزية الذي قلما كان يدفع ، لذلك فإن احتمال وصول حملة عثمانية على مصر من جنود عثمانيين خلص ، او بعمونة أجنبية ، كان احتمالاً وارداً او متوقفاً من الجانب غيرالتركي وسرى ان الاتراك لم يعودوا الى مصر إلا كنتيجة للحملة الفرنسية ، ولو أنها كانت عودة مؤقتة إلا ان طبيعة المناقشات التي دارت في الديوان قد أكدت ان الباب العالي ، لم تكن له قوة مادية يحكم بها مصر ، وانها كانت من « املاكه » كفرضية قانونية ، وباعتبارها لم تصبح بعد من املاك الآخرين الذين كانوا يتسابقون على امتلاك العالم .

وقد نفى الباشا التركي هذا الاتهام قائلاً : « لا يصح منك هذا الكلام

أيها الأمير . ان الدولة العلية لا يمكن أن تسمح بمثل هذا الأمر على بلاد الاسلام فدعوكم من هذا الحديث والكلام ، وشدوا همتكم وصمموا بينكم ، وانهضوا نهضة الأبطال واستعدوا للحرب والقتال ، وقدموا ذواتكم للمغازاة وفوضوا الأمر لله « (٢٤) .

ولا شك ان التاريخ الآن في صف الباشا ، الذي نفى - رغم افتقاره للمعلومات المادية - إمكانية تأمر الدولة العلية مع الفرنجة على غزو بلاد الاسلام .. ولكن المناقشة توضح ان نابليون كان أحرص على تأكيد الولاء للدولة العلية من المهاليك ، وهو يدعو المصريين في نهاية منشوره الى الھتاف بصوت عال: «أدام الله جلاله السلطان» .. هذا المنشور الذي يصفه «مورھيد» بأنه من اعمال الرياء والخديعة .. الخ وأنه جاء تأكيداً حماسياً لمشاعر الصداقة والتحالف التي يكنها بونابرت للسلطان قاطعاً العهد على نفسه بأن تحقق الارياتان التركية والفرنسية جنباً الى جنب فوق كل قرية (٢٥) .

بل نستطيع أن نتصور طبيعة هذه الصلة التي كانت تربط بين الآستانة او الدولة العثمانية وبين « مستعمراتها » المفترضة : مصر والشام، من تلك المعاملة التي لقيها الجيش العثماني الذي جاء في أواخر عام ١٧٩٩ لتحرير مصر ، وكان لا بدّ له أن يمر عبر الشام التابع وقتها للدولة العثمانية والذي يعتبر ضمن املاك السلطان . ولكن « رفض الجزائر باشا التعاون مع الصدر الأعظم ، على أية صورة (فالباشا عدو لكل الدخلاء ، أتراكاً كانوا او فرنسيين) جعل الجيش في حالة يرثى لها، فكان الجنود يتضورون جوعاً ويموتون ظمأً » (٢٦) .

ولنا ان نفترض ان هذا الموقف « السلمي » من جانب الجزائر يعود الى ان جيش الصدر الاعظم كان مجرد عابر سبيل في اراضي الجزائر. لذلك اكتفى بحشه على سرعة العبور، بالجوع والعطش. أما لو كان في نية «الصدر الاعظم» البقاء في سوريا لكان للجزائر موقف آخر ، ولجرع الجيش العثماني وقائده من نفس الكأس التي جرّعها للدخلاء الفرنسيين .

ولم تكن هذه هي حالة مصر والشام وحدها ، بل سائر البلدان العربية ، ففي نفس الوقت الذي كان فيه نابليون يشن هجوماً وحشياً على عكا ويحتل من املاك السلطان الأرض الممتدة من أسوار عكا الى النوبة .. كان احد ولاة السلطان في اقليم آخر من امبراطوريته الوهمية يتلقى مكاتيب من : « طرف أمير العساكر الفرنسية محبنا بونا برته » بل ويقوم لمحبه هذا بدور مصلحة البريد فيفحص مكاتيب محبنا بونا برته ويوزعها كالاتي : « فما كان لنا منها فتأملناه وصار اليه الجواب نوصله اليه » . « وما كان منها معولاً في ارساله علينا الى نواحي الهند وابن حيدر وامام مسكت ووكيلكم الذي في الحما فجميعاً اصدرناها من طرفنا مع من نعمده الى أربابها وإن شاء الله عن قريب يأتيكم الجواب » .

أما ساعي البريد هذا فلم يكن إلا « الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة » والخطاب موجه الى « عين أعيانه وعمدة اخوانه برسليك مدبر أمور جمهور الفرنسية ممد بنيان السياسة بسداد همته الوفية » . مما يكشف أي قدر من التفات كان في دعاء أئمة المساجد للسلطان العثماني بوصفه حامي الحرمين ! وأي قدر من الصفاقة كان في حمل السلطان للقب !

وفي نفس الخطاب يطلب شريف مكة من الجيش الذي يحتل مصر ويفتح الشام ، أن ينظم معه حراسة قوافل البن .

« والمطلوب في حال وصول كتابنا اليكم إرسال عساكر من لديكم الى بندر السويس لأجل حفظ اموال الناس ويصلوا بالابنان الى مصر ويبيع التجار ويزول وقف الأسباب والباس . وتهتموا في رجوعهم كذلك قبل بأوان . كذلك تصحبوهم بالعسكر من طرفكم الوثيق ليكونوا محافظين لهم من شرور الطريق لأن هذه المرة ما ارسل اليكم هذا المقدار إلا تجرية واستخباراً من اعيان التجار وعند مشاهدة الاكرام والاحتفال بهم في كل حال يرسلون اليكم نفائس أموالهم ويهرعون بالجلب لطرفكم ويزول الريب عن قلوبهم ونرجو الله

بهمتنا تسليك الطرقات وتنجيع المطالب وتحصيل الميراث بأحسن مما كانت من الامان . وأعظم مما سبق في غامر الأزمان . ويكثر بحول الله الوارد اليكم من الاسباب الحجازية . وكذلك لنا بُن في المراكب فأمولنا منكم القاء النظر على خدامنا وبذل الهمة على ما هو من طرفنا . وأنتم كذلك لكم عندنا مزيد الاكرام في كل مرام ، (٢٧) .

يبدو ان نابليون ليس وحده الذي خابت آماله في مستقبل المنطقة تحت أسوار عكا .. كما يبدو واضحاً ان الدولة العثمانية كانت أبعد ما تكون عن شكل الدول المتعارف عليه ، فضلاً عن ان تمثل امبراطورية ، او وحدة ما قادرة على التحرك في اتجاه واحد .. ومها قيل عن نوع الرابطة التي تربط حكومات الاقاليم - العربية بالذات - بالسلطان ، فهي أبعد ما تكون عن صلة حاكم المستعمرة ، بالدولة الاستعمارية .

فلا مجال للحديث عن دعاة استقلال عن تركيا .. فصر لم تكن مستعمرة تركية ، ولا كانت سياستها تدار من تركيا ، ولا كان ارتباطها بتركيا يشكل أي قيد حقيقي على حركتها او إمكانيات تطورها .. ومن ثم فإن مشكلتها الوطنية بدأت مع الطلقة الاولى التي صوبت للشاطيء المصري من الاسطول الفرنسي . وأصبح كل من يقاوم الغزو الفرنسي في جانب التحرر الوطني ، في جانب مصر المستقلة .. أما الذين اختاروا الراية الفرنسية فكانوا يعملون ضد استقلال مصر .

نظرة على المجتمع المصري

كانت مصر ذلك الشريط الأخضر المحيط بالنيل والذي يفتح ذراعيه للبحر ، يعيش فوقها مجتمع يتكون من :

● المماليك .. وهم السلطة الحاكمة .

● الشيوخ .. قيادة العامة ، وهم من شتى أقطار العالم الاسلامي .

● التجار والأعيان ، ومسائير الناس من المصريين والمسلمين ، وبالذات العرب .

● عامة المدن .. وأهمهم بالطبع سكان القاهرة .

● الفلاحون .

● وعلى هامش الوادي الأخضر ، توجد الصحراء ، وبين الصحراء والوادي حرب لا تنقطع .. وفي الصحراء يعيش البدو ، أو العرب .. وهم في حرب دائمة مع الفلاحين .. أبناء الوادي ..

« فسألوه عن العرب .. فقالوا لهم الوادي في أمن وأمان بحمد الله لا
عرب ولا جرب ولا شر » .

ولكل جماعة حدودها المرسومة ، وكأي قانون ، لا بد أن يقع اختلال
مؤقت ، فتصطدم القوى ببعضها ليعود توازن القوى من جديد . فالقوة التي
تجاوزت حدها تصدها القوى الأخرى ، وتميدها الى مواقعها بالردع ، بعنف
يصل أحيانا الى التقاتل ، أو بالتهديد والمساومة .

ولنبداً بالماليك .

أصبحت السلطة حقاً مشروعاً للماليك بعد انهيار كل القوى المتصارعة في
المشرق العربي وعجزها عن مواجهة خطر الغزو الخارجي ، أو الإبادة الشاملة
التي كان يمثلها الغزو الصليبي ، ثم الأعصار التتري .. فعلى يد « شجرة الدر »
والذين قتلوها وخلفوها ، تم سحق محاولة « لويس التاسع » وطرده الصليبيين
من الشام ، ثم هزيمة التتار وانحسار موجتهم . واستحق الماليك — بذلك —
أن يتربعوا على قمة المجتمع ، وأن تكون لهم السلطة ، وأن يشكلوا وحدهم
السلطة العسكرية الحاكمة ، وقد ظلوا في مواقعهم هذه ثلاثة قرون لا تنازعهم
قوة أخرى ، يعترف الجميع لهم بحق مشروع في ثروة البلاد مقابل حمايتهم
لها من الخطر الخارجي الى ان سقط هذا الحق ، في موقعة « مرج دابق »
بهزيمتهم أمام السلطان العثماني .. يومها فقط رفض الفلاحون المصريون دفع
الضرائب وقالوا لهم : « ما نعطي خراج حتى تتبين لنا ان كانت البلاد لكم
أو لابن عثمان فنبقى نوزن الخراج مرتين » (*).

وأصبحت البلاد لابن عثمان ، بشنق طومان باي ، ودخول السلطان

(*) راجع القومية والغزو الفكري — الفصل الثاني .

« سليم » القاهرة بمدفعيته المتفوقة ، وحماة « مماليكه » أو انكشاريته
الفتية .

ولكن السلطان العثماني لم يستطع أن يحتفظ بحقوقه ، فلم يكن بوسعهم أن
يبقى في مصر قوة عسكرية دائمة بحجم يستطيع فرض سلطته ، ومعاركه
لا تتقطع في أوروبا ، والخطر الروسي يتفاقم ، وينهك قواه في حروب
متصلة ، ويقتطع كل يوم قطعة من أرض السلطان .

وهكذا سرعان ما نبتت من جديد رؤوس « الهيدرا » ، وانتزعت
السلطة من السلطان العثماني وحولت واليه الى « طرطور » لاقية له .. وهنا
تبدأ المرحلة الثانية من التاريخ المملوكي ، ففي المرحلة الأولى التي تبدأ بهزيمة
لويس التاسع وتنتهي بالغوري . كان المماليك يحكمون البلاد بحق النصر ضد
العدو الأجنبي . مقابل حماية الاستقلال والوجود من خطر الابداء الأجنبية .
ولكن في المرحلة الثانية أصبحوا يحكمون بحق الانقلاب ، بحق انتزاع السلطة ..
ولعل ذلك هو العامل الرئيسي في التباين بين عصر المماليك المزدهر ، عصر
السلطين العظام الذين هزموا الصليبيين والتتار ، وبنوا حضارة رخاء
وازدهار وتقدم معماري نادر .. وبين عصر الانحطاط ، عصر « مشايخ البلد »
المستمر في انحطاطه حتى وصل الى الحضيض في صورة « مراد بيك »
و « ابراهيم بيك » وانتهى خلال ساعات أمام مدفعية ومربعات نابليون .

إنه الفارق بين حكم الطبقة المنتصرة وطنياً ضد عدو قومي ، والطبقة
المتآمرة ، المنتصرة داخلياً في مجتمعا وعلى مجتمعا . وقد ساعد على انهيار
المماليك وفقدانهم صفاتهم النبيلة ، التي اكتسبوها بدفاعهم عن الوطن الاسلامي -
أو المشرق العربي بالذات - سنوات الأمن الطويل الذي وفرته الانتصارات
العثمانية فأعفوا من مهمة الذود عن الوطن الذي ينهبونه ، إذ كانت هذه
مسئولية السلطان - ولو نظرياً - على أية حال لم يقع هجوم حقيقي على مصر
في هذه الفترة . لذا انقلب المماليك من مقاتلين الى قتلة متآمرين .

ومها تكن قسوة التاريخ عليهم ، كظاهرة منقرضة ، فيجب أن نذكر دائماً ، انه بفضل سيوفهم وشجاعتهم النادرة ، بقي المشرق العربي ، عربياً ، فلولاهم لاحتل « لويس التاسع » مصر ، ولاستقر الصليبيون بالشام ، ولكننا اليوم شيئاً شبيهاً بأمريكا اللاتينية على أفضل الفروض ..

بل لولاهم ولولا سيوفهم لما بقت الحضارة الإنسانية أو لتأخر ازدهارها عدة قرون ، فهم وحدهم كانوا الصخرة التي تحطم عليها الاعصار المغولي ، فردوه على أعقابه الى وسط آسيا ، ولو انتصر المغول على جيش المماليك ، في عين جالوت ، لوصلوا الى البحر الأبيض ، ولانطلقوا الى بقية العالم ..

فلنحتفظ بهذه الملاحظة ، ونحن نقلب الصفحة الأخيرة من تاريخ المماليك في المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر .

الصفحة الاخيرة

لا شك ان مصر - قبيل الحملة الفرنسية - كان يحكمها أسوأ مملوكين في تاريخ هذه الظاهرة التي دامت خمسة قرون .

والمالِك ظاهرة نادرة ، عجيبة ، ومثيرة .. لم تكتب عنها الى اليوم ، الدراسة الوافية التي تفسرها او حتى تقدم لها صورة موضوعية ، واضحة التفاصيل (*) . فذلك الصبي او الغلام الذي يخطف او يشتري في صفقة حرة مع اهله في آسيا الوسطى غالباً ، او اي مكان في العالم يسكنه الجنس غير الاسود .. إذ كان المالِك من كل الجنسيات والأديان البيضاء .

هذا الغلام الذي نقل الى القاهرة ليلتحق بخدمة مملوك سبقه على الدرب ، وأصبح الآن فارساً وقائداً لمجموعة تدين له بالولاء المطلق ، هذا الفارس هو استاذ المملوك الغلام ، المجلوب حديثاً ، اشتراه رأساً من مسقط رأسه ، او من التاجر .. « الياسرجي » الذي سيتحمل بعد ذلك لعنات المصريين ، الذين لا يعرفونه بالطبع ، ولكن كلما استبد المملوك او أساء التصرف ، فسيلعنه المصريون ، ويلعنون « اليسرجي الذي جلبه وباعه » .. كلون من المعايير والتذكير بوضاعة الأصل .

(*) وليس هذا الحديث هو الدراسة المنشودة . راجع كتابنا : «القومية والغزو الفكري» .

وفي ظل حضارة عجيبة ، لم يلق الضوء بعد على روعة نظامها الذي لا يعترف بأية حواجز اجتماعية ، بسبب اللون او الجنس او العنصر او الأصل الطبقي والديني (*) .. في ظل هذه الحضارة تتاح للمملوك فرصة الارتقاء الى السلطة .. وهو ليس رقيقاً بالمعنى المفهوم حالياً لهذه الكلمة ، او الذي يفهم من تاريخ الزوج في اميركا .. ابدأ بعضهم كان يتحول الى صنّجق خلال ثلاث سنوات ليس اكثر من مجيئه الى القاهرة ، اي من تاريخ شرائه . ومعظمهم كانوا يبعثون فيحضرون اهلهم الى القاهرة ، عندما يصلون الى السلطة . أما من بلدهم الأصلية ، أو حيث طوحتهم المغامرات . ففرصة النجاح في مصر هي الأكبر ، والنجاح في مصر هو الأمل الذي يستحق المغامرة . وبعضهم كان يصل الى منصب سلطان ، قبل أن تتم الاجراءات الشكلية لتحريره !

وفي اعتقادي انه خلال القرون الخمسة التي ازدهر فيها حكم المماليك في مصر ، كان هناك اندفاع حقيقي في مسقط رأسهم نحو «الاسترقاق» للوصول الى مصر بإغراء الأساطير التي تحكي عن النعيم والمجد الذي ينتظر كل مملوك يوقعه حظه الحسن في يد تاجر ينقله الى القاهرة (**).

ونستطيع ان نتصور بعض الاهالي الاذكياء او الصبية الطموحين ، يفرون «اليسرجي» بأنفسهم ويستعطفونه لكي ينقلهم الى عالم المغامرات والطموح والمجد .. اما حكاية الاسترقاق والبيع هذه ، فكانت أشبه بحالة الصبي

(*) «الامير يوسف بك السلطاني وكان اصله اسرائيلياً وأسلم وحسن اسلامه ولبس آغات جراكسة ثم تقلد كتخدا الجاويشية وانفصل عنها وتقلد الصنّجقية سنة سبع ومائة والفاء (١٦٩٥ م) وتلبس كشوفية النوفية ثم امارة جده ومشيخة الحرم (!!) وجاور بالحجاز عامين ثم رجع بالمسكر الى الروم ورجع سالماً . وأخذ جمر ك دمياط وذهب اليها وأقام بها الى ان مات سنة عشرين ومائة والفاء « (٢٨) .

(**) امتد الاغراء الى الاوروبيين فكانوا يطرحون انفسهم على تجار الرقيق .

الاوروبي ، او الارمني المغامر ، الذي يبيع نفسه - مدة الرحلة - لربان السفينة المبحرة الى اميركا .. مقابل نقله الى العالم الجديد حيث احلام الثراء في انتظاره .. مع فارق ، أن الرحلة الى اميركا كانت ولا تزال ، مغامرة مع المجهول ، وأن ملايين عبروا المحيط كانوا يعترضون الى الموت ، ويسقطون في هاوية الفشل ، مقابل كل حالة نجاح .. أما رحلة المملوك الى القاهرة فكانت رحلة مصير معروفة بدقة قاتلة ، ومرسوم بجمعية قوانين صارمة .. حتى لكأنهم شخصية واحدة تتكرر آلاف المرات منذ أن يصل الى القاهرة الى أن تقطع رأسه وهو بقلب بيك !

فالمملوك ينضم فور وصوله الى خدمة استاذ ما .. وهو أصله مملوك استطاع أن يتقدم عبر بحر الدم والولاء والخيانة والتآمر .

وعلاقة المملوك باستاذه تقوم على الولاء المطلق وتنفيذ جميع مؤامراته ضد « الاساتذة » الآخرين ، والرعاية الشاملة من جانب الاستاذ .

وهنا يحلو لبعض المؤرخين ان يتوقف عند نوعية العلاقة الشخصية بين المملوك واستاذه .. ومعظم المعلقين تستهويهم فكرة العلاقة الجنسية المفترضة بين الاستاذ ، و غلام صغير جميل (في الغالب) مملوك له .

ورغم ان معظم المعلقين - كما قلنا - وخاصة الغربيين قد أشاروا الى ذلك ، إلا أنني أميل الى استبعاد اعتبار اللواط علاقة طبيعية - كما تصورها هذه التعليقات - بين صفوف المالك . فلا شك انها كانت موجودة في بعض الحالات ، ولا شك ان نسبة كبيرة من الغلمان البيض الذين كانوا يسترشقون في عصور الانهيار الحضاري (*) ، كانوا يسترشقون لهذا الغرض بالذات . غير ان من يدرس تاريخ المالك ، لا يجد ان المؤرخين العرب يتحدثون عن هذه

(*) الانهيار الحضاري الذي نعنيه ليس الانهيار المادي، فقد تكون الحضارة في ذروة تألقها المادي ولكنها في دور الانهيار .

الظاهرة كعلاقة أساسية في صلة الممالك ببعضهم .. بل بالعكس نجد هؤلاء المؤرخين يشيرون الى حالات بعينها ، مارست هذا الشذوذ .. ويعلق المؤرخون بوضوح على ميول هذه « الحالات الشاذة » . وصحيح أنه في دور الأقاليم لحضارتنا كان الشائع هو التغزل بالغلان .. بل لا يكاد يوجد في تاريخ المتأخرين شيخ إلا وله قصيدة غزل في غلام ، لكن ذلك كان العرف الأدبي ، دون أن تكون له - والعباد بالله - أية علاقة حقيقية بعالم الواقع . والمؤرخون العرب ، الذين يمتازون بالصدق المطلق ، وهذه أيضاً من خصائص حضارتنا ، ما كان ليفوتهم تسجيل هذه الظاهرة ، إذا كانت تمثل قانوناً عاماً كما يفهم البعض الآن من تاريخ الممالك .. ولا شك أن تشنيع العامة المصريين ، قد لعب دوره في خلق هذه الشائعة عن الشذوذ الجنسي بين الممالك ، بل ان تركيز المصريين ، لسنوات عديدة بعد زوال الممالك ، على التشهير الجنسي بالطبقة الحاكمة ، ربما يرجع الى جذور مملوكية .. فأى انتقام - على الطريقة المصرية في المقاومة - من حاكم مستبد متكبر وحشي السلوك ، أكبر من أن ترسم له صورة غلام فراش !

ولكننا - مرة أخرى - نستبعد أن يكون الممالك قد أنجزوا « ثورة جنسية » بحيث كانت هذه علاقتهم الطبيعية ! كما يستحيل تصور مجموعة كهذه ، تتحول في سنوات ، من « غلمان مخدع » الى فرسان محاربين من أعلى طراز ، تتسم علاقتهم بدموية نادرة .. ويمارسون الحكم بشموخ وعنجهية .. هذه صفات تتنافى مع الصفات التي يختار من أجلها غلام المخدع ، أو الفتى الاغريقي ثم الروماني المعروف ، أو غلمان قصائد أبي نواس . فصفات المملوك المقاتل تتنافى مع صفات هذا اللون من الغلمان ، الذين تتم تنمية صفات خاصة فيهم فترة استخدامهم لارضاء هوايات أسيادهم ، ويستحيل تحلصهم منها بسهولة ليتحولوا الى مقاتلين عند سن معين !

فمع التسليم بوقوع هذه العلاقة في حالات خاصة ، نعتقد انها لم تكن

يتحول المملوك اذن الى محارب من الطراز الأول ويبدأ العمل تحت قيادة استاذه في مغامرة السلطة ، وهي قصة تتكرر طبق الأصل في جميع الحالات .

فسيده صنjqق .. وعلى قمة الصناجق يتصارع أميران ، يتمكن أحدهما من الآخر بشراء أعوانه ، او اغتيال مماليكه ، فإما أن يهزم في حرب تكون نتيجتها مدبرة سلفاً من خلال « المتآمرين » عليه . أو يستدعى بجيلة الى الصيد ، أو اجتمع للمسامرة ، أو لبحث بعض القضايا الهامة ، أو قراءة مراسم « مزورة » وردت من الباب العالي .. وقد يتنبه الأمير المغدور فيبادر بنقل عزاله ويفر الى الشام أو الى الصعيد . أو يذهب بجواده الى حتفه .. وهناك مجرد من حصانه بالحيلة أو وفقاً للبروتوكول إذا ما كان الاجتماع في داخل القاعات ، أو يتخلى هو عن الجواد بحكم الضرورات إذ يتحتم عليه أن ينزل لىأكل أو يزيل ضرورة . وإذا كان المملوك على ظهر جواده يعادل فرقة فرسان كاملة من أي جنس غير مملوكي ، فهو على قدميه أضعف من فلاح أعزل من السلاح .. بسبب الملابس والدروع والجواهر التي يثقل بها نفسه .

وعندما يعطي الأمير المتآمر الإشارة المتفق عليها ينقض الممالك على الفريسة المتآمر عليها ، ينقضون بلا شفقة ولا عاطفة ولا حتى حقد في الغالب وسرعان ما يُقطع رأسه (وبعضهم كان ينجو بقفزة حب بقاء، تحطم أي رقم اوليمبيادي) (*) فإذا ما قطعت رأسه سلخت .. واهتم القتلة - بعكس ما يجري في ايامنا هذه - بإعلان جريمتهم .

(*) كما يروى عن « الملوك الشارد » الذي قفز من فوق سور القلعة في مذبة « محمد علي » الشهيرة .

والرأس ذات أهمية بالغة إذ أن احرازها وإعلان امتلاكها ينقل حقوقاً قانونية ودستورية وشرعية لمالكها، فما ان تبرز الرأس المقطوعة، حتى تنتهي فوراً مقاومة الاعوان والتابعين فإما ان ينضموا في الحال الى حائز رأس سيدهم، او يبادروا بالفرار ونقل متاعهم والخروج من القاهرة، اذا كان تركيب القوى المتصارعة لا يتسع لهم .

لذلك كان المنتصر يحرص دائماً على « عرض الرأس » الذي يشبه في ايماننا هذه البلاغ رقم واحد ، او اعلان نتائج الانتخابات ، بمجرد اذاعته تنتهي عملية الاستيلاء على السلطة وتسقط شرعية المقاومة من جانب القوى الاخرى التي كانت في السلطة الى ما قبل دقائق من إذاعة البلاغ رقم واحد .. أقصد قطع الرأس .

وأحياناً كان « عرض الرأس » يتخذ شكل استعراض فكه ، فالممالك يحملون رؤوس الفريق المهزوم على الصواني الفضية الفاخرة ، ويطوفون بها في الشوارع بالوقار اللازم .. وأمامهم الخدم يصيحون: « صلوا على النبي » .. « صلوا على محمد » .. كأنهم يحملون صواني الملابس او يتقدمون موكب طفل تم ختانه للتو .. والعمامة يقفون على الصفيين يتفرجون بلا مبالاة ، كما هي عادتهم الى اليوم !

« ورجع محمد بيك وصالح بيك والتجريدة ودخلوا المدينة من باب النصر في موكب عظيم وأمامهم الرؤوس مجمولة في صوان من فضة والخدم يقولون صلوا على محمد وصالح بيك ظاهر بوجهه الانتقباض والتعبيس (له حق فرأسه قطعت بعد ستة عشر يوماً فقط من انتصاره !) وعدتها ستة رؤوس وهي رأس حسين بيك و خليل بيك السكران وحسن بيك شبكة ، وحمزة بيك واسماعيل بيك مدفع وسليمان آغا الوالي » (٢٩) .

فإذا فر المملوك المنهزم او الجريح خارج القاهرة تلقفته ذئاب البرية ..
العرب !

تحيل «حسن بيك الجداوي» الذي فرّ من الموت بسلسلة مغامرات تزري بأي جيمس بوند .. ليصل الى الصحراء ، حيث تتولى الذئاب مطاردته .. شيخ العرب يتبعه كما يتبع الضبع الفريسة في انتظار سقوطها، يلاحقه بقوله: « وين تروح يا ملعون » ! وطالما ظل « حسن » بيك على ظهر جواده ، فإن ابناء آوى هؤلاء لا يقدرّون على الاقتراب منه ، ولكنهم يعلمون ان قدرة الحصان على البقاء محدودة ، مهما تكن طاقة المملوك .. لذلك يستمرون في مطاردته بصبر والحاح ، مع الاحتفاظ بمسافة مناسبة تبعدهم عن ضربات سيفه .. وتبقيهم في دائرة القدرة على الازعاج بججر او سهم او قطعة خشب او مجرد السباب والتوعد .. وأهم من ذلك منعه من الانطلاق الى الصعيد او غزه ..

وأخيراً يقع الحادث المنتظر ويتعثر جواد « حسن بيك الجداوي » فيقع هو من فوقه او « يتقنطر » - كما يقول الجبرتي - وينقض عليه العرب ..

أما في القاهرة ، فيبدأ الأمير المنتصر عملية تصفية سريعة لأنصار المنهزم فيخنق من يخنق ، ويذبح من يذبح .. وتقطع رؤوس الجميع ، وبعضها يسلم .. أما الجثث او « الرمة » باصطلاح العصر فتنتقل الى البيوت مع الاحترام اللازم وتسلم للأهل . وبعد عرض الرؤوس همّ اهتماماً مبالغ فيه بتغسيل وتكفين ودفن « الرمة مع الرأس » باحترام شديد (*) .. فإذا انتهى الأمير المنتصر من خصومه ، بدأت عملية تصفية الانصار للقضاء على المنافسين والذين يُخشى انقضاضهم .. وفي ايام ينتقل المملوك من خانة أصدق الاوفياء وأخلص الاعوان الى خانة المشكوك فيهم ، والمطلوب تصفيتهم ، ويقتل من يقتل ويفر من يفر ويستتب الأمر للأمير المنتصر .. ولكنه مجرد منحى للسلطة يبرق فيه .. فما

(*) ربما كان هذا الاهتمام الشديد بالجثة والمقبرة الفخمة، يعود الى التقاليد التي تعلمها المماليك من المصريين .

أن يصل الى نقطة الذروة حتى يبدأ في الانحدار بموجب قانون صارم كقوانين الطبيعة، يخضع له الجميع ، ويتصرفون بموجبه .. وما من محاولة جادة بذلت لتغييره .. كأن هناك حجماً معيناً من القوة ، يبذل الجميع جهدهم للوصول بسيدم اليه ، فما ان يصل اليه - وهم معه - حتى يبدأون عملية اسقاطه ، وينقلب عليه اقرب اعوانه اليه ، وهذا طبيعي ، لأنه الرجل الثاني والمرشح لخلافته اذا ما سقط .. فإما ان ينقض عليه ويقتله ، ويطالبه المجمع المملوكي، بإثبات انه قاتله فإذا أثبت ذلك باحراز الرأس او وجود الدم على سيفه .. تولى السلطة مكانه.. وبسقوط الأمير، يبدأ تابعه الأمير الجديد رحلة الصعود.. ويخلع عليه الباشا خلعة المنصب ، ويصبح له الحق في نهب بيت الخلع القتل .. ومصادرة جميع ثروته ومتاعه والتزوج بأرملته .. ليقتل هو بعد فترة ، ويمكن القول أن تسعين بالمائة من المماليك ماتوا مقتولين إلا من سبق الطاعونُ السيف الى انتزاع حياتهم . ويصعب أن نجد مملوكاً بارزاً في القرن الثامن عشر بالذات ، عندما وصلت الظاهرة المملوكية الى أشع حالاتها ، مات حتف أنفه - كما يقول التعبير العربي الغريب - !

هذا الطابع الوحشي في صراع المماليك .. والنهاية الدموية لجميع الأمراء ترجع بالطبع لأسباب عديدة في التكوين الشخصي لأمرء الحرب هؤلاء ، وفي التكوين الفكري والنظام الاجتماعي الذي أقاموه ، ورفضهم الاعتراف بمبدأ الوراثة ، ونظرتهم العجيبة لحق الملكية (*). ولكنها ترجع في اعتقادي لسبب اساسي هو : مركزية مصر ، استحالة قيام النظام الاقطاعي فيها ، على النحو الذي ساد اوروبا وآسيا في العصر الوسيط . فلو كان بوسع أي مملوك ان يستقل بالفيوم او بالجيزة او طنطا ، لما حرص على قتل خصومه ومنافسيه من أمراء المديریات الاخرى . ولا عرض نفسه للقتل المحتوم بالإصرار

(*) « وفي طريقتهم انهم يرثون من يكون منتسباً اليهم او جاراً لهم » (٣٠) .

على دخول القاهرة . ولا خاطر المسيطر على القاهرة بقتال الفارين خارجها . ولكن تكوين مصر (بسبب النيل حيث يحتاج نظام الري لحد أدنى من المركزية على نطاق القطر كله) يستحيل معه ، قيام اقطاعات منفصلة ذات اكتفاء ذاتي ، لذلك كان لا بد للسلطة في القاهرة ، لكي تحكم ، من إخضاع الاقليم كله الى حد أدنى من سيطرتها، يضمن حداً أدنى من الوحدة الاقتصادية . فلا سبيل الى الامارة إلا في القاهرة .. ومن هنا كان هذا الصراع الوحشي وتبادل الأدوار ، من مطارد الى هارب ومن قاتل الى مقتول .. كانوا مجموعة عجيبة تعيش حياة سريعة قصيرة يظللها حكم بالاعدام يوقن الجميع بجميته ، وينالهم منها كانت قوتهم ، ومهما كانت براعتهم في الاختباء ، او نجحوا في الفرار .. وكان في كل قصر « باب السر » يمتد تحت الأرض مسافات ليست بالقصيرة ، تسمح للأمير المحاصر بالافلات ، من حصار المتطلعين الى سلخ رأسه ، والانطلاق الى الصعيد . وكان لبعضهم اكثر من بيت ، غير مشهور ، يخفون فيه جانباً من الثروة .. حتى اذا نهب قصره الرئيسي، وجد ما يستعين به على مواصلة الصراع . فاذا سقط في يد خصمه لم يكن له ان يتوقع الرحمة . فلما طلب « احمد افندي » ان يركبوه حصاناً بدلاً من الحمار ، هذا المركب السوقي الطابع والمتعب .. وأن يخرج عنه هذا الحديد من رجله ، رد عليه « علي بك الهندي » : « لو رحمتونا كنا رحمناكم ! » (٣١) .

والأمير « عبد الرحمن آغا » « آغا مستحفظان » الذي اشتهر بالعدل وكان نعمة الله على المعاكيس وخصوصاً الخدم الأتراك المعروفين بالسراجين .. والذي اكتشف انهم غير مسلمين، بل مندسين! .. لما جاء دوره وتحول الى فريسة مطاردة ولحق به مراد بيك بعد ان عرف مكان اختبائه « وأخذوه قبضاً باليد وعرووه ثيابه حتى السراويل وسحبوه بينهم عريانا مكشوف الرأس والسواتين وأحضروه بين يدي مراد بيك فلما وقعت عينه عليه أمر بقطع يديه وسلموه لسواس الخيل يصفعونه ويضربونه على وجهه ثم قطعوا رقبته

حزاً بسكين (!!) ويقولون له أنظر قرص البرغوت . يذكرونه قوله لمن كان يقتله لا تحف يا ولدي انما هي كقرصة البرغوت .. فكانوا يقولون له ذلك على سبيل التبكيت .

« ودخل مراد بيك في صباحها برأسه امامه على رمح » (٣٢) .

وخلال فترة حياة الملوك القصيرة العنيفة والدموية ، نرى جانباً عجيباً من هذه الحضارة التي استطاعت أن تصقل حتى أشد الحجارة صلابه .. فهو مؤمن متدين - بمعنى احترام شعائر الاسلام - يحترم اهل العلم ورجال الشرع ، ويتخضع لهم ، ويتحمل تأنيبهم وزجرهم ، يعشق الحضارة والفن ، ويجمع الأموال بكافة الأساليب الظالمة والوحشية . ولكنه لا يكاد ينفق منها شيئاً على الشهوات الجسدية ، بل لا يتردد في اعتصار آخر مليم مع الفلاح ، أو سلخ جلد أمير منافس ونهب امواله ، لكي يكمل بناء تحفة معمارية ، مسجد أو مدرسة أو بيارستان ، أو سبيل يسقي الظامئين ..

ويشهد لين (٣٣) للمالِك « بذوق مترف في الفن، وحرص شديد عليه .. » ويؤمن « مورهد » على ذلك مستدلاً بأضرحة البكوات المالِك « ذات القباب الضخمة والمناثر العالية ، تقوم الى اليوم في الصحراء ، خارج اسوار القاهرة ، مثلاً باهرة على التقدم المعماري العظيم ، فلم يستطع القبار ولا حجارة ما كان يحيط بهذه الأضرحة من الأكواخ والأطلال ، أن تطمس ما تشهد به هذه الصروح العظيمة من سمو فني » (٣٤) . وكمثال على هذا الوله بالبناء والعمارة نأخذ الأمير عبد الرحمن كتحدا الذي حكم في فترة الانهيار من ١١٥٢ الى ١١٧٨ (١٧٣٩ - ١٧٦٤) اي مدة ربع قرن .. فرغم انشغاله بالمؤامرات ، ورغم ظلمه وحقاقته ، يشهد له الجبرتي بهذه الانشاءات :

« السبيل والكتاب الذي يعلوه بين القصرين وجاء في غاية الظرف وأحسن المباني .

« وأنشأ جامع المغاربة وعمل عند بابه سيلاً وكتاباً وميضأة تفتح بطول النهار .

« وأنشأ تجاه باب الفتوح مسجداً ظريفاً بمنارة وصهريج وكتاب .
« ومدفن السيدة السطوحية .

« وأنشأ بالقرب من تربة الازبكية سقاية وحوضاً لسقي الدواب ويعلوه كتاب وفي الخطابة كذلك .

« وعند جامع الدشطوطي كذلك .

« وأنشأ وزاد في مقصورة الجامع الأزهر مقدار النصف طولاً وعرضاً ويشتمل على خمسين عاموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت وسقف أعلاها بالخشب النقي وبني به محراباً جديداً ومنبراً وأنشأ له باباً عظيمة جهة حارة كتامة وبني باعلاء مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الايتام من أطفال المسلمين القرآن وبداخله رحبة متسعة وصهريج عظيم وسقاية لشرب العطاش المارين . وعمل لنفسه مدفناً بتلك الرحبة وعليه قبة معقودة وتركيبية من رخام بديعة الصنعة وبها ايضاً رواق مخصوص بمجاورين الصعائده المنقطعين لطلب العلم يسلك اليه من تلك الرحبة بدرج يصعد منه الى الرواق وبه مرافق ومنافع ومطبخ ومخازن وخزائن كتب . وبني بجانب ذلك الباب منارة وأنشأ باباً آخر جهة مطبخ الجامع وعليه منارة أيضاً .

وبني المدرسة الطبرسية وأنشأها نشوؤاً جديداً وجعلها مع المدرسة الاقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير الذي انشأه خارجها جمعة القبو الموصل للمشهد الحسيني وخان الجراكسة وهو عبارة عن بابين كل باب بمصراعين وعلى يمينها منارة وفوقه مكتب أيضاً وبداخله باب الميضأة درج يصعد منه للمنارة . ورواق البغدادين والهنود فجاء هذا الباب وما بداخله من الطبرسية والاقبغاوية والأروقة من أحسن المباني في العظم والوجاهة والفقامة .

« وجدد رواقاً للمكائين والتكرورين .

« وبني المشهد الحسيني على هذه الصفة وعمل بها صهریحاً وحنفياً بفسحة ولو اوين في غاية الحسن ورتب له تراتيب وزاد في مراتب الأزهر والأخباز ورتب لمطبخه في خصوص أيام رمضان في كل يوم خمسة ارادب ارز أبيض وقنطار سمن ورأس جاموس وغير ذلك من التراتيب والزيت والوقود للمطبخ.

« وانشأ عند باب البرقية المعروف بالغرب جامعاً وصهریحاً وحوضاً وسقاية وملعباً ورتب فيه تدريساً .

« وكذلك جهة الأربكية بالقرب من كوم الشيخ سلامه جامع ومكتب وحوض وميضأه وسقاية ومنازة .

« وعمر المسجد بجوار ضريح الامام الشافعي رضي الله عنه في مكان المدرسة الصلاحية .

« وعمل عند باب القبة الصهریح والمقصورة الكبيرة التي بها ضريح شيخ الاسلام زكريا الانصاري . وفرش طريق القبة بالرخام الملون يسلك اليه بدهليز طويل متسع وعليه بوابة كبيرة من داخل الدهليز البراني وعلى الدهليز البراني من كلتا الجهتين بوابتين .

« وعمر أيضاً المشهد النفيسي ومسجده وبني الصهریح على هذه الهيئته الموجودة . وجعل لزيارة النساء طريقاً بخلاف طريق الرجال .

« وبني أيضاً مشهد السيدة زينب بقناطر السباع .

« ومشهد السيدة سكينه بخط الخليفة .

« المشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة .

« والسيدة فاطمة والسيدة رقية .

« والجامع والرباط بحارة عابدين .

- » وكذلك مشهد ابي السعود الجارحي على الصفة التي هو عليها الآن .
- » ومسجد شرف الدين الكردي بالحسنية .
- » والمسجد بنحط الموسكي .
- » وبني للشيخ الحففي داراً يجوار ذلك المسجد وينفذ اليه من داخل .
- » وعمر المدرسة السيوفية المعروفة بالشيخ مطهر بنحط باب الزهومة وبني لوالدته بها مدفناً .
- » وانشأ خارج باب القرافة حوضاً وسقاية وصهريجاً .
- » وجدد المارستان المنصوري . وهدم أعلى القبة الكبيرة المنصورية والقبة التي كانت بأعلى القسمة من خارج ولم يعد عمارتها بل سقف قبة المدفن فقط . وترك الأخرى مكشوفة ورتب له خيرات وأخبازاً زيادة على البقايا القديمة .
- » وله عمائر كثيرة وقناطر وجسور في بلاد الارياف وبلاد الحجاز حين كان مجاوراً هناك .
- » وبني القناطر بطندتا (طنطا) في الطريق الموصلة الى محلة مرحوم .
- » والقنطرة الجديدة الموصلة الى حارة عابدين من ناحية الخلوتي على الخليج .
- » وقنطرة بناحية الموسكي .
- » ورتب للعميان الفقراء الاكسية الصوف المسماة بالزعايط . فيفرق عليهم جملة كثيرة من ذلك عند دخول الشتاء . وكذلك المؤذنون يفرق عليهم جملة من الاحرامات الطولونية . وكذلك يفرق جملة من الخبر الحلاوي والبز الصعيدي والملايات والاخفاف والبوابيج القيصري على النساء الفقيرات والأرامل .
- » ومن عمائره القصر الكبير المعروف به بشاطيء النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة . وكان قصرأ عظيماً من الأبنية الملوكية ..
- » ومن عمائره أيضاً دار سكنه بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة

المحكمة الوضع والاتقان لا يماثلها دار بمصر في حسنها وزخرفة مجالسها وما بها من النقوش والرخام والقيشاني والذهب المموه واللازورد وانواع الأصباغ وبديع الصنعة والتأنيق والبهجة وغرس بها بستاناً بديعاً بداخله قاعة متسعة مربعة الأركان بوسطها فسقية مفروشة بالرخام البديع الصنعة . واركناها مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض وغير ذلك من الممارات حتى اشتهر ذكره بذلك وسمي بصاحب الخيرات والمائثر في مصر والشام والروم .

« وعدد المساجد التي أنشأها وجددها وأقيمت فيها الخطبة والجمعة والجماعة ثمانية عشر مسجداً وذلك خلاف الزوايا والسقايات والمكاتب والاحواض والقناطر وكان له في هندسة الابنية وحسن وضع المائثر ملكة يقتدر بها على ما يرومه من الوضع من غير مباشرة ولا مشاهدة

« ومن مساويه قبول الرشاش^(*) والتحليل على مصادرته بعض الاغنياء في أموالهم واقتدى به في ذلك غيره حتى صارت سنة مقررة وطريقة مسلوكة ليست منكورة . وكذلك المصالحة على تركت الاغنياء التي لها وارث . ومن سيئاته العظيمة التي طال شررها وتضاعف ضررها وعم الاقليم خرابها وتصدى الى جميع الدنيا هبابها معاضدته « لعلي بيك » ليقوى به على ارباب الرأسة . فلم يزل يلقي بينهم الفتن ويغري بعضهم على بعض ويسلط عليهم علي بيك المذكور حتى أضعف شوكت الأقوياء وأكد العداوة بين الأصفياء واشتد « علي بيك » فعند ذلك التفت اليه وكلب بناه عليه وأخرجه من مصر وأبعده عن وطنه فلم يجد عند ذلك من يدافع عنه وأقام هذه المدة في مكة غربياً وحيداً .. ولما رجع من الحجاز متمرضاً ذهب اليه ابراهيم بيك ومراد بيك وباقي خشداشينهم ليعودوه ولم يكن رآهم قبل ذلك فكان من وصيته لهم كونوا مع بعضكم واضبطوا أمركم ولا تدخلوا الأعادي بينكم .

(*) الرشوة ..

وهذا بدل عن قوله أوصيكم بتقوى الله تعالى وتجنبوا الظلم وافعلوا الخير فإن الدنيا زائلة وانظروا حالي ومآلي او نحو ذلك (*) . هكذا اخبرني من كان حاضراً في ذلك الوقت. وكان سليط اللسان ويتصنع المحاماة فغفر الله لنا وله. رأيت مرة قبل ان ينفي الى الحجاز وهو ماش مربوع القامة ابيض اللون مسترسل اللحية ويغلب عليها البياض مترفهاً في ملبسه معجباً بنفسه يشار اليه بالبنان « (٣٥) »

كانوا صناع حضارة وحماتها ، حتى في في أحلك عصور حكمهم ..

وكان المملوك متأنقاً في ثيابه ، متأنقاً في معيشته .. وبعضهم استطاع ان يتذوق الأدب والشعر .. وبعضهم كان يجمع الى جانب الحياة المادية العنيفة ، ايماناً عميقاً بالروحانيات والحياة الصوفية .

وفي فترات التآلق كانوا يشتهرون بالعدل .. ولعلمهم اكثر الطبقات الحاكمة في تاريخ مصر ، حرصاً على استقلالها ودفاعاً عن هذا الاستقلال ، وأقدرها على حمايته. ولعلمها اكثر الطبقات الحاكمة في تاريخ مصر تشبهاً بهذا البلد وحبا له ، حبا كلف الجميع حياتهم وكلف مصر اكثر! .. ولكنهم ما كانوا يطيقون البعد ساعة واحدة عن مصر .. عن القاهرة بالذات التي لم يعرفونها ، ولا معاصروهم ، الا باسم « مصر » ..

كانوا جزءاً من نظام اجتماعي محددة اختصاصات كل أجزائه بدقة تامة ..

فالسطة هي حق مطلق للمالك ، لهم وحدهم حق نهب البلاد ، مقابل توفير الامن الداخلي والخارجي ، والشيوخ يقيمون الشريعة ويحددون ما هو قانوني ، وما هو ضد الشرع ، ويتولون قيادة العامة والدفاع عن مصالحهم .

(*) لو قال ذلك لكف عن ان يكون ملوكاً ، ولما استمعوا اليه .

ومن خلاهم وحدهم يحق للعامة ان يخاطبوا السلطة ، ويحق للسلطة ان تتصل بالعامة .

وليس للسلطة ان تتعدى على الشيوخ ، أو أن تهين الشرع ، كما يحدهه ويفهمه هؤلاء الشيوخ ، أو ان تتدخل في التشريع . وليس للمالك ان يتجاوزوا في نهيم للعامة حداً معيناً ، وإلا ثار العامة ، وطالبوا الشيوخ بإدائه واجبهم .

عندها يقود الشيوخ حركة مقاومة ، تتفاوت .. من منع الأذان ، او الأذان في غير أوقات الصلاة .. الى القتال الحقيقي .. أو شن ما يمكن وصفه بثورة .

وليس للمالك ان ينقلوا قتالهم على السلطة الى حياة العامة ، لأن ذلك يهدد حياة الجماهير ، ويعطل انتاجها . بل عليهم ان يتقاتلوا بعيداً خارج المدينة اذا امكن ، أو في معركة ، أو في معركة قصيرة حاسمة حول القلعة . فلما طال قتال « اسمعيل بيك » ضد الشقيين « ابراهيم ومراد » .. وجبن « اسمعيل بيك » عن الخروج اليهم ، وعجزا هما عن احتلال القاهرة تعطلت الأحوال ووقع :

« ضيق في المايش وانقطاع للطرق وعدم أمن ووقوف العربان ومنع السبل وتعطيل أسباب وعسر في الاسفار برأ وبجراً فاقتضى رأي الشيخ العروسي انه يجتمع مع المشايخ ويركبون الى الباشا ويتكلمون معه في شأن هذا الحال . »

فلما زعم « اسمعيل بيك » انه مكلف من السلطان بمحاربة « ابراهيم ومراد » .. رد عليه الشيخ « العروسي » :

« وما المانع لكم من الخروج وقد ضاق الحال بالناس ولا يقدر أحد من الناس أن يصل الى بحر النيل وقربة الماء بخمسة عشر نصف فضة وحضرة

اسماعيل بيك مشغول ببناء حيطان ومتاريس وهذه ليست طريقة المصريين في الحروب بل طريقتهم المصادمة وانفصال الحرب في ساعة اما غالب أو مغلوب وأما هذا الحال فانه يستدعي طولاً وذلك يقتضي الخراب والتعطيل ووقف الحال « (٣٦) .

فانتقال السلطة ، يستحسن ان يتم بمؤامرة داخل البلاط . فإذا كانت لا بد من القتال ، فبعيداً عن حياة العامة . وعندما ينتهي القتال ، يتقدم المنتصر وينال حقوق المهزوم كاملة . فبعد ان قال أهل « الحل والعقد » للأمير « قطز » : « ليس لها غيرك » . وكان عند حسن ظنهم ، فقهر التتار ، وخذل التاريخ اسمه ، ووصل الى الذروة التي لا بد ان يبدأ عندها منحني الانحدار ، تولى أخلص اعوانه ، مهمة دفعه في طريق الانحدار .. فاحتال عليه كبار بماليكه ، واحتاطوا به بعد أن بعد عن معسكره محاولاً صيد أرنب ! ثم تقدم منه « الظاهر بيبرس » ، بالحيلة التقليدية ، متظاهراً بالرغبة في تقبيل يده . وسرعان ما جذب هذه اليد وقلبه عن فرسه ، وانهالت عليه سيوف اتباعه .. اعوانه .. اصدقائه . رفاق لعبة الموت والمجد الرهيبة ..

« ورشقوه بالنشاب فقتلوه ، ثم حملوا على العسكر شاهرين سيوفهم حتى وصلوا الى الدهليز السلطاني بالصاحية ، فزلوا ودخلوا والاتابك على باب الدهليز ، فأخبروه بما فعلوا » (!!)

ترى ماذا كان رد « الاتابك » المنتظر على باب الدهليز للاحتفاء بسيدته « قطز » سلطان مصر والشام .. قاهر التتار .. محرر دمشق وحلب ! بل منقذ الانسانية كما يتحمس بعض المؤرخين !

هكذا كان رده !

فمنذما « ابلغوا » الاتابك « بما فعلوه » .. أي قتل السلطان . سأل سيادته : « من قتله منكم ؟ ! » (لم يدرك بخلده ان يسأل لماذا ؟) فرد عليه

« بيبرس » : « أنا » ! قال الاتابك : « يا خوند ، أجلس على مرتبة السلطان (٣٧) » . ولم يطل حكم قطز اكثر من سنة واحدة الا يوم !

ودخل « بيبرس » القاهرة على رأس الموكب ذاته الذي كان يرأسه « قطز » ، وعبر الزينة التي رفعت لاستقبال المقتول فتحولت الى الترحيب بالقاتل ! دون ذرة واحدة من النفاق ، بل عن تسليم مطلق بقانون الصعود والهبوط الملوكي .

المتعممون

كانت هذه الدموية ، تدور داخل دائرة المالك ، وكما قلنا ، كان العرف الاجتماعي الصارم ، أو الناموس ، يستنكر انتقالها خارج هذه الدائرة ، ويرفض التعرض للفئات الاجتماعية الاخرى بالتدخل في صميم حياتها ودورها الاجتماعي ، أو بنقل التقاتل الى حياة هذه الفئات مما يعرضها للمخاطر ، ويهدد نشاطها وانتاجها بالتوقف . فاذا ما وقع ذلك ، كانت العامة تتحرك وتطلب من المشايخ قيادة احتجاجها ومواجهة المالك لاعادة الامور الى نصابها .. ولم تكن قوة المشايخ شكلية بأي حال من الاحوال . فقدرتهم على تحريك العامة وإصابة البلاد بشلل عام أما بالتوقف عن الانتاج والتوقف عن ممارسة شعائر الدين .. أو حتى بقيادة مقاومة مسلحة . هذه القدرة كانت عاملاً لا يمكن لاي أمير عاقل أن يغفله، أو يسمح لخصومه بالاستفادة منه في لعبة السلطة . ولم يكن المشايخ يجهلون قوتهم ، ولاعدمت مصر في أحلك العصور شيخاً صريحاً لا يخاف في الحق لومة أمير ، ولا حتى السلطان ذاته ..

ولا شك ان التربية الاسلامية ، والعقل الاسلامي المفتوح بغير حد ، بحكم مفاهيم الفلسفة الاسلامية ، التي لا تسلم بالصواب المطلق لأي انسان ، ولا تعترف بالعصمة لأي حاكم أو مسؤول أو فرد غير الانبياء . لا شك ان

لهذا التكوين الفكري اثره في المواقف المتحررة المدهشة - حتى بمقاييس اليوم - التي يسجلها التاريخ لشيوخ الأزهر .. وأيضاً كان للتركيب الاجتماعي في مصر ، والمكانة التي احتلها الأزهر ، بمرور السنين ، مركز قيادة الأمة والمعبر عن ارادتها ، والقادر وحده على تحريكها . هدد الحقيقة التي ستنفجر في عصر الحملة الفرنسية ، والتي ستتنبه لها القوى التي مثلتها الحملة الفرنسية أو التي زرعتها اوروبا في مصر ، بحيث يصبح شغلها الشاغل ، هو تنفيذ مخطط دوؤب ، شديد الصبر ، شديد الفعالية ، لتعطيم مكانة الأزهر ..

هذه المكانة كان معترفاً بها في عهد المماليك ، ولم يكن المملوك يتجرأ على المشايخ الا يجراً المشايخ على الدين وتكالبهم على الدنيا الى حد الاستهتار الفاضح بتعاليم الدين ، وارتكاب السلوك المعيب في حدود فهم المملوك .

وحق اذا وقع ذلك من بعض المنتسبين الى المتعممين ، وحاول مملوك ان يستغله فتعدى الحدود ، وتطاول أو « تجارى » .. فانه يجابه بمقاومة صلبة من كبار المشايخ وموقف عنيف يصل الى سب الأمير وابطال قراراته بالقوة . فالمملوك « يوسف بيك الكبير » كان به لوثه ، وكان يحقد على المشايخ ، أو « طائفة الفقهاء والمتعممين » كما يسميهم الجبرتي . وكان لديه سبب وجيه جداً لنقمته هذه ، وهو سبب كاف لاثارة أي عسكري في أي عصر وأي بلد ، بل لاثارة أي رجل حتى ولو كان من انصار « الثورة الجنسية » المعاصرة ! ذلك ان احد « المتعممين » قد وقع بامضائه في آخر مكان يتوقع الرجل ان يرى آثار غيره هناك .. فضلاً عن التوقيع والكتابة !

والحكاية كما يرويها الجبرتي : « ان الأمير المذكور أختلى بمحظيته فرأى على سواتها كتابة (!!) فسألها عن ذلك وتهدها بالقتل فأخبرته ان المرأة الفلانية ذهبت بها الى هذا الشيخ (*) . وهو الذي كتب لها ذلك ليحببها الى

(*) الشيخ « احمد صادومه » وكان رجلاً مسنأداً شيبه وهيبة وله شهرة عظيمة وباع طويل في الروحانيات .

سيدها فنزل في الحال (اي في عنفوان الغضب) وأرسل فقبض على الشيخ « صادومة » المذكور وأمر بقتله والقائه في البحر. ففعلوا به ذلك . وأرسل الى داره فاحتاط بما فيها . فأخرجوا منها أشياء كثيرة وتمائيل منها تمثال من قطيفة على هيئة الذكر.. فأحضروا تلك الأشياء . فصار يريها للجالسين عنده والمترددن عليه من الامراء وغيرهم . ووضع ذلك التمثال يجانبه على الوسادة. فيأخذه بيده ويشير لمن يجلس معه ويتمجبون ويضحكون ويقولون انظر أفاعيل المشايخ. واتفق أيضاً ان الشيخ عبد الباقي طلق على زوج بنت أخيه في غيابه على يد الشيخ حسن الجداوي المالكي على قاعدة مذهبه وزوجها من آخر . وحضر زوجها (الأول) من الفيوم وذهب الى ذلك الأمير وشكاه للشيخ عبد الباقي . فطلبه ووجده غائباً في منية عفيف . فأرسل اليه اعواناً أهانوه وقبضوا عليه ووضعوا الحديد في رقبته ورجليه وأحضروه في صورة منكرة وحبسه في حاصل ارباب الجرائم من الفلاحين .

رغم كل مبررات الأمير في الشك بالمشايخ ، ورغم شكوى زوج المرأة ، ورغم وجود مصلحة شخصية للشيخ ، مما يريب فتواه، اذ ان الزوجة المطلقة هي بنت أخيه . الا ان الأمير تجاوز اختصاصاته اذ تدخل في الفقه، وشؤون المشايخ .. اختل الناموس : « فركب الشيخ علي الصعيدي والعدوي والشيخ الجداوي وجماعة كثيرة من المتعممين وذهبوا اليه وخاطبه الشيخ الصعيدي وقال له ما هذه الأفعال وهذا التجاري فقال له افعالكم يا مشايخ اقبح . فقال له هذا قول في مذهب المالكية معمول به فقال من يقول ان المرأة تطلق زوجها اذا غاب عنها وعندها ما تنفقه وما تصرفه (*) ووكيله يعطيها ما تطلبه، ثم يأتي من غيبته فيجدها مع غيره (؟) .. فقالوا له نحن أعلم بالاحكام

(*) واضح خطورة فتوى الشيخ ، على امراء الحرب الذين اخترع اقراهم في اوروا حزام العفة كحل لمشكلة غيابهم الدائم في الحروب في مجتمع لا طلاق فيه . فاذا يحدث لو ان كل امير فر الى الصعيد أو الى غزة .. طلق الشيخ زوجته وزوجها بأخر !

الشرعية . فقال لو رأيت الشيخ الذي فسخ النكاح . فقال الشيخ الجداوي انا الذي فسخت النكاح على قاعدة مذهبي . فقام على اقدامه وصرخ وقال والله أكسر رأسك . فصرخ عليه الشيخ الصعيدي وسبه وقال له لعنك الله ولعن اليسرجي الذي جاء بك . ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً . فتوسط بينهم الحاضرون من الامراء يسكنون حديثه وحدثهم . وأحضروا الشيخ عبد الباقي من الحبس فأخذوه وخرجوا وهم يسبون (أي الامير) وهو يسمعهم » (٣٩) .

اظن انها صورة لا تحتاج لتعليق لتوضيح المكانة التي كان يتمتع بها الشيوخ ، وهي بعيدة كل البعد عن تصور قارىء اليوم لكتابات الغربيين وتلاميذهم عن مجتمع مسحوق تحت استبداد المالك !

الحق ان مكانة الأزهر لم يُتطاول عليها ، ولم تتمن الا على يد نابليون وجيش الاحتلال الفرنسي ، الى أن انجز المهمة ، الحكم المتغرب الذي بدأه محمد علي وأكمله من جاءوا بعده ..

ولكن الأمير الجنون ، المطعون في شرفه من « المتعمين » والذي يعترض على فتوى خطيرة تبيح تطليق جميع نساء الامراء . ولا يكاد يوجد مملوك مشهور لم يفر الى الصعيد أو يختفي لفترة قد تمتد عدة سنين . وهو يتدخل بناء على شكوى مواطن عاد من غيبة فوجد زوجته زوجة لآخر !

حق هذا الأمير يتوجه اليه المشايخ في عقر داره فيسبون على مسمع من الامراء المالك ، ويعيرونه بوضاعة أصله كعبد ، ويلعنون من اشتراه ومن باعه ، وكله كلام يمس بقية الامراء الحاضرين بشكل مباشر . فيتوسط هؤلاء الامراء لتهدئة حدة المشايخ ، ويفرج فوراً عن الشيخ السجين ، بل ويؤتى به الى مجلس الأمير نكاية به ، ويأخذ المشايخ سجينهم الطليق ، وينصرفون ، لا شاكرين ولا هاتقين ب حياة العدل ، بل ينصرفون وهم « يسبون » الأمير « وهو يسمعهم » !

وعندما لجأ « حسن بيك الجداوي » اثناء مطاردته الدموية ، الى بيت الشيخ « احمد الدمنهوري » « فركب جماعة كثيرة من المحمدية (امراء محمد بيك ابي الذهب) وذهبوا الى بولاق وطلبوه فامتنع عن اجابتهم فلم يجسروا على اخذه قهراً من بيت الشيخ « وكان الشيخ « علي الصعدي » يمنع شرب الدخان في حضرته . وبحضرة أهل العلم عموماً « تعظيماً لهم . واذا دخل الى منزل من منازل الامراء ورأى من يشرب الدخان شنع عليه وكسر آلته ولو كانت في يد كبير الامراء . وشاع عنه ذلك وعرف في جميع الخاص والعام وتركوه بحضرته فكانوا عندما يرونه مقبلاً من بعيد نبه بعضهم بعضاً ورفعوا شبكاتهم وأقصاهم وأخفوها عنه وان رأى شيئاً منها انكر عليهم ووبخهم وعنفهم وزجرهم حتى ان علي بيك (*) في ايام امارته كان اذا دخل عليه في حاجه أو شفاة . أخبروه قبل وصوله الى مجلسه فيرفع الشبك من يده ويخفوه من وجهه وذلك مع عتوه وتجبيره وتكبره . واتفق انه دخل عليه في بعض الأوقات فتلقاه على عادته وقبل يده (**). وجلس فسكت الأمير مفكراً في أمر من الأمور فظن الشيخ اعراضه عنه . فأخذته الحدة . وقال مخاطباً له باللغة الصعيدية يا مين يا مين يا من هو غضبك ورضاك على حد سواء بل غضبك خير من رضاك . وكرر ذلك وقام قائماً وهو (أي الأمير) يأخذ بخاطره ويقول أنا لم أغضب من شيء ويستعطفه فلم يجبه ولم يجلس ثانياً وخرج ذاهباً ثم سأل علي بيك عن القضية التي أتى بسببها فأخبروه . فأمر بقضائها واستمر الشيخ منقطعاً عن الدخول اليه مدة « (٤٠) . حتى توسط والد الجبرتي .

وعندما اختلف المغاربة ، وحكمت المحكمة لصالح الشيخ « عباس » ضد الخصم الملتجئ الى الامير يوسف ، حنق الامير ونسبهم الى ارتكاب الباطل « وأرسل من طرفه من يقبض على الشيخ عباس المذكور من بين المجاورين .

(*) علي بيك الكبير اعظم ممالك هذه المرحلة .

(**) سلطان مصر والشام والحجاز هو الذي يقبل يد الشيخ الصعيدى .

فطردوا (المجاورون) الميعنين وشتموهم وأخبروا الشيخ أحمد الدردير فكتب
مراسلة الى يوسف بيك تتضمن عدم تعرضه لأهل العلم ومعاينة الحكم الشرعي
وأرسلها صحبة الشيخ عبد الرحمن الفرنوي وآخر فعندما وصلوا اليه وأعطوه
التذكرة . نهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم بالحبس . ووصل الخبر الى
الشيخ الدردير وأهل الجامع . فاجتمعوا في صباحها وأبطلوا الدروس والأذان
والصلوات . وقفلوا ابواب الجامع . وجلس المشايخ بالقبلة القديمة وطلع
الصفار على المنابر يكثرنون الصياح والدعاء على الأمراء وأغلق أهل الاسواق
القريبة الحوانيت . وبلغ الامراء ذلك فأرسلوا الى يوسف بيك . فأطلق
المسجونين . وأرسل ابراهيم بيك من طرفه ابراهيم اغا بيت المال فلم يأخذ
جواباً . وحضر الآغا الى الغورية ونزل هناك ونادى بالأمان وأمر بفتح
الحوانيت فبلغ مجاوري المغاربة ذلك . فذهب اليه طائفة منهم وتبعهم بعض
العوام وبأيديهم العصي والمساق ، وضربوا أتباع الآغا ورجوه بالاحجار
فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو وماليكه فقتل من مجاوري المغاربة
ثلاثة انفار وانجرح منهم كذلك ومن العامة . وذهب الآغا ورجع الفريق
الآخر . وبقي الهرج الى ثاني يوم فحضر اسمعيل بيك والشيخ السادات وعلي
اغنا كتحدا الجاوشية وحسن اغنا المتفرقة والترجمان وحسن افندي
كاتب حواله وغيرهم فنزلوا الاشرفية وأرسلوا الى أهل الجامع تذكرة بانقضاء
الجمع وتمام المطلوب . وكان ذلك عند الغروب فلم يرضوا بمجرد الوعد وطلبوا
الجامكية والجراية فركبوا ورجعوا وأصبح يوم الأربعاء والحال على ما هو
عليه واسمعيل بيك مظهر الاهتمام لنصرة أهل الأزهر فحضر مع الشيخ
السادات . وجلسوا بالجامع المؤيدي . وأرسلوا للمشايع تذكرة صحبة الشيخ
ابراهيم السندوبي ملخصها ان اسمعيل بيك تكفل بقضاء اشغال المشايخ وقضاء
حوائجهم وقبول فتوأمهم وصرف جماكيهم وجراياتهم . وذلك بضمان الشيخ
السادات له . فلما حضر الشيخ ابراهيم بالتذكرة وقرأها الشيخ عبد الرحمن
العريشي جهاراً وهو قائم على اقدامه . فلما سمعها أكثروا من الهرج واللفظ

وقالوا هذا كلام لا أصل له . وترددت الارساليات والذهاب والمجيء بطول
النهار ثم اصطلحوا وفتحوا الجامع في آخر النهار وأرسلوا لهم في يوم الخميس
جانبا من دراهم الجامكية . ومن جملة ما اشترطوه في الصلح عدم مرور الأغا
والوالي والمحتسب من حارة الأزهر وغير ذلك شروطاً (*) ... الخ (٤١)

وبالطبع عاد العسكر فنقضوا ما اتفقوا عليه .. ولكن تأزم الوضع
والمفاوضات وقدرة المشايخ على منع مرور الوالي والأغا والمحتسب من حارة
الأزهر مدة أربعة أيام تكفي للدلالة على قدرة المشايخ على المقاومة . وقدرتهم
على وضع حد لطغيان العسكر ، واحترام العسكر للشيوخ وخوفهم من
قدرتهم على تحريك العامة ..

كل هذه الحقائق واضحة من تفاصيل الحادث وتكشف حقيقة المكانة التي
كانت للشيوخ في مجتمع يسير في طريق الزوال واختلال كل العلاقات والقيم .

ولما اشتط امير الحاج في فرض الضرائب اثناء مولد سيدي احمد البدوي
في طنطا. « ركب الشيخ الدردير (**) بغلته وتوجه الى خيمة ككتخدا الكاشف
واستدعاه اليه » فحضر اليه والشيخ راكب على بغلته فكلمه ووبخه وقال له
انتم ما تخافوا من الله . ففي اثناء كلام الشيخ لكتخدا الكاشف هجم على
الكتخدا رجل من عامة الناس وضربه بنبوت فلما عين خدمه ضرب سيدهم
هجموا على العامة بنبابيتهم وعصيتهم « وهاجت الناس على بعضهم ووقع
النهب في الخيم وفي البلد » (٤٢) .

« ومولاي عبد الله صاحب المغرب » يستنكر ان يسكت شيوخ مصر

(*) سنة ١١٩١ هـ (١٧٧٧) .

(**) الشيخ الدردير له مقام ويزار في حي الأزهر كأحد الأولياء الى الآن. وهذه هي طريقة
المصريين في تحويل من يقود صراعهم ومن يدافع ويتبنى قضاياهم الى ولي بعد وفاته وتخليده ..
والمعكس صحيح !

على تجاوزات الامراء : « فكيف بعلماء مصر ومن بها من اعيانها لا يقومون بتغيير هذا المنكر الفادح بشيوخها وشبانها » (٤٣) .

وبالطبع كانت مكانة الأزهر تنسحب على شيوخه جميعاً بصرف النظر عن جنسيتهم - بالفاظ عصرنا - فالأزمة التي اثرتنا اليها حول حادثة الشيخ « عباس » ، كانت بسبب الاعتداء على الازهريين المغاربة .

ولما اهين الشيخ الشريف السيد « قاسم بن محمد » التونسي من طرف بعض الأمرء : « أغريت له العلماء وكادت ان تكون فتنة عظيمة (*) ولكن الله سلم » (٤٤) .

وإذا تدخل الامراء في تعيين شيخ الأزهر ابطل المشايخ تدبيرهم وثاروا عليهم . فلما تدخل ابراهيم بيك (احد الشقيين مراد و ابراهيم) . وعين الشيخ عبد الرحمن بن عمر العريشي الحنفي « انتدب لنقض ذلك بعض الشافعية الخاملين (!) وذهبوا الى الشيخ محمد الجوهري وساعدهم وركب معهم الى بيت الشيخ البكري وجمعوا عليهم جملة من أكابر الشافعية وكتبوا عرضحال الى الامراء مضمونه ان مشيخة الأزهر من مناصب الشافعية وليس للحنفية فيها قديم عهد أبداً » .

« وانهم اتفقوا على ان يكون المتعين لذلك الشيخ أحمد العروسي وختم الحاضرون على ذلك العرضحال وأرسلوه الى ابراهيم بيك ومراد بيك فتوقفوا وأبوا . وقال ابراهيم بيك أي شيء هذا الكلام . أمر فعله الكبار يبطله الصغار ولأي شيء ان الحنفية لا يتقدمون في المشيخة على الشافعية (?) الحنفية ليسوا مسلمين (!?) ومذهب النعمان أقدم المذاهب والامراء حنفية . والقاضي حنفي والوزير حنفي والسلطان حنفي . وثار فيهم العصبية وشدوا في عدم التقص » .

(*) سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) .

شرعاً وفقهاً ، الحق مع الأمراء . . ومن زاوية السيادة لديهم كل الحق .
اذ لا يعقل ان تحرم مشيخة الأزهر على المذهب الذي ينتمون اليه وينتمي
اليه السلطان نفسه !

لكن القضية هنا ، ليست قضية فقهية .. انها قضية احترام الناموس
الاجتماعي ، والتزام الجميع بتوزيع الاختصاصات الذي استقر عليه توازن
القوى في مصر .

«ورجع الجواب للمشايع بذلك فقاموا على ساق وشدد الشيخ محمد الجوهري
(الذي لم يقابل حاكماً في حياته.. الا نابليون ليرجوه اجلاء الخيل عن الأزهر)
في ذلك وركبوا بأجمعهم وخرجوا الى القرافة وجلسوا امام الشافعي
وباتوا به وكان ذلك ليلة الجمعة واجتمع الناس للزيارة فهرعت الناس واجتمع
الكثير من العامة ينظرون فيما يؤل اليه هذا الأمر. وكان للامراء اعتقاد وميل
للشيخ محمد بن الجوهري . وكذلك نساؤهم واغواتهم بسبب تعففه عنهم وعدم
دخول بيوتهم ورد صلاتهم (عطاياهم) وتميظه بذلك عن جميع المتعممين فسعى
اكثرهم في انفاذ غرضه وراجعوا مراد بيك وأوموه حصول العطب له ولهم
أو ثوران فتنة في البلد . وحضر اليهم علي أغا كتخد الجاويشية وحاججهم
وحاججوه ثم قام وتوجه وحضر مراد بيك أيضاً للزيارة فكلمه الشيخ محمد
وقال لا بد من فروة تلبسها للشيخ العروسي وهو يكون شيخاً على الشافعية
وذلك شيخاً على الحنفية كما ان الشيخ أحمد الدردير شيخ المالكية والبلد بلد
الامام الشافعي وقد جننا اليه . وهو يأمرك بذلك . وان خالفت يخشى
عليك . فما وسعه الا انه أحضر فروة وألبسها للشيخ العروسي عند باب
المقصورة. وركب مراد بيك متوجهاً. وركب المشايخ وبينهم الشيخ العروسي
وذهبوا الى ابراهيم بيك ولم يكن الامراء رأوا الشيخ العروسي ولا عرفوه
قبل ذلك فجلسوا مقدار مسافة شرب القهوة «(٤٥)» . ولم تكن الا جولة ،
وتابع المشايخ زحفهم فخلع العريشي وثبت العروسي في المشيخة بل وتدهور
حال العريشي الى ان مات قهراً !!

وكما لم يفد « العريشي » من كون السلطان والامراء والوزير والقاضي على المذهب الحنفي ، وانه هو مرشحهم المختار .. بل صرعه الناموس المصري ، كذلك فإن التعلل بأن هذه أوامر السلطان لم يكن ليمنع الشيوخ من الاحتجاج والاعتراض .

ففي سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥) أصدر السلطان مراسيم وأوامر منها : « ابطال مرتبات اولاد وعيال . ومنها ابطال التوجيهات . وان المال يقبض الى الديوان ويصرف من الديوان . وان الدفاتر تبقى بالديوان ولا تنزل بها الافندية الى بيوتهم . فلما قرىء ذلك . قال القاضي (التركي) أمر السلطان لا يخالف ويجب اطاعته . »

فماذا كان موقف الشيوخ في مواجهة هذا التهديد !؟

« فقال الشيخ سليمان المنصوري . يا شيخ الاسلام هذه المرتبات فعل نائب السلطان وفعل النائب كفعل السلطان . وهذا شيء جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين وتداولته الناس وصار يباع ويشرى ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبله ولا يجوز إبطال ذلك . واذا بطل بطلت الخيرات وتمطلت الشعائر المرصد لها ذلك . فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله ان يبطل ذلك . وان أمر ولي الأمر بابطاله لا يسلم له ويخالف أمره . لان ذلك يخالف للشرع . ولا يسلم للامام في فعل ما يخالف الشرع ولا لثانبه أيضاً فسكت القاضي . فقال الباشا هذا يحتاج الى المراجعة » (٤٦) .

هذه السطور الأخيرة من المرافعة الدستورية للشيخ المنصوري ، ليست كافية وحدها لكشف زيف كل ما يكتب عن الدور التحضيري الذي لعبته الحملة الفرنسية او الاستعمار الغربي ، أو أوروبا . في المفاهيم السياسية بالعالم الاسلامي !؟

هل هناك حكم بعدم دستورية مرسوم سلطاني أوضح وأجراً وأكثر دقة

من هذا الحكم الذي أصدره الشيخ المنصوري . فأسكت القاضي ، بل والزم الباشا ان يقول ان الامر يحتاج لمراجعة !

هذا المبدأ الخطير الذي يعلنه الشيخ « المنصوري » ببساطة في مواجهة نائب السلطان ، والذي يسقط الشرعية عن أي مرسوم سلطاني يخالف الشريعة ، أي يخالف الدستور .. الشرع .. يعلنه الشيخ الأزهري في سنة ١١٤٨ هـ . (١٧٣٥) ، أي قبل سقوط الباستيل بأكثر من نصف قرن ! قبل أن يفكر أي عقل غربي في القارة الأوروبية بجواز معارضة الملوك فضلاً عن ان يجروا على اعلان ذلك في مواجهة السلطة وبمثل هذا الوضوح والتحدي .

إن آخر ما يمكن ان تعلمه اوروبا للشرق الاسلامي ، هو فكرة بشرية الحاكم ومن ثم افتراض الخطأ او الصواب في احكامه . الأمر الذي ينبني عليه حق الاعتراض والنقد وبطلان الاحكام الخاطئة .

وهناك الحادثة المشهورة التي كان بطلها الشيخ « الشرقاوي » . عندما جاء الفلاحون من الشرقية يشكون ظلم اتباع محمد بيك الالفي ، وطلبهم من الفلاحين ما لا قدرة لهم عليه . « واستغاثوا بالشيخ فاعتناظ وحضر الى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا ابواب الجامع وذلك بعد ما خاطب مراد بيك وابراهيم بيك فلم يبديا شيئاً . ففعل ذلك في ثاني يوم وقفلوا الجامع وأمروا الناس بغلاق الاسواق والخوانيت . ثم ركبوا في ثاني يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا الى بيت الشيخ السادات وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة باب البركة بحيث يراهم ابراهيم بيك . وقد بلغه اجتماعهم فبعث من قبله ايوب بيك الدفتردار فحضر اليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم . فقالوا نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها » .

وكان الملوك رانعا (*) في صراحته ووضوحه فقال: «لا يمكن الاجابة على هذا كله فانتا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش والنفقات . فقيل له هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس وما الباعث على الاكثر من النفقات وشراء الممالك والأمير يكون أميراً بالاعطاء لا بالأخذ (مغالطة !) فقال حتى أبلغ . وانصرف . ولم يعد لهم يجواب . وانفض المجلس وركب المشايخ الى الجامع الأزهر . واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالمسجد وارسل ابراهيم بيك الى المشايخ يعضدهم ويقول لهم انا معكم . وهذه الأمور على غير خاطري ومرادي . وارسل الى مراد بيك يخيفه عاقبة ذلك . فبعث مراد بيك يقول أجيبكم الى جميع ما ذكرتموه إلا شئنين ديوان بولاق وطلبكم المنكسر من الجامكية . ونبطل ما عدا ذلك من الحوادث والظلم . وندفع لكم جامكية سنة تاريخه أثلاثا ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم باسمائهم . فذهبوا اليه بالجيزة . فلاطفهم والتمس منهم السعي في الصلح على ما ذكر . ورجعوا من عنده وباتوا على ذلك تلك الليلة . وفي اليوم الثالث حضر الباشا الى منزل ابراهيم بيك واجتمع الأمراء هناك وأرسلوا الى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير . وكان المرسل اليهم رضوان كتخدا ابراهيم بيك . فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعي خلفهم ودار الكلام بينهم وطال الحديث . وانخط الأمر على انهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح على ان يدفعوا سبعمائة وخمسين كيساً موزعة (الممالك يدفعون) وأن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق ويبطلوا رفع المظالم المحدثه والكشوفيات والتفاريذ والمكوس ما عدا ديوان بولاق . وأن يكفوا اتباعهم عن امتداد ايديهم الى أموال الناس . ويرسلوا صرة الحرمين والعوائد المقررة من قديم

(*) وهو الوحيد الذي فاز بالشهادة - كما يشهد له الجبرتي- في الدفاع عن مصر أمام الغزو النابليوني .

الزمان ويسيروا في الناس سيرة حسنة . وكان القاضي حاضراً بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وفرمن عليها الباشا وختم عليها ابراهيم بيك وأرسلها الى مراد بيك فختم عليها أيضاً وانجلى الفتنة ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية وفرح الناس وظنوا صحته وفتحوا الأسواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر (*) ثم عاد كل ما كان مما ذكر وزيادة (٤٧) .

غير ان تعليق الجبرتي ، ومزاجه النكد ، يجب ألا يفسدا علينا نحن ابناء القرن العشرين مغزى الحادثة . فليس المهم ان الاتفاقية نقضت ، فتاريخ الأمم يكاد ينحصر في اخلال الحكومات بالاتفاقيات أو الدساتير التي تجبر على اصدارها تحت الضغط .

ولكن المهم هو ان مجرد اقرار الاتفاقية ، وصدورها باسم العلماء : « على حسب ما رسم سادتنا العلماء » . والوصول اليها عبر ضغط وتحرك العامة ، وبعد مفاوضات ، كل ذلك يدل على أن الشيوخ والعامة لم يكونوا مجرد قوة رمزية ، بل كانوا يستطيعون دائماً تحويل كل مظهر سخط الى اضراب عام يتطور الى مواجهة شاملة تطالب باصلاحات أوسع من حدود المشكلة المباشرة التي أثارها الحادث . وانهم كانوا يستطيعون مواجهة الأمراء وفرض مطالبهم واجبارهم على التراجع والتسليم ولو بنية للغدر . « فالكواكي » بعد مائة سنة سيعلمنا ان « ملكة بريطانيا لو استطاعت أن تستبد ولو ساعة من عمرها لما ترددت (٤٨) » . فنية الغدر والتطلع الى الاستبداد والتهرب من التشريعات واصدار القوانين بنية نقضها صفة طبيعية في الحاكمين . ولكن أهمية هذه الحادثة التي وقعت عشية الحملة الفرنسية أهميتها في أن ابطالها هم ذات المشايخ

(*) سنة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤) .

الذين سترام في مقدمة المجتمع في ظل الاحتلال الفرنسي ثم في بداية عصر « محمد علي ». ومن هنا فأبي تهتك فكري ، أن يأتي كاتب يدعي أنه مؤرخ ، فيزعم ان هؤلاء المشايخ لم يشتركوا في قضايا المجتمع ، ولم ينالوا مكانة إلا بفضل الديوان الذي اخترعه نابليون !

هؤلاء المشايخ الذي تركهم « كبير » يبولون على أنفسهم ! بسبب فداحة الضريبة التي فرضها عليهم ، واكتفى بأن أعلنهم بها ، ثم انصرف ، وتركهم في حالة يرثى لها ، لا يملكون حتى حق التبول ! هم أنفسهم الذين يشورون قبل بضع سنوات من حملة نابليون بسبب ظلم وقع على بعض الفلاحين في مديرية الشرقية ، فيجبرون الأمراء على التفاوض معهم ، والنزول على ارادتهم وإلغاء جميع التشريعات الضرائبية ، بل وتمتد مطالبهم لتشمل السياسة الخارجية (ما دمنا نلعب بالكلمات !) فيقررون ميزانية الدعم للحرمين . ويستصدرون بذلك وثيقة يوقع عليها القاضي والأمراء ، ويخرجون الى الطرقات يعلنون باسم « السادة العلماء » صدور الدستور أو اللائحة أو الاتفاقية !

هؤلاء الشيوخ كان خلفهم العامة في مصر مستقلة .. ومن ثم فقد فرضوا ارادتهم .. ولكنهم في المرة الثانية ، كانوا يمثلون ثورة مهزومة ، في بلد محتل .. ولا شك ان الدور القيادي الذي لعبه شيوخ الأزهر ، يعود الى العقلية الاسلامية المتفوقة دائماً على انهيار العصر . والى الفهم الاسلامي المتقدم لدور الدين ورسالته في حياة الناس .. فهم لم يكونوا أبداً رجال كهنوت منعزلين عن مجرى الحياة العامة ، ولا كانوا كما تصورهم بعض الأقلام المعاصرة غارقين في الروحانيات ، لا يعلمون شيئاً عن العلوم الوضعية وأحوال المادة شيئاً ! ولا يقبلون أن يدرسوا هذه العلوم أو أن تدرس .

إن هذه الصورة الخاطئة ، المستوحاة من ثقافة وتفكير رجال الدين في أوروبا القرون الوسطى ، لا تنطبق على شيوخ الاسلام ولا في أحلك سنوات

انهيار حضارتنا وتخلفنا . لأن الشيوخ لا ينزلون عن الحياة العامة . ولأن هذه الصورة الهزلية التي تحدثنا عن انقسام العالم الى حضارتين : حضارة روحانيات وغيبيات ، لا تشتغل بأمر مادي ولا بعلم وضعي .. وأخرى حضارة مادية تختص وحدها بعالم المادة . هي صورة لا تتفق مع الواقع ولا تؤيدها الحقائق ، ولا تستقيم مع المنطق ، فالعالم لم يشاهد هذا الانقسام قط ، وأشد الحضارات بدائية مضطرة الى معالجة المادة لكي تكفل لنفسها الاستمرار .. والفارق هو في مدى حجم التقدم .

أما السبب الخاص بحضارتنا فهو طبيعة الدين الاسلامي التي تحتم دراسة العلوم . فعلم المواريث ، أعجوبة الاسلام ، يحتم دراسة الحساب بل ويقود الى الجبر ، وكذلك الزكاة . وضبط الكيل والميزان يفتح الباب لدراسة الاثقال والحجوم والروافع وخواص المواد التي تصنع منها . ومراقبة الهلال لمعرفة أوائل الشهور ودراسة حركة الشمس والظل لتحديد مواقيت الصلاة ، والعدة وتحرير القبلة .. كلها تحتم الاهتمام بدراسة الفلك وتقسيم الزمن وتفتح الباب لدراسات عن الضوء والجغرافيا والهندسة وتقود الى اكتشاف البوصلة ، أو كما قال الوزير التركي ، في تأكيد أهمية العلوم الوضعية : « وعلم الوقت من العلوم الشرعية بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهله (٤٩) » .

ولأن الاسلام ليس فيه اكليروس يملك ان يحلل أو أن يحرم دراسة علوم بعينها ، وأيضاً لهذه الطبيعة الخاصة بالفكر الإسلامي ، نجد أنه في أحلك عصور الانهيار كان البارزون من المشايخ يدرسون هذه العلوم ويمتلكون الآلات التي تعينهم على الدراسة .

ولا جدال ، في أن الفترة التي سبقت الغزو الفرنسي ، كانت المرحلة التي وصل فيها تخلفنا الى أبشع صورته ، ومع ذلك فتاريخ الجبرتي حافل بالمعلومات عن نوعية اهتمامات الشيوخ في هذه الفترة ، مما ينفي تماماً الصورة

الهزلية التي يقدمها مؤرخو الحملة وتلاميذهم ، عن انبهار الشيوخ بتكنولوجيا الفرنسيين من حيث كونها تكنولوجيا ، وان كانوا قد انبهروا - فعلاً - بتفوق الفرنسيين .

ان الشيخ سليمان بن طه ينصح تلميذه بتنوع المعرفة وتعدد الدراسات :
« ان مثلك لا يقتصر على فن من الفنون فالاعتصار ضياع » (٥٠) .

ولنتأمل نوعية العلوم التي درسها الشيخ أحمد الدمنهوري ، ولنتعرف على اساتذته :

ولد الشيخ الدمنهوري سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٩ م) ومات سنة ١١٩٢ هـ (١٧٧٨ م) (اي عاش قرابة قرن .. هو القرن السابق على قرن الغزو الأوروبي .)

درس الفقه على أفقه الشافعية في عصره ، عبد ربه بن احمد الديوي ، وعلى الشهاب الخليلي درس نصف المنهج وشرح الفية العراقي . وعلى ابي الصفاء الشنواني شرحي التحرير والمنهج وعلى عبد الدائم الاجهوري ابن قاسم والاجرومية .. (سنختصر في هذه العلوم وننتقل الى العلوم « المادية ») وأخذ عن الزعتري الميقات والحساب والمجيب والمقنطرات والمنحرفات وبعضاً من اللمعة . وعلى « السحيمي » منظومة الوفق الخمس ، وروضة العلوم . وعلى الشيخ سلامه الفيومي ، اشكال التأسيس والجفميتي . وعلى عبد الفتاح الدمياطي لقطة الجواهر ورسالة قسطا بن لوقا في العمل بالكرة ، ورسالة ابن المشاط في الاسطرلاب وابن المجددي « (٥١) .

وإذا تتبعنا وفيات الجبرتي سنجد باستمرار شيوخاً يهتمون بدراسات الفلك والكيمياء والرياضيات :

ففي وفيات ١١٢٢ (١٧١٠) أي قبل الحملة الفرنسية بتسعين سنة يحدثنا الجبرتي عن وفاة : « الاجل الفاضل العمدة العلامة رضوان افندي الفلكي

صاحب الزيج الرضواني الذي حرره على طريق الدر اليتيم لابن المهدي على اصول الرصد الجديد السمرقندي . وصاحب كتاب أسنى المواهب وغير ذلك تأليف وحسابيات وتحقيقات لا يمكن ضبطها لكثرتها وكتب بخطه ما ينيف عن حمل بعير مسودات وجداول حسابيات وغير ذلك وكان يسكن بولاق منجمعا عن خلطة الناس مقبلا على شأنه . وكان في أيامه حسن افندي الروزناجي وله رغبة ومحبة في الفن . فالتمس منه بعض آلات وكرات فأحضر الصناع وسبك عدة كرات من النحاس الأصفر ونقش عليها الكواكب المرصودة وصورها ودوائر العروض والميول وكتب عليها اسماءها بالعربي ثم طلاها بالذهب وصرف عليها أموالا كثيرة وذلك في سنة اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ومائة والف (قبل مائة عام من انشاء المجمع العلمي الفرنسي في القاهرة) واشتغل عليه الجمالي يوسف مملوك حسن افندي المذكور وكلاجه وتفرغ لذلك حتى أنجب وتمهر وصار من المحققين في الفن واشتهر فضله في حياة شيخه وبعده وألف كتابا عظيما في المنحرفات جمع فيه ما تفرق من تحقيقات المتقدمين وأظهر ما في مكنون دقائق الأوضاع والرسومات والاشكال من القوة الى الفعل . وهو كتاب حافل نادر الوجود . وله غير ذلك كثير . ومن تأليف رضوان افندي المترجم النتيجة الكبرى والصغرى . وهما مشهورتان متداولتان بأيدي الطلبة بأفاق الأرض . وطرز الدرر في رؤية الأهله والعمل بالقمر وغير ذلك « (٥٢) .

في سنة ١١٥٨ (١٧٤٥) مات «الامام العمدة المتقن المتقن الشيخ رمضان ابن صالح بن عمر السفطي الخوانكي الفلكي الحيسوبي» (*) . . . حسب المحكمات وقواعد المقومات على اصول الرصد السمرقندي الجديد . ومن تصانيفه نزهة النفس بتقويم الشمس بالمرکز والوسط فقط . والعلامة بأقرب طريق وأسهل مأخذ وأحسن وجه مع الدقة والأمن من الخطء وحرر طريقة أخرى

(*) وهو صديق حميم لوالد الجبرتي .

على طريق الدر اليتيم يدخل اليها بفاضل الايام تحت دقائق الخاصة ويخرج منها المقوم بغاية التدقيق لمرتبة الثوالت في صفحات كبيرة متسعة في قالب الكامل . واختصرها الشيخ الوالد في قالب النصف . ويحتاج اليها في عمل الكسوفات والخسوفات والاعمال الدقيقة يوماً يوماً . ومن تأليفه كفاية الطالب لعلم الوقت وبغية الراغب في معرفة الدائر وفضله . والسمت والكلام المعروف في اعمال الكسوف والخسوف والدرجات الوريقة في تحرير قسي العصر الأول وعصر ابي حنيفة . وبغية الوطر في المباشرة بالقمر . ورسالة عظيمة في حركات الافلاك السيارة وهيأتها وحركاتها وتركيب جداولها على التاريخ العربي على اصول الرصد الجديد . ومطالع البدور في الضرب والقسمة والجدور . وحرك ثلثانة وستة وثلاثين كوكباً من الكواكب الثابتة المرصودة بالرصد الجديد بالاطوال والابعاد ومطالع المعر ودرجاته لاول سنة تسع وثلاثين ومائة والف . والقول المحكم في معرفة كسوف النير الاعظم . ورشف الزلال في معرفة استخراج قوس مكث الهلال بطريقي الحساب والجداول . وأما كتاباته وحسابياته في أصول الظلال واستخراج السموت والداياتر فشيء لا ينحصر ولا يمكن ضبطه لكثرتة « (٥٣) .

وفي سنة ١١٥٣ (١٧٤٠) مات «الاستاذ النجيب الماهر المتقن جمال الدين ابن يوسف . قرأ القرآن وجود الخط وتوجهت همته للعلوم الرياضية كالهئية والهندسة والحساب والرسم فتقيد بالعلامة الماهر رضوان افندي واخذ عنه واجتهد وتمهر وصار له باع طويل في الحسابيات والرسميات ، وساعده على ادراك مأموله ثروة مخدومه ، فاستنبط واخترع ما لم يسبق به وألف كتاباً حافلاً في الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاويل والاسطحة جمع فيه ما تفرق في غيره من أوضاع المتقدمين بالاشكال الرسمية والبراهين الهندسية والتزم المثال بعد المقال . والف كتاباً أيضاً في منازل القمر ومحلها وخواصها وسماها كنز الدر في احوال منازل القمر . وغير ذلك واجتمع عنده كتب

وآلات نفيسة لم تجتمع عند غيره . ومنها نسخة الزيج السمرقندي بخط المعجم وغير ذلك» . (٥٤)

وفي وفيات سنة ١١٩٢ (١٧٧٨) يحدثنا الجبرتي عن الوجيه المبجل عبدالسلام افندي مدرس المحمودية . كان إماماً فاضلاً محققاً له معرفة بالأصول وكان يقرأ فيها الدرر لمنلا خسرو وتفسير البيضاوي ، وكان له تعلق بالرياضيات وقرأ على المرحوم الوالد اشياء من ذلك واقتنى آلات فلكية نفيسة بيعت في تركته « (٥٥) .

وفي نفس السنة مات « الوجيه المبجل بقية السلف سيدي عامر ابن الشيخ عبدالله الشبراوي تربي في عز ودلال وسيادة ورفاهية . وكان نبيلاً نبياً إلا أنه لم يلتفت الى تحصيل المعارف والعلوم ومع ذلك كان يقتني الكتب النفيسة ويبذل فيها الرغائب واستكتب عدة كتب بخط المرحوم الشيخ حسن الشعراوي ومن ذلك مقامات الحريري وشرحها للزمزمي وغيرها وجعلها ذهبها ونقشوا اسمه في البصمات المطبوعة في نقش الجلود بالذهب . وعندي بعض على هذه الصورة . ورسم باسمه الشيخ محمد النشيلي عدة آلات فلكية وأرباع وبسائط وغير ذلك . وأعتنى بتحريرها واتقانها وأعطاه في نظير ذلك فوق مأموله « (٥٦) .

وفي ١١٩٤ (١٧٨٠) مات « الفقيه العلامة الصالح المعمر الشيخ عبد الله خزام الفيومي ، تولى الافئدة . وكانت له معرفة تامة في علم المذهب وغيره من الفنون الغربية كالفلك والهيئة والميقات وعنده آلات لذلك « (٥٧) .

بل نستطيع أن نقف طويلاً عند فقرات أثبتتها الجبرتي في ترجمة أبيه :

« درس أشكال التأسيس في الهندسة وتحرير اقليدس ، والمتوسطات والمبادئ والغايات والأكر وعلم الارتباطيقى . وجغرافيا وعلم المساحة « (٥٨) .

وكانت مكتبته تضم كتباً « بها من التشاويه والتصاوير البديعة الصنعة

الغريبة الشكل. وكذلك الآلات الفلكية من الكرات النحاس التي كان اعتنى بوضعها حسن افندي روزنامجي بيد رضوان افندي الفلكي كما تقدم. ولما مات حسن افندي المذكور اشترى جميعها من تركته . وكذلك غيرها من الآلات الارتفاعية والميالات وحلق الأرصاد والأسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية وأدوات غالب الصنائع ، (٥٩) .

بل نقف أمام نقطة هامة جداً وردت عرضاً في ترجمة الجبرتي لوالده ، ولا ندري لماذا لم تستوقف الباحثين عن كل شاردة وواردة تثبت تخلفنا المتأصل وليس العارض !

والد الجبرتي كان أشبه الرجال بعلماء أوروبا في عصر النهضة فقد كان « فريداً في صناعة التراكيب والتقاطير واستخراج المياه والادهان » .

وهنا نخبرنا الجبرتي بالواقعة المثيرة.. وهي حضور بعض طلبة الافرنج (أي من الأوروبيين وربما من الفرنسيين بالذات) الى القاهرة حيث درسوا على الشيخ الجبرتي الكبير ، وتبادلوا معه المعلومات والآلات العلمية بل ويعتقد الجبرتي ان هذه المعلومات التي تلقوها عن والده كانت الأساس في التطبيقات او الإنجازات التكنولوجية التي تحققت في أوروبا . ولعلنا نجد في هذه الفقرة من تاريخ الجبرتي ، أول تعريف عربي ، بل – وربما أدق تعريف حتى اليوم رغم تعدد القواميس المصرية – للتكنولوجيا .. عندما يتحدث الجبرتي عن الدور الذي قام به هؤلاء الطلبة في الانتفاع بالمعلومات النظرية التي تلقوها من والده فيقول انهم اخرجوا العلم من « القوة الى الفعل » . وفي اعتقادي ان هذا هو التعريف الذي نطلبه لكلمة : « تكنولوجيا » .

وحتى اذا كان تدهورنا الحالي لا يسمح لنا بالتشبث بفرضية الجبرتي عن الدور الذي لعبته معارف والده في تطور الصناعة الأوروبية ، ولا شك أنه غالى بعض الشيء ، إلا أنه لم يذهب بعيداً في تصور المسار الذي سلكته الحضارة . فما من شك في أن أوروبا قد نقلت المعرفة النظرية المتقدمة التي

وصل اليها العقل العربي . ولكن ظروفًا عديدة أشرنا الى بعضها (*) ، جعلت أوروبا هي المكان الذي طبقت فيه هذه الحقائق العلمية على الصناعة ، فكانت النهضة والصناعة الحديثة فالثورة الصناعية .

يقول الجبرتي :

« وحضر اليه طلاب من الافرنج وقرأوا عليه علم الهندسة وذلك سنة تسع وخمسين (١١٥٩ هـ ١٧٤٦ م) وأهدوا له من صنائعهم وآلاتهم اشياء نفيسة . وذهبوا الى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم من ذلك الوقت . وأخرجوه من القوة الى الفعل . واستخرجوا به من الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الاثقال واستنباط المياه وغير ذلك » (٦٠) .

هل يمكن أن يتفق هذا الشموخ والاعتزاز من جانب الجبرتي بحضارته ، وهذا الوعي بتطور المعرفة ودور أمته في البناء الحضاري والعلمي للانسانية .. هل يتفق ذلك وهذه الصورة المزرية التي يرسمها له بعض المؤرخين كأنه استرالي أصلي او هندي أحمر يدخل معملًا اليكترونيًا ، عندما يتحدثون عن انبهاره في المجمع العلمي الذي اقامه نابليون .

لا شك أن « الجبرتي » أعجب بالآلات الفرنسية والانجليزية ، واعجابه بالثانية كان دائمًا اكبر ، ولكنه لم يقف ابدأ موقف المسحوق حضارياً ، او الأبله الحائر يفتش عن سبب خفي لتقدمهم وتحلف قومه ، فضلاً عن أن يرجع ذلك الى الايديولوجيات ! بالعكس .. ان تفسيره للفارق الحضاري بين الغرب والشرق أحلم وأصح من كل التفسيرات التي تشيد بدور الحملة الفرنسية . فهو يشير الى انهم في الغرب درسوا علم الهندسة ، وطبقوه واستخرجوا منه الصناعات البديعة . ونحن لم نفعل .. فتقدموا وتحلفنا .. وإذا فعلنا نتقدم .. فلا ألتغاز ولا تحاليل .

(*) راجع كتابنا : « طريق المسلمين الى الثورة الصناعية » .

وتتابع ترجمة والد الجبرتي - اصل الحضارة في اعتقاد ابنه - « وفي أيام اشتغاله بالرسم . رسم ما لا يُحصى من المنحرفات والمزاويل على الرخام والبلاط الكذبان ونصبها في أماكن كثيرة ومساجد شهيرة » (٦١) .

« وحتى ان الخدم تعلموا ذلك (من والده) فصاروا يقطعون البلاط بالمناشير ويمسحونه بالماسح الحديد والمبارد . ويهندسون اعتداله بالمسطر والقياسات بالبياكر بل ويرسمونه ايضاً . وأما ما كان على الرخامات فيباشر صناعته وحفره صناع الرخام بالأزمير بعد التعليم على مواضع الرسم ومقادير ابعاد المدارات والظلال . وما عليها من الكتابة والتعاريف . ولما تمهّر الآخذون عنه والملازمون عنده ترك الاشتغال بذلك وأحال الطلاب عليهم واشتغل هو بدراسة الفقه واقرائه » .

ومن مؤلفات والد الجبرتي ، او تراثه العلمي الذي خلفه :

« براهين هندسية شتى وما له من الرسومات المخترعة والآلات النافعة المبتدعة ومنها الآلة المربعة لمعرفة الجهات والسمت والانحرافات بأسهل مأخذ وأقرب طريق . والدائرة التاريخية . وبركار الدرجة . واتفق انه في سنة اثنتين وسبعين (١١٧٢ هـ - ١٧٥٨ م) وقع الخلل في الموازين والقبانين وجعل أمر وضعها ورسمها بعد تحديدها وريجها ومشيلها واستخراج رمامينها . وظهر فيها الخطأ واختلفت مقادير الموزونات وترتب على ذلك ضياع الحقوق وتلاف الأموال وفسد على الصناعات تقليد الذي درجوا عليه فعند ذلك تحركت همّة المترجم لتصحيح ذلك .. وأحضر الصناعات لذلك من الحدادين والسباكين وحرر المثاقيل والصنجات الكبار والصغار والقرسطونات ورسمها بطريق الاستخراج على اصل العلم العملي والوضع الهندسي وصرف على ذلك اموالاً من عنده . ابتغاء لوجه الله . ثم أحضر كبار القبانية والوزانين مثل الشيخ علي خليل والسيد منصور والشيخ علي حسن والشيخ حسن ربيع وغيرهم وبيّن لهم ما هم عليه من الخطأ وعرفهم طريق الصواب في ذلك

وأطلعهم على سر الوضع والصنعة ومكنونها . وأحضروا العدد وأصلحوا منها ما يمكن اصلاحه وأبطلوا ما تقادم وضعه وفسدت لقمه ومراكزه وقيدوا بصناعة ذلك الأسطى مراد الحداد ومحمد بن عثمان حتى تحررت الموازين وانضبط أمرها وانصلح شأنها .

هل يختلف تاريخ الجبرتي الوالد ، عن تاريخ ابي عالم من علماء عصر النهضة في اوروبا؟! لولا ان تاريخهم كأهم سار الى الأمام فازداد تألق الأفراد والرواد .. فما يجيي ذكرى الأسلاف إلا نجابة الأحفاد . وتاريخنا كأمة تدهور الى الحضيض فمحت ظلاماته المعاصرة حتى نجوم الفجر الذي لم يكتمل . وهل نحن إلا الخلف الذي يأتي لأهله باللعنة !

لولا ان علماء اوروبا وجدوا نظاماً ومؤسسات اجتماعية شجعتهم واحتضنت أبحاثهم . ووالد الجبرتي ، وأمثاله ، بددت اعمالهم على يد سلطة سفيهة منهارة ، أبداع ابنه المؤرخ ، في عرض جريمتها عندما تحدث عن مصير المزولة التي وضعها بأعلى القصر فقال :

« واخرى عظيمة بسطح الجامع بقي منها قطعة وكسر باقيها فراشو الامراء الذين كانوا ينزلون الى هناك للنزاهة (النزهة والتمتع) ليمسحوا بها صواني الأطعمة الصفر » .

ولولا اننا رزنا بالاحتلال الغربي ، ومثله « الوطني » « محمد علي » ، الذي عزل العلم عن الأزهر ، لا حرصاً على التقدم العلمي ، بل لتأكيد تخلفنا النهائي في السباق الحضاري . إذ أنه - كما سنبى - كان يستحيل تحقيق نهضة حقيقية بمعزل عن الأزهر .. ولذلك كان قرار انشاء المدارس الحديثة موجهاً ضد الأزهر . وأهم من ذلك ضد كل المحاولات الجادة لتحقيق النهضة . وستتناول ذلك بالتفصيل في موضعه بإذن الله .

بل كان الجبرتي في صباه يسهر الليالي مع زملائه (سيدي محمد وهو الاكبر

وسيدي ابو بكر اولاد الشيخ ابو عبد الله محمد بن الطالب بن سوده المري
الفاسي التاودي المولود بفاس سنة (١١٢٨ هـ - ١٧١٥ م) :

« نزعى المطالع والمغرب وممرات الكواكب بالسطح حذاء خيط المسطرة .
وزاجع الشيخ فيما يشكل علينا فهمه . وهو معنا في ناحية اخرى . وأوقفت
سیدی ابا بكر على طريق رسم ربع الدائرة المقنطر والمجيب » .

حتى بين الممالك يحدثنا الجبرتي عن الذي « أنجب وحسب ورسم واشتغل
فكره بذلك ليلاً ونهاراً ورسم الأرباع الصحيحة المتقنة الكبيرة والصغيرة
والمزاويل والمنحرفات وغير ذلك من الآلات المبتكرة والرسميات الدقيقة » (٦٢) .

ولنتأمل هذه اللوحة من روح او بقايا « عطر هذه الحضارة التي كان قد
فرغ الوعاء منه منذ قرون » .. من تلك الوثيقة التي كتبها الشيخ « محمد
مرضى » للتريخ بصنع السلاح .

قبعد أن أشار الى ضرورة أخذ الفن والصنعة عن اسانذتها « إذ أن صنعة
بلا استاذ يدركها الفساد » . وبعد ان يشرح مشروعية صناعة السلاح ..
ويؤكد صلاحية المرخص له واثقانه لهذا الفن، يشترط عليه : « تواضع النفس
وحملها على مكارم الأخلاق وأن لا يرفع نفسه على أحد وأن لا يحقر احداً من
خلق الله وأن يجعل دأبه لزوم الصمت والإدمان والقناعة بالقليل مع المداومة
على ذكر الله بالسكينة والوقار وأن يسمي الله في اول مسكه في صنعته
ويستمد من الله القوة والحول ولا يضجر ولا ييأس من روح الله ولا يسب نفسه
ولا قوسه ولا سهامه ولا يحدث نفسه بالمعجز فانه يصل الى ما وصل اليه غيره
فان الرجال بالهمم ففي الحديث: المؤمن القوي أحب الى الله من المؤمن الضعيف
وفي كل خير . وأن يديم النظر الى معرفة العيوب العارضة للقسي والسهام
وعقد الأوتار ويتعاهد لذلك . وكيفية إزالة العيب ان حدث ويعرف من أي
حدث وأن لا يبيع سلاح المجاهد لكافر . ويفتش عن دين من يشتري ان كان
رجلاً او صبياً ، فيحتاج ذلك الى أذن والده . فاذا علم اسلامه ووثق فيه

فياخذ عليه العهد أن لا يرمي به مسلماً ولا معاهداً ولا كلباً ولا شيئاً من
ذات الأرواح . إلا أن يكون صيداً او ما يجب قتله . وأن لا يعلم صنعته
إلا لأهله الذي يثق بدينه ، فقد روي أنه لا يحل منع العلم عن مستحقه .
ويجب اعطاؤه بحقه سيما ان كان عارفاً بقدر العلم راغباً فيه طالباً لوجه الله
تعالى لا للمباهاة والمفاخرة . ويجب عليه ان يروض تلامذته ويؤلف بينهم
ويحرضهم على العمل . ولا يعاقبهم إلا في خلوة وهو مع ذلك لازم الهيبة كثير
السكوت متأن في الأمور غير عجول للجواب . والتقوى اصل كل شيء « (*) .

(*) عن وفيات سنة ١٢٠٦ هـ ١٧٩١ م .

العامة

أما عن العامة ، فبالنسبة للفلاحين لم تتغير صورتهم كثيراً.. وان كان يؤسهم يزداد باستمرار .

ولعلنا نتعرف على ملاحظهم في صورة مصرع « جر كس بيك » حيث المركة الطاحنة تدور بين المماليك ، والفلاحان في حقلها يديران الشادوف ويفنيان في هدوء وعزلة مطلقة .. يزرعان القمح الذي سينهبه الأمير المنتصر، والكتنان الذي سيكفن به الامير المهزم .

فلما انهزم « جر كس » وعثر جواده في التربة وغرق .. استخرجا جثته وجرداه من كل ما له قيمة، وقاما بدفن ما سلباه في الارض. ثم حملا الجثة وسارا الى البيك المنتصر فقبلا يده . وقالوا : « هذا من المهزومين فلعله مطلوبك يا بيك ! »

وبلا كلمة واحدة ولا سؤال.. أخذ أحدهما ووضع في الحديد واطلق الآخر ليخرج المحبآت ! ولو كانا مملوكين لما استخدم معها هذا الأسلوب أبداً لأن الثاني كان سيبادر فوراً بالافلات مغتبطاً بمضاعفة نصيبه بمصرع شريكه . ولكن الفلاح المصري لا يفعلها ولا يستطيع ان يواجه القرية أو الكفر بعارها.

فسرعان ما ذهب وعاد بالكنز .

هذه هي العلاقة التي قامت بين المالك والفلاحين . فالفلاح مالك حقيقي لانتاج حقله . والملوك مهمته بل حياته تتوقف على نجاحه في نهب اكبر قدر ممكن من هذا الانتاج.. تحت شتى الاسماء القانونية أو بالنهب الصريح.. والفلاح يخفي انتاجه وثروته ، في اعماق الارض أو الزيلع المدفونة في الجدران « بليس عليها بالطين » . ولا سبيل لاجراجها الا بوضعه في « الترسيم » . أي القيد والضرب. وكما قيل كان الجميع يدفعون ويخرجون الخبآت ولكن بعد الضرب. وكانوا يتباهون من الذي « أقر » بمكان المال بعد ضرب اكثر (والمفروض أن تكون الشطارة . ما دام الجميع سيعترفون . المفروض ان تكون الشطارة في تجنب الضرب !) ولكنها وسيلة الفلاحين في الرفض . فضلاً عن ان الدفع بسهولة يغري بالمطالبة اكثر .

والفلاحون بعد ذلك يقاومون اذا ما تجاوز النهب حده الممكن المتعارف عليه ، يقاومون بأنفسهم أو يستغيثون بالمشايخ . أو يهجرون الأرض ويحفظون على المدينة . وهذه في الحالات التي يختل فيها الناموس تماماً . فلما زاد عسف الصنجق « ابراهيم جريحي » تربص الفلاحون من اهالي سندبيس ومنية خلفه ، حتى سقط حاميه ، فاجتمعوا « وقتلوه وحرقوه بالنار » .

وقد رأينا كيف كانت شكوى فلاحي الشرقية للشيخ الشرقاوي سبباً في الاضراب الكبير الذي انتهى بأشهر وثيقة حقوقية لهذه الفترة — عند بعض المؤرخين — .

كذلك كان انضمام الفلاحين وترحيبهم بـ « حسن باشا القبطان » سبباً في انتصاره على « مراد بيك » و « ابراهيم بيك » ..

كان الفلاح يواصل مهمته التاريخية التي لم تتغير منذ ظهور أول فرعون .. وهي مهمة اطعام كل البنيان الفوقي ، أو كل الفئات التي يتكون منها المجتمع

المصري ولا تعمل بالزراعة (*) .

ويسام الفلاح - بنفس الطريقة - منذ فرعون الأول الى اليوم ، في تحقيق « رخاء » مصر العجيب أو رخص الاسعار المذهل . لا بتفانيه في الانتاج فحسب بل وأهم من ذلك - في نظري - امتناعه عن الاستهلاك ، فالفلاح كان ولا زال هو المنتج الاول والمستهلك الأخير (**). وهذا هو سر رخاء مصر حتى عندما تصل الاوضاع في المدينة الى أسوأ مستوى اداري ممكن ، حتى حينما تبذرت أموال مصر بسفاهة الحاكمين . ولا تقع المجاعة الا عندما يصل السفه الى حد التدخل في انتاج الفلاح ذاته ، أو تنهار الادارة الى حد منعه من الانتاج . وقتها حتى مصر تعرف المجاعات : « استهل المحرم ١٢٠٧ (١٧٩٢) يوم الخميس والأمر في شدة من الغلاء ، وتتابع المظالم وخراب البلاد وشتات أهلها وانتشارهم بالمدينة حتى ملؤا الاسواق والأزقة رجالاً ونساء وأطفالاً سيكون ويصبحون ليلاً ونهاراً من الجوع ، ويموت من الناس في كل يوم جملة كثيرة من الجوع ، وكثر الصباح والعميل ليلاً ونهاراً فلا تكاد تقع الأرجل الا على خلائق مطروحين بالأزقة واذا وقع حمار أو فرس تراحوا عليه وأكلوه نيئاً ولو كان منتناً حتى صاروا يأكلون الاطفال » (٦٥) .

وعندما يصل نظام حكم بمصر الى المجاعة فلا بد أن ينهار.. وفعلاً لم يعيش النظام بعد هذه المجاعة الا ست سنوات واندرث الى الأبد ..

اما العامة في المدن ، وفي القاهرة والاسكندرية بالذات ، فهم يشكلون قطاع التجار والحرفيين واولاد البلد ، والى جانبهم يعيش قطيع هائل من

(*) هذه هي المهمة الرئيسية للفلاح ، ولكن ليس صحيحاً انه كان معقياً من الخدمة العسكرية . فرسوم سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥) يطلب جنوداً ويستثني مناطق : « ولا يرسلوا عسكرياً من فلاحين القليوبية والجيزة والبحيرة وشرق اطمح والنصورة (٦٣) .

(**) ولا يخلو تاريخ الفلاحين في هذه الفترة العجيبة من نماذج شاذة فهناك الفلاح الذي اصبح استاذاً اي يملك مالميكاً واصبح بماليكه امراء (صالح الفلاح) (٦٤) .

الدرراوئش والمجاذيب ، تحذوا السلطة بالانجذاب ، وحلوا مشكلة الارتزاق
برفض الانتماء الى المجتمع المنتج .. وانضموا لطاوير آكلي انتاج الفلاح. ولو ان
هؤلاء يأكلونه برضاء الفلاح وتبركه !

« ليتنا لم نعش الى ان رأينا
كل ذي جنة لدى الناس قطبا
علما هم به يلوذون بل قد
تخذوه من دون ذي العرش ربا
هكذا المشركون تفعل مع أص
نامهم تبغني بذلك قريبا (*)

« مات الاستاذ بقية السلف . الشيخ مصلح الدين .. كان رجلا مهيبا
مجذوبا » (**).

كان العامة يحبون حياتهم الخاصة ، محافظين على تقاليدهم ، يحترمون
الشيخ ويسخرون من المالك بأللوب المصريين من خلال اطلاق الألقاب
الهزلية عليهم : « بارم ذيله » « المنفوخ » « ابو نبوت » لأن « علي بيك
الكبير » ضربه بالنبوت . « صنجدق سته » لأن أم عمر بيك ، تزوجت به
وقلدته الصنجدقية مكان سيده . وهي تسمية لا يمكن ان تنطلق من تركي أو
مملوك ، حتى لو تعلم العربية لعدة اجيال ، بل تسمية مصرية أصلية .. « جلب
القرد » « ابو مناخير فضة » . « السبع بنات » وهي افطع تشنيعه على
جنرالات أو صنجدق علي بيك الكبير !

(*) من شعر الشيخ حسن البدرى التوفى سنة ١١٣١ هـ (١٧١٨)

(**) لغز حقيقي بفاهميننا الآن ان يكون الرجل مجذوبا مهيبا ولكن اغرب منه ان يكون
« المجذوب الصاحي » .

أو باطلاق الامثال : « آخر خدمة الغزعلقة » « العبد وسيدته على باب الله » .

فاذا تجاوز الاستبداد الملوكي حده .. ثار العامة وتظاهروا ونهبوا وحرقوا وقتلوا ..

فلما نهب حسين بيك بيت « احمد سالم الجزار » « حتى مصاغ النساء والفراس ورجع والناس تنظر اليه » . « ثارت جماعة من أهل الحسينية بسبب ما حصل في أمسه من حسين بيك وحضروا الى الجامع الأزهر ومعهم طبول والتف عليهم جماعة كثيرة من اوباش العامة والجميدية وبايديهم نبايت ومساوق . وذهبوا الى الشيخ الدردير فونسهم وساعدهم بالكلام . وقال لهم انا معكم فخرجوا من نواحي الجامع وقفلوا ابوابه وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول وانتشروا بالأسواق في حالة منكرة(*) واغلقوا الحوانيت وقال لهم الشيخ الدردير في غد نجتمع أهالي الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم . فلما كان بعد المغرب حضر سليم آغا مستحفظان ومحمد كنتخدا ارنؤد الجلفي كنتخدا ابراهيم بيك وجلسوا في الغورية ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وتكلموا معه . وخافوا من تضاعف الحال . وقالوا للشيخ اكتب لنا قائمة بالمنهوبات ونأتي بها محل ما تكون . واتفقوا على ذلك وقرؤا الفاتحة . وانصرفوا وركب الشيخ في صباحها الى ابراهيم بيك وأرسل الى حسين بيك فأحضره بالمجلس وكله في ذلك . فقال في الجواب . كلنا نهابون انت تنهب ومراد بيك ينهب وانا انهب كذلك وانفض المجلس وبردت القضية » (٦٦) .

(*) يجب ان نلاحظ من الآن ان الجبرتي ضد تجاوز العامة للمشايع . فهو الملتزم الاول

بالتاموس .

كان المالك قد اكتشفوا واستفادوا من صفة أساسية في تحركات شعبنا ، هي الانفعالية وانعدام التنظيم الذي يتابع المقاومة .. لذلك كان اجتهادهم دائماً ، هو صرف الجماهير المنفعلة و « تبريد » القضية . فإذا ما انصرفت الجماهير ، صعب ان نقل استحالة تحريكها مرة أخرى . لذلك كان القصاص الرادع هو ما تنزله العامة قبل أن تبرد القضية .

فلما قتل اتباع السردار (*) « قتييل من أهل البلد (الاسكندرية) ثار العامة وقبضوا على السردار وأهانوه وجرسوه على حمار وحلقوا نصف لحيته وطافوا به البلد وهو مكشوف الرأس وهم يضربونه ويصفعونه بالنعالات » (٦٧) .

كان اولاد البلد يعيشون في حارات وصفها الشيخ حسن البديري :

« حارات اولاد العرب سباع حوت من الكرب
بولاً وغائطاً كذا ترب غبار سو أدب
وضجة وأهلها شبه عفاريت الترب

إلا ان المساتير كانوا يعيشون في بيوت نظيفة أنيقة وكان التجار منهم يمتلكون ثروات هائلة هي بقايا الثراء الذي حققه احتكار التجارة بين الشرق والغرب لعدة قرون . ثروة كانت تتجلى في القدرة على الانفاق في الافراح ، والقدرة على اشباع سعار المال لدى الحاكمين ، بمالك كانوا او محتلين أجاناب — كما كان الحال مع الحملة الفرنسية — القدرة على الاستمرار بعد كل المصادرات والفرد والمكوس والميري والاكياس التي لا حصر لها والتي يدفعونها لعدة سنوات مقدماً .

وكانت لهم مكانتهم وقدرتهم على الاحتجاج والمقاومة . علاقتهم بالسلطة والقانون هي ما أعلنه السيد « باكير » من أكبر التجار في مواجهة الباشا الذي اتهم التجار بأنهم « تحتلسون الكثير من المحزوم والبضاعة وتأتون بها من

(*) سنة ١١٩٩ - ١٧٨٤ .

غير جرك ولا عشور . « فرد السيد « باكير » : « يا مولانا الوزير جرت العادة ان التجار يفعلون ذلك ويقولون ما أمكنهم وعلى الحاكم التفتيش والفحص ! »

وعندما فرض اسماعيل بيك (*) ، ضرائب فادحة على التجار اجتمع جملة منهم ، وحضروا الى الجامع الأزهر وضجوا واستغاثوا من هذا النازل وحضر الشيخ العروسي فقاموا في وجهه وأرادوا قفل ابواب الجامع لمنعهم من ذلك فصاحوا عليه وسبوه وسحبوه بينهم الى جهة رواق الشوام فمنع عنه المجاورون وأدخلوه الى الرواق ودافعوا عنه الناس وقفلوا عليه باب الرواق وصحبته طائفة من المتعممين وكتبوا عرضاً الى اسماعيل بيك بسبب ذلك وأرسلوه صحبة الشيخ سليمان الفيومي وانتظروه حتى رجع اليهم ومعه تذكرة من اسماعيل بيك مضمونها الامان والعفو عن الطوائف المذكورة (وفيها) ان هذا المطلوب انما هو على سبيل القرض والسلفة من القادر على ذلك . فلما قرئت عليهم التذكرة قالوا هذه مخادعة وعندما ينفذ الجمع ونفتح الدكاكين يأخذونا واحداً بعد واحد . ثم قام الشيخ وركب وحوله الجم الغفير والغوغاء وبعض المجاورين يدفع الناس عنه بالعصي والعامة يصيحون عليه ويسمعونه الكلام الغير اللائق الى ان وصل الى باب زويلة فنزل يجامع المؤيد وأرسل الى اسماعيل بيك يخبره بهذا الحال فحنق اسماعيل بيك وظن انها مفتعلة من الشيخ . وانه هو الذي أغرام على هذه الأفعال فأجابه الرسل وحلفوا له ببراءته من ذلك وليس قصده الا الخلاص منهم . فقال أنا أرسلت اليهم بالأمان ودعومهم ينفضوا وما أحد يطالبهم بشيء فانفضوا وتفرقوا ومضى على ذلك يومان فأرسلوا الى أهل الصاغة والجواهرجية والنحاسين وطالبوهم بالمقرر والموزع عليهم فلم يجدوا بدأ من الدفع ثم طالبوا وكالة الجلابة وتطرق الحال الى باقي الناس حتى يباعين الفسيخ ومجموع ذلك نحو اثنين وسبعين حرفة (٦٨) .

(*) سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧) .

وكانت هناك محكمة تملك أن تحكم للتجار على الأمراء وعلى الباشا . حتى «الباشا الحقيقي» الذي حكم مصر فعلاً بحق الفتح! فعندما اختلف الباشامع تجار البن ، واشتكوا الى « حسن باشا القبطان » قائد الحملة التركية التي أعادت فتح مصر ، نصح القبطان باشا، التجار بأن « يترافعوا الى الشرع . فاجتمعوا يوم الاحد في المحكمة وأقام الباشا من جهته وكيلاً وأرسله صحبة انفار من الوجاقليه ، واجتمعت التجار حتى ملأوا المحكمة وطلبوا حضور العلماء فلم يحضروا وانفض المجلس بغير تمام . ثم حضر التجار في ثاني يوم وحضر العلماء ولم يحضر وكيل الباشا . ثم أبرز التجار رقعة بخطم ابراهيم بيك وتسلمه المبلغ مؤرخه في ثاني عشر شعبان أيام قائمقاميته ووكالته عن الباشا . وأبرزوا فتاوى ايضاً . وسئل العلماء فأجابوهم بقولهم حيث ان للباشا أرسل فرماناً لابراهيم بيك ان يكون قائمقامه ووكيلاً عنه الى حين حضوره فيكون فعل الوكيل كالأصيل وتخلص ذمة التجار وليس للباشا مطالبتهم . ومطالبته على ابراهيم بيك على أن ذلك ليس حقاً شرعياً . وكتب القاضي اعلاماً بذلك وأرسله الى الباشا وانفض المجلس على دماغ الباشا .

المحاولة الاخيرة

وفي نهاية القرن الثامن عشر دخلت تركيبة المجتمع المصري امتحانها الأخير .. اذ أتاحت لكل من المماليك والدولة العثمانية ، الفرصة الأخيرة لتبرير وجودها .. وقد فشل الفريقان ! فشل المماليك في محاولة « علي بك الكبير » .. التي سحقت أو وثدت بيد المماليك أنفسهم . وفشل العثمانيون في محاولة « حسن باشا القبطان » . ولو أنها فشلت « تاريخياً » بسبب متاعب الدولة في مواجهة الغزو الروسي ... الا انها « واقعياً » كانت فاشلة منذ اليوم الأول بسبب نوعية الجند العثماني ، وعجز الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية .

وقد يدهش بعض المحللين لموقف الجبرتي من تجربة « علي بك الكبير » . فهو يعتبر السنة التي بدأ فيها ظهور نجم علي بيك ١١٨١ هـ (١٧٦٧) « ابتداء نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية » .

« ذلك انه اذا لم يكن في الناس من يصدع بالحق ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويقيم الهدى فسد نظام العالم .. ومن المعلوم المقرر ان صلاح الامة بالعلماء والملوك . وصلاح الملوك تابع لصلاح العلماء » (٧٠) .

وبعد هذه المقدمة يؤرخ : « وملك علي بيك وفعل ما بدا له . فلم يجد

رادعاً ايضاً . ونزل البلاء حينئذ بالبلاد المصرية والشامية والحجازية. ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وأقطار الأرض « (٧١) .

وسنجد تناقضاً - او ما يبدو كتناقض - في تاريخ الجبرتي لعلي بيك الكبير ، فهو يمتدح خصومه ويترحم عليهم ويعتذر عنهم « أما الظلم فهو قدر مشترك في الجميع » (٧٢) ويتهم علي بيك الكبير « بأنه هو الذي ابتدع المصادرات وسلب الاموال من مبادئ ظهوره واقتدى به من بعده » (٧٣) . ولكن ترجمته التي اوردها في وفيات عام ١١٨٧ (١٧٧٣ م) تعكس اعجاب « الجبرتي » بل وحماسه « لعلي بيك » ... فكيف نفسر هذا التناقض !

في اعتقادي ان « الجبرتي » انتقد في « علي بيك » دمويته في تصفية منافسيه وخصومه وأنصاره .. هذه الدموية هي اشد ما يبغض « الجبرتي » وهي ما يرفضه ولا يغفره ابدأ المصري الأصيل . وهذا يفسر الكثير من مواقف « الجبرتي » ، ولعل اشد ما اعجبه في « اسمعيل بيك » او « قشطه (*) بيك » هو أسلوبه السلمي وكراهيته للتصفية الدموية نوعاً ما .

والخطيئة الثانية التي لا يغفرها « الجبرتي » ابدأ ، حتى ولو تغاضى قليلاً في الاولى .. هي فتوحات « علي بيك الكبير » خارج مصر . هذه الأطماع التوسعية التي لم يتحمس لها المصري قط ، عبر تاريخنا كله . ومهما انتشت أجيال مقبلة بقراءة فتوحات مصرية ، فان التاريخ يؤكد ان الأجيال المصرية المعاصرة لهذه الفتوحات ، كانت لا تنفعل بها ولا تتحمس لها .. وفتوحات علي بيك في تلك المرحلة لم تكن تبدو كخطوة وحدوية ، ولا ضرورة مصرية . كان النظام الذي اقامه « علي بيك » في مصر ، مطلوباً ومرغوباً ويمثل مصلحة مصرية . بل وبداية تطور ربما تحول الى بعث شامل ومحاولة للحوق

(*) هو اسمعيل بك بن ابواظ الكبير احبه المصريون وسمته المصريات قشطه بيك لجماله وصغر سنه عندما تولى اماره مصر .

بالعصر ومواجهة التحديات التي كانت تتفجر بها اوروبا وتطوق العالم الاسلامي ،
وتستمد لضربه في قلبه باختراق الوطن العربي .

كانت مصر بحاجة الى نظام « علي بيك الكبير » ومركزيته وقبضته القوية ،
شرط ان يتم ذلك في إطار الوحدة الاسلامية . اما كيف ؟ .. فذلك ما لم
يجب عليه « الجبرتي » ولا أجيّب عليه الاجابة الواضحة حتى الآن . ولكن
لا اعتقد انه كان من المستحيل الوصول الى تسوية مع السلطان ولو بدفع بعض
الاكياس .. ريثما تم عملية التطوير المصرية .. ولكن فتوحات « علي بيك »
في الشام والحجاز جعلت الدولة منشغلة به وظهرها مكشوف في مواجهة
الموسقو . بل وجعلت علي بيك يستعين بالموسقو . أي بأسوأ الفرنجة ،
وأشدّهم عداوة للمسلمين . وما كان الجبرتي ليغفر ذلك ابدأ حتى ولو كان
من « علي بيك الكبير » الذي ما كان يجالس الا أهل الوقار والحشمة والمسنين ..
ويتبع المفسدين والذين يتداخلون في القضايا والدعاوى ويتحيلون على ابطال
الحقوق بأخذ الرشوات والجعالات وعاقبهم بالضرب الشديد والاهانة والقتل
والنفي الى البلاد البعيدة ولم يراع في ذلك أحداً سواء كان متممماً أو فقياً
أو كاتباً أو قاضياً او غير ذلك بمصر . او غيرها من البنادر والقرى
وكذلك المفسدون وقطاع الطريق . من العرب واهل الخوف . والزم ارباب
الادراك والمقادم بحفظ نواحيهم وما في حوزهم وحدودهم وعاقب الكبار
يخناية الصغار . فأمنت السبل وانكفت اولاد الحرام وانكشوا عن قبائحهم
وايذائهم بحيث ان الشخص كان يسافر بمفرده ليلاً راكباً أو ماشياً ومعه حمل
الدرهم والدنانير الى اي جهة ويبيت في الفيظ او البرية آمناً مطمئناً لا يرى
مكروهاً ابدأ . وكان عظيم الهيبة اتفق لانس ماتوا فرقا من هيبته . وكان
صحيح الفراسة شديد الحدق يفهم ملخص الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ولا
يحتاج في التفهيم الى ترجمان او من يقرأ له الصكوك والوثائق بل يقرأها
بنفسه كالماء الجاري ولو كان خطها سقيماً ولا يخبث ورقة حتى يقرأها ويفهم
مضمونها ثم يمضيها أو يمزقها » (٧٤) .

ما من شهادة لحاكم مصري أعظم من شهادة « الجبرتي » هذه. وما كانت مصر تطمح في نظام أفضل من هذا النظام ، في تلك الفترة . فهو الذي سيحقق الاستقرار والازدهار ومن ثم ربما التصنيع .. ولكن يقول « الجبرتي » مباشرة بعد اشادته بما أقامه « علي بيك » في مصر من عدل يقول : « فلم يقنع بما اعطاه مولاه وخوله من ملك مصر بحريها وقبليها الذي أفترخت به الملوك والفراغنة على غيرها من الملوك وشرعت نفسه وغرته أمانيه وتطلبت نفسه الزيادة وسعة المملكة » (٧٥) .

وإذا كان الجبرتي ضد سياسته التوسعية فهو معه الى حد خلع الطاعة للسلطان داخل حدود مصر : « وكان يطالع كتب الاخبار والتواريخ وسير الملوك المصرية ويقول لبعض خاصته. ان ملوك مصر كانوا مثلنا بماليك الاكراد مثل السلطان بيبرس والسلطان قلاوون وأولادهم . وكذلك ملوك الجراكسة وهم بماليك بني قلاوون الى آخرهم كانوا كذلك . وهؤلاء العثمانية اخذوها بالتغلب ونفاق أهلها وينوه ويشير بمثل هذا القول بما في ضميره وسيرته ولو لم يخنه مملوكه محمد بيك لورد الامور الى اصولها » (٧٦) .

هذا التناقض الذي ما زال يحكم الفكر المصري حتى اليوم . نلسه في كتابات « الجبرتي » ، وفي ملاحظات « عرابي » عن فتوحات « محمد علي » (النسخة المتفرجة من « علي بيك الكبير ») وأعنى به التناقض بين العمل داخل حدود مصر أو الانطلاق الى ما يسمونه حدود الوجود المصري .

ومها قيل عن وجاهة الرأي القائل : «مصر أولاً» .. فان الذين استطاعوا توحيد مصر والانفراد بحكمها ، وجدوا ، أو هكذا اقتنعوا ، انه يستحيل عليهم الاستمرار في السلطة بالقاهرة دون أن يمتد وجودهم بصورة ما ولو الى الشام على الأقل ، ليكتشفوا - متأخراً جداً - ان اهتمامهم بهذا الوجود خارج مصر قد زعزع وجودهم في القاهرة . فإن لم يوجد « ابو الذهب » يخلعهم ، فلا شك ان مغامرات الخارج تصيب تجربتهم في مصر بالعقم وتحكم عليها بالفناء

ولو بعد سنين تطول بقدر قوة قبضتهم الداخلية .

ولا شك ان خروج علي بيك « المبكر » الى الشام قد جند الدولة العلية
ضده ، وعجل بنهايته ونهاية التجربة .

على اية حال لقد استطاع « علي بيك الكبير » في ست سنوات أن يوحد
السلطة في مصر ، وأن يطرد الصحراء بعيداً عن الوادي الأخضر . وان يحقق
الأمن والاستقرار . بل وأن يفتعل - نفس الأزمة التي اثارها « محمد علي » بعده
بنصف قرن - وهي الاحتجاج على ايواء حكام الشام لخصومه والمهربين من
سقوطه في القاهرة ، ليمد دولته الى حلب ، ويبسط نفوذه على الاراضي الحجازية
ليهوي بسرعة تفوق سرعة صعوده . وبسبب خيانة مماليكه الذين كانوا
أخلص منه لناموس الصعود والهبوط المملوكي . فخانه - كما هو الحال -
أخلص اتباعه ورجله الأول . تأمر مع الدولة عليه ، وعاد الى مصر وأخرجه
منها الى الشام ليعود علي بيك ، فيهزم بخيانة آخر من بقي حوله من الامراء (*)
الذين انحازوا الى « محمد أبي الذهب » مشبتين عن جدارة انضباط سلوكهم
المملوكي !.. وهكذا مات « علي بيك الكبير » مهزوماً مجروحاً مأسوراً
مقهوراً.. « والله اعلم بموته » .. على حد قول أو « اتهام » الجبرتي الواضح.

كانت هذه هي الفرصة الاخيرة للمالِك لكي يقيموا دولة قوية مستقرة
تستطيع ان توفر مناخ التطور المنشود. ولكنهم اثبتوا عجزهم عن القيام بهذه
المهمة ، واكدوا انهم قد خرجوا نهائياً من مسيرة التاريخ .. وانهم قد تحولوا
الى مجرد نفايات في انتظار مكنسة التاريخ تقذف بهم الى مزابل النسيان .
ولعل ابلغ عبارة تسجل انتهاء دورهم التاريخي ، وعجزهم حتى عن حماية

(*) كان رأي المصريين في صناجة علي بيك - كما قلنا - أدق واصح من رأيه فيهم فقد سماوا
صناجته السبعة الذين اعدموا لحرب « محمد بك ابي الذهب » سموهم : « السبع بنات » وفعلاً لم
يجاروا !

مصالحهم كطبقة حاكمة . هي هذه اللفتة الذكية من مؤرخنا العبقري ، عن وضع المماليك عشية الحملة الفرنسية في السطور الاخيرة من الجزء الاول : « ولكن لما فقدت منهم القابلية واستولى عليهم الطمع والتفاخر والتناقص والتغاضي خوف الفشل وتفرق الكلمة . مع الانحراف عن الاوضاع . ظهر الخلل في كل شيء حتى في الامور الموجبة لنظام دولتهم واقامة ناموسهم » (٧٧) . « الى ان حصل ما حصل ونزل بهم وبالناس ما نزل » (٧٨) .

المحاولة العثمانية

حكم « محمد بيك ابو الذهب » بعد غدره « بعلي بيك الكبير » . وتطلع بدوره الى الوجود بالشام (!) رغم انه كان يعلم بحكم تجربته الشخصية ، ان هذا التطلع ، كان المقتل الذي ضرب منه سيده وعلى يده هو بالذات .. ولكنه حاول أن يتفادى المصير ، بأن يوجد في الشام باسم السلطان . وسبق نابليون في تنفيذ مذبحة يافا إذ « جمعوا الأسرى خارج البلد ودوروا فيهم السيف وقتلوم عن آخرهم ولم يميزوا بين الشريف والنصراني واليهودي والعالم والجاهل والعامي والسوقي ولا بين الظالم والمظلوم وربما عوقب من لا جنى » . وإذا كان تاريخ « محمد بيك ابو الذهب » العسكري يتميز عن تاريخ نابليون بنجاحه في الاستيلاء على عكا . فتاريخنا الاخلاقي يفخر- أيضاً- على جميع مؤرخي الغرب الذين ما زالوا يلتمسون الاعذار لجرمة نابليون في « يافا » بينما استنكر الجبرتي بوضوح وصراحة جريمة « ابي الذهب » .

وصل « ابو الذهب » الى القعة « وأذعنت له باقي البلاد ودخلوا تحت طاعته وخافوا سطوته وداخل محمد بيك من الفرور والفرح ما لا مزيد عليه وما آل به الى الموت والهلاك » (١٧٩) .

كان المرشحان لقتل « محمد بيك ابي الذهب » ووراثته وفقاً للناموس هما

« مراد بيك و ابراهيم بيك » ولكنها كانا أعجز وأفضل من أن يحققا مثل هذه المهمة . فمات « محمد بيك ابو الذهب » حتف أنفه . وأنطلق قانون الناموس يحقق نفسه ، فإن الجيش لم يعرف خبر موت الأمير ، إلا على رؤية النهب قد قام على قدم وساق في متاعه وخيمته . « قال الناقل وأقننا على ذلك الثلاثة ايام التي تمرض فيها وأكثرنا لا يعلم بمرضه ولا يدخل اليه إلا بعض خواصه ولا يذكرون ذلك إلا بقولهم في اليوم الثالث انه منحرف المزاج . فلما كان في صبح الليلة التي مات بها نظرنا الى صيوانه وقد انهدم ركنه وأولاد الخزنة في حركة . ثم زاد الحال وجردوا على بعضهم السلاح بسبب المال . وظهر أمر موته وارتبك العرضي . وحضر مراد بيك فصدّم وكفّهم عن بعضهم وجمع كبراءهم وتشاوروا في أمرهم وأرضى خواطرم خوفاً من وقوع الفشل فيهم وتشتتهم في بلاد الغربية (!) وطمع الشاميين وشماتتهم فيهم . واتفق رأيهم على الرحيل وأخذوا رمة سيدهم صحبتهم لما تحقق عندهم انهم ان دفنوه هناك في بعض المواضع أخرجهم أهل البلاد ونبشوه وأحرقوه » (٨٠) ..!

وبقية المراسم معروفة ، غسلوه وكفنوه .. الخ ونقلوه الى القاهرة خوفاً من تمثيل أهل البلاد ، ويزيد الجبرتي ، انهم شيعوا جنازته وسط سحابة هائلة من البخور والعنبر « سترأ على رائحته وتنته » .

وتهتك « مراد بيك و ابراهيم بيك » في تربعها على عرش السلطة في مصر . ولا شك — كما قلنا — انها كانا اسوأ مملوكين حكما مصر .. وإن كان لا بدّ من التمييز فإن المرتبة الأولى في السوء يحتلها مراد بغير منازع (*) . ورأت الدولة ان الفرصة سانحة لاسترداد مصر ، او تأكيد وجودها بعد ما تسلى مراد بيك بعزل الولاية ، مع تزايد عجزه عن الحكم . وتأكد ان استمراره في

(*) بتولي مراد و ابراهيم مركز محمد ابى الذهب ، دون ان يقتلاه ، اختل الناموس نهائياً . وتحتم زوال دولة المماليك على يد الاميرين « غير الشرعيين » !

السلطة راجع الى الانهيار العام الذي لم يدفع الى السطح بمغامر جديد يزيحها عنها . وهو الذي - كما وصفه « الجبرتي » - لم ينتصر في حرب خاضها قط .

وأرسلت تركيا اسطولاً .. حملة لفتح مصر . وفي هذه الحملة تفاصيل عديدة من الممتع مقارنتها مع الحملة الفرنسية التي تلتها ب ١٣ سنة .

ولما وصل نبأ الحملة الى مصر ، كشف مراد بيك عن جانب من اخلاقياتة الخسيسة . فهذا المتكبر الذي عزل الولاية ، ورفض أن يصعد الى القلعة لسباع مرسوم تجديد ولاية الباشا .. ما أن سمع نبأ الحملة : حتى « انخضع في تلك الليلة للباشا جداً وقبّل اذنيه وركبتيه (!) ويقول له يا سلطانم (!) نحن في عرضك تسكين هذا الأمر ودفعه عنا ونقوم بما علينا ونرتب الأمور وننظم الأحوال على القوانين القديمة » (٨١) . (أي مدة ما كانت مصر خاضعة فعلاً لإرادة السلطان) .

ولم يكن نابليون هو أول من استخدم المنشور في مخاطبة المصريين بل استخدمه قائد الحملة التركية بل وخلق منشوره تأثيراً أقوى وأنجح من منشور نابليون . فالجبرتي يقول : « وصلت الأخبار بورود حسن باشا الى ثغر رشيد يوم الأربعاء سادس عشره وأنه كتب عدة فرمانات بالعربي وأرسلها الى مشايخ البلاد وأكابر العربان والمقادم . وحق طريق المعينين بالفرمانات ثلاثون نصفاً فضة لا غير . وذلك من نوع الخداع والتحيل وجذب القلوب . ومثل قولهم انهم يقرروا مال الفدان سبعة انصاف ونصف نصف . حتى كادت الناس تطير من الفرح . وخصوصاً الفلاحين لما سمعوا ذلك وأنه يرفع الظلم ويمشي على قانون دفتر السلطان سليمان وغير ذلك . وكان الناس يجهلون احكامهم (*) فمالت جميع القلوب اليهم وانخرفت عن الأمراء المصرية وتمنوا سرعة زوالهم » (٨٢) .

(*) لأنهم ما كانوا يحكون مصر ..

وهكذا نرى انه حتى « العثماني » عرف أهمية مخاطبة الشعب المصري مباشرة ، وضرورة تحريضه ضد المماليك . وان الاثراك سبقوا نابليون في ادعاء انهم جاءوا لتحرير المصريين من ظلم المماليك . فما الجديد الذي هز وجدان المصريين في منشور نابليون ؟!

وإذا كان المنشور التركي قد حقق لدى المصريين تأثيراً أفضل مما حققه منشور نابليون . فإن الاسطول التركي لم يقنع مراد بالتسليم ، كما لم يفعل الاسطول الفرنسي ، ولا أقنعه هو والشقي الآخر بعدم شرعية مقاومة جنود السلطان . لذلك استعدا لمقاتلة جيش السلطان ، الذي يحكمان باسمه ، ومندوبه يحمل لقب الوالي ، وما زال في موقعه بالقلعة ! بل لم يفهمهم وهم يجهبزون الحملة لمقاتلة السلطان ان يسلبوا مثله و مندوبه ؛ الباشا « الدراهم التي كانوا استخلصوها من مصطفى بيك أمير الحاج وأودعوها عند الباشا . فدفعها لهم بتامها (٨٣) » .

وإذا كان المشايخ قد اجتمعوا « بنابليون » بعد سقوط القاهرة ، فانهم اجتمعوا « بحسن باشا » قبل دخوله القاهرة ثلاث مرات . ولا يختلف أسلوب « حسن باشا » العثماني ، عن أسلوب نابليون « الثوري » في معاملة الشيوخ :

« الأولى للسلام فقابلهم بالاجلال والتعظيم وأمر لهم بمكان نزلوا فيه ورتب لهم ما يكفيهم من الطعام المهياً في الافطار والسحور . ودعاهم في ثاني يوم وكلمهم كلمات قليلة . وقال له الشيخ العروسي يا مولانا رعية مصر قوم ضعاف وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الناس . فقال لا تحشوا من شيء فإن أول ما أوصاني مولانا السلطان أوصاني بالرعية . وقال ان الرعية وداعة الله عندي وانا استودعتك ما أودعنيه الله تعالى . فدعوا له بخير . ثم قال كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافرين وترضونهم حكاماً عليكم يسومونكم بالعذاب والظلم

لماذا لم تجتمعوا عليهم وتخرجوهم (*) من بينكم . فأجاب اسمعيل افندي الخلوتي بقوله : يا سلطانم هؤلاء عصابة شديدو البأس ويد واحدة . فغضب من قوله ونهره وقال تخوفني بياسهم فاستدرك وقال انما أعني بذلك أنفسنا لأنهم بظلمهم أضعفوا الناس . ثم أمرهم بالانصراف . واجتمعوا عليه مرة ثالثة بعد صلاة الجمعة فاستأذنوه في السفر فقال لهم في غد اكتب لكم مكاتبة للرعية تقرؤها على الملا في الجامع الأزهر . فقال له الشيخ العروسي : هذا أمر لا يمكننا فعله في هذا الوقت . فقبل عذره (***) وقال يكفي الاستفاضة . ثم تركهم يومين . وكتب لهم مكاتبات وسلمها ليد سليمان بيك الشاوري . وأمرهم بالانصراف فوعده وساروا وأخفيت تلك المكاتبات (٨٤) .

ونجد « ابراهيم بيك » في نفس الموقف الذي وقفه الجنرال بليار بعد ١٥ سنة ، فكلامها دعا المشايخ الى تسكين الرعية وتجنب الفتن :

« ركب ابراهيم بيك في ذلك اليوم وذهب الى الشيخ البكري وعيد عليه ثم الى الشيخ العروسي والشيخ الدردير وصار يحكي لهم وتصاغر في نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدوثه أو قومة أو حركة في مثل هذا الوقت فانه كان يخاف ذلك جداً وخصوصاً لما أشيع أمر الفرمانات التي أرسلها الباشا للمشايع وتسامع بها الناس » .

بل ويذهب التاريخ في اعادة نفسه ، حداثاً تكاد تختلط فيه الأسماء ، فسر عسكر نابليون ، سر من البكري وضاق بالسادات ، ونفس الشيء مع سر عسكر التركي ! فقد نال البكري عنده نفس الحظوة لأنه بات مع الباشا (!) شبه الأسير في القاهرة ليلة وصول الجيش الفاتح : « وكان له بها

(*) لسوء حظ الترك ان دولتهم اقرضت والالتبت مؤرخاً يؤلف عن اول دعوة للمصريين للثورة واختيار من يتولى السلطة !

(**) هذا هو شيخ الازهر يعتذر عن اعلان الولاء للسلطان العثماني من على منبر الازهر ويفهم القائد التركي عذره .. ثم يتحدثون عن مستعمرة تركية !

مندوحة ذكرها بعد ذلك الباشا لحسن باشا وشكره عليها وأحبه . وذهب للسلام عليه عند قدومه دون غيره من بقية المشايخ . « بينا غضب على الشيخ السادات الذي احتج على تصرفات الفاتح التركي : « واغتاض واحضر افندي ديوانه وقال له اكتب اسماء هؤلاء حتى أرسل الى السلطان وأخبره بمعارضتهم لأوامره. وتغير خاطره من ذلك الوقت على الشيخ السادات (٨٥) » .

وإذا كان « نابليون » قد قال على « السادات » أنه ليس « بونو » ! فلا شك ان حسن باشا قال : « سادات سيس خريسيس أدب سيس ! ! » ! لولا ان تاريخ نابليون حفظ بدقة أكبر !

واستطاع الباشا المقيم في القاهرة أن يعزل المالك عن المصريين ، بما أساعه عن نية جيش السلطان في اقامة العدل ومنع الظلم والجور ، وغير ذلك ، حتى ضرب قلوب العالم وتحولوا عن الأمرء ، وتمنوا زوالهم في أسرع وقت وهيج الناس وأثارهم قبل وصول حسن باشا (٨٦) .

وانضم الشعب الى الباشا الوالي ، وساعده في تحرير القاهرة قبل وصول الحملة الى القاهرة . وفرحوا بانتصار « حسن باشا القبطان » واستبشروا به : « وفرحوا وظنوا أنه مهدي (*) الزمان (٨٧) » .

أما الجيش التركي الذي دخل المدينة ، فهكذا رآه الجبرتي :

« وهم بهيئات مختلفة واشكال منكرة وراكبون خيولاً واكاديش وبعضهم بطراير سود طوال شبه الدلاة . والبعض معمم ببوشية ملونة مقشولة على طربوش واسع كبير نحيط عليه قطعة قماش لابسا في دماغه والطرپوش مقلوب على قفاه مثل حزمة البراطيش . وهم لابسون زنوط وبشوت محزمين عليها وصورهم بشعة وعقائدهم مختلفة . وأشكالهم شتى وأجناسهم متفرقة ما

(*) يشير الى فكرة انتظار مهدي أو « المهدي المنتظر » .. قائد يخلص المسلمين من الظلم ويألأها عدلاً بعد أن ملئت ظلماً .

بين أكراد ولاوند ودرروز وشوام . ولكن لم يحصل منهم ايذاء لأحد . وإذا اشتروا شيئاً أخذوه بالمصالحة فباتوا بالحيام عند سبيل قياز تلك الليلة .

نفس الملاحظة الأخيرة سيسجلها الجبرتي عند دخول الجيش الفرنسي القاهرة ، وهي عدم إيذاء أحد وشراء ما يحتاجونه ويدفعون ثمنه . وسرعان ما يكشف الجيـشان عن طبعها الحقيقي : الخطف والنهب . مما يؤكد ان نابليون لم يكن هو وحده الذي يجيد الدجل .

وهكذا بدأ الحكم التركي بداية رائعة .. منتصراً في القاهرة ، محبوباً من الشعب ، تتعلق به آمال الاصلاح . وفرّ « مراد بيك » كما هي عادته - بل وعادة كل المماليك الفارين - الى الصعيد . وبدأ ساري عسكر التركي يجرد ضده الحملات في النيل والبر . ولكن مراد يبعث برسالة تنفي اتهامات الباشا له بالكفر ، ويمير الدولة بعجزها عن استرداد : « البلاد التي غصبها منكم الكفار . واستولوا عليها مثل بلاد القرم والودن واسماعيل وغير ذلك » . ولم يجد الباشا ما يرد به على هذا الاحراج إلا اتهام كاتب رسالة المماليك « بالجهل بصناعة الانشاء (٨٨) » !

ويخطب حسن باشا في الأمراء المماليك المتعاونين فيقول : « اسمعوا ربما تحدثكم نفوسكم وتقولون هؤلاء عثمانية لا تملكهم بلادنا .. أو انهم مقصرون معنا في النفقة . والمصرية غرضهم مع بعضهم . فتذهبوا معنا ثم يقع منكم الخيانة والخمارة . ثم حلف انه ان وقع منهم شيء من ذلك ليكون سبباً في خراب مصر سبع سنوات ولا يبقى بها أحد (٨٩) !!

وعرض على مراد بيك وابراهيم بيك أمناً شاملاً شرط أن يخرجوا « ويتولوا مناصب ايما يريدون في غير الاقليم المصري » .

فرد ابراهيم ومراد بالسمع والطاعة وانهم يمثلون لجميع ما يؤمرون به ما عدا السفر الى غير مصر فان فراق الوطن صعب (٩٠) .

وسرعان ما تكشفت نوعية جنود الدولة وتتابع النهب والظلم .. ولكن
«الموسقو زحفوا على البلاد واستولوا على ما بقي من بلاد القرم وغيرها» (٩١).

بل وحاول الروس استغلال الموقف والاتصال بالماليك واستخدامهم لحساب
التوسع الروسي ضد الدولة التي كانت الامبراطورية الروسية تقوم وتمتد على
انقاضها (*). واضطر السلطان الى سحب الاسطول والجيش من مصر .
« والعفو عن ابراهيم بيك ومراد بيك من القتل وأن يقيم ابراهيم بيك بقنا
ومراد بيك باسنا » .

وكان مفهوماً بالطبع ان جلاء القوة العثمانية يعني عودة الشقيين للقاهرة
وقد عادا ..

ويلخص الجبرتي هذه الغزوة التي تعد المحاولة الأخيرة لبعث الوجود التركي
في مصر، وأواخر محاولة تركية صرفه .. لاسترداد مصر. كما يلخص خيبة امل
المصريين في هذه الدولة بقوله :

« وفي ثالث عشرينه (ذي الحجة ١٢٠١ هـ ١٧٨٦) سافر حسن باشا من
مصر وأخذ معه الرهائن ولم يحصل من مجيئه الى مصر وذهابه منها إلا الضرر
ولم يبطل بدعة ولم يرفع مظلمة بل تقرررت به المظالم والحوادث » ثم يقول :
« ولومات حسن باشا بالاسكندرية او رشيد لهلك عليه اهل الأقليم أسفاً
وينوا على قبره مزاراً وقبة وضحياً يقصد للزيارة » .

أي لو مات قبل ان يدخل القاهرة ويحكمها بل مات في الاسكندرية

(*) جاءت « مكاتبات من قرال الموسقو » : «بلغنا صنع ابن عثمان الخائن الغدار معكم ووقوع
القتن فيكم وقصده ان بعضكم يقتل بعضاً ثم لا يبقى على من يبقى منكم ويملك بلادكم ويفعل بها
عوائده من الظلم والجور والخراب فإنه لا يضع قدمه في قطر إلا ويعمه الدمار والخراب فتتقظوا
لانفسكم واطردوا من حل ببلادكم من العثمانية وارفعوا بنديرتنا واختاروا لكم رؤساء منكم
وحصنوا ثغوركم وامنعوا من يصل اليكم منهم إلا من كان بسبب التجارة ولا تخشوه في شيء فنحن
نكفيكم مؤنته وانصبوا من طرفكم حكاماً بالبلاد الشامية كما كان في السابق (٩٢).

أورشيد، وهو ما زال في مرحلة الوعود المسولة والمنشورات والفرمانات المثيرة
بالاغراءات لظل حلاً للجماهير بالمدل والاصلاح ..!

كم من حكام المسلمين يصدق عليه هذا القول !!

وما ان غادر « قبطان باشا » القاهرة ، بعد أن ترك فيها بعض المالكين
الذين يحكون باسم السلطان . ويفترض فيهم ان يمنعوا عودة «مراد و ابراهيم»
حتى انتهى الوضع نهاية مملوكية عجيبة اذ « خامر » الذين في القاهرة مع
الشقيين « مراد و ابراهيم » وفتحوا لها القاهرة .. فدخلوها . وكان الطاعون
قد حل مشكلة توفير مكان للوافدين اذ أصبحت القاهرة تتسع للجميع. فمات
عدد كبير من الامراء المقيمين في القاهرة . وفي نفس الوقت مات عدد كبير
من نساء الامراء الذين كانوا منهزمين هاربين في الصعيد . فتزوج العائدون
ارامل الهالكين !

« وأكثر البيوت كان بها الامراء الهالكون بالطاعون وبقي بها نساؤهم
ومات غالب نساء الغائبين . فلما رجعوا وجدوها عامرة بالحريم والجواري
والخدم فتزوجوهن وجددوا فراشهم وعملوا أعراسهم . ومن لم يكن له بيت
دخل ما أحب من البيوت وأخذه بما فيه من غير مانع وجلس في مجالس
الرجال وانتظر تمام العدة ان كان بقي منها شيء وأورثهم الله أرضهم وديارهم
وأموالهم وازواجهم » « وسكن مراد بيك بيت اسمعيل بيك وكأنه كان
بنيه من أجله » (٩٣) .

وهكذا حطم الشقيان الناموس مرة أخرى. اذ صعدا مرتين الى الذروة،
وكان ذلك ايداناً بسقوط الناموس كله .

أما قوات الدولة العثمانية التي كانت السبب في طرد « ابراهيم ومراد »
فقد اصبحت في وضع المنهزم بعد دخولها القاهرة . فرُحلت بطريقة لا تختلف
كثيراً عن ترحيل الفرنسيين . فقد نادوا عليهم : « بالسفر ولا يتأخر منهم

أحد وكل من وجد بعد ثلاثة أيام يستحق ما ينزل به . »

فلما استغاثوا بالبasha ممثل الدولة التي أرسلتهم والتي يتبعونها : « انزلهم الى بولاق في المراكب . وصار اولاد البلد والصغار يسخرون بهم ويصفرون عليهم بطول الطريق . » !!

هل هناك ثمة شك في طبيعة العلاقة بين مصر والدولة العثمانية ؟!

وهكذا فشلت آخر محاولتين :

محاولة « علي بيك » لتحقيق سلطة مركزية قوية وحكم مملوكي يستطيع اذا منح الوقت والاستقرار ان يبدأ تصنيع مصر وربما العالم العربي ، ومن خلفه العالم الاسلامي . انتهت بتقلب الانهيار المملوكي على ارادة الحياة والبعث . وبإخطاء « علي بيك الكبير » واستفزازه للمشاعر الاسلامية سواء في الداخل أو الخارج (بتعاونه مع العدو التاريخي للأمة الاسلامية:الموسقو).

كما انهارت آخر محاولة عثمانية لاختضاع مصر بصورة حقيقية لنفوذها . ولو ان هذه المحاولة كانت محتومة العقم من ناحية النتائج ، حتى لو نجحت ، لأن الاصلاح ، اذا كان مقدرأ له ان يكون تركيأ ، كان عليه ان يبدأ في الاستانة . وهذه قضية - كما اثبت التاريخ - كانت خارج نطاق الممكن ، بسبب التفسخ العثماني ، كمجتمع ، وليس فقط كدولة .. هذا من ناحية .. ومن ناحية اخرى بسبب الانهالك الروسي لطاقات الدولة واستنزافه لكل جهد يمكن ان يوجه للاصلاح الداخلي .

وهكذا ثبت عشية الحملة الفرنسية ان النظام المملوكي ليس اكثر من جثة تاريخية تنتظر « التفسيل والتكفين والدفن » بعد « قطع الرأس وسلخها » . وثبت ان الدولة العثمانية عاجزة حتى عن اداء هذه المهمة .

وكان على نابليون ان يبدأ انجاز هذه المهمة ليتولى تلميذ الفرنسيين ، منفذ سياسة « الفرنجة » ، انهاء هذه المهمة وعلى الطراز المملوكي في مذبح القلعة .

الفصل الثاني

نابليون .. والمهمة الحضارية !

سأستعمر مصر

رغم كل البيانات والمنشورات والتحليلات التي صاحبت وأعقبت الحملة الفرنسية (الى يومنا هذا) فإن نابليون كان صريحاً وواضحاً في تحديد مهمته في مصر . عندما قال : « سأستعمر مصر » !

« سأستعمر مصر » ، واستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع والنساء والمثليين . ان ست سنوات تكفيني للذهاب الى الهند لو سارت الأمور سيراً طبيياً .

ولو سارت الامور سيراً طبيياً . وحتى دون الوصول الى الهند ، لكان نابليون قد استورد المزيد من العمال والنساء .. ثم الفلاحين . ولكانت مصر قد واجهت مشكلة معمرين أعرق من مشكلة الجزائر بثلاث قرن . وهذا المخطط للاستعمار البشري لمصر تحدث عنه نابليون صراحة في مذكراته في « سانت هيلانه » وهو يتحدث عن احلامه في مصر . وما يمكن أن يحدث فيها من رخاء وتقدم بفضل ضبط مياه النيل وتضاعف عدد السكان أربعة مرات بفعل المهاجرين الكثيرين من « اليونان وفرنسا واطاليا وبولنده والمانيا »^(١) . لكن الأمور لم تسر سيراً طبيياً . لاسباب عديدة أهمها وأخطرها . ان الشعب المصري .. ان اولاد العرب .. أمة الاسلام ، رفضت المهمة الحضارية

لنابليون . عرفت دون جدل ولا لجة انه قادم « لاستعمار مصر » فقاومت هذا الاستعمار وأفشلته .

وعندما قرر نابليون « استعمار مصر » كنقطة انطلاقه لبناء امبراطوريته الشرقية ، بدأ بدراسة الاسلام ، وطلب القرآن « وصفه تحت قائمة الكتب السياسية »^(٢) ويقول هيرولد انه « كان كلما دنا من الساحل الافريقي استغرق في دراسة الاسلام »

وهو سلوك طبيعي ومفهوم تماماً ، من قائد جاد يريد النجاح في مهمته . أما كل الجهود التي تبذل منذ الحملة الفرنسية الى اليوم لتتفيه شأن الدين ، والبحث عن مكونات لشخصيتنا بعيداً عنه ، فليست الا أسلحة هذا الغزو الغربي . بينما قادة الغرب عندما يواجهون الحقائق ويعدون الحملات ، فهم يعرفون ان الخط الحقيقي الذي يقسم العالم الى غرب وشرق هو الخط الديني . ويعرفون ان الغرب الأوروبي لم ير في الشرق منذ القرن السابع الميلادي إلا ظاهرة اسلامية ، ويعرفون أن القوة الحقيقية التي تواجههم في هذا الشرق .. هي الاسلام . فالعداء موجه ضد الاسلام ، والخطر يتوقع من الاسلام . والحرب موجهة ضد المسلمين والمسيحيين الشرقيين المنتمين حضارياً للشرق الاسلامي من العالم .

ومن اراد ان يتغلغل أو يسيطر فلا بد له من دراسة الاسلام .

كان «نابليون» يدرس الاسلام .. و « كبير » يستأجر عدداً من الموظفين المصريين والشوام المقيمين في فرنسا .

ويبدو أن عدداً من المصريين كان يقيم منذ زمن لويس الرابع عشر في فرنسا . وسنجد ان «الوفد المصري» من ايتام المعلم يعقوب يشيرون الى جهود ذلك «العاهل العظيم» الذي طلب عدداً من شبان الاقباط لتدريبهم واعدادهم لغزو الحبشة .

ولا نستطيع ان نجد في التاريخ كله ما يشير الى تأثر هؤلاء المصريين (وليس لدينا ما يؤكد انهم كانوا من الاقباط فقط) المقيمين في فرنسا بالثورة الفرنسية . ولا بالتطورات الاجتماعية والفكرية الخطيرة التي وقعت في اوروبا وفي باريس بالذات . اذ أن شيئاً من آثار هذه التطورات لم يتضح في سلوكهم ولا في مواقفهم . بل المؤكد انهم قاموا بالمهام التقليدية للعميل الشرقي ، وهي صياغة البيانات بلغة محلية ركيكة . تغرر بالغازي « الافرنجي » اكثر مما تغرر بالأهالي ، بما تحويه من آيات وعبارات تفضيم يقال للافرنجي ، انها ضرورية لكسب احترام الشرقي ! الى جانب ارشاد الغازي الى بعض نقاط الضعف في البلاد وترشيح الاسماء التي يجب اعتقالها . والآخرى التي يمكن ان يخطب ودها . وتوزيع الغرامات والافادات على التجار و « المساتير » .

ولا شك ان موقف هؤلاء العملاء سواء الذين جمعهم « كليبر » من حانات وأديرة فرنسا . أو الذين جمعهم جيش الاحتلال في مصر ذاتها . موقف هؤلاء جميعاً يختلف تماماً عن موقف احرار اوروبا الذين كانوا يتعاونون مع جيش الثورة الفرنسية أو يرحبون به أو ينضمون اليه كقاتلين في سبيل انجاز ثورتهم الوطنية . لأن هؤلاء العملاء العرب ، لم يخطر ببالهم قط فكرة تحقيق اي انجاز ثوري ولا سجل لهم التاريخ شبة من هذا النوع في سلوكهم !

انطلقت الحملة الفرنسية بما استطاعت براعة « نابليون » و « كليبر » ان تحشده من جنود ومدفعية وعلماء ومطبعة وكتب وعملاء وتراجمه ونساء في ثياب نسائية أو متخفيات في زي جنود .

ونقف لحظة عند مالطه حيث نجح نابليون في الاستيلاء « السلمي » على الجزيرة مستعيناً بسمعة الثورة الفرنسية ، والمسيحية ، والمال ، والمدافع . تقف قليلاً مع « كريستوفر هيرولد » وهو يقارن بين الاسلوب الفرنسي « الفعال » في تصفية وجود فرسان « الاستبارية » وبين اسلوب الاتراك .. لتأمل هذا الفارق بين السلوكين فهو يلقي الضوء على احدى الخصائص

الأساسية التي تميز حضارتنا عن الحضارة الغربية ، وأيضاً أحد العوامل التي رسمت نهاية حضارتنا في شكلها العثماني وحتمت سيطرة الحضارة الغربية ..

ففي عام ١٥٢٢ - ١٥٢٣ كانت السيادة العالمية معقودة لجيش الأتراك بلا منازع . واستولى الجيش التركي على جزيرة رودس ، وأجبر فرسان « الاستبارية » على التسليم . ولكن السلطان المنتصر سمح لهم بالجلاء عن الجزيرة حاملين معهم اسلحتهم « وخلفهم رتل طويل من العربات المحملة بكنوزهم وسجلاتهم تحت انظار القوات التركية .. وخرجوا من قلعتهم في احتفال عسكري وسط اجلال الفاتحين الاتراك الصامت » (٣) .

بينما صادر نابليون من « كنوز الفرسان ما بلغت قيمته زهاء سبعة ملايين فرنك فضلاً عن (٣٥٠٠٠) بندقية ، وبارجتين ، وفرقاطة وأربع سفن خفيفة » وانتدب من يفتش « على دار سك النقود وعلى كنوز كنيسة القديس يوحنا . وعلى «سائر الاماكن التي قد يعثر فيها على اشياء ذات قيمة» (٤) ومن الاشياء ذات القيمة التي عثر عليها ذهب قيمته ٥ ملايين فرنك ، وآنية فضية تقرب قيمتها من مليون فرنك وكنوز كنيسة القديس يوحنا المرصعة بالجواهر التي تقدر كذلك بنحو مليون فرنك ويسخر « هيرولد » فيقول : « وتعطف بونابرت فأذن للفرسان بأن يأخذوا معهم شطية من « الصليب الحقيقي » لا تقدر بمال .. ويدأ من أيدي يوحنا المعمدان الكثيرة هي ورءوسه الكثيرة المبعثرة في جميع ارجاء الشرق الاوسط ، بعد نزعها من صندوقها المرصع بالجواهر ، ونقلت جميع قبضان الذهب والفضة والتحف الثمينة بعد جردها الى مأمور الصرف الفرنسي ، وأخذ منها جزء كبير الى مصر » .

وفي مقابل سماحة الاتراك أبلغ نابليون فرسان مالطة ان على كل من هو دون الستين مغادرة الجزيرة خلال ثلاثة ايام : « دون ان يحمل احدهم اكثر من ٢٤٠ فرنكاً لنفقات السفر ، واستثنى من قرار الطرد ثلاثة وأربعين فارساً كلهم من الفرنسيين دون الثلاثين . وكان بونابرت قد اقنعهم بالتطوع

في الجيش الفرنسي بمصر وسبعة عشر موظفاً آخرين في الطريقة (لم يكونوا كلهم فرساناً رسميين) ساعدوا الفرنسيين بطرق شتى في الشهور الماضية « (٥) . ويمكن اعتبار قائمة هؤلاء السبعة عشر اول قائمة مدونة للطاير الخامس في العصر الحديث — على حد تعبير هيرولد —

ولم يفز البارون « فون هومبش » حاكم الجزيرة ورئيس طريقة الفرسان الذين يحكمون الجزيرة إلا بوعد كاذب بمعاش ، ظل ينتظر ست سنوات الى ان تسلم الدفعة الاولى منه .

نعود الى موقف الاتراك .. يقول « هيرولد » : ان فرسان القديس يوحنا بعدما انسحبوا هذا الانسحاب الكريم الذي تفضل به السلطان سليمان المنتصر انتقلوا من جزيرة رودس الى جزيرة مالطه ليصبحوا بعد ذلك شجى في حلق التجارة والأساطيل الاسلامية ، ومصدر خطر وقلق وقرصنة في شرق البحر الابيض المتوسط . ويقول «هيرولد» : ان السلطان «سليمان» ندم على سماحته وحاول غزو جزيرة مالطه في عام ١٥٦٥ وفقد تحت اسوارها ٣٠,٠٠٠ تركي بطلاقات الذين أطلق هو سراحهم . ثم أُجبر على رفع الحصار.. وواصل احفاد «الطلاق» حربهم الصليبية الدائمة على المسلمين في البحر الابيض المتوسط .

ربما ندم «السلطان سليمان» على استخفافه بشأن أسراه ، ولكنه لا يملك الندم على سماحته واحترامه للعهد الذي منحه . فهذا هو خلق أصيل من اخلاقيات حضارتنا . وهذا هو ما تعلمه الاتراك من الاسلام . ومهما تكن النتائج الوقتية ، فان اخلاقياتنا هي المبرر الاول لوجود حضارتنا ، ومبرر استمرارها وحافز السعي لبعثها .

نعود الى الحملة :

كان الغزاة قد فرغوا لتوهم من الاستيلاء على جزيرة مالطه ، وحرروا كشوقاً رسمية بما استولوا عليه من كنوز بعدما قاموا بنهب وسلب جزيرة

« جوزو » عن آخرها بعد ان اخلى السكان بيوتهم « (٦) . وعادوا الى السفن يحملون ما نهبوه « وينشدون الأناشيد الثورية الجماعية » مؤكداً بذلك هذه الازدواجية التي تتميز بها « الثورية » الغربية . فهم ثوريون يتغنون بالأناشيد الثورية في شوارع باريس، بل وعلى ظهر البوارج الفرنسية.. ولكنهم لا يجدون أي تناقض بين المقاطع التي تتغنى بالحرية والاخاء والمساواة ، والتي ترددها حناجرهم الجماعية وبين ذبح الشعوب غير الفرنسية ، واحتلال بلادها ونهب ممتلكاتها .

هذه الازدواجية ، هي التي مكنت اوربا من انجاز تطورها في اتجاهين: تحرير مجتمعا ، واستعمار مجتمعات الآخرين بذات الجماهير التي قاتلت الاستبداد في بلادها، وفرضت الاستبداد والعبودية على الشعوب الواقعة جنوب او شرق خط الجنس المتحضر .. او خارج خط الالتزام بالسلوك الانساني .

ويبدو أن صناع الثورة الفرنسية قد اضطروا الى وقف غنائهم ، وإنزال غنائهم الى الأرض والوقوف بانتباه ليستمعوا الى المنشور الذي أصدره نابليون والبوارج تقرب من الاسكندرية (٢٨ يونيه ١٧٩٨) :

« ايها الجنود !

انكم موشكون على فتح له آثار بعيدة المدى في حضارة العالم وتجارته . وستظنون انجلترا طعنة تؤذيها لا محالة في أضعف مواطنها (!) انتظراً لليوم الذي تسدون فيه اليها الطعنة القاتلة » .

« ولن تنقضي على نزولنا البر أيام حتى نقضي على بكوات المماليك الذين لا يراعون غير التجارة الانجليزية ، والذين يظلمون تجارنا بما كسبهم والذين يستبدون بأهل وادي النيل الأشقياء » (٧) .

ولا ندري كيف لم يجد « هيرولد » في هذه الخطبة البليغة الجواب على تساؤله : « كيف كان يمكن لهذا المنشور ان يفسر للجندي العادي السر في إرساله الى مصر » .

الجواب واضح :

«لظعن» انجلترا منافسة فرنسا. لضرب البكاوات المماليك الذين «لا يراعون غير التجارة الانجليزية» .. أليس هذا سبباً كافياً لتبرير حملة اوروبية في القرن التاسع عشر، وإلهاب حماسة الجند حتى ولو كانوا هم ذاتهم الذين ساهموا في تحطيم الباستيل !

والمنشور بعد ذلك يدعو الجنود لاحترام دين البلاد كما يحترمون دين موسى ودين المسيح ، ويقنعهم بأن السلب الفردي « لا يثرى منه إلا الأقلون » .
بينما يقضي « على مواردنا » . وهو بذلك يشرح مزايا السلب المنظم الجماعي على مستوى الأمة ، بدلاً من السلب الفردي . ولا شك ان الحق مع نابليون في ذلك !

بلاد السلطان !

وقبل وصول الاسطول الفرنسي الى الاسكندرية ، وقعت حادثة توصف عادة بأنها غيرت مجرى التاريخ ، اذا كان يمكن لحادثة أن تفعل !

فقد وصل اسطول « نلسن » الى الاسكندرية وأرسل الكابتن « هاردي » على ظهر السفينة « موتين » في ٢٧ يونيه ليعرض على المدينة حماية الاسطول البريطاني .

ولكن « محمد كريم » احدى الشخصيات المصرية النموذجية ، واسطورة من عصر الاعاجيب هذا ، في عصاميته وذكائه ووطنيته وصلابته ونهايته المأساوية ، وحاكم الاسكندرية فوق ذلك كله .. رفض هذه الحماية . وأجل تفسير لتلك المحادثة التي رواها الجبرتي ونقولا الترك .. هو ذلك الذي يطرحه « هيرولد » : « رفض « محمد كريم » حاكم المدينة الذي أتى ليتبين نيات الرجل الانجليزي ، ان يقبل مساعدة الانجليز ضد الفرنسيين . واذا كان عديم الثقة في جميع الاوروبيين على السواء فانه في حوصه وحذره تظاهر بالجهل . وقال لهم في رواية نقولا الترك : ان الفرنسيين غير ممكن انهم يحضروا لبلادنا ، ولا لهم في ارضنا شغل ، ولا بيننا وبينهم عداوة . وهذا كلام غير ممكن أن نصدقه . وأما أنتم فما لكم إقامة في ارضنا ، ولا معنا اجازة ان نقبلكم جملة

كافية. فانظروا الذي تحتاجوه من الماء والذخيرة خذوه واذهبوا عنا بالسلامة. وان كان الفرنسيون كما تزعمون قاصدين اخذ بلادنا فنحن منا لهم نصطفل»^(٨).

وقد هدده الكابتن الانجليزي : « انتم ما صدقتم كلامنا . سوف تعانوا ما يحل بكم . وتندموا على عدم قبولكم إيانا »^(٩) .

ويعلق « هيرولد » بأنه في حالة « محمد كريم » بالذات . فقد صدقت نبوءة الانجليز يقيناً . مشيراً بذلك الى ان « محمد كريم » قد دفع رأسه ثمناً لرفض الحماية الانجليزية . فقد كان اول مسؤول مصري يعدمه الفرنسيون بعد انتصارهم ، أعدموه بعد التعذيب والحبس والتشهير . فالذين جاءوا لتحرير المصريين من المماليك كان اول ضحاياهم هو الحاكم « المصري » لمدينة الاسكندرية .. ولولا « محمد كريم » ولولا مصرعه ، لانطلى على الكثيرين فرية ان نابليون هو اول من فكر في إمكانية ممارسة المصريين لشؤون الحكم !.. ها هي أول مدينة تضرها مدافع الفرنسيين يتصدر الأمر والنهي فيها مصري من عامة الشعب ، صعد من اول السلم الاجتماعي .. ولم يسجل التاريخ ، حواراً او صراعاً او صداماً بين شخصية مملوكية وأسطول بريطانيا ثم أسطول فرنسا ونابليونها وجيشها .. وها هو الحاكم المصري لمدينة الاسكندرية اول من تقطع رأسه على يد الذي « ألهب حماسنا بجديته عن الحكم المصري » !

أما عن تعليق « هيرولد » فحقق لو أضفنا الى كارثة « محمد كريم » الشخصية ، النكبات والويلات التي نزلت بأبناء بلده الاسكندرية ، وشعب مصر في مجموعته ، فاننا لا نستطيع — رغم ذلك — إلا أن نؤيد موقف الحاكم المصري . فلا شك ان رفضه هذا ، الذي واجه به الاسطول الانجليزي ، قد وفر على مصر احتلال ثمانين عاماً . فلو كان قد وافق على قبول الحماية الانجليزية ، وسمح بنزول الانجليز على البر ، وتمركزت بوارجهم عند الساحل . ونجحت خطة « نلسن » في الايقاع بالأسطول الفرنسي عند شاطئ الاسكندرية ، وقبل نزول جندي فرنسي واحد الى البر .. لما خرج الانجليز من مصر بعدها .

فليس في التاريخ البريطاني كله ما يوحي بأنهم كانوا سيتصرفون مع «محمد كريم» بشرف. أو انهم كانوا سيلتزمون بأي وعد يقطعونه قبل انطلاق المدافع ورفع الراية على قلاع الاسكندرية العتيقة .

فمن الناحية التاريخية ، ليس هناك ما يؤسف عليه .. صحيح ان «نلسن» كان يستطيع أن يضرب عرض الحائط ، برفض وحجج «محمد كريم» ، ويحتل الاسكندرية . او حتى يقف على مقربة منها رغم أنف «محمد كريم» الذي لم يُشِين تاريخنا بقبول الحماية الاوروبية .

ولكن «نلسن» لم يفعل ، ولعله لم يشأ - وكان حصيماً في ذلك - ان يبدأ معركة المنتظرة مع الفرنسيين بمقاتلة المصريين. ويتولى الدفاع عن مدينة تشعل ، هي ، النار في مؤخرته . بل لعله فضل ان يضع الفرنسيون في هذا الموضع ، اذا ما كانوا يتجهون لمصر .

وسواء أكان هذا التبادل في الأدوار ، قد تم باختيار واع من «نلسن» أو أن حسن طالع الامبراطورية المنتصرة هو الذي جعل «نلسن» يتقبل صاغراً رفض «كريم» وينصرف باحثاً عن الأسطول الفرنسي في البحر ، فلا شك ان المصير النهائي للفرنسيين لم يتغير كثيراً برحيل الأسطول البريطاني بل لعله قد ساء .. وان كانت «لغة» الأحداث في مصر قد تغيرت بفعل هذا الرحيل !

غير ان موقف «محمد كريم» يحتاج الى مناقشة، ففي بعض الروايات انه قال : « هذه بلاد السلطان ، ولا دخل للانجليز او الفرنسيين فيها » . وقد تشبث انصار تفسير «صراع الاستعمارين التركي والغربي» بهذه القشة ليدلوا على ان معارضي الغرب من المصريين ، كانوا يعارضون انطلاقاً من الولاء أو التبعية للاستعمار التركي . والرواية كما يحكيها الجبرتي الذي كان دقيقاً كهدهتا بأعظم المؤرخين المصريين .. إذ اوضح انه لا يورد النص الحرفي بل قال : « وفي يوم الأحد العاشر من شهر محرم ١٢١٣ هـ (يونيو ١٧٩٨)

وردت مكاتبات على يد السعاة من ثغر الاسكندرية ومضمونها انه في يوم الخميس (*) ثامن ، حضر الى الثغر عشر مراكب من مراكب الانجليز ، وقفت على البعد بحيث يراها اهل الثغر. وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً ايضاً . فانتظر اهل الثغر ما يريدون واذ بقابق صغير واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا الى البر واجتمعوا بكبار البلد . والرئيس إذ ذاك فيها والمشار اليه بالابرام والنقض . السيد «محمد كريم» الآتي ذكره . فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم فأخبروهم انهم انكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيين . لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ، ولا ندري اين قصدهم فربما دهموكم فلا تقدرتون على دفعهم ولا تتمكنوا من منعهم ، فلم يقبل السيد « محمد كريم » منهم هذا القول وظن انها مكيدة . وجاوبهم بكلام خشن . فقالت رسل الانكليز نحن نقف براكبنا في البحر محافظين على الثغر لا نحتاج منكم إلا الامداد بالماء والزاد بثمنه فلم يجيبوهم لذلك وقالوا هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل . فاذهبوا عنا . فعندها عادت رسل الانكليز وأقلموا في البحر ليمتاروا من غير الاسكندرية . وليقضي الله أمراً كان مفعولاً ثم ان اهل الثغر أرسلوا الى كاشف البحيرة ليجمع العربان ويأتي معهم للمحافظة على الثغر « (١٠) .

« هذه بلاد السلطان .. فاذهبوا عنها » سواء قبلت هذه العبارة فعلاً خلال مباحثات « محمد كريم » والكابتن « هاردي » او انها اضيفت الى المكاتبات الرسمية ، والتقارير الذي رفع الى السلطة في القاهرة والذي يقضي البروتوكول بتلاوته بحضور ممثل السلطان اي الباشا ، ورغم اننا نجد الحركة الوطنية تكثر من استخدام هذه العبارة حتى الحرب العالمية الاولى : « هذه بلاد السلطان فاذهبوا عنها » . إلا انها لا تعني اكثر من دفع بعدم شرعية

(*) هل هناك خطأ اذا كان الاحد هو العاشر فكيف يكون الخميس هو الثامن !؟

وجود الآخرين . او مواجهتهم بحجة قانونية ، بالتمسك بالسيادة الوهمية « الشرعية » للسلطان في مواجهة اطماع الدول الاوروبية ، وما يعني ذلك من تدويل للصراع. بل طالما استخدمت هذه العبارة من جانب الدول الاوروبية لتبرير اطماعها ومصالحها .. ألم يستخدمها نابليون نفسه ليبر حربه للماليك الذين يتناولون على حقوق السلطان !.. ألم يستخدمها الانجليز حجة لإخراج الفرنسيين من مصر؟! لقد كانت سيادة السلطان ، خرقة ، تصلح لمسح كل النوايا ! «ومحمد كريم» كان سيقا تل العبارة التركية لو انها جاءت تفتح مصر .

وأول ظن ذهب اليه الممالك - كما رأينا - هو تأمر السلطان مع الفرنسيين لفتح مصر . وما من « سلطان » يفتح « بلاده » ! ولكن الصورة الهزلية للاستعمار التركي لا تكتمل إلا بقصة الاسطول التركي الذي كان بالصدفة في مياه الاسكندرية - ونسأه كل المؤرخين العرب ! - ففي الوقت الذي كان فيه الاسطول الفرنسي يعبر البحر الى الاسكندرية لغزو « بلاد السلطان » ، وكان الاسطول الانكليزي يفتش البحر الابيض بحثاً عن الاسطول الفرنسي ، ويعرض خدماته للدفاع عن « بلاد السلطان » .. كانت هناك مركبة تركية راسية في الميناء :

« بينما كان الاسطول الفرنسي لا يزال امام الاسكندرية يلقي الرعب في قلوب من كانوا يشهدونه على البر ، ارسل قائد سفينة راسية في الميناء ، وكان تركيا ، ضابطاً الى البارجة لوريان ، يحمل خروفين هدية ، واستفساراً عما يصنعه الفرنسيون هناك . وسلم الضابط التركي نسخة من المنشور المطبوع والموجه الى أهل مصر فهز رأسه قائلاً انه لا يقرأ العربية - ولعله لم يكن يقرأ التركية أيضاً - فترجم له «فنتور» المنشور. وكان الزائر عند سماعه كل فقرة تنال من قدر الأمراء الممالك يطفر سروراً .. فطلب مزيداً من نسخ المنشور لتوزيعها، وابتلع قدرأ وقرأ من القهوة والحلي، ثم قفل راجعاً بخطاب من بونا برت الى قائده يقول فيه : « سأكون في الاسكندرية غداً فلا تحشى

بأساً ، لأنك من رجال السلطان صديقنا العظيم ، فاسلك كصديق .. ولكني سأعاملك معاملة العدو لو بدت منك بادرة عداء للجيش الفرنسي . وستكون انت الموعوم لأن هذا أبعد الاشياء عن نواياي « (١١) » .

ويعلق « هيرولد » بقوله : « ولسنا على ثقة من أن الضابط التركي راعه اخلاص بونابرت . ولكنه كتم السر ولم يفعل شيئاً » .

وهكذا طلب ممثل السلطان ، نسخاً من منشور إعلان « تحريتنا » ليتولى توزيعه نكاية بالمليك !

ولم يكن بالمدينة قوة عثمانية ، ولا اكثر من عشرين مملوكاً .. وقد حاول المصريون الدفاع عن مدينتهم في أول مواجهة بين الشرق العربي والغرب الحديث ، وبعد ما أقام التاريخ فاصلاً حضارياً ، حسم مصير الصدام قبل أن يقع . وكانت النتيجة محتومة - عسكرياً - فإن قروناً طويلة من التآكل والانهيار ، قد جردت المدينة من كل عناصر المقاومة . فتعدادها يختلف فيه ما بين ثمانية وعشرة آلاف ! (تعداد بضع عمارات اليوم) .

ويعلق « هيرولد » على قول الجبرتي : « لم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم (الفرنسيون) كالجراد المنتشر حول البلد » يعلق بقوله وهي « مبالغة تصور حالة المدافعين النفسية » . ولكنه تعليق غير منصف . إذ أن التشبيه لا مبالغة فيه اذا ما تصورنا مدينة تستيقظ على مقاتلين يحيطون بها . هؤلاء المقاتلون المدججون بالسلاح تعدادهم اكثر من اربعة اضعاف سكان المدينة ، جميعاً بما فيهم المقاتلين والنساء والاطفال !.. تخيل ان القاهرة تستيقظ على جيش تعداده ٢٠ مليون مقاتل ! ولندن يهبط عليها اكثر من ثلاثين مليون مظلي !.. من الذي يلوم الانجليز اذا وصفوا الغزاة بأنهم « جراد منتشر » .

كانت قوات الحملة تتكون من ٣٤٠٠٠ جندي بري و١٦٠٠٠ بحري وملاح . ان اوروبا لم تكن متفوقة في التكنولوجيا وحدها بل حتى في تعداد

البشر^(*). وحتى في موقعة امبابة الحاسمة حيث قذف المماليك بالقوة الرئيسية، بل الوحيدة التي كانت لهم في مصر يشهد « هيرولد » بأن « الفرنسيين كانوا يمتازون بالتفوق العددي الحاسم » .

أما الفارق التكنولوجي فكان بشماً ساحقاً ، رأى « محمد كريم » عند إشرافه الصباح خمسمائة سفينة تحيط بالميناء . فكتب الى مراد بيك في القاهرة : « ان العمارة التي حضرت مراكب عديدة ما لها أول يُعرف ولا آخر يوصف . لله ورسوله دار كونا بالرجال » (١٢) .

أما عدة « محمد كريم » « فلم تكن اكثر من برميل واحد من البارود لمدفيعتهم . أما الخيالة إذا استثنينا البدو عديمي النفع ، فلم يكن منهم اكثر من عشرين مملوكاً » .

كان على « محمد كريم » ان يواجه أقوى جيش في العالم بهذه الإمكانيات . وكأروع ما يكون الجندي تأدية لواجبه ، مها تكن الظروف ، قرر أن يقاوم . وأرسل الى القاهرة يطلب النجدة .

ونترك المواجهة التاريخية بين الشرق المنهار ، والغرب الزاحف كالجراد المنتشر .. لنلثم مع الخيالة والجمالة الذين هرعوا الى القاهرة برسائل تطلب النجدة .

وفي مثل هذا الظرف ظهر الباشا التركي ! ووجهت الدعوة الى عقد الديوان .. وفور انعقاده بادر « مراد بيك » - كما رأينا - باتهام الدولة العثمانية بتدبير هذه النازلة ، ونفى الباشا الاتهام ، وحشم على القتال .

ويحكي لنا الجبرتي بمرارة المصري الذي يمسه الأمر في الصميم ، مهزلة اجتماع الديوان :

(*) كان تعداد مصر حوالي ٢٠٥ مليون يحكها ويدافع عنها عشرة آلاف مقاتل من المماليك ويقدر عددهم بنسائهم وأتباعهم من المماليك بمائة الف. وسوريا كلها (سوريا + لبنان + الأردن + فلسطين) اقل من ثلاثة ملايين .

« ثم ورد في ثالث يوم بعد ورود المكاتيب الأول . مكاتيب مضمونها ان المراكب التي وردت الثغر عادت راجعة فأطمأن الناس وسكن القبيل والقال . وأما الأمراء فلم يهتموا بشيء من ذلك . ولم يكثرثوا به اعتماداً على قوتهم وزعمهم انه اذا جاءت جميع الأفرنج ، لا يقفون في مقابلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيولهم » (١٣) . فلما جاءت المكاتيب بعد ذلك بوقوع غزو الاسكندرية واحتلالها . « ركب « ابراهيم بيك » الى قصر العيني وحضر عنده « مراد بيك » من الجيزة لأنه كان مقيماً بها . واجتمع باقي الأمراء والعلماء والقاضي وتكلموا في شأن هذا الأمر الحادث . فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مكاتبة بخبر هذا الحادث الى اسلامبول . وان مراد بيك يجهز العساكر ويخرج لملاقاتهم وحرهم . وانفض المجلس على ذلك وكتبوا المكاتبة وأرسلها بكر باشا مع رسوله على طريق البر (وهنا تحبك النكتة مع ابن مصر الأصيل فيكمل) : ليأتيه بالترياق من العراق « (*) » .

هذا التعليق البسيط .. او النكتة التي ذيل بها الجبرتي ، تأريخه للمؤتمر التاريخي ، او قرارات آخر ديوان قبل الاحتلال الفرنسي ، يكشف عن القيمة الحقيقية التي كانت للدولة العلية ونجدتها لدى النخبة المصرية . بل عن مدى ما كانت هذه النخبة تتوقعه منها لحماية وجودهم واستقلالهم . وهذا الفهم ، ولو انه مبكر جداً ، ولكنه غير مستغرب من عبقرى مثل الجبرتي ، يعيننا على فهم المعنى العملي للرابطة الاسلامية او العثمانية التي رفعت كسعار في أواخر القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين . فقد كان الذين يرفعون هذا الشعار ، لا يرفعونه عن وهم او تقدير مبالغ فيه لقوة الدولة العثمانية . بل على العكس عن ادراك حقيقي لمدى الضعف الذي تعانيه هذه الدولة . والوعي في نفس الوقت بأن اعلان هذا الانهيار او وقوعه يشكل الكارثة الكبرى

(*) المثل المصري يقول « على ما يحيى الترياق من العراق يكون الي اقرص مات »! والترياق

هو الدواء المضاد للسم .

لوجودنا . وسنجد « الجبرتي » يفرح مع المصريين بعد ذلك ، بوصول الجيش العثماني ، ويدعو له ، ليسبه بعد ذلك ، بعدة سطور ، ليس إلا ...

نترك رسول « بكير باشا » ينطلق مسرعاً بقدر ما تسمح له امكانيات العصر ، وأيضاً اخلاصه في تأدية مهمته .. ونعود الى الاسكندرية التي كان عليها ان تواجه جيش نابليون بنصف برميل بارود وعشرين مملوكاً ! أما المدفع الوحيد الذي كان برشيد وهو من عيار ثمان وعشرين بوصة ، فقد لاحظ « دينون » ان الغرض الوحيد من وجوده لم يكن يتعدى « تيسير حالات الوضع العسيرة ، للنسوة الحوامل اللواتي يذهبن بنية خالصة للخطو من فوقه ! » (١٤).

« وفي تقرير « فولني » : ليس بالاسكندرية اربعة مدافع صالحة للعمل . وكذلك لا يوجد بها مدفعي واحد يحسن التصويب . والخمسة انكشاري الذين تتكون منهم حامية الاسكندرية في الأصل - قد انخفض عددهم الى النصف ، وهم عمال عاديون لا يكادون يعرفون كيف يشعلون غليوناً ! » (١٥).

ولم تكن هناك فرصة لتضليل الجماهير او اخفاء طبيعة الصراع ، وانفجرت مع الطلقة الأولى ، ذكريات وتاريخ الحروب الصليبية بين الغرب والشرق . لذلك هبت الجماهير تدافع عن وجودها .. عن تاريخها .. عن مدينتها . وستمضى سنوات طويلة ، قبل ان يواجه نابليون مقاومة « شعبية » كذلك التي واجهها في الاسكندرية ثم في مصر كلها ، وستمضى سنوات حاسمة قبل أن تكتشف اوربا زيف رسالته التحريرية ، ويضطر موسيقيوها الى تغيير ألحانهم . او قل قبل ان تنتهي هذه الرسالة في اوربا ، وتترك شعوب اوربا أن عليها أن تتحرر من نابليون وجنوده ، بعدما تحررت فترة بهؤلاء الجنود .

ولكن في حالتنا نحن ، في الشرق ، لم يكن لهذه المهمة التحريرية أية وجود منذ اللحظة الأولى . ولم يكن للجيش القادم من اوربا أية رسالة تحريرية ، بل كان استعماراً ، ولو بشكل جديد ، اكثر فعالية وأشد خطورة

للحرب المتصلة التي بدأت بأول حملة صليبية ، وأول غزوات الاستعمار الغربي بشكله الحديث .

ولا يفوت نابليون رغم انه يمثل الثورة الفرنسية . أن يعقد المقارنات بين حملته والحملة الصليبية التاسعة . وكل ما يلاحظه من فارق « حضاري » بين الحملتين هو : « ان لويس التاسع أفنق ثمانية اشهر في الصلاة ، وكان اجدى ان ينفقها في الزحف والقتال واحتلال البلاد » (١٦) .

لذلك كانت المقاومة الشعبية الشاملة هي الرد الوحيد على الغازي الصليبي الجديد .

ومن فوق اسوار الاسكندرية « انطلقت صرخات مخيفة ، من أفواه الرجال والنساء والأطفال ، وفي الوقت نفسه انطلقت نيران المدفعية صوبنا فعرفنا نيات العرب . وأصدر بونابرت الأمر بأن ينفخ في الأبواق لدعوة الجيش للهجوم فتضاعفت قوة الصراخ » (١٧) .

وبالرصاص والأحجار دافع العرب عن مدينتهم واستقلاهم وشخصيتهم وكيانهم ووجودهم الحضاري . وأصيب كليبر ومينو . ويسجل « هيرولد » : « انه من النادر أن يصاب قائدان هذه الاصابات في الدقائق الخمسة الأولى في أية حملة حربية » (١٨) . كما تعرض نابليون نفسه للقتل . « ولا شك في ان قلعة الفنار التي كان يتولى القيادة فيها السيد «محمد كريم» ، قاومت الى ساعة متأخرة من الليل . وما من شك ايضا في ان قتالاً نشب في شوارع المدينة . ويؤخذ من تقرير بونابرت الى الادارة أن كل بيت كان قلعة » (١٩) .

وقتل اللواء « ماس » وخمسة ضباط آخرون . وكتب الجنرال مينو : « ان الأعداء قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم » .

وهكذا نرى ان «محمد كريم» لم يترك للسلطان مهمة الدفاع عن « بلاده » بل قاد مقاومة المدينة الى آخر طلقة .

مدينتي قاومت .. قاتلت .. لم تغرر بها منشورات المستعمر التي تقرر
اليوم ببعض المؤرخين .

مدينتي حاربت ولم تفتح ذراعها للمتفوق تكنولوجياً .. ولا صدقت ان
تحررها يتحقق على يد غاز اجنبي !

« وأطلق احد القناصة النار من النافذة على نابليون نفسه ، فأصابه في
حذائه ، ورد بعض الجند باطلاق النار وتسلق غيرهم الى داخل البيت عن
طريق السطح ، فوجدوا القناصة ، وكانا رجلاً وامرأة فقتلوهما فوراً » (*).

ورغم مرور ثمانية قرون بين الحملة الصليبية الأولى التي اطلقها بطرس
الناسك. وبين الحملة التي اطلقتها الثورة الفرنسية. فإن سلوك الجند في الحملتين
لم يختلف كثيراً. ولعلنا نجد تشابهاً عجبياً بين الرسالة التي بعث بها المنتصرون
في القدس منذ سبعمائة عام إلا عاماً واحداً .. الى البابا الذهبي « اربان »
ييشر بأن « خيلنا تفوس الى ركبها في دماء الشرقيين في بيت المقدس » .
وبين رسالة « ادجواتن جنرال بوايه » احد هيئة أركان الحرب العامة الذي
كتب لوالديه يقول :

« حين دحر المدافعون على جميع الجوانب ، احتموا بإلههم ورسولهم ،
فملأوا الجوامع . وذبح الرجال والنساء ، الكبار والصغار ، وحتى الاطفال ،
عن بكرة أبيهم. وبعد نحو اربع ساعات هدأت سورة جنودنا في النهاية» (٢٠).
وكتب جندي آخر في مذكراته : « ظننا ان المدينة استسلمت ، وشد ما ادهشنا
أن ينهال علينا رصاص البنادق ونحن نمر أمام احد المساجد .. فأمرنا قائد
اتفق وجوده هناك ان نفتحم باب المسجد ولا نبقي على احد فيه . وهكذا

(*) بونابرت ص ٩٦ « ذلك هو الحادث في رواية بورين (المذكرات ١ - ٢٦١) أما
بونابرت فيقول انه لم يكن في البيت سوى رجل واحد محاط بست بنادق (الحملة المصرية
والسورية - في رسائل نابليون الأول ٢٩ ص ٤٣٤) .

هلك الرجال والنساء والأطفال بحمد السناكي .. ولكن لما كانت العواطف الانسانية أقوى من الانتقام . فقد توقفت المذبحة حين تعالت اصواتهم طلباً للرحمة . فاستحيينا نلثهم « (٢١) » وليس هناك أبداع من تعليق « هيرولد » على « المهمة الحضارية والرسالة التحريرية » التي كان يجري تنفيذها في نساء وأطفال مصر بحمد السناكي . يقول : « والمدنيون غير مفروض فيهم ان يطلقوا النار على الجنود . وعمل الفرنسيون قد يبرر ، حتى اذا أخذنا بقواعد الحرب المتعارف عليها بين الأمم التي تسمى متحضرة . وقد تلقى المسلمون ، الجاهلون بقواعد حرب المتحضرين درساً نافعاً . كذلك تعلموا ان المرء يجب ألا يخلط بين الناس ، فيحسب محرريه اعداء » (٢٢) !

وعلى طول الطريق من الاسكندرية الى القاهرة كان جنود الامة المثلثة الألوان يواصلون مهمتهم التعليمية ورسالتهم التحضيرية (*).

« يقول الجاويش فرانسوا ان قرية رفضت امداد الفرنسيين بالبضائع التي طلبوها فضرب أهلها بحمد السيف وأحرقت بالنار ، وذبح وأحرق ٩٠٠ رجل وامرأة وطفل ليكونوا عبرة لشعب مهجي نصف متوحش » (٢٣) .

« وقد يكون «فرنسوا» مغالياً في تقدير عدد الضحايا ولكن هذا المشهد كان يقع مراراً وتكراراً ويصف الكولونيل « لوجيه » مشهداً منها في يومياته فيقول في ٢٦ سيدور (١٤ يوليو) وصلنا الى قرية « نكله » ، وكانت فرقنا « بون وفيال » تعملان فيها النهب والسلب ، وأحدثت صيحات الرجال وولولة النساء ضجيجاً رهيباً . وتسلفت النساء سطح منازلهن . وكلما رأينا

(*) وقد انصف المترجم اذا شفع هذه الجملة « بتوضيح » قال فيه : واضح سخريه المؤلف . للمترجم كل الحق في توضيح هذه البديهية لأن بعض الذين ابتليت بهم امتنا ، اخذوها على محمل الجد وأنشأوا نظرية عن المهمة التحضيرية لجيش التحرير الفرنسي !

فرنسياً على صهوة جواد نادينه وأظهرن له فجيعتهن بالتلويح خلفاً واماماً
بطرح يسكنها بكتتا اليدين ثم يختمن شكواهن : « بالتعديد » الباكي . كل
هذا يحدث تحت بصر القائد الأعلى » (٢٤) .

ويقول « هيرولد » : « ليس لدينا دليل على ان « بونابرت » كان يستمتع
بأعمال النار او الانتقام او يمتتها فلا هو بالقاسي ولا الرحيم . ولا هو بالوحشي
ولا الرقيق الطبع . ولكن المدوان في رأيه يجب ان يعاقب ، لئلا يكون
امال عقابه تشجيعاً له : ومن ثم كانت جماعات وقرى برمتها تنهب وتحرق
بأمره ، وقطعان الغنم والماشية - وهي مورد الرزق الوحيد لقبائل البدو
تنترع منها ، والرؤس تطيح بالعشرات » .

محبنا السلطان العثماني

الفرق بين حملة لويس التاسع ، وبين حملة نابليون الأول ، أو بين الغزوة الصليبية ، وغزوة الثورة الفرنسية ، هو ان الثانية كانت تتمتع بقدرة هائلة على النفاق والدجل والادعاء . فلم يسجل التاريخ ابدأ منشوراً صليبياً يتحدث عن الخير والنوايا الطيبة التي يضمها الغزاة لسكان البلاد المنهوبة .. المقتولين والمحروقين !

ولكن نابليون بعد ان أخذ مقاومة المدينة بالرصاص والسناكي والقتل والحرق . قام بتوزيع منشوره الشهير . ولم يكن لدى المصريين الذين بقوا أحياء من سكان الاسكندرية حاجة الى قراءة المنشور ، حتى لو اتاحت لهم الفرصة .. فقد كانوا يرون المهمة التحريرية رأي العين وليس من رأى كمن قرأ ... ولكن يبدو أن بعض حفدة « التراجمة » الذين استأجرهم كليبر ، والذين صاغوا المنشور بلغة عربية ركيكة . يحاولون الآن ، وبعد كل هذه السنين ، التي عشناها ، في ظل « الرسالة الحضارية » للغرب الاستعماري ، يحاولون اليوم الدفاع عن مهمة اجدادهم بإعطاء اهمية خاصة لهذا المنشور ووصفه بأنه وثيقة خطيرة تعلن تحرر المصريين وقوميتهم .. الخ، مع ان نابليون نفسه وصفه في سانت هيلانة « بأنه قطعة من الدجل ولكنه دجل من أعلى

طراز « (٢٥) واعترف انه « على الانسان ان يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد الى النجاح » (٢٦) .

ولنلق نظرة على هذا الطراز الرفيع من الدجل حتى يمكن ان نناقش الطراز غير الرفيع الذي يتعرض له تاريخنا في ايامنا هذه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه » .

وهكذا نرى التخلي عن رسالة تحضيرنا منذ السطر الأول . فأول لقاء بيننا وبين الغرب « العلماني » يبدأ بالبسملة ! بل ها هو نابليون يحاول ان ينفذ الى ضمائرنا بإشهار إسلامه ! والنص بالذات على أن الله لا ولد له !

« من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية . السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونا برته . يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى . فحضر الآن ساعة عقوبتهم . وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابازة والجراكسة يفسدون في الاقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها . فأما رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون قد قيل لكم انني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه . وقولوا للمفتريين انني ما قدمت اليكم إلا لأخلص حركم من يد الظالمين . وانني اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا ايضاً لهم إن جميع الناس متساوون عند الله . وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يمتلكوا مصر وخدم

ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة . فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للماليك فليرونا الحجة التي كتبت لهم . ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم . ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية .. وعن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها . وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر . وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من الماليك . أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجريجية وأعيان البلد وقولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم ايضاً مسلمون مخلصون . وإثبات ذلك انهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام . ثم قصدوا جزيرة مالطة وطرردوا منها الكوالرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء اعدائه أدام الله ملكه .

وهكذا نرى أن الغزوة الحضارية لم تكف فقط بتملق اسلامنا . بل حاولت أن تثير فينا مشاعر الحرب الصليبية من جديد بتذكيرنا بعداوة الصليبيين (الآخرين) والتحجب الينا بقتل النصارى وتخريب كرسي « البابا » الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام ! كما لم يفهمهم - في الطريق - إزال القصاص بفرسان مالطه ، « الذين كانوا يزعمون ان الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين » !

نتابع المنشور :

« ومع ذلك ان الماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع انفسهم . طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم . طوبى ايضاً للذين يقعدون في

مساكنهم غير مائلين لأحد الفريقين المتحاربين. فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا
إينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على الممالك في محاربتنا
فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص . ولا يبقى منهم أثر .

المادة الأولى : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن
المواقع التي يمر بها عسكر فرنساوية . فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر
من عندها وكلاء . كما يعرف المشار إليه انهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم
الفرنساوية الذي هو ابيض وكحلي وأحمر .

المادة الثانية : كل قرية تقوم على العسكر فرنساوي تحرق بالنار .

المادة الثالثة : كل قرية تطيع العسكر فرنساوي ايضاً تنصب صنجق
السلطان العثماني محبنا دام بقاءه .

المادة الرابعة : المشايخ في كل بلد يختمون حالاً جميع الأرزاق والبيوت
والأملاك التي تتبع الممالك . وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى
شيء منها .

المادة الخامسة : الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة انهم يلازمون
وظائفهم وعلى كل أحد من أهالي البلد أن يبقى في مسكنه مطمئناً وكذلك
تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة . والمصريون بأجمعهم ينبغي ان
يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة الممالك قائلين بصوت عال أدام
الله اجلال السلطان العثماني . أدام الله اجلال العسكر فرنساوي . لعن الله
الممالك وأصلح حال الأمة المصرية . تحريراً بمعسكر الاسكندرية في ١٣
شهر سيدور سنة ١٢١٣ من إقامة الجمهور فرنساوي يعني في آخر شهر محرم
سنة هجرية أه بحروفه ، (٢٧) .

وإذا كان نابليون قد وجد في المنشور « دجلاً من أعلى طراز » ، فلعله
على حق باعتبار تاريخ صدوره . ولكن هذا الدجل أصبح مألوفاً في كل غزوة

استعمارية على الطراز الغربي . بل نكاد نجد نفس الألفاظ ، وذات اللغة الركيكة في المنشورات التي وزعها عدوان ١٩٥٦ على بور سعيد ... وفي بيانات « جيش الدفاع » العدواني الاسرائيلي . التي تمتاز بلغتها الأفضل !

وما من مؤرخ جاد يتوقف عند مثل هذه المنشورات او يحاول ان يستشف منها تطورات او يتعرف منها على النوايا الحقيقية للمستعمرين . فهي ليست اكثر من دجل . وأهميتها التاريخية انها تعكس مستوى فهم مصدرها لعقلية واتجاهات وميول الموجهة اليهم هذه المنشورات . وغالباً ما يكون هذا الفهم خاطئاً وقاصراً .

على أية حال ان نابليون كان يعتقد أن غزوه لمصر يمكن ان يتم برضاء الباب العالي ، أو على الأقل يمكن لهذه الغزوة ألا تثير غضب السلطان أو تسبب عداوته لفرنسا ، فقد فكر فعلاً في ارسال «تاليران» لإقناع الباب العالي بأن فتح مصر يتم لمصلحة تركيا .. والمنشور يؤكد على صداقته للسلطان . ويعدد جرائم المالك في حق السلطان . ومعروف ان من أهم أسباب الحملة ان فرنسا كانت تعتمد في حماية مصالحها في مصر على السلطان الذي لا قوة له.. بينما كان الانجليز أعرف بالسلطة الحقيقية في مصر لذلك وقعوا معاهدة مع البكوات المالك ، كانت أجدي من كل صداقة فرنسا مع الباب العالي (*) .

ولعلها أول مرة تجبر فيها السلطة العسكرية ، القرى المصرية ، على رفع الصنجق العثماني ، ولا نظن انه رفع في الريف المصري ، على نحو جدي قبل

(*) ورأي « مورهد » في هذا البيان الذي اعدده نابليون قبل غزو مصر ليوزع بعد فتحها هو : « من اعمال الرياء والحديعة مع المبالغة والاسفاف الحارق في التفاق ، وهو اسلوب صار مألوفاً لشعوب العالم اجمع في الدعاية السياسية في القرن الحالي » (٢٨) . ويرى ان بذرة الصدق الوحيدة في هذا البيان هي ان نابليون كان يعتقد في هذه المرحلة « بأنه من الجائز ان يكسب العثماني الى صفه » (٢٩) .

الحملة الفرنسية . فنذ حملة حسن باشا القبطان ، كان هذا هو أول تذكير
عنيف للمصريين بأنهم يتبعون الباب العالي !

أما ما هو تأثير هذا المنشور في المصريين فالثابت ان الجماهير الشعبية لم
تقبله . فلا هي قبلت أن تكون من المصريين « الذين يتفوقون معنا بلا تأخير
فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم » ولا « الذين يقعدون في مسكنهم غير مائلين
لأحد من الفريقين المتحاربين . فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا اليينا
بكل قلب » .

فعندما زحف « علم الفرنسية » الذي هو « أبيض وكحلي وأحمر »
وقف المصريون ينتظرون أن يؤدي المالك دورهم التاريخي الذي نالوا بموجبه
حق نهب وسلب مصر .. ألا وهو القتال عن مصر ضد الغزو الافرنجي .
وتفرغ العامة - حيث وجد المالك - لاداء دورهم التاريخي في الدعاء
والصياح والآذان .. والتموين .

ويشهد « هيرولد » للعامة المصريين بأنهم بذلوا أقصى جهدهم ، في حدود
المقاومة المسموح لهم بها في ظل احتكار المالك لمهنة السلاح . يشهد
« هيرولد » : « لو كانت المعارك تكسب بالضجيج أو كان في الإمكان نقل
الحيرة والاضطراب الى صفوف الاعداء ، لكان للمصريين تفوق حاسم على
الفرنسيين (*) » .

فلما دارت الدائرة على المالك وعجزوا عن اداء مهمتهم وفروا هاربين ،

(*) ولا شك ان « هيرولد » قد استوحى ملاحظته هذه ، عن عدم جدوى الصياح ، من
تعليق الجبرتي الذي انتقد الصياح بقوله : « وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم فكان
العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم ان الرسول والصحابة
والجهادين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب . لا يرفع الاصوات والصراخ
والنباح . فلا يستمعون ولا يرجعون عام فيه ومن يقرأ ومن يسمع (٣٠) » .

بل وقبلوا بعد ذلك العمل تحت حماية الفاتح الجديد.. حمل العامة مسئوليتهم ،
وسجلوا صفحة رائعة في سفر المقاومة العربية ضد الغزو الأوروبي .

أما تأثير المنشور في « النخبة » التي تتعرض الآن لحملة افتراء تطعن في
وطنيتها .. فلا شك ان الجبرتي هو خير من يعبر عن مشاعر هذه النخبة التي
لم تتردد لحظة واحدة في تحديد موقفها ، واختيار معسكرها كما سنرى .
ويرى « مورهد » :

« وأما حديث الفرنسيين الثوري عن الحرية والاخاء والمساواة ، فلم يكن
في نظر المصريين ، إلا شقشقة لسان . وتلك حقيقة كان على « بونايرت » أن
يتعلمها عملياً على يد المصريين . فالأئمة المصريون والشيوخ الدينيون – الذين
حيرهم وأثار ارتباكهم واضطرابهم شيء كثير مما أبداه الفرنسيون في حملتهم –
لم يحدعوا دقيقتين اثنتين في حقيقة ذلك الاعلان الذي نشره « بونايرت » زاعماً
أنه ما جاء يجيوشه الى مصر إلا ليخلصهم من نير المالميك . إذ أدركوا
ببداهتم السديدة ، أنه إنما يريد انتزاع السلطة لنفسه ، ولذلك ضنوا عليه
بالصدقة والتعاون ، فلم يستطع أن يقيم ما يحلم به من مشاركة المصريين
للفرنسيين في أعباء الحكم والادارة . فلم يكن في طبيعة المصريين
– اذ ذاك (*) – أن يتعاونوا مع حاكمهم الطغاة ، بل كانوا يؤثرون ان
ينفضوا ايديهم منهم ويقاومهم بأسلوبهم الدمث ، مقاومة سلبية قوامها
الانطواء على أنفسهم . وعدم الثقة بموظفي الحكومة وممثلها . وأما الحرية
والاخاء والمساواة فكان للمصريين – في ذلك الحين – مفهومهم الخاص لها ،
فكانوا يمارسونها بطريقتهم المتوارثة في مساجدهم ووراء أبواب بيوتهم المغلقة ،
حيث لم يكن لحكامهم شأن بهم ، ولم يكن لهم شأن بحكامهم » (٣١) .

(*) رائع ! تحفظ مورهد : « اذذاك » . ولكننا نطمئنه ان هذا الاسلوب لم يتغير ، من
جانب الجماهير على الاقل . وان كان قطاع كبير من المثقفين – لاسباب فسرحها مستقبلاً – قد
تعفن الى الحد الذي تعاون فيه مع الحاكمين الطغاة منذ محمد علي .

أليس من المشين حقاً ، أن يكون هذا الفهم متوفراً لكاتب غربي ، بينما يصدع بعض المصريين والعرب رؤوسنا بالحديث عن الدور التاريخي للمنشور السخيف؟! وعن آثار تعاون المصريين مع المحتلين !

أما الجبرتي ، فرأيه سيء في المنشور ، إذ يصف موزعيه وحملته بأنهم « جملة من الاسارى الذين وجدوهم في مالطة ، ومعهم منه عدة نسخ ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس وهم على شكلهم من كفار « مالطه » ويعرفون اللغات » (٣٢) .

وقد أثبت الجبرتي نص المنشور « بحروفه » ولم يعلق عليه اكثر من هذا الوصف المشين للذين روجوه ووزعوه .. والذي يغني عن التعليق . ولكن رأي الجبرتي في هذه المنشورات بصفة عامة ، سنتعرف عليه بعد قليل ، وهو لا يخرج عن رأي نابليون ومورهد ؛ أي دجل وتغدير .

أما الراقعي الذي يتمزق تحليله تحت وطأة تناقض مزعج بين « تطرفه » الوطني ومثاليته ، وبين تأثره - في نفس الوقت - بأفكار وخرافات المدرسة الاستعمارية .. فهو يرى :

« ان فكرة انشاء حكومة اهلية من المصريين هي أظهر ما في المنشور من الوعود التي اراد أن يجتذب بها قلوب المصريين ، والواقع ان نابليون في هذا المنشور قد استثار الروح القومية المصرية » (٣٣) .

وبالطبع نحن نرفض هذا المفهوم لأننا نعتبر ان الغزو هو الذي استثار الروح القومية لا المناشير والوعود الجوفاء . ولا شك أنه توسع شديد في تفسير العبارات ان نقول ان المنشور يعد بإنشاء حكومة اهلية من المصريين. ولكن الراقعي لا تفوته الاشارة الى نقطة هامة في المنشور تغفلها المدرسة الاستعمارية في تعليقاتها وهي : « ان منشور نابليون مع ما فيه من الوعود والعبارات الجميلة قد حوى مبدأ التهديد والوعيد وإنذار المصريين باستهدافهم لأشد انواع الأذى اذا هم لم يدعونا للحكم الفرنسي ، لأن انذار القرى بإحراقها بالنار اذا

هي خرجت على الجنود الفرنسية أمر لا يتفق والقواعد الانسانية في معاملة الشعوب ولم نرَ في منشورات نابليون للايطاليين اثناء حروب ايطاليا تهديداً من هذا النوع ، وسيرى القارىء في خلال الفصول القادمة ان الفرنسيين قد استعملوا طريقة إحراق القرى في كثير من المواطن ، فكان ذلك تنفيذاً لما حواه منشور نابليون من التهديد والوعيد ، ولنا ان نفهم من هذا ان نابليون كان ينظر الى الأمة المصرية بغير العين التي ينظر بها الى الأمم الاوروبية « (افهموها بقى !) ويستنتج الرافعي ان اشفاق نابليون وعيده بتهديده «وانذاره الرهيب» كان « وحده كافياً ليصرفهم (اي المصريين) عن الاطمئنان لوعود نابليون . وقد أورد « ريبو » في كتابه منشور نابليون وحذف منه هذه المادة وأشار اليها اشارة مبهمه ، ولعله تعمد حذفها ليكتم عن القارىء مبلغ ما فيها من القسوة والخروج على قواعد الحضارة والانسانية » (٣٤) .

وان كان الرافعي يتفق معنا ، ولو على لهيب حرق القرى المصرية ، والعقوبات الجماعية، في ان منشورات نابليون كانت عاجزة عن إقناع المصريين بأي مضمون تحرري ازاء ما يلمسونه بجواسهم الخمس من سلوكه الاستعماري البربري . إلا أننا لا نعتقد أن القارىء الأوروبي كان سينزعج كثيراً اذا ما أثبت « ريبو » في كتابه نص الانذار او انه اتزعج فعلاً عندما قرأ في مصادر اخرى تنفيذ الوعيد . لأن القارىء الأوروبي كان قد اعتاد منذ القرن السادس عشر ، ومنذ أن انتصر الانسان الأوروبي على انسان العالم الثالث . . اعتاد الانسان الابيض على حرق وإبادة هذا الانسان الملون . واعتاد على اعتبار أي تنكيل ينزل به غير مخالف للقيم الانسانية بل بالعكس جزء من رسالة الرجل الأبيض الانسانية .

اما عن الذين أصدروا المنشور فقد رأينا كيف اعتبره نابليون : « قطعة من الدجل » وكتب المندوب البحري جوبير الى وزير البحرية : « لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرأون هذا المنشور الاسلامي الذي وضعه قائدنا الأعلى ، ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور » (٣٥) فلنترك اذن الدجل الذي هو من أعلى طراز ، ولنتابع

سلوك الحملة الفرنسية الذي لا يختلف كثيراً عن سلوك سائر الغزاة إلا فيما أضافته الحضارة الحديثة من وسائل اتقان القتل الجماعي والتنكيل بالشعوب التي ترفض الاحتلال .

وبعكس صدق التوقعات السيئة للشعب المصري عن سلوك الفرنجة المحتلين.. خابت توقعات الجنود الفرنسيين . فالشعب الذي واجههم كان مختلفاً تماماً عن الصورة التي جاءوا بها ، او التي روجت بينهم عن قصد ، تشجيعاً لهم على تحمل مخاطر رسالتهم التحريرية والتحضيرية !

فنايليون الذي روعته مقاومة الاسكندرية والفلاحين على طول الطريق الى القاهرة يكتب الى حكومة الادارة : « هذه الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التي اخذناها عنها من رحالتنا . انها أمة هادئة باسلة معتزة بنفسها » (٣٦) .

ويكتب أخوه : « ان في الشعب رباطة جأش مدهشة ، فلا شيء يهزم ، وليس الموت عندهم اكثر من رحلة عبر المحيط عند الرجل الانجليزي .. أما طلعتهم فهيبية . وسحننا نحن ، حتى أقواها وأبرزها ملامح ، تبدو كوجوه الأطفال اذا قيست بسحنهم » .

وتمكن نابليون من شق طريقه الى المدينة ، بفضل التفوق الساحق لقواته . وتدخل الضابط التركي صاحب الخروفين ، والمعجب بالمشور ، لإقناع الاهالي ، رعية سلطانه ، بعدم المقاومة والاستسلام للغزاة الجدد.. فحمل رسالة نابليون التهديدية الى الشيوخ وأعيان المدينة .. وحضر هؤلاء لتسليم المدينة وحلف عين الطاعة . وبينما استسلم الأعيان بمساعي المندوب التركي في الصباح ، تأخر استسلام « محمد كريم » الى اليوم التالي . وثبتته نابليون في منصبه كحاكم للمدينة .

ولكن « محمد كريم » لم يضر أية نية للتعاون او الاستسلام . كان ذلك واضحاً في ملامحه التي استشف منها « فيغان دينون » : « تبينت في التعبير الذي

ارتسم على وجه ذلك الرجل ، خداعاً ونفاقاً ، هزته ثقة القائد الأعلى ،
وسماحته ، ولكنها لم تقهره . .

ويخطيء « فيغان دينون » مرة أخرى في فهم الروح الإسلامية ، والصلابة
المصرية فيظن ان رفض « محمد كريم » ينبعث من مجرد سوء تقدير لتفوق
القرب المادي ، فيفسر ملاحه الخادعة هذه بأنه « لم يكن قد عرف بمدى
مواردنا ولا تأكد من أن ما وقع لم يكن نتيجة تهويز فقط . ولكنه حين
رأى ان ٣٠,٠٠٠ جندي ومدفيعتهم قد أنزلوا الى البر ، لم يأل جهداً في
الالتصاق ببونابرت ، ولم يبرح مقر القيادة . وكان بونابرت قد ذهب الى فراشه
« ومحمد كريم » لا يزال في الحجرة المجاورة » (٣٧) .

هكذا ظن « فيغان » وربما نابليون نفسه . ولكن الحقيقة كانت مخالفة
تماماً لهذا التصور ، فكما قال « هيرولد » معلقاً على ظن « مينون » هذا :
« ولكن الذي تبين فيما بعد انه كان مخادعاً حتى في ولائه هذا » .

وبدأت قوات « نابليون » تشق طريقها الى القاهرة وسط : « شعب معاد
متعصب ، عديم الثقة ، سهل الانفعال » (٣٨) (كما يصفه مؤرخ غربي يعيش ويكتب
في الستينات من القرن العشرين . ورغم معلوماته المدهشة في وفرتها وصدق
معظمها . إلا أنه لم يستطع أن يتخلص من مفاهيم الحضارة الغربية وصيليتها
وميراثها المعادي) .

ورغم المنشور الاسلامي الذي وزعه نابليون ، فان استجابة البدو لنداء
مشايخ القاهرة ، كان أقوى وأفضل ، فقد بادروا الى قطع مساوماتهم التجارية
مع جيش نابليون ، فور تلقيهم أمراً بالجهاد من مشايخ القاهرة ، « وبدأوا
يطاردون الجيش الغازي » (٣٩) .

ويبدو أن ظروف الزحف القاسية عبر الصحراء وفي فصل القيظ ،
وبالذات في الشهر الملتهب (يوليو) كانت تغري افراد الجيش بالتخلف قليلاً ،
او التباطؤ في السير .. وكان بعض هؤلاء المتخلفين يقع في أسر قوات البدو

المطاردة، كرهاً او دون مقاومة جادة من جانبه ، فقد كان لدى أسريه ماء وغذاء ، وكانوا بدوا « متخلفين » ، لا يقتلون الاسرى ، بعكس ما كانت مثل الثورة الفرنسية ، ورمز اوروبا - التآلق والمدنية ، يفعل ، بالأسرى والرهائن .

ولمواجهة قفشي حالة الرغبة في الاسر هذه ، عمدت القيادة الى ترويع ، او الى تضخيم أنباء تخيف بها غلمان فرنسا الذين جندهم نابليون وجاء يفتح بهم الشرق .

كانت هذه الانباء المروعة تتحدث عن ممارسة البدو اللواطه مع الأسرى من الجنود الفرنسيين . نفس القصة التي سيحكىها لورنس بعد ذلك بقرن وربع قرن ، ولكن عن الجيش التركي ! دون أن ينجح ذلك في وقف ولع المستشرقين بالشرق !

وحقilo صحت هذه الروايات التي يهتم بها -ويا للغرابه- مؤرخ امريكي(*) ، اهتماماً بالغاً . وفي عام ١٩٦٢ .. بل ويفسرها تفسيراً يتسم بالعنصرية إذ يقول : « ويصعب تفسير سلوك قوم يتغذون بلبن الابل طوال العام » ولا ندري بماذا يفسر وجود ١٣ مليون لوطي في الولايات المتحدة ، لم يذوقوا لبن الابل طوال الفترة التي عاشها انسان الغرب على ظهر هذا الكوكب ؟!

على أية حال - وبمقاييس الحضارة الغربية - كان هؤلاء البدو يسبقون رفاق السلاح الامريكيين بأكثر من القرن ونصف القرن الذي عبرنا بهم نفس الكاتب ! او كانوا في نفس المستوي الحضاري لنابليون الذي يروي عنه « هيرولد » انه انتهر جندياً أسيراً غلبه التأثر وهو يروي ما فعله به البدو . فانتهره نابليون قائلاً : « وما يبكيك .. أهذا كل ما تثير حوله هذه الضجة أيها الغبي ؟ لقد دفعت ثمن إهمالك . وكان يجب أن تلتزم وحدتك . والآن كف عن البكاء وأجب عن اسئلي » (٤٠) . واستنكر نابليون عفة احد الرماة

(*) كرسنوفر هيرولد .

الفرنسيين الذي آثر الموت . ولا شك ان نابليون كان يفضل أن يعود اليه جميع الجنود أحياء ليواصلوا مهمتهم التحضيرية والتحريرية . بل لعله كان يرى ان هذه المعاملة التي يشنع بها المؤرخ الغربي اليوم ، لا تفقد مقاتليه القدرة على قتل المماليك والمصريين ، وهي كل ما كان يعنيه من كفاءات الجنود .

وأن صحت ادعاءات الفتيان الفرنسيين - ضباطاً وجنوداً - عن معاملة البدو لهم ، فهي تنتقص من ادعاءات المدرسة الاستعمارية التي يقول تلاميذها ان الحملة الفرنسية احدثت انقلاباً جنسياً في مصر ، فنقلت اهتمام المصريين من « الغلمان الى النساء » (*) (!)

إن هذا الادعاء يتهافت ، فلو صحت الروايات الفرنسية ، لكان لنا أن نفترض ان « اللواطه » قد شهدت موسماً من اكثر مواسمها رواجاً وازدهاراً مع آلاف الفتيان الفرنسيين يبكون وهم يحكون مغامراتهم في خيمة العدو .. « وسر عسكرهم » ينهائم عن الأسى والأسف على مثل هذه « الأمور البسيطة » . على أية حال سواء أكان استجابة لنداء الجهاد أم طلباً للبشرة البيضاء في جنود الثورة الفرنسية ، فقد استمرت مطاردة البدو للجيش الفرنسي « طوال الطريق من الاسكندرية الى القاهرة » . و « منعا لتخلف المتخلفين (...) صدرت الأوامر للوحدات بأن تسير في مربعات بدلاً من الطوابير » (٤١) ورغم ذلك تخلف كثيرون لأنهم ماتوا من ضربة الشمس ، او أرادوا الموت . « أما الذين ظلوا على قيد الحياة فقد قتلهم البدو او اسروهم » (٤٢) .

وكان اللقاء الأول بين الجيش الفرنسي وقوات المماليك الرئيسية عند شبراخيت . ورغم ان نابليون قد أمر بعزف المارسيليز : « لأنه كان عليماً بتأثيره في الجنود فهذا النشيد الرائع يثير شجاعة الجند ويلهب وطنيتهم » (٤٣) . إلا أن الذهب والجواهر في ملابس المماليك كانت أقوى تأثيراً من المارسيليز في الهاب حماسة جيش التحرير الفرنسي . فما ان رأوا فخامة ثياب المماليك

(*) كما يتباهى لويس عوض .

واكتشفوا مدى الثروة التي يحملونها معهم في ميدان القتال حتى التهب
حماسهم للفوز بها : « ومن تلك اللحظة صموا على الظفر بهذه المغانم من
اعدائهم » (٤٤) .

وبالطبع لم تقتصر حماسة جيش التحرير على نهب المقاتلين وسلب جثثهم ،
بل واصلوا مهمتهم التحضيرية حيثما اتحت لهم الفرصة .

« وكان معظم الضباط قد استسلموا لما يقوم به جنودهم من اعمال النهب
والسلب لأن نظام التموين انهار فعلاً . وكان الضباط العاجزون عن النهب ،
يرقبون رجالهم في شيء من الحسد وهم يشون ما سرقوا من حمام ودجاج
وخراف » (٤٥) .

وكان اللقاء الثاني بين الشرق في أبشع صور تخلفه ممثلاً في مراد بيك ،
والغرب في قمة تفوقه ممثلاً في نابليون ، عند امبابه ..

فقد جاء مراد بأوهام الشرق عن قوة الغرب ، التي زعزعتها بدون شك
انباء المعارك التي سبقت امبابه .. ولكن الوقت كان متأخراً جداً ، للندم
على ضحكته التي اطلقها عندما حذره قنصل النمسا من احتمال غزو فرنسي ،
وكان رد مراد : « ماذا تريد من اخافتنا من الفرنسيين ؟ أليسوا أشباه
الخوارج الذين نراهم بيننا ؟ انه ليكفيني إذا نزلوا الى سواحل مصر في مائة
الف من رجالهم أن ابعث للقاءهم ببعض صغار المالك ليقطعوا رؤوسهم بجد
الركاب » .

نعم بجد الركاب .. فلا حاجة لاستخدام السيف ! ولما أُلحَّ القنصل الذي
كانت تحركه على الأغلب ثارات « انطوانيت » ملكة فرنسا النمساوية ..
« جامل مراد ، القنصل ، بأن ارسل الى الاسكندرية قنطارين من البارود » (٤٦) .

ويعلق « مورهد » : على غفلة مراد التاريخية بقوله : « ولم يكن » مراد
بيك « وحده في الانسياق الى هذه الأوهام ، فقد انقضت قرون طويلة على
انتهاء الحروب الصليبية بالفعل ، وقد استقر في أذهان الناس - في طول
الامبراطورية العثمانية وعرضها - ان اولئك المسيحيين الغربيين محاربون

فاشلون ، وان قيادتهم لا خبرة لها بفنون القتال . وقد لخص الاستاذ «تويني» الموضوع بوضوح شديد ، حين قال « ان المفارقة الحريفة في الموضوع كله ، ان الفرنسيين كانوا - في الواقع - قد هبطوا مصر من قبل بنية غزوها ، وذلك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في زمن كانوا فيه أدنى مرتبة من الشرقيين من حيث الحضارة العامة ، ومن حيث اجادتهم لفن القتال . فالفارس الفرنسي في العصور الوسطى كان صورة ممسوخة - وأقل خبرة وبراعة - من الفارس الملوك ، ولذا حاقت به الهزيمة المرة عندما أقدم على مواجهة المماليك في ساحة القتال . ورجع عن عزمه عن غزو مصر . واعتبر التفكير في ذلك غير مجد . وقد ظل المماليك مدة خمسة قرون ونصف قرن على حالهم (فيما عدا انهم تخلوا عن قسيهم الجلوبة من آسيا الوسطى ، واستخدموا البنادق الانجليزية الطويلة) وقد خيل اليهم - بطبيعة الحال - ان الفرنسيين لم يتغيروا إلا بمقدار ما تغيروا هم أنفسهم . ولذا فإنهم عندما سمعوا بأن نابليون اجترأ على النزول في الاسكندرية ، حسبوا انهم سيذيقونه ما اذاقوه من قبل للقديس لويس (لويس التاسع ١٢٤٩ م) وهكذا ركبوا خيولهم وهم خليوا البال ، وانطلقوا وفي نيتهم ان يطأوا الغزاة تحت سنابك خيولهم » (٤٧) .

« كانت مصر غير متأهبة اطلاقاً لصدمة نزول الجيوش الفرنسية على ارضها . ولم يكن لديها سبيل لمعرفة ان هذا الغزو لا يشبه في شيء أيما غزو حدث للبلاد في الماضي . وان هذه الحملة تعني انهيار العصور الوسطى في الشرق الأدنى » .

« ان سوء طالع المماليك قضى أن يكون لقاءهم الأول مع الغرب ضد جيش تحت قيادة أعظم عسكري في زمنه كله . ولكن الفرنسيين ما كانوا ليعجزوا عن تدمير مثل هذا العدو البدائي والقضاء على شوكته ، ولو لم يكن نابليون هو القائد . فقد كان الفرنسيون - في ذلك الحين - متفوقين على اعدائهم هؤلاء ، في سائر فنون القتال ومعدات الحرب ، ومن حيث التدريب

والتنظيم ، تفوقاً لا حد له بحيث كانوا يبديون لهم وكأنهم مخلوقات خارقة للطبيعة « (٤٨) .

وارتكب « مراد بيك » كل الاخطاء الممكنة ، ولو ان نتيجة المعركة — كما رأينا — كانت مقررة سلفاً (رغم اعتراضات هيرولد) بين ٢٥٠,٠٠٠ جندي فرنسي ، وأقل من ربعهم من الفرسان المماليك .. لم يكن نابليون بحاجة الى مربعات ، كان لديه من الجنود ما يكفي لعمل مربع فرنسي حول كل فارس مملوكي ..

وُسحقت قوة المماليك بعملية عسكرية سهلة ، تخللتها بعض بطولات من آخر فرسان العصور الوسطى .

وعكف جنود « ديزيه ورينيه » — كما يقول « هيرولد » — على تجريد جثث الاعداء المهزومين وسلب ما تحمله من غنيمة ، وقد « ظفر الملازم ديفرنوا بعمامة صفراء مصنوعة من الكشمير ، وأكثر من خمسمائة قطعة نقود ذهبية مخيطة في طربوش عمامته (عمامة المملوك الذي استشهد) وسيف رائع رصع غمده وطرف مقبضه بالذهب ، ومقبضه مصنوع من قرن الخرتيت ، وسلاحه من الصلب الدمشقي » (٤٩) كل هذا كان مع جثة مملوك متقدم في السن ، أبيض اللحية قاتل ببطولة او بعبارة أدق اندفع الى الذبح داخل صفوف الفرنسيين ببطولة أدهشت جنود الثورة الفرنسية ، وهم يندفعون من طوابيرهم لتحطيم رأس المملوك الشيخ الذي كان يزحف على يديه وركبتيه ولحيته تكنس الأرض بعدما سقط جواده (*) وأصر هو على الاندفاع داخل المربعات الفرنسية لقتل « ديفرنوا » وعرقلة « تحرير » مصر !

« وعكف الجنود في الأيام التالية للمعركة على تصيد الجثث من النيل ، وقد وجدوا مع كثير منها ٢٠٠ — ٣٠٠ قطعة نقود ذهبية . وكانت الأجسام

(*) هل يكون هو ايوب بك الدفتردار ؟

العارية تقذف في الماء ثانية بعد تجريدتها مما تحمل تنقل نبأ هزيمة الممالك الى البحر المتوسط « (٥٠) .

ولكن الجثث العارية المسلوبة المنهوبة دون أي احترام للموت ، كانت تنقل أيضاً الى مئات القرى الواقعة على النيل ، وحدة السلوك في كل من الجيشين .. التتري ، والجيش الفرنسي ذي الراية المثلثة الألوان . ولم يكن هناك مبرر واحد للذين يرون الجثث العارية لكي يتوقعوا ، من الغزاة الجدد ، سلوكاً حضارياً مختلفاً عن سلوك الانكشارية في أحط مراحلها .

أما في القاهرة حيث كان اتجاه النيل لا يسمح بوصول الجثث . فقد كان الاحساس بالكارثة لا يقل عن احساس القرى الممتدة من الاسكندرية الى امبابة والتي أسعدها الحظ برؤية الراية المثلثة الألوان . كان المصريون العائدون الى المدينة « في بكاء ونحيب يلطمون وجوههم ويقولون يا ويلنا قد وقعنا في أسر الافرنج » (٥١) .

الفصل الثالث

المدفع والمنشور ..

الدجال يدخل القاهرة

لا شك انه من دلائل الانهيار العام لواقعنا المعاصر ان أمتنا لم يتح لها « جبرتي » معاصر ، يؤرخ معاركنا المصيرية .. فلو أتيتح لنا هذا « الجبرتي » لما اختلفت ملاحظاته عن دور الجماهير اليوم ، عما سجله سلفه منذ مائة وسبعين عاماً !

وإذا كانت جماهير حرب ١٩٦٧ لم تضطر للخروج الى سيناء والجولان والضفة الغربية لتتبع انباء المعركة التي تقرر مصيرها ، فلم تكن بحاجة لذلك الخروج بفضل التقدم التكنولوجي الذي أتاح لها متابعة الانباء من مقاهي القاهرة ودمشق وبلاجات الاسكندرية واللاذقية بواسطة الترانزستور .. بينما تولت الاذاعات مهمة الصباح والدعاء !.. أما جماهير معركة « الازهرام » ، فكانت مضطرة بحكم تخلف العصر ، الى الانتقال بنفسها والخروج الى « بولاق » لمتابعة المعركة . ولم يفكر أحد في تجنيدها للقتال . بل كان هناك شبه اتفاق عام على أن دورها ينحصر في « الاهتمام » و « المتابعة » والتبرع بالأموال والاقوات للمقاتلين والدعاء لهم بالنصر .. والثقة في حكمة النخبة القائدة .

« الجبرتي » يصف لنا ما هي واجبات العامة عندما أعلن النفير العام ..

ويجب أن تتحلى بالتواضع ، فلا نسخر من أجدادنا ، إذ أن اعلان التعبئة العامة اليوم في أي بلد عربي ، لا يفرض على العامة أكثر مما فرضه النفير العام الذي أعلنه ابراهيم بيك والطرابلسي باشا ونصوح باشا منذ مائة وسبعين عاماً !

« نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس وكرروا المناداة بذلك كل يوم . فأغلق الناس الدكاكين والاسواق وخرج الجميع لبر بولاق فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياماً أو يجلسون في مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم قيماً يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها من بعضهم . وبعض الناس يتطوع بالانفاق على البعض الآخر (*) . ومنهم من يجهز جماعة من المقاربة او الشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك (!! كالتبرع والحماسة اليوم للفدائيين الآخرين !) بحيث ان جميع الناس بذلوا وسعهم وفعالوا ما في قوتهم وطاقتهم (!) وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشيء يملكه ولكن لم يسعفهم الدهر (١) » .

وحق يومنا هذا ما زالت العامة تشكو من عدم إسعاف الدهر ، رغم ما يبدو لها ، وكأنها قد بذلت كل جهد ممكن لاستعجال هذا الاسعاف وتوفير شروطه !

« وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والاعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة . وصعد السيد عمر افندي نقيب الاشراف الى القلعة فأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة البيرق النبوي ، فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق . وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنباييت والمصي يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور . وغير ذلك . وأما مصر فانها باقية خالية الطرق . لا تجد بها

(*) ربما كان اختفاء هذا التأخي هو التطور الوحيد الذي حققناه !

أحدأ سوى النساء في البيوت والصفار وضعفاء الرجال الذين لا يقدرورن على الحركة فانهم مستترون مع النساء في بيوتهم والأسواق مصفرة والطرق مجفرة من عدم الكنس والرش . . ويمضي الجبرتي فيعطينا صورة معاصرة في كل تفاصيلها : « وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بيع الرطل البارود بتسعين نصفاً والرصاص بتسعين وغلا جنس انواع السلاح وقل وجوده وخرج معظم الرعايا بالنبايبت والعصي والمساق وجلس مشايخ العلماء بزواية علي بيك ببولاقي . يدعون ويبتهلون الى الله بالنصر . وأقام غيرهم مع الرعايا . البعض بالبيوت والبعض بالزوايا . والبعض في الخيام . ومحصل الأمر ان جميع من بمصر من الرجال تحول الى بولاقي وأقام بها من حين نصب ابراهيم بيك العرضي هناك الى وقت الهزيمة سوى قليل من الناس الذين لا يجدورن لهم مكاناً ولا مأوى فيرجعون الى بيوتهم يبيتون فيها . ثم يصبحون الى بولاقي . فأرسل ابراهيم بيك الى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم ان يكونوا في المقدمة بنواحي شبرا وما ولاها . كذلك اجتمع عند مراد بيك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخيرية والقيعان وأولاد علي والهنادى وغيرهم . وفي كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أوقاتهم يوماً فيوماً لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد (٢) . » .

وهكذا تمت التعبئة العربية التقليدية التي لم يخرج عنها « الكفاح » العربي حتى اليوم. التعبئة التي تحشد الجميع للمعركة ولا تتيح لأحد أي دور حقيقي في المعركة . التعبئة التي تتيح للجميع أن يصرخوا ، ويهللوا ، ويهتفوا ، ويتألوا ، ويقاسوا من أجل المعركة دون مساهمة حقيقية في المعركة أو تحقيق أي نفع يخدم المعركة. ورغم ارتفاع سعر السلاح والاقبال على شرائه ، وكسب تجاره لثروات مفاجئة . فان هذا السلاح لا يستخدم في العادة ضد العدو ، وبالذات في المعركة الحاسمة حيث يتولى الجيش التقليدي مسؤولية

القتال ، وتحقيق الهزيمة ، وحيث تحرص كل الأوضاع على إبعاد الشعب عن المعركة . أو عن الفعل الايجابي الوحيد المطلوب وهو : القتال ! بل ان هذا الابعاد لا يتم ساعة المعركة ، ولا في شكل قرار ، بل كنتيجة محتومة لسياسة طويلة الأجل تجعل الجماهير عاجزة - حتى لو أرادت - عن تخطي حاجز السلبية !

بل وتبلغ اعادة التاريخ لنفسه مرحلة المهزلة ، عندما يحدثنا الجبرتي عن اختلاف المصريين حول الجهة التي ينتظرون وقوع الغزو منها أو قدوم الفرنجة منها ، مع انه لم يكن لديهم أجهزة رادار يمكن تضليلها !

« وتختلف الناس في الجهة التي يقصدون الهجاء منها فمنهم من يقول انهم واصلون من البر الغربي ، ومنهم من يقول بل يأتون من البر الشرقي ، ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين . هذا وليس لأحد من أمراء العسكر همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم وقرهيم ووصولهم الى فناء المصر . بل كل من ابراهيم بيك ومراد بيك جمع عسكره ، ومكث مكانه لا ينتقل عنه . ينتظر ما يفعل بهم وليس ثمة قلعة ولا حصن ولا معقل . وهذا من سوء التدبير واهمال أمر العدو » ! « وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين . بل أشيع في عرضي ابراهيم بيك انهم قادمون من الجهتين . فلم يأتوا إلا من البر الغربي (٣) » (برضه !)

وإذا كان امراء العسكر العرب ، لم يختلفوا كثيراً في معارك ١٩٦٧ ، عن امراء العسكر المماليك في حرب ١٧٩٨ . فان الأمة قد اختلفت الى الأسوأ - فكما قلنا - لم ينبج عصرنا « جبرتي » آخر ، له من دقة الملاحظة وصدق التعبير والاخلاص ما يمكنه من تسجيل الأخطاء ، كما سجل الجبرتي اخطاء الحاكمين ، أو طبقة المماليك المنحلة : « ولكن الأجناد منحلة عزائمهم . مختلفة آراؤهم . حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم . مختالون في ريشهم . معاتزون يجمعهم . محترقون شأن عدوهم . مرتبكون في رويتهم .

مغمرون في غفلتهم . وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم (٤) .

لا أظن ان محلاً دياالكتيكياً معاصراً يستطيع ان يقدم تشریحاً لطبقة منهارة ، وجيش انتهى دوره كقوة مقاتلة ، بمثل ما فعل الشيخ الجبرتي الازهري . مما يؤكد ان فهم قوانين التخلف ، وعوامل النصر لم تكن مستعصية على شيوخ الازهر .. ولكن « لم يسعهم الدهر » !

والخلاف الوحيد الذي تسجله صورة الجبرتي ، عن الصور المعاصرة ، هو حالة النهب والسلب التي سادت الاقليم المصري بفعل انحسار قبضة الدولة ، وتمركزها عند شاطئ النيل في انتظار زحف الفرنجة .

والمعروف ان في الريف المصري طاقة هائلة مكبوتة بفعل أربعة آلاف سنة من السلطة المركزية التي تفرضها طبيعة النيل - كما أشرنا من قبل - وهذه الطاقة تشبه الغازات المخزونة لا تحتاج إلا لثقب صغير من الانفراج لكي تتفجر .. ولأنها ليست موجهة فهي تتفجر في شكل أعمال تدميرية غالباً . فما تكاد السلطة المركزية تنهار ، حتى ينفجر الريف في أعمال عنف جنونية ..

« وأما بلاد الأرياف فانها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً وكذلك العرب غارت على الاطراف والنواحي . وصار قطر مصر من أوله الى آخره في قتل ونهب واخافة طريق وقيام شر واغارة على الأموال وافساد المزارع وغير ذلك من انواع الفساد الذي لا يحصى (٥) » .

وعندما تمت الهزيمة فر مراد بيك الى قصره « حيث قضى بعض اشغاله في نحو ربع ساعة . ثم ركب وذهب الى الجهة القبلية ، وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض ببر انبابه تحت الأرجل (٦) » .

اما ابراهيم بيك والباشا وبقية القيادة فلم يتوقفوا إلا في العادلية في الطريق الى الصالحية .

فلما استقر هناك « أرسل يأخذ حريمه وكذلك من معه من الأمراء » .

ومرة اخرى تصدمنا نفس الصورة لسلوك هذه الجماهير التي تحشد على طبول المعركة ، ثم لا يسمح لها بالقتال دفاعاً عن وطنها ، فاذا وقعت الهزيمة تكتشف انها تقف وحدها دون اي تشكيل يرعاها ، او يدافع عنها ، او يوجهها ، او يقف معها . فلا يكون امامها إلا « الهرب » .. « الهجرة » .. « النزوح » ... التحول الى لاجئين . ولأن نفس العوامل ما زالت تحكم علاقة الفئات الاجتماعية ببعضها ، فان صورة اللاجئين عبر المائة وسبعين عاماً الماضية لا تختلف كثيراً عن مثلتها يوم الثلاثاء الثالث من صفر ١٢١٣ هـ (يوليو ١٧٩٨) :

« فأركبوا النساء بعضهن على الخيول ، وبعضهن على البغال والبعض على الحمير والجمال والبعض ماشى كالجوارى والخدم . واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر البعض بحريمه . والبعض ينجو بنفسه ولا يسأل أحد عن أحد . بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه . فخرج تلك الليلة معظم اهل مصر . البعض لبلاد الصعيد والبعض لجهة الشرق وهم الأكثر . وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ممتثلاً للقضاء متوقفاً للكروه . وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله . ويصرفه عليهم في الغربة . فاستسلم للمقدور والله عاقبة الأمور » . « وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين . فلما عين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللاحاق بهم . والحال أن الجميع لا يدرون أي جهة يسلكون . وأي طريق يذهبون . وأي محل يستقرون . فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حذب ينسلون . وبيع الحمار الأعرج او البغل الضعيف بأضعاف ثمنه وخرج اكثرهم

ماشياً او حاملاً متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها . ومن قدر على مر كوب
أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه وخرج غالب النساء ماشيات
حاسرات وأطفالهن على اكتافهن يبكين في ظلمة الليل . واستمروا على ذلك
بطوله . ليلة الأجد وصبحها . وأخذ كل انسان ما قدر على حمله من مال
ومتاع فلما خرجوا من ابواب البلد وتوسطوا الفلاة تلتقتهم العربان والفلاحون
فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به
عورته . او يسد جوعته . فكان ما اخذته العرب شيئاً كثيراً يفوق الحصر
بحيث ان الأموال والذخائر التي خرجت من مصر في تلك الليلة اضعاف ما
بقي فيها بلا شك لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان وحريمهم . وقد
أخذوه صحبتهم . وغالب مساتير الناس وأصحاب المقدرة أخرجوا ايضاً
ما عندهم . والذي أقمده العجز وكان عنده ما يعز عليهم من مال او مصاغ
أعطاه لجاره او صديقه الراحل . ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من
المقاربة والمسافرين فذهب ذلك جميعه وربما قتلوا من قدروا عليه او دافع عن
نفسه ومتاعه وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات
والأعيان فمنهم من رجع من قريب وهم الذين تأخروا في الخروج . وبلغهم ما
حصل للسابقين . ومنهم من جازف متكلاً على كثرته وعزوته وخفارتة فسلم
أو عطب . وكانت ليلة و صباحها في غاية الشناعة . جرى فيها ما لم يتفق
مثله في مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين فما راء
كمن سما « (٧) » .

وبانهيار القيادة الرسمية ، انبثقت قيادة جديدة من المشايخ الصغار . باعتبار
ان المشايخ الكبار كانوا مع الخارجين ... أو يتعذر عليهم بحكم مكانتهم ان
يبدأوهم الاتصال بالسلطة الجديدة . فاجتمع هؤلاء وتشاوروا وقرروا مفاوضة
الغازي . وسنرى ان ذات الجماهير التي تصرفت على هذا النحو عندما سقطت
قيادتها الرسمية ، او حتى في ظل هذه القيادة ... ذات الجماهير تحولت الى
قوة مقاتلة متشبثة بأرضها تعرف كيف تستخدم السلاح ، بل وتصنعه .

وتواجه ذات الجيش الذي قابلته بالصياح ، وفرت فور انتصاره .. ستقاتل من بيت الى بيت ومن شارع الى شارع ، عندما تحمل هي مسئولية الدفاع عن وطنها . وستظهر قيادة جديدة من بينها ، وتقودها الى تحقيقه .

ودخل نابليون القاهرة واستطاع الدجال البارح أن يكرر لعبة « حسن باشا القبطان » فيحدث تأثيراً حسناً في الجماهير ، في اللقاء الأول . ففي الوقت الذي كانت فيه قواته تنهب وتسرق وتسلب الأحياء والأموات على طول الطريق من الاسكندرية الى القاهرة ، استطاع نابليون أن يحجز قواته خارج القاهرة ، ويكتفي بعدد محدود يدخلها : « من غير سلاح ولا تعد .. بل صاروا يضحكون الناس ، ويشترون ما يحتاجون اليه بأعلى ثمن . فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها ثمنها ريال فرانسه ويأخذ البيضة بنصف فضه قياساً على أسعار بلادهم .. وأثمان بضائعهم . فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا لهم وخرجوا اليهم بالكعك وأنواع الفطير والحبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك مثل السكر والصابون والدخان والبن . وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار وفتح غالب السوقه الحوانيت والقهاوى » (٨) .

لا شك ان هذا الاسلوب افضل من مطاردة الفلاحين وتفتيش البيوت بحثاً عن الطعام .. وبعد يومين فقط سيدفع المصريون العملة التي تكفي لكي يشتري جنود فرنسا نقداً .. وحيثما لا توجد عملة ، لن يتردد هؤلاء الجنود في اغتصاب الطعام او الانسان ذاته . وستتحرك المقاومة الشعبية في مواجهة هذا الغزو ، بالدوافع القومية التي أشرنا اليها ، وهي التي تحرك الأمم ، بفعل الفطرة السليمة ، لمقاومة الاخضاع لمصلحة الغازي .. كما ستتحرك هذه المقاومة بدافع العوامل المباشرة التي تستثير نقمة الناس وتضعهم في مواجهة السلطة الاجنبية الغاشمة .

هب الشعب المصري يقاتل من اجل فرصته في « مسايرة الزمن » وذلك بالقتال ضد الوجود الفرنسي في مصر .

بدأ المقاومة « محمد كريم » الذي رفض ان يضع مصر في القبضة الانجليزية من خلال عرض « نلسن » بالدفاع عنها . وقاتل الفرنسيين الى ان نفذت ذخيرته ، وأجبر على الاستسلام ، ولكن ليدر من خلال منصبه كحاكم للمدينة ، اول حركة مقاومة سرية شاملة استطاعت بتدبير « محمد كريم » أن تنزل خسائر موجعة بالفرنسيين الغزاة . فعُزل واعتقل وأرسل مخفوراً الى « نابليون » وهناك قررت العدالة الثورية أن من يدافع عن وطنه يستحق الموت ، ولكن عدالة الحرية والآباء والمساواة ، يمكنها ان تغض الطرف اذا ما دفع مبلغاً يعادل ١٥٠,٠٠٠ شلناً انجليزياً (بأسعار ١٧٩٨ م) . ولم يدفع « السيد محمد كريم » .. سواء لأنه لا يملك المبلغ ، أو لأنه رفض شراء حياته من اعداء دينه ووطنه . المهم ان « الجبرتي » يروي كيف طاف به الفرنسيون يحاولون استجداء المبلغ بالتهديد بقتله .. وهو يقول : « اشتروني يا مسلمين » . وهي العبارة التي غاظت « عبد الرحمن الرافي » . فمؤرخ البورجوازية المصرية يريد التاريخ نقياً ، أنيقاً ، ومن ثم « فالبطل » « محمد كريم » ، لا يجوز له ان يقول اشتروني يا مسلمين ! بل الأحرى به ان يتوجه الى الاعداء وهو يهتف ثلاثاً بحياة مصر .. وحياة « الحركة القومية » ! ولأن « الجبرتي » كان صادقاً ، استحق من « الرافي » التأنيب بل والتشكيك في مجرد شهوده للحادثة ، بل ورماء « الرافي » بأنه كان « محتبباً في منزله » رغم اننا لا نجد أية نبرة استنكار في رواية « الجبرتي » . بل انه يتفوق بصدقه ، على مؤرخ البورجوازية الذي قدم لنا التماثيل المصقولة « لمصطفى كامل » « ومحمد فريد » كانباء للوطنية ، كما يسميهم .. ولحسن حظه انه مات قبل أن تنشر مذكرات محمد فريد .. ولم يقرأ الصورة الحقيقية للبشر الوطنيين ولو عاش ورأى ان اطلاق الناس على لحظات الضعف في حياة الزعماء الوطنيين تزيد إعجابهم بهم .. لكان انزعاجه أشد !

« الجبرتي » كان اكثر صدقاً ووعياً وإنسانية .. فهو يسجل الموقف الوطني . ولكنه لا يهمل ابداً ولا يخفي الدوافع الفردية ، وحتى الأناية ! ولا يرى

عيباً او تناقضاً لا يُجبر، او يجب اخفاه ، ان يكون المصري وطنياً يعرض حياته للموت في القتال ضد المحتلين، ولكن.. اذا وقع في الأسر بذل كل جهده لكي يطلق سراحه. هذه قضية تجرح عفة من كان محور تقديسه «محمد فريد»، أنه هدد زوجته بالطلاق اذا كتبت التماساً للخديو بالافراج عنه . ولكن مذكرات « محمد فريد » حافلة بمواقف اكثر انسانية .. او اكثر ضعفاً من وجهة نظر « الرافعي » .. من صيحة : « اشتروني يا مسلمين » . ولم يكن المسلمون وقتها بحالة تسمح بشراء أحد ! فقطع الفرنسيون رأس اول مسئول مصري التقى بهم ، مؤكدين بذلك انهم جاءوا حقاً لتشجيع المصريين على ممارسة الحكم .. ومثيرين طموحهم لتولي المناصب !

وفرضت سلطات الاحتلال ادارة جديدة من المصريين لمدينة الاسكندرية. كان من أبرزها « المسيري » الذي عينه كليبر رئيساً للديوان بعد تحطم الاسطول في موقعة « ابي قير » . وهو منافق من الطراز الرفيع جداً .. كان نموذجاً للقادة الذين يبحث عنهم الفرنسيون ، بل وكل مستعمر . كان رائعاً في تمثله لروح العصر .. ومسايرة الزمن .. ولعله في الاسكندرية وحدها وعلى مائدة «المسيري» قدم الأرز في ثلاثة ألوان ! رمزاً لراية الثورة الفرنسية ! ولا شك أن « حلة » الأرز المثلثة الألوان ، وأطباقه التي كان يجري توزيعها بالمساواة والأخاء، كان كل ما فهمه المتعاونون عن الثورة الفرنسية ومبادئها. وأيضاً كل ما يود الفرنسيون ان يفهموه لهؤلاء المتعاونين (*). ولكن قادة الشعب

(*) وكان النفاق المتبادل بين الشيخ المسيري ونابليون على مستوى رفيع حقاً، ومفضوح للغاية في نفس الوقت . ف «المسيري» يبعث السرور في نفس الجندي بطبخ الرز الملون . وتقديمه في شكل العلم الفرنسي ! ونابليون يكتب له متمنياً اليوم : « الذي سيضع فيه نظاماً موحداً مؤسساً على مبادئ القرآن . تلك المبادئ الصحيحة التي تكفل للناس سعادتهم » (٩). واذا كان «المسيري» هذا هو جد «المسيري» الأفاق الذي يقال ان المسرح المصري خرج من تحت جلبابه . وهو الذي قدم لمصر اشهر ثلاثة بوهيمين، او قل افاقين، في تاريخها الفني وهم: المحيسي، وزكريا الحجاري =

الحقيقيين كانت لهم وجهة نظر اخرى .. فعندما جمع نابليون المشايخ وأراد تكريمهم: «فلما استقروا عنده نهض بونا برته من المجلس ورجع ويده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلي فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوي فرمى به الى الأرض واستغفى وتغير مزاجه وانتقع لونه واحتد طبعه (حياه الله ورضى عنه) فقال الترجمان يا مشايخ أنتم صرتم أحبباً لسارى عسكر. وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة في قلوبهم. فقالوا له لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين . فاغتاظ لذلك وتكلم بلسانه . وبلغ عنه بعض المترجمين انه قال عن الشيخ الشرقاوي انه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك . فلاطفه بقية الجماعه واستغفوه من ذلك فقال ان لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار في صدوركم. وهي العلامة التي يقال لها الوردة. فقالوا أمهلونا حتى نتروى في ذلك . واتفقوا على اثني عشر يوماً . وفي ذلك الوقت حضر الشيخ السادات باستدعاء (لاحظ باستدعاء هذه) فصادفهم منصرفين . فلما استقر به الجلوس بش له وضاحكه سارى عسكر ولاطفه في القول الذي يعربه الترجمان وأهدى له (أي نابليون هو الذي أهدى) خاتم الماس. وكلفه الحضور في الغد عنده . وأحضر له جوكار أوثقه بفراجه (الجبة) فسكت وسايره وقام وانصرف فلما خرج من عنده رفعه . على ان ذلك لا يخل بالدين » (الجبرتي يعلق أو يفتي !) .

« وفي ذلك اليوم نادى جماعة القلقات على الناس بوضع العلامة المذكورة المعروفة بالوردة وهي اشارة الطاعة والمحبة فأنف غالب الناس من وضعها . وبعضهم رأى ان ذلك لا يخل بالدين إذ هو مكره . وربما ترتب على عدم

= وسيد بدير . فان ذلك - لو صح - يؤكد ليس فقط صحة قوانين الوراثة في عائلة السيري . بل ويؤكد أيضاً ان الدجل عندما يتطور يصبح فناً مسرحياً . ولاشك ان جد السيري، وتلاميذه قد اكتشفوا ان النجح المسرحيات ليست هي دائماً التي تمثل على خشبة المسرح !

الامتثال الضرر فوضعها . ثم في عصر ذلك اليوم نادوا بإبطلها من العمامة وألزموا بعض الأعيان ومن يريد الدخول عندهم حاجة من الحاجات بوضعها فكانوا يضعونها اذا حضر عندهم ويرفعونها اذا انفصلوا عنهم وذلك ايام قليلة . وحصل ما يأتي ذكره فتركت (*) ، (١٠) .

وقد استاء امام المدرسة الاستعمارية(**) (الذي كان كل من ظهوره ومصرعه مثيراً !) استاء من موقف الشيوخ هذا ، وعلق عليه بأن احرار اوروبا كانوا يتخاطفون هذه الشارة وقتها . نفس الشارة التي ألقاها المشايخ على الأرض . وأنف العامة المصريين من لبسها . ثم أفتوا بأن لبسها ليس من المحرمات ، لأن لابسها مكره .. وأخيراً استخدموها كجواز مرور ، ولاتقاء شر الحاكمين ! أما نحن فنرى ان الحق مع المشايخ على طول الخط ، وموقفهم مفهوم على ضوء الحقيقة التي تعتبر الثورة ، أي ثورة اوروبية ، غير قابلة لمبور البحر الأبيض مع سفن الغزاة ، بل انها بمجرد هذا العبور تتحول الى غزو وسيطرة . كانت الثورة الفرنسية تمثل مضموناً تحريرياً - لفترة ما - في كل اوروبا(***) .. كانت تحطم الاقطاعات وتطلق الفرصة امام النمو البورجوازي . ثم سرعان ما فقدت دورها التحرري هذا في اوروبا ذاتها ، وأصبح على البورجوازيات الأوروبية أن تحمل السلاح ضد جيش نابليون .

هذه المرحلة التحريرية في تاريخ الثورة الفرنسية لا وجود لها في الشرق ، لأن جيش نابليون كان يمثل الجانب الاستعماري من الثورة البورجوازية ، لا فرق بينه وبين جيش « كرومويل » الذي فتح « ايرلندا » ولا جيوش وحملات

(*) وما يأتي ذكره هو ثورة القاهرة ، التي كانت من نتائجها الايجابية ، ابطال اجبار المصريين على حمل رمز المستعمر .

(**) « صبحي وحيد » مؤلف كتاب « في اصول المسألة المصرية » . سكرتير اتحاد الصناعات الذي اغتاله موظف بالاتحاد .

(***) هذا اذا ما نحينا وجهات النظر الاخرى عن طبيعة الثورة الفرنسية .

البرلمان البريطاني على شعوب الشرق .. شارة الثورة الفرنسية عندنا لم تكن تعني إلا الاستعمار الاوروبي ، ومن ثم فإن القائها على الأرض هو رفض لشارة المحتلين ، رفض للتبعية ، رفض الانتماء الى المحتلين ، تشبث بالذات ، وباستقلال هذه الذات .. وإصرار على الانتماء لهذه الذات .. إصرار على حق المصريين في إنجاز ثورتهم ، كما انجز الفرنسيون ثورتهم .

وكتاب الحملة الفرنسية أصدق في الحديث عن شعور الشعب المصري ، وعن العلاقة التي قامت بين المحتل وشعب المستعمرة ، لأن تجميل التاريخ مرحلة تالية لتزويره .

فالمسيو مارتان يقول : « لم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا واتبعوها ، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية لهذه المقاومة » .
« وقد اتخذ المصريون شعارهم ذلك المبدأ المشهور الذي أعلنته فرنسا ، وهو ان مقاومة الاضطهاد هي أقدم واجبات الشعب » (١١١) .

وقان الدكتور ديجنت كبير اطباء الجيش الفرنسي في مذكراته « لقد تكلموا كثيراً حتى في اوروبا عن حفلات اول فنديبير (عيد الجمهورية الفرنسية) وتأثيرها في نفوس المصريين ، على ان كاتب هذه المذكرات يؤكد انها لم يكن لها أثر ما في سكان القاهرة » .

أما المسيو « ريبو » فقد رأى ما عجز عن رؤيته مؤرخي المدرسة الاستعمارية (من العرب) حتى المعاصرون منهم . فقال :

« كانت هناك عقبات وطنية تحول دون ثقة المصريين بحكامهم الجدد (الفرنسيين) فقد كان من الصعب أن توجد أمة تبلغ بها السذاجة مبلغ ان تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار ويستهدف للأخطار ويحتل بلادها ويخوض فيها غمار الحرب لمجرد الدفاع عن مصالحها . ولا يمكن أن تؤثر المنشورات والكلمات الفخمة في تغيير حالة الشعب النفسية . لذلك كان الوجه البحري بالرغم من احتلاله وانهزامه ، غير خاضع ولا مستسلم ، وكثيراً ما تمردت القرى التي مرت بها الجيش الفرنسي ورفعت علم الثورة » (١١٢) .

وقال : « كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين ، وفرض الغرامات على البلاد ، لكن الثورة كانت كحية ذات مائة رأس ، كلما أخذها السيف والنار في ناحية ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد الى بلد آخر » .

وقال : « ان مصر قد فوجئت بالحملة الفرنسية ، فأخذت تنتفض وتجادب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدية ، لقد كنا نرابط في مصر ونحتلها احتلالاً عسكرياً ، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه ، فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الاقناع . وكان اختلاف الدين واللغة والطباع والعادات مما يجعل الامتزاج بين الغالب والمغلوب عسيراً بعيد الاحتمال ، فكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الاذعان بالحزم مرة وبالقوة مرة وقع كل ثورة ومكافأة من يخدم السلطة الفرنسية ولإدراك هذه الغاية وزع بونايرت الجيش على مختلف أنحاء القطر لاختضاعها وجعلها موضع مراقبة دقيقة . وكان قواد الفرق فضلاً عن اختصاصاتهم الحربية ، يتولون الإشراف على الشؤون الإدارية والمالية في مديرياتهم ويراقبون جباية الأموال والغرامات ويشرفون على مجالس الدواوين في الأقاليم حتى لا تتعدى اختصاصها » (١٣) .

والحق مع المسيو « ريبو » ، فالأمة الساذجة لم توجد قط . وإن وجدت فلم تكن أمتنا بأية حال .. أمتنا لم تتوقع خيراً قط من جيش الاحتلال ، بل قاتلته منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدامه أرض الوطن الى يوم الجلاء .

والسذج هم الذين يظنون انهم يستطيعون تزوير التاريخ !

وإذا كانت تجربة الحملة الفرنسية المريرة هي التي جعلت الحكمة تنطق على لسان « ريبو » فإن الاستعماريين قد انخدعوا قبل الغزو ، او صدقوا تقاريرهم ومنشوراتهم فظنوا انها ستكون « نزهة سهلة » ، اذا ماتم التخلص من قوة المماليك العسكرية . وهذا الخطأ الذي تقع فيه كل الاستعماريات ، بالتهوين من قدر مقاومة الشعوب . أخطأت حسابات الحملة الفرنسية تقدير مدى الرفض

الذي سيجابها من الشعب المصري . كما اخطأت كميوترات البنتاجون تقدير المقاومة المتوقعة من شعب فيتنام .

تاليران توقع ، كما توقع هتلر ، ان الشعب المصري او الروسي - في حالة هتلر - سينتهد فرصة العدوان الأجنبي ليصفي حساباه مع مضطهديه في الداخل . وفي جميع الحالات كانت النتيجة عكس كل توقعات المعتدين . إذ كان لدى الشعب من الاصاله والوعي ما جعله يدرك أن الخطر الخارجي اكبر وأفدح من كل ما يعانیه في الداخل . وأن مقاومة هذا العدو الأجنبي ودحره تحتل الأولوية في قائمة الواجبات الوطنية . بل لم يتردد الشعب أبداً في تمني النصر لمضطهديه الوطنيين ضد غزاته الأجنبي . بل والقتال معهم من أجل تحقيق هذا النصر على الذين توهموا أنه سيرحب بهم كمحرريه !

« تاليران » رغم ذكائه الذي اشتهر به ، يقع هو أيضاً في هذا الوهم ، فيكتب لحكومته مغرباً بفتح مصر : « ان أهالي مصر قاطبة يكرهون حكامهم المماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد ، وهم عزل ، لا سلاح معهم ، وإذا اعطاهم المماليك سلاحاً بحجة الدفاع عن البلاد من الغارة الأجنبية ، فإنهم لا شك سيحاربون به طائفة المماليك أنفسهم (*) ، فليس ثمة خوف من مقاومة او وثبة من الأهالي » ان الشعب المصري سيتلقانا باحترام لأنه يأمل من زمن مديد أن يتخلص من حكامه الظالمين « (١٤) .

وحتى نابليون ، رغم ما اشتهر به من فراسة في فهم الرجال ، ظن أن رجلاً مثل « محمد كريم » يمكن أن ينقل ولائه ، كما يفعل أشباه الرجال من طراز « يعقوب » و « نقولا » و « برطلمين » بل ظن أنه قد يكون أسعد في خدمة حكومة أفضل ، حتى ولو كانت أجنبية ! فيخاطب « محمد كريم »

(*) للأسف هذه الفكرة صدقتها الطبقات الحاكمة منذ نابليون فكانت تحشي دائماً توزيع السلاح على الشعب . مع ان تجارب التاريخ اثبتت ان الشعب لم يخطيء أبداً في استخدام السلاح اذا ما حصل عليه لحظة تعرض الوطن للغزو .

قائلاً : « لذلك أعيد اليك سلاحك وآمل ان تبدي للجمهورية الفرنسية من الاخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة » (١٥) .

وكان رد « محمد كريم » بالفعل لا بالقول حيث اكد الموقف الوطني ، الذي يتلخص في أن الحكم الوطني مهما يكن سوءه فهو أحسن من أفضل حكم أجنبي . والرافعي يعلق على مقاومة الشعب المصري للحملة الفرنسية بقوله :

« والواقع ان من يتبع سلسلة المقاومات التي لقيها الجيش الفرنسي من المصريين يعجب لشدة مقاومة الأمة وقتئذ للاحتلال الفرنسي واستمرار هذه المقاومة وانفساح مداها في انحاء القطر المصري ، حتى كأن ثورة عامة قد اندلعت في وجه الفرنسيين ، وامتد هيبها من أقصى البلاد الى اقصاها ، ولو قلبت صحائف الحركة القومية المصرية في خلال المائة سنة الأخيرة لما وجدت لهذه المقاومة شهاً سوى الحركة العامة التي ظهرت سنة ١٩١٩ عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى » .

ولكن الرافعي لا يقدم لنا تفسيراً لهذه الظاهرة العجيبة ، وهي قوة واتساع المقاومة المصرية للحملة الفرنسية .. ثم اختفاء هذه الروح مائة عام (حتى لو قبلنا تشبيه ثورة ١٩ بالحرب الفعلية التي شنها الشعب كله ضد الفرنسيين) فسيبقى السؤال .. لماذا لم يواجه الانجليز مثل هذه المقاومة بعد الاحتلال (١٨٨٢)؟! ان « محمد عبده » حاول أن يجيب على هذا السؤال بنسبة ذلك الى استبداد محمد علي وقتله هو وأولاده لروح الأمة (*) . ولكن الرافعي المعجب بدور « باعث الأمة المصرية » « وباني مصر الحديثة » الى حد الغضب من الجبرتي لأنه انتقد محمد علي! .. يستحيل عليه أن يواجه نفسه بالسؤال عن حقيقة الدور الذي لعبه « محمد علي » في اعداد مصر لقبول الاستعمار او وضع الأمة المصرية في حالة القابلية للإستعمار . وذلك من خلال

(*) كان تفسير « الامام » « فتوى » مناسبة تقول جانباً من الحقيقة وترضى « أولي الأمر » في نفس الوقت .

عملية التغريب التي قام بها بنجاح ، واستحق عليها ثناء المدرسة الاستعمارية .
والفرق بين المدرسة الاستعمارية والرافعي ، هو ان « الرافعي » يريد أن
يأكل الحلوى ويحتفظ بها ، فهو يريد التغريب ، ويريد بقاء الروح الوطنية !
بينما المدرسة الاستعمارية ، سرورها مضاعف ، لأن التغريب يتم ، والروح
الوطنية المقاومة للوجود الغربي تضعف في نفس الوقت .

كانت مصر ما زالت بكرراً لم تلوثها أمراض التحديث الكاذب . لذلك
هبّ شعبها ، في أروع مقاومة ، سجلها تاريخ القرن التاسع عشر كله ، للغزو
الاستعماري الغربي .

المقاومة والتنكيل

كان الرفض المصري ، يشكل حركة وطنية عامة ، تشمل الأمة بكل طوائفها وطبقاتها ، فالزعر والحرافيش والغوغاء ، في شوارع القاهرة يقاتلون ببسالة وتضحية تذهل نابليون رجل الثورة الفرنسية. والفلاحون يشنون أول حرب فلاحين في تاريخ الشرق ، أما الاغنياء ومسائير الناس فلم يكونوا أقل وطنية او أقل استعداداً للبدل والتضحية .. رأيناهم في القاهرة يدعون الحركة ويعتصرون حتى الموت من جيش الاحتلال ، وفي شمال الدلتا نجد « حسن طوبار » الممثل المبكر للبورجوازية العربية - لو أتاحت لها فرصة النمو - وصفه الجنرال لوجيه بقوله : « هو غني تقدر ثروته بالملايين (من الفرنكات) يملك الاراضي الواسعة ومصانع نسج القطن ، ومصانع الصباغة والمتاجر الكثيرة » . وكان « محبوباً من الاهالي حبا شديداً » .

كانت الأمة تدرك بغريزتها الصادقة ، وبمحكم ما تراه من سلوك وقرارات الغزاة ، وبما ترسب في ذاكرتها من تاريخ الحروب والغزوات التي شنّها الفرنجة طوال القرون التي انقضت منذ الحملة الصليبية الأولى على بلاد العرب (١٠٩٥) . كانت تدرك انها مطالبة بالقتال دفاعاً عن وجودها وكيانها ومصالحها . وأهم من ذلك كله عن فرصتها في دخول عصر الحضارة الحديثة . ذلك أن فرصتنا الوحيدة بل وفرصة أي بلد شرقي لدخول عصر الحضارة الحديثة ، كانت تبدأ

بنجاح هذا البلد في تجنب دخول واستقرار قوات هذه الحضارة في بلاده ، فالبلد الشرقي الوحيد الذي حقق التحديث ، هو الذي نجا من الاحتلال الغربي ، والبلاد التي ما زالت تبحث عن طريقها للحضارة والتصنيع والتحديث ، هي البلاد التي سقطت تحت الاحتلال الغربي ، وتحكم الغرب في مصيرها خلال قرون الاستعمار ، من الفلبين الى مراكش .

لذلك كانت أمي على حق ، عندما رأيت ان فرصتها الوحيدة في أن تصبح متحضرة كالفرنسيين ، هي في منع استقرار الفرنسيين في مصر ، رفض خدعة التحديث على يد جيش احتلال .

وتاريخ الحملة الفرنسية في مصر ، يسجل يوماً مدى المقاومة الباسلة التي بذلها الفلاحون المصريون ، والعامّة في المدن ، والنخبة الوطنية ، ممثلة في الشيوخ والتجار والاعيان . مدى المقاومة التي بذلوها ، ضد استقرار الجيش الفرنسي ، وإفساد رسالة نابليون الحضارية . ورغم كل الحقائق المتاحة « لكرستوفر هيرولد » والتي يعترف بكية كبيرة منها ، إلا أنه لا يستطيع أن يتخلص من المفهوم الصليبي الغربي في تفسيره لمقاومة الشعب المصري وفشل الدجل النابليوني في خداعه .. فهو يقول : « ولم يَفُتْ مستعمر أوروبا في بونايرت في محاولاته لكسب الأهالي لصفه -بوضعهم في موضعهم الصحيح منه- فإذا كانت جهوده قد فشلت فشلاً ذريعاً ، فليس العيب في سياسته التي كانت تستحق النجاح . بل هو أولاً وقبل كل شيء عيب استحالة المهمة التي كان عليه اداؤها . كان الاسلام بالطبع هو الحائل الاكبر دون هذا الجو المنشود من الثقة المتبادلة » ...

ثم يفقد تفسيره كل قيمة علمية عندما يقول: «ولكن مع أن شعب مصر، كباره وصغاره ، كان محقاً في التشكك في اخلاص بونايرت حين أعلن على الملأ أنه مسلم فعلاً ، فإن خوفه من أن يقضي على دينه لم يكن له أساس . فالذي كان بونايرت يريد القضاء عليه هو جود الناس وتشبثهم بالتقاليد العتيقة،

واستسلامهم لقضاء لم يكتب عليهم، وكرهتهم الخروج من العصور الوسطى، وعدم رغبتهم في مساعدته على النهوض بهم - وكون هذا التغيير المنشود سينفع المستعمرين الفرنسيين لا يدل على ان المصريين لن ينتفعوا به - ربما اكثر من الفرنسيين - وقد اقتضى العالم الاسلامي قرن ونصف من الزمان ليدرك أن المسلمين يستطيعون الاحتفاظ بدينهم وتقاليدهم سليمة لا تمس . ومع ذلك يسرون مع عجلة الزمن . ولكن بونابرت لم يكن في موقف يعينه على تلقين المصريين هذا الدرس .

ولا ندرى ما الذي يقصده مؤرخ كبير مثل « كرسوفر هيرولد » من طمئنة شعب مصر الى أن نابليون لم يكن يهدف الى القضاء على دينه ؟. هل يقصد تنصير المصريين مثلاً ؟. حتى هذا حواره الاستعمار الغربي في جميع البلدان التي استعمرها ، وجميع المسيحيين الجدد من اندونيسيا الى السنغال كانوا مسلمين ، وقضى على دينهم على يد الغزاة .. بل حتى المسيحيين الوطنيين تعرضوا لمحاولات خطيرة لسلبهم عن الكنيسة العربية ، وكل الانشقاقات التي اصابت الكنيسة الوطنية ، في البلاد العربية ، هي بفعل النشاط التبشيري للغرب ، هذا النشاط الذي اعتمد على التفوق الاستعماري اكثر مما اعتمد على الهداية والمنطق . إذن فحتى هذا المفهوم الساذج للقضاء على الدين ، جرت محاولته ، وكان خطره وارداً .. ولكن لا نظن ان الخطر التاريخي الذي هبت الجماهير في مصر ، مصرية وعربية وإسلامية لصدده كان يتمثل في هذا الخطر المكشوف والمفضوح الذي أثبتت خبرة الفرنجة ، أنه اصعب السبل ، وأبعدها عن النجاح . لأن وضوحه وطابعه الاستفزازي يسهل مهمة مقاومته ، ويستثير الجميع ضده . ولكن الجماهير كانت تقاثل عن دينها ، باعتباره يمثل وجودها .. كيانها .. شخصيتها المستقلة .. سيادتها فوق أرضها .. حقها في اكتشاف طريقها للخروج من التخلف ، وعبور هذا الطريق لبناء قوتها المادية المستقلة .

كانت الصدمة التاريخية التي أحدثتها مدفعيته الفرنسيين ، كافية لتبديد

ليل الغفلة والأمن الكاذب الذي عاشته الشعوب العربية مخدرة بانتصاراتها على الصليبيين وبالفتوح العثمانية . وكانت ردة الفعل الطبيعية هي الاستجابة للتحدي ، ومحاولة التغلب عليه ، بامتلاك وسائل المعرفة التي نقلت التفوق الى الجانب الآخر من البحر الأبيض ، بعدما استقر على شواطئنا قروناً ليست بالقليلة .

فلم تكن المشكلة ابداً ، هي اقناعنا بأنه يمكننا أن نساير عجلة الزمن مع الاحتفاظ بديننا وتقاليدنا سليمة لا تمس ! إن هذه قضية لم توجد قط ولا طرحت على هذا النحو ، ولا كانت مقاومة المصريين تابعة من شكهم في إمكانية الجمع بين الاثنين .. واننا أخيراً فهمنا هذه الإمكانية واقتنعنا بها . بعد أن علمتنا الأيام والليالي ! ولكن أين هي مسايرة الزمن التي حققناها ؟ هل يمكن وصف أية دولة عربية بأنها قد حققت مسايرة الزمن ؟ ان كان المقصود بمسايرة الزمن ، شق الطرق لتجري عليها السيارات الامريكية والالمانية .. وبناء الفنادق لنزول رجال الأعمال والسياح الغربيين وإنشاء البرق والمطارات لتسهيل اعمال وحياة الانسان الغربي وتابعه الشرقي ، ان كان ذلك هو مسايرة الزمن « فكريستوفر هيروولد » ومدرسته على حق في أننا سايرنا الزمن ، أما اننا « احتفظنا بديننا وتقاليدنا سليمة لا تمس » .. فلا !

وإذا كنا نفهم عبارة « مسايرة الزمن » كما يجب أن تفهمها كل أمة جادة ، بمعنى انتاج ما ينتجه العصر . أي دخول عصر الصناعة ، التحول من مستهلكين الى منتجين .. المساهمة في الانتاج العالمي بحصة انتاجية كاملة ، فلا بد ان نعترف بأننا لا نساير العصر ، فنحن لا صنعنا انتاجنا ، ولا نتقننا ولا نحضرنا . وما زلنا نبرر هزيمتنا بتخلفنا الحضاري ، ما زلنا نستورد من الإبرة الى الصاروخ .. وأيضاً لا حافظنا على ديننا وتقاليدنا .

والحقيقة ان هذه القضية : مسايرة العصر والاحتفاظ بالدين والتقاليد .. هي وحدة لا تتجزأ . ولقد أدركت النخبة منذ زمن مبكر . ولو انها لم تستطع

ان تحول علمها الى عمل لأسباب عديدة ، أدركت هذه النخبة ، ان الحفاظ على الدين والتقاليد هو الطريق الوحيد أمام الشعوب الاسلامية لكي تحقق التجديد والتحديث ، وأدركت في نفس الوقت ان التمدين الذي يدعوها اليه الغرب هو عملية اعادة تنظيم المجتمعات الاسلامية ، لكي تصبح اكثر قابلية للاستعمار الغربي ، وأكثر قابلية لعملية الامتصاص . لأنها بالتغريب تصبح اكثر تقبلاً لادارته لها . ان غلي النبات وشي اللحم يجعله أكثر تحضراً ، ولكن لمصلحة الذي يلتهمه !

بل ان بعض الحيوانات والطيور قد تم تطويرها ، وربما على نحو كانت فيه فائدة لهذه الحيوانات أو الطيور ، ولكن المحرك والدافع والنتيجة النهائية لهذا التطوير ، كانت مصلحة المستهلك والمطور (بالكسر) .. للانسان الذي يعجز أو يصعب عليه تسخير أو الانتفاع من هذه الكائنات في حالتها الطبيعية « المتخلفة » ومن ثم يسعى الى تطويرها ، الى ترقيتها وتهذيبها لكي تكون أكثر قابلية للتدجين ، وأقدر على خدمته ، وأصلح لتلبية احتياجاته . فالتغريب الذي حمله وفرضه الغرب علينا هو تطوير لمصلحة الغرب أولاً وأخيراً وليس من باب تبادل المنافع . نعم هناك « مظاهر » تقدم يمكن الجدال حولها .. هناك طرق أكبر وسكك حديدية وتلغراف .. والآن مطارات وحتى رادار ومحطات نووية !.. ولكن لكي تشحن الحامات أسرع، ولكي يعرف السمسار الأوروبي في أعماق الريف المصري، أسعار القطن في بورصة ليفربول ، ليتقن عملية سرقة الفلاح المصري .. والآن لبيع آلات ومنتجات الغرب البالغة التعقيد والثمن أيضاً !

وهناك « اوبرا » ولكن لتمثيل اوبريت ايطالية ! ولا بأس ان تكون حول اسطورة مصرية ، لتسلية امراء وملوك وابطرة أوروبا القادمين لافتتاح قناة السويس !

وتظل « الاوبرا » أكثر من نصف قرن لا يمثل على مسرحها مصري ، تماماً

كقناة السويس ، فلا شك انها عمل حضاري من أرفع طراز ، ولكن من الذي يقول ان مصر استفادت منه ، وكم سفينة مصرية عبرتها خلال القرن التالي لشقها؟... ألم تكن ترعة الحمودية ، أكثر ارتباطاً ونفعاً للاقتصاد المصري؟. وأكثر مساعدة له على « مسابقة الزمن »؟..

هذا التغريب الذي يجعلنا أكثر قابلية للاستعمار ، ويدمر إمكانية وفرصتنا في تحقيق التحديث الحقيقي ، كان يتطلب في نفس الوقت تجريدنا من ديننا وتقاليدنا حتى لو بقت اسمائنا إسلامية ، وتحولت تقاليدنا الى طقوس مشوهة بلا روح .

وليس من الانصاف ان نقول ان العالم الاسلامي احتاج الى قرن ونصف من الزمن ليتقبل هذا التغريب.. بالعكس هذا التغريب شرعنا فيه فور جلاء الفرنسيين ، وربما لو طال العمر بنا بليون أربعين سنة أخرى وزار مصر لأدهشته السرعة التي أنجز التغريب بها أفضل نموذج للنخبة التي كان نابليون يفتش عليها عبثاً بين شيوخ الأزهر .

هذا الألباني الذي التقطه سفينة انجليزية وقذفت به عند شواطئنا ، والذي نفذ بمبقرية نادرة عملية التغريب هذه . وقضى على أملنا في تحقيق الثورة الصناعية ، وأسلمنا فريسة معدة للابتلاع للاستعمارية الغربية ، التي كافأته بأن خلعت عليه صفات المجد والاصلاح ، وسمته باني مصر الحديثة . ثم يأتي اليوم « كرسوفر هيروولد » فيشجب كل ما كُتب عن « باني مصر الحديثة » . إذ يقول اننا لم نتعلم مسابقة الزمن إلا بعد قرن ونصف من الحملة الفرنسية ! إذا ماذا كان « محمد علي » وخلفاؤه يفعلون؟. هل كان المؤرخون الغربيون يكذبون علينا؟ نعم . وهم يكذبون اليوم أكثر ، عندما يحاولون التغريب بنا لقبول تجربة عاجزة مشوهة « لمحمد علي » .

وبينما كان « محمد علي » يتولى « تغريبنا » كان الطرف الآخر من آسيا

يشهد تحديثاً حقيقياً لأمة سعيدة الحظ ، وفقت الى قادة عرفوا ان الطريق الى التحديث الحقيقي ، هو الاحتفاظ بالدين والتقاليد .

الأصح إذن ان يقال انه خلال القرن ونصف القرن التالية لغزوة نابليون لم يفعل العالم الإسلامي - للأسف - إلا انجاز هذا التغيريب .. أو التحديث المزيف الذي جاءت مدفيمه الغرب تفرضه .. ولم يكن هدم بعض مظاهر التخلف وبناء مظاهر التقدم ، إلا نوعاً من عمليات هدم الابواب القديمة والقلاع البالية وشق الطرق لكي تسهل حركة قوات الاحتلال الفرنسية .

أما تفسير تخلفنا عن مسايرة العصر بأننا أفسدنا نوايا نابليون الطيبة بسوء ظننا ، وسوء سلوكنا ، وغباءنا . فهو تفسير خاطيء وظالم .. فان بلاداً إسلامية عديدة ، بل كل البلاد الإسلامية ، سقطت قبل حملة نابليون وبعدها تحت الحكم الغربي ، ومعظمها استسلم بعد مقاومة طالت أو قصرت . واستقر حكم الغرب مطلق السلطة في سائر البلاد الإسلامية ، فترات تتراوح ما بين ثلاثة قرون .. ونصف قرن .. فلماذا لم يثبت الغرب حسن نيته وينجز التحديث المنشود ؟. أين هو البلد الإسلامي الذي خرج منه الاستعمار الغربي أو زال عنه الحكم الغربي فاذا به بلد يساير الزمن ؟.

وان كانت العقبة في الإسلام فقد استعمر الغرب شعوباً غير اسلامية ، بل وبلا دين جدي على الاطلاق ، فلماذا لم يحدثها ؟.

صحيح ان كل البلاد الاسلامية التي « حدثها » الغرب تعج بالكباريات ، وتبيح الزنا برضاء الطرفين ، والمتشدد منها يشترط موافقة الزوج أو الزوجة . وبعضها يبيح اللواطه للراشدين (قبل اقرار ذلك في بريطانيا بنصف قرن) وكلها تشرب الخمر وتأكل لحم الخنزير ، وكلها يستطيع السائح الغربي ان يقضي فيها وقتاً طيباً .. وباختصار ان التقاليد والدين قد مساً مساً عنيفاً ولكن أهذا هو التحديث المنشود ؟. ان كان ؟. فنحن إذن دولة عصرية .. فلماذا كل هذا الجدل حول الطريق الى دولة عصرية ؟.

أبدأ أن شعبنا قد عرف حتى في هذا الوقت المبكر (عصر الحملة الفرنسية) انه من المستحيل ان تقوم منفعة متبادلة بين المستعمرات والمستعمرين . وان مسايرة الدول الاستعمارية للزمن ، بل وسبقها للزمن ، قد تم على حساب الابقاء القسري للمستعمرات - أي نحن - في أسر التخلف .. إذ كان يستحيل في ظل الحضارة الغربية ان تتصنع المستعمرات طالما ظلت خاضعة لسيطرة الدول الاستعمارية ، واذا كنا قد تعلمنا خلال مائة وخمسين سنة ان الطريق الى التصنيع يبدأ بالتححرر من الاستعمار ، فلا شك في صحة موقف أجدادنا الذين حاولوا صد هذا الاستعمار قبل ان يستقر في بلادنا .

هذه الحقيقة التي اكدها التاريخ خلال المائة وخمسين عاماً ، كانت خلف مقامة الشعوب للاستعمار ، حتى دون أن تعيها وعياً كاملاً ، وذلك بموجب القوانين التي تحرك العناصر اللازمة لصنع التاريخ ، حتى دون ان تعي هذه العناصر انها تصنعه .

ولما كانت الجماهير تعرف بغريزتها ، ان الغزو الغربي يقضي على فرصتها في التحديث الحقيقي ؛ ويقضي على دينها وتقاليدها ، أي يفرغ هذا الدين وتلك التقاليد من روحها ، مع عملية نزع ثرواتها ونهب خاماتها .

وإذا كانت الجماهير تتحرك في اتجاه مقاومة هذا الغزو مرة تحت اعلام الغضب للدين ، او الزود عن التقاليد ، ومرة للاحتجاج على لعبة الأسعار والسوق التي تنظم نهب انتاجها . أو ضد عمليات السطو السافرة على الثروات ، أو من أجل الحفاظ على لغة البلاد ، أو المطالبة بحق الأهالي في فتح بنك أو مصنع .. فان هذه المظاهر المتعددة والمعقدة هي طبيعة السلوك البشري ، والأسلوب الانساني الذي يتحرك من خلاله التاريخ ..

ولكن هذه الشعارات يجب ألا تضللنا عن جوهر الصدام .. فليس المهم الصيحة التي يوجهها المضارب ، ما دامت الضربة توجه للعدو الحقيقي ، وفي الاتجاه الصحيح .

على ضوء هذا الفهم ننظر الى مقاومة الشعب المصري لكل مظاهر الوجود والسيطرة والتحكم الفرنسية ، حتى ولو بدت أحياناً انها مقاومة لقرارات لا شك في فائدتها المباشرة للأهالي ، كرفض قوانين دفن الموتى خارج المساكن ، أو حتى الثورة ضد القوانين الصحية التي تحد من انتشار الأوبئة (*).

وجهة نظرنا أن تمبئة الشعب وتحريكه ضد السلطة الأجنبية هو عمل وطني تقدمي ، هو المدخل الشرعي والوحيد للتحديث ومسايرة الزمن ومن ثم فكل ما يحقق تمبئة الجماهير وتحريكها ضد الوجود الاستعماري هو عمل تقدمي حتى لو اتخذ صورة الدفاع عن أوضاع خاطئة وسيئة ، لأن هذه الجزئيات تجلبها الحقيقة الشاملة ، وهي أن مصلحة وجود وتقدم وازدهار شعب المستعمرة رهين بزوال السيطرة الاستعمارية واختفاء الوجود الاستعماري. ومن الذي يرفض خطوة الى الوراء من أجل خطوتين الى الامام. بل من أجل قفزة حاسمة تنقله من عبودية المتخلفين الى تحرر المتقدمين ؟

كان استقرار مصر كستعمرة يتطلب اخضاع شعبها بالقوة او الدجل او الاثنين معاً .. وكان مستقبل مصر وسيادتها وتقدمها رهن نجاحها في منع استقرار المحتل الأجنبي .. أي بمقاومة وجوده .. وجعله غير آمن في كل شبر من أرض مصر . ولقد حاول الفريقان بكل جهد متاح تحقيق اهدافها .

يقول « كرسوفر هيرولد » : « ولكن اكثر فلاحى الدلتا الذين كانت قراهم قلاعاً منيعة ، كانوا لا يرجون على الاطلاق بالفرنسيين ، بل إن المدن لم تكن دائماً مكاناً مأموناً لهم . وإلى القارىء على سبيل المثال ، التقرير الذي قدمه الجندي « مورستون » أحد جنود فرقة الفرسان ، والوحيد الذي بقي على قيد الحياة من حامية المنصورة الى الكولونيل لوجيه » :

(*) من عادتنا ان نختار الامثلة الصارخة حتى نتجنب الجدل فيما بينها .

« ترك الجنرال فيال أثناء مروره بالمنصورة فصيلة من ١٢٠ رجلاً .. وفي اليوم التالي لرحيل الجنرال فيال بأورطته ، اغتال الاهالي ثلاثة من جنود الحامية ، رجما واحداً منهم وهو يقف في نوبة حراسته ، والثاني وهو يأتي بالحساء للديدبان ، والثالث وهو عائد من مكان حراسته . وفي ذلك الوقت تحصنا في البيت الذي اخترناه ثكنة لنا .. (وبعد يومين) في حوالي الساعة الثانية صباحاً أحاط بالثكنة عدد كبير من المسلمين(*) يحملون مختلف الاسلحة . وحاول أحدهم أن يشعل النار في البيت .. ولكن احد جنود الفرسان قتله . فحاولوا بعد ذلك هدم البيت . وبالاختصار استمر القتال الى الرابعة مساء . وعندها خرجنا من ذلك البيت الذي فقدنا فيه ثمانية رجال . وبينما نحن سائرون في شوارع المدينة لنغادرها ، كانت الطلقات تأتينا باستمرار من نوافذ المنازل . فتزد عليها على قدر ما نستطيع . فلما وصلنا الى الخلاء طاردنا هؤلاء الأفراد أنفسهم ، وظلوا يطلقون علينا النار . وجرى بعضهم الى القرى القريبة في طلب التعزيزات . وفي الفجر كان منا على قيد الحياة خمسة وعشرون او ثلاثون ، وما يزال العدو يطاردنا . وإذ فرغ رصاصنا فقد دافعنا عن أنفسنا بالسلح الأبيض . وفضل الجرحى وعددهم عشرة ، أن يفرقوا أنفسهم عن أن يقعوا في قبضة العدو . فلم يبق منا غير خمسة عشر ، ألقى حشد من الفلاحين الهائجين أنفسهم علينا ، وجردونا من ثيابنا وقتلونا كلنا بالشوم . وألقيت بنفسي في النيل عرباناً لأنتحر غرقاً . ولما كنت اعرف السباحة ، فقد تغلبت غريزة حب الحياة على رغبة الانتحار ، ووصلت الى الضفة المقابلة .. ورحت اسير دون هدف . فرأيت سبعة فرسان من المسلمين يدنون مني ، فألقيت

(*) رجال الثورة الفرنسية لم يروا في مصر إلا « المسلمين » ! وبعد قرن ونصف قرن من مسيرة الزمن للحضارة الفرنسية (وليس العكس) فإن بلاغات القيادة الفرنسية عن شهداء الجزائر كانت لا تجد ما تعرفهم به إلا كلمة « مسلمين » . وفي بورسعيد شاهد مقبرة وضعه الفرنسيون أثناء احتلالهم للمدينة سنة ١٩٥٦ وكتبوا عليه : هنا يرقد ٢٦ « مسلماً » ! قتلا في الحوادث ...

بنفسى فى النيل ثانية . وإذ لاحظت ان اثنين منهم يشيران إلىّ بالجىء عدت الى الشاطىء ، فأطلق احدهما النار علىّ رأساً ولكن الرصاصة لم تتطلق . وقال الآخر شيئاً معناه الابقاء على حياتى ، ثم سلمنى الى فلاحين مسلحين .. فأوتقا يدي وقادانى الى قرية ، وأنا امشى على طريق كله شوك آلمنى جداً لأننى كنت حافياً مجروحاً . وفى القرية فك الاهالى وثاقى واعتنوا بى وأطعمونى وترفقوا بى كثيراً .

« وكان اقليم الاسكندرية ، بعد احتلال دام شهرين من الزمان ، غير مأمون شأنه فى ذلك شأن اقليم الدلتا » (١٦) .

وكتب الجنرال «ديموي» : « قامت الكتيبة يوم ١٧ يوليو ١٧٩٨ - وعلى بعد نصف فرسخ من الكريون (من بلاد مركز كفر الدوار) هاجم الكتيبة عدد من العرب . وكان هذا العدد يزداد كلما تقدمنا فى السير وقد شتتنا هذه الجموع بالرصاص ، ولم نفقد سوى قتيل واحد وجريح ، وقد داخلني الشك من الاتفاق بين هجوم هذا الجمع علينا ومغادرتنا للاسكندرية ، وخيل الى أن هناك اتصالاً بينهم وبين اهالى الاسكندرية . تابعت الكتيبة سيرها ووصلت الى دمنهور وكنا فى خلال هذه المسافة محرومين من الماء حرماناً تاماً ، وكان من المستحيل علينا ونحن فى الاسكندرية أن نحصل على جمل واحد او قربة واحدة لمحلم الماء على رغم أوامر الجنرال كليبر ، وبلغت بنا الحال أنه فى يوم تحرك الفرقة اختفت الجمال من الاسكندرية ، ثم عادت الى الظهور فى شوارع المدينة غداة سيرنا مما يدل على أن هناك تواطؤاً بين الاهالى وأصحاب الابل » (١٧) .

أما الكابتن « جريلان » ياور نابليون فقد حدث له - على حد تعبير الراقى - : « ما هو أشد وأدهى » ! « فقد اوفده نابليون من القاهرة الى الاسكندرية برسالة منه الى الجنرال كليبر وأخرى الى الاميرال برويس فى « ابو قير » فاستقل سفينة ومعه بعض الجنود وجنحت به على الشاطىء الغربى

لفرع رشيد فما كاد ينزل هو وجنوده الى الشاطئ، حتى هجم عليهم اهالي « علقام » فقتلوه عن آخرهم ، فلما علم نابليون بنبا هذه الحادثة أمر باحراق القرية غناباً لها على اعتدائها (*) فأحرقها الجنود وخربوها ولم يبقوا منها بيتاً قائماً « (١٨) . وأسف الجنرال « ديموي » كثيراً لأنه : « لم أجد في جولتي هذه مصرياً واحداً يحمل الشارة الفرنسية » . « واستنتج من حوادث دمنهور ان هناك مخبرات سرية بين الاسكندرية والمدن التي مرت بها الفرقة ولاحظ ان اهالي دمنهور كانوا على علم بقدم الفرنسيين قبل وصولهم ، معدين لخرابهم » (١٩) .

اما الكولونيل داماس ، فقد كان لديه الكثير مما يمكن ان يستخدمه ابنه في تأليف قصص المغامرات .. لولا أن الفروسية في الأدب الغربي، من صفات الانسان الأبيض وحده . فأكادت سفينة الجنرال « داماس » تتحدر في النيل « يوم ٢٦ يولييه ١٧٩٨ ليصل الى القاهرة ، لكنه لم يكذب يتعد عن المدينة حتى هاجمه اهالي « مطوبس وأدفيينا » فاضطر الى ان يعود ادراجة الى رشيد ، ثم اعاد الكرة ثانية، ولكنه لم يكذب يتجاوزها باثني عشر فرسخاً حتى أطلق الفلاحون على سفينته الرصاص من جانبي النيل فاضطروه الى الرجوع مرة اخرى « (٢٠) .

« قصدت الكتيبة الى كفر شباس عمير ، وكانت محصنة بسور عال يحيط بها ، وبهذا السور أبراج حصينة كان يحتلها الأهالي ويطلقون منها النار ، فاقتمحت الكتيبة الفرنسية هذا السور . فلم يجد الأهالي بدا من اخلاء الابراج ما عدا برجاً واحداً امتنع المدافعون عنه واخذوا يطلقون النار على الجنود الفرنسيين وأصاب رصاصه جواد الجنرال « مينو » فخر قتيلاً ، فأدرك خطورة الموقف (**). وكان رجال البرج مستمرين في اطلاق الرصاص، فرأى

(*) (!)

(**) عادة يدرك « مينو » هذا .. خطورة الموقف متأخراً جداً !

من المجازفة الاقتراب منه ، فأمر باضرام النار في القرية . وكان الليل قد أقبل وجاء كثير من القرى المجاورة لإنجاد اخوانهم ، فأمر « مينو » جنوده باطلاق الرصاص في الظلام لمقاومة المهاجمين ، واندلعت النيران في القرية كلها ، فاضطر الاهالي المدافعون عن البرج الى إخلائه ، وكانت الجموع قد تكاثرت حول القرية حتى بلغ عددهم من الفين الى ثلاثة آلاف من الفلاحين ، فاضطر الجنرال مينو الى الانسحاب وعاد بكتيبته الى سنهور المدينة ثم الى دسوق ، بعد أن فقد بعض القتلى وتسعة عشر جريحاً ، ثم قفل راجعاً الى رشيد بعد أن عدل عن متابعة اكتشافه «^(٢١)» . وكتب الى نابليون والجنرال برتويه يعتذر عن أوهامه عن حبة الأهالي له !

« قصدت الكتيبة يوم ٤ أغسطس قرية ابي زعبل ولكن صدم عنها جمع من العرب والفلاحين المسلحين بالبنادق والعصي (الشاربخ) فعادت الكتيبة ادراجها الى الخانكة وأخذ الأهالي من العرب والفلاحين يتعقبونها الى مستقرها وفي صباح ٥ أغسطس هاجم الأهالي الحافر الأمامية لمعسكر الخانكة بقوة أكبر من قوتهم الأولى إذ انضم إليها مائتان من المالك . وبدأ الهجوم ، فبرزت من غابة ابي زعبل قوة من الفرسان العرب يتبعهم عدد حاشد من الفلاحين ، ولم يكن هؤلاء يحملون في الغالب إلا أسلحة ضعيفة فلم يتجاوز عدد حملة البنادق منهم السدس ، فأحاطوا بالفرنسيين من كل جانب ، تخفيهم الزروع والغيطان ، وانضم إليهم سكان القرى المجاورة . فأطلقوا النار على الفرنسيين من كل صوب . ولكن نيران المدفعية والبنادق أوقفتهم بعيداً عن المعسكر ، فأعادوا الهجوم بعد كرة ، وأضطر جنود المقدمة الى التراجع . وأدرك الجنرال لكرك « الخطر من الاصرار على الدفاع عن قرية الخانكة ، فأجمع أن ينسحب منها ويرتد غرباً ، وفي أثناء المعركة ثارت قرية الخانكة نفسها فوثب أهلها برجال الحرس الفرنسيين الموجودين ، فجردوهم من السلاح وقتلوهم . واستولى الفرع على الجنود الفرنسية ولم يطبقوا البقاء معرضين للهجمات ، فجمع القائد ضباطه وتشاوروا في الأمر فاستقروا على إخلاء

الخانكة والتراجع عن القرية ، فتقهقروا بعد غروب الشمس ، وكان عددهم ستائة مقاتل (٢٢) .

« عندما انبثت فكرة الثورة في القاهرة ، وبدأت تذيع الدعوة إليها في الأقاليم ، فاجترأ الثوار على مهاجمة المخافر الفرنسية . وقتل الأهالي ترجمان الجنرال رينيه الخاص على مقربة من معسكر الفرنسيين في بلبليس . وقاوم أهل « بيشه » الفرنسيين عندما شرعوا في مصادرة خيولهم . وبدأ أهالي بلبليس وأعوانهم من العرب المجاوري لهم يهاجمون معسكر الفرنسيين في المدينة ... وتشجع الأهالي فهاجموا على معسكر بلبليس فجر يوم ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ (*) فأقبل مائة من الفرنسيين من قبيلة العائد، قادمين من الصحراء فالتقوا بكتيبة من الفرنسيين وقتلوا منها بعض الجنود ، فرد الجنرال « رينيه » هجمة العرب ، ولكنه أضطر أن ينسحب الى « بلبليس » ليرد هجوماً آخر كان يتهدد مركزه في المدينة . وقد اشترك فيه ٢٥٠ من الفرسان و ١٢٠٠ من المشاة . فرابط « رينيه » بالمدينة حتى أقبل اليه المدد ثم أخذ يهاجم الثوار الى أن ارتدوا عنها وسار يجنوده يتعقبهم حتى غابوا في الصحراء ، فعاد الى « بلبليس » ، وفي هذا الوقت كان عرب « بلي » قد أقبلوا من طريق « القاهرة » وهاجموا المعسكر ، فردهم الجنود الفرنسية ، ثم كروا بعد قليل ولهم قوة اكبر فكان عددهم كما قدر الجنرال « رينيه » ٥٠٠ فارس و ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ راجل . فقال عليهم « رينيه » يجنوده ومدفعيته ففرقهم بالبنادق والمدافع ورددهم الى قرية « غيته » - في الجنوب الغربي من بلبليس - وفيها هو على أثرهم هجم الجمع الحاشد من أهالي البلاد المجاورة - قدرهم « رينيه » بألفين من المشاة و ١٥٠ من الفرسان - على الفضاء الذي يفصل المعسكر عن « بلبليس » ولكن « رينيه » ردهم على أعقابهم عند عودته الى المدينة ، ثم عادوا الى

(*) لاحظ انه يوم ثورة القاهرة .

الهجوم ثانية ، وكذلك ردتهم الجنود الفرنسية ، ثم استمرت الحرب سجالاتاً بين الفريقين (٢٣) .

« ثار أهل القريتين (غمرين وتتا) ، شمالي منوف يوم ١٣ أغسطس ١٧٩٨ وحملوا السلاح وأغلقوا الأبواب في وجه الجنود ، فحاول الجنرال « فوجير » عبثاً ان يكره البلدين على فتح أبوابها فلم يستطع ، ولما أعينته الحيل طلب المدد من الجنرال « زاوونشك » الذي كان مرابطاً « بمنوف » فأمدته بقوة من جنوده . وتعاونت القوتان على اخضاع القريتين بعد ما دافع أهلها دفاعاً شديداً ، واشتد القتال خاصة في « غمرين » ، واشتبك الأهالي والجنود في طرفاتها ، فانهمرت فيها الدماء وغطيت الأرض ببحث القتلى ، قال الكابتن « فيروس » يصف هذا الدفاع : « جاءنا المدد وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية غمرين فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين ، وقتلنا من الأعداء (الاهالي) من اربعمائة الى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة واقدام (*) » .

وهنا تبلغ الحماسة - وله الحق - « بالرافعي » الذروة فلا يملك الا ان يعلق : « فانظر الى هذا الوصف ، وتأمل كيف كان النساء يشاركن الرجال في مقاتلة الفرنسيين ودفاعهم ، وهذا لعمرى (لعمر الرافعي) من أبلغ ما يذكر عن استبسال شعب في الدفاع عن كيانه . وأبلغ منه ان الشهادة به جاءت من عدو » .

« وظهرت اعراض الهياج (!!) والثورة في طنطا » في اوائل اكتوبر ١٧٩٨ وأجمع أهلها على الامتناع عن دفع أي ضريبة أو غرامة تفرض عليهم» (٢٥) .

(*) « لويس عوض » مؤرخ تاريخ البغايا المتعاونات مع جيش الاحتلال والساقطات اللاتي التحقن بمسكرات الجنود والمواخير التي اقامها اليونانيون للترفيه عن الجنود . يفتش بين هؤلاء البغايا عن طلائع حركة تحرير المرأة ، ولا يهتم هؤلاء المقاتلات بالسلات .

« وصل الكولونيل « لوفيفر » (*) تجاه طنطا يوم ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ورابط بجنوده وكلف حاكمها « سليم الشوريحي » ان ينفذ اليه أربعة من كبراء المدينة يكونون رهائن . فجاء بأربعة من أئمة مسجد السيد « احمد البدوي » ورفض أكابر المشايخ ان يحضروا معه ليعطوا القائد الفرنسي موثقاً بالمحافظة على السكينة في طنطا ، وكان المولد قائماً في ذلك اليوم ، وقد تجمع فيه خلق كثير من أرجاء البلاد ، فلم يكد « لوفيفر » ينزل الرهائن الأربعة الى المراكب ليعث بهم الى القاهرة حتى هرعت الجماهير مسلحين بالبنادق والحرايب يصيحون صيحات الغضب والسخط ، رافعين الرايات والبيارق، فلما رأها أهالي البلاد المجاورة اقبلوا من كل حدب ، وانضموا الى الثائرين وفيهم ١٥٠ من فرسان العرب ، فاندفعت هذه الجموع على كتيبة الجنرال « لوفيفر » وكادت تأخذ المراكب التي معها فقابلتها الكتيبة بنار شديدة من البنادق الحديثة . فانهزمت الجموع الى المدينة ، وعادت غير مرة تهاجها ثم تردت الى داخل البلد . ورأى الكولونيل « لوفيفر » ان لا سبيل الى تعقب الثائرين في مدينة كبيرة كطنطا لقلّة عدد جنوده ، وافتقاره الى المدفعية ، فإزم خطة الدفاع وأقتصر على منع الثائرين أن يحيطوا بجنوده، وعلى الدفاع عن مراكبه، وتمكن من انزال معظم قوته بالسفن ومعهم الرهائن ثم اقلعت سفنه وترك قوة من رجاله على شاطئ الترعَة بعد معركة دامت أربع ساعات . وقد قدر الجنرال « فوجيير » عدد الثوار بعدة آلاف وقدر خسائرهم بثلاثة بين قتيل وجريح ، وطلب من نابليون معاقبة اهالي « طنطا »، لأن معظم الثوار كانوا منهم ، وألح في طلب المدد من الرجال والمدافع لاختصاصهم » (٢٦) .

وكانت الجماهير معبأة باستمرار ضد المحتلين وعلى استعداد دائم للقتال ضدهم، فور وقوع أي حادث، حتى ولو لم يكن يحمل أي مغزى ولا أهمية .. فلما مرت طائفة من الفرنسيين بالحملة الكبيرة « تعصب أهلها واجتمعوا

(*) هل هو جد الكاتب الماركسي هنري لوفيفر !؟

الى قاضيها وخرجوا لحربهم فأكن الفرنسيين لهم وضربوا عليهم طلقاً بالمدافع والبنادق فقتلوا منهم نيماً وستائة انسان ومنهم القاضي وغيره، ولم ينج منهم الا من فر وكان طويل العمر. وكذلك اهل طنتداء (طنطا) عند حضورهم اليهم وصل اليهم رجل من الجزائريين المنتسبين للعثمانية من جهة الشرق لزيارة سيدي « أحمد البدوي » وهو راكب على فرس وحوله نحو الخمسة انفار . وكان بعض الفرنسيين بداخل البلدة يقضون بعض اشغالهم فصاحت السوقه والبياعون عند رؤية ذلك الرجل بقولهم نصر الله دين الاسلام ، وهاجوا وماجوا ولقلقت النساء بألسنتهن وصاحت الصبيان وسخروا بالفرنسيين وتراموا بما على رؤوسهم (أخذوا البرنيطة ولعبوا بها الكورة !) وضربوهم وجرحوهم وطردهوهم فتسحبوا من عندهم. فقاوبوا ثلاثة ايام ورجعوا اليهم يجمع من عسكرهم « (٢٧) .

« افتتمر (!) أهالي المنصورة والبلاد المجاورة يجنود الحامية واتفقوا على الفتك بهم فيينا كان الجنود في معسكرهم يوم ١٠ أغسطس ١٧٩٨ دخلت المدينة جموع كثيرة من أهالي البلاد المجاورة. وكان اليوم يوم السوق العامة، فاختلطوا بأهل المدينة ، ووافقوهم على الفتك يجنود الحامية ، فهاجموا الجند ، ونادت المدينة بالثورة رجالاً ونساء ، وكان النساء يحرضن ازواجهن على أن يشوروا بالفرنسيين ، ولما شعر الجنود بالخطر ، امتنعوا في معسكرهم ، فحاصره الثائرون وشرعوا في دكه واشعلوا فيه النار فاضطر الجنود الى اخلائه هاربين وانحدروا الى السفن قاصدين الفرار ، ولكن الجموع تكاثرت عليهم وأبى رجال السفن ان يحملوهم ، فالتجأوا الى البر ، وقصدوا الى دمياط . ولكن الثوار أخذوا عليهم الطريق ثم قتلوهم عن آخرهم - التقارير الفرنسية تشير الى ان عددهم ما بين ١٢٠ - ١٦٠ مقاتلاً « (٢٨) .

بل وتركت الحامية المباداة زوجة أحد الضباط حية .. وتزوجت من شيخ العرب « ابو قورة » وساهمت في اعطاء بنات المنصورة هذا الطابع الفريد من لون العيون الذي يتميز به .

« وَحَلَّتْ سفنهم في بحر « أشمون » من قلة المياه ، وانتهزها الأهالي فهاجموا السفن الفرنسية ، وكانوا يتبعونها من بعيد ، واشترك في هذا الهجوم أهالي الجمالية . فأطلقوا النار على السفن وأمطروها وابلاً من الحجارة من أعلى سور بلدتهم . فأمر الجنرال « داماس » بإتزال الجنود الى البر لرد هجوم الأهالي . وأمكته ان يفرق الجموع التي أهدقت بالقوة الفرنسية ، ولكنه بعد قتال أربع ساعات انسحب من الموقع الذي نزل به ورأى انه لا يستطيع الثبات به ولا متابعة السير في بحر أشمون ، فأضرم النار في الجمالية ، وعاد أدراجه الى المنصورة ، ومعه جرحاه وقتلاه « (٢٩) » .

وكتب احد ضباط الجنرال « داماس » تقريراً عن هذه المعركة جاء فيه :
« وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصي ، مهاجمونا بحماسة فيستشهدون بين أسنة رماحنا » .

« وجاء في يوميات الجنرال « لوجيه » لقد تأكدنا ان « حسن طوبار » كان يجوب بنفسه البلاد الواقعة على بحر أشمون يجرس الأهالي على الثورة ، وكان يرسل الى بعض البلاد الأخرى رسله واتباعه لتنظيم المقاومة ضد الفرنسيين ، وانه هو الذي دبر واقعة الجمالية .. وان الدلائل تدل على ان الثورة عامة « (٣٠) » .

« امتدت شعلة الثورة الى دمياط من اوائل سبتمبر ١٧٩٨ فأرسل الجنرال « فيال » الى الجنرال « دوجا » ينذره بقرب هجوم الثوار على المدينة ويطلب المدد . وينيء بأن « حسن طوبار » يحشد أسطولاً كبيراً في بحيرة المنزلة لمهاجمة المدينة . ووقع الهجوم المنتظر ليلة ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ واشترك فيه أهالي البلاد المجاورة لدمياط . واشترك فيه أيضاً اسطول « حسن طوبار » الذي تحرك في بحيرة المنزلة قاصداً شطوط دمياط . فوصل الى - غيظ النصارى - شرقي المدينة . التقى الأهالي القادمون من القرى بالنازلين من السفن ، وكانوا مسلحين بالبنادق والرماح ، وساروا قاصدين دمياط لمهاجمة

قوة الجنرال « فيال » فقتلوا الحراس الفرنسيين المرابطين في المخافر الأمامية للمدينة ، وظل القتال متواصلاً ليلة ١٦ سبتمبر إلى ان رتب الجنرال قواته فتحول موقفه من الدفاع الى الهجوم ، وتمكن من التغلب على الثوار وردمهم على اعقابهم بعد ما كبدهم خسائر جسيمة . وفي خلال ثورة دمياط قام أهالي عزبة البرج وثاروا بالحامية الفرنسية فقتلوا من أدركوهم من رجالها ، (٣١) .

وكتب الجنرال « لوجييه » في يومياته يقول : « لم تتحسن الحالة كثيراً عما كانت عليه حينما جاء الجنرال دوجا لأول مرة الى دمياط ، والسلطة الفرنسية ما زالت منكورة في معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المدينة ، وفي دمياط نفسها التي تعتبر من اعظم بلاد القطر المصري ، لا يأمن الجندي الفرنسي على حياته اذا هو ذهب الى حي الوطنيين ، والحامية الفرنسية مقصاة في حي الاروام » (٣٢) .

حتى في البحر قاتل الفلاحون والصياديون :

« خرجت السفن من بوغاز دمياط - ٣ أكتوبر ١٧٩٨ - ثم عرجت على قم الديب - ١٦ سفينة منها ثلاث سفن حربية - فمرت منه الى بحيرة « المنزلة » ، وقطعت هذه المرحلة في ثماني ساعات ، ثم اتجه الجنرال « اندريوسي » بقوته صوب المطرية ، ولكنهم شاهدوا في نحو الساعة الثالثة مساء اسطولا من المراكب الشراعية متجهاً نحو الشرق ، تحجبه عن القوة الفرنسية ، الجزائر التي في البحيرة ، فوصلت سفن الجنرال « اندريوسي » المسير حتى اقتربت من « المطرية » وقبل ان تصل اليها خرجت من مراكب الأهالي فجأة من خلف الجزر التي تحجبها ، وأقبلت على السفن الفرنسية قاصدة الاصطدام بها واغراقها ، فأدرك الجنرال « اندريوسي » خطورة الموقف ، وخشي عواقب الاصطدام لأن المراكب المصرية كانت تبلغ مائة مركب ، فنكص راجعاً الى دمياط ، وأطلقت المراكب المصرية النار على السفن الفرنسية . فأجابته هذه باطلاق الرصاص من البنادق والمدافع التي بها ، وأخذت في الوقت نفسه تتراجع تقديماً

من الاصطدام بمراكب الأهالي ، وكانت هذه تتعقب السفن الفرنسية قاصدة احتلال دمياط ، ورسب بالقرب من المنية - جنوب دمياط بغرب - ، (٣٣) .
« وأقبلت جموع الفلاحين المسلحين (*) تقتحم رصاص الفرنسيين ، وأستمر الضرب والقتال مدة ساعتين ، وانتهت الواقعة بهزيمة الفرنسيين فولوا الادبار ، وتعقبهم الأهالي حتى ردوهم الى بلبس » (٣٤) .

« فهجم أهالي ميت غمر والبلاد المجاورة على المراكب واستولوا عليها وقتلوا من فيها من الفرنسيين وأخذوا ما بها من الذخائر والمدافع وارتدت السفينة الحربية التي كانت تحرسها الى القاهرة بعد أن عجزت عن رد التأثيرين وجرح قبطانها وعدة من رجالها جروحاً بليغة » (٣٥) .
« معركة سنهور ٣ مايو ١٧٩٩ :

« وصل المدد الى الرحمانية ، وانضم الى الجنود الذين بها ، وسارت القوات الفرنسية مجتمعة فالتقت برجال « المهدي » يوم ٣ مايو بسنهور البحيرة على مقربة من دمنهور ، ودارت معركة من أشد المعارك هولاً ، قال « ريبو » في وصفها ان عدد رجال « المهدي » كانوا خمسة عشر ألف مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وان القتال استمر سبع ساعات كان فيها أشبه بمجزرة فظيمة ، وهذه الواقعة من أشد الوقائع التي واجهها الفرنسيون في القطر المصري ، أظهر فيها اتباع « المهدي » من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافاً بالموت لا نظير له ، وبذل الكولونل « ليفر » أقصى ما انتجه العلم والفن في القتال ، فجعل جيشه على شكل مربع ، على الطريقة التي ابتكرها نابليون وهجم على الجموع المقاتلة عشرين مرة ، فكان يحصد صفوفهم حصداً بنيران البنادق والمدافع ، وكان اتباع المهدي قد غنموا في دمنهور مدفعاً فرنسياً فاستخدموه في المعركة وركبوه على مركبة تجرها الثيران ، واخذوا يطلقون منه النار على الفرنسيين ، واستمر القتال حتى جن

(*) في قرية « بردين » بمحافظة الشرقية .

الليل وكان الجنود الفرنسيون قد خارت قواهم من القتال . ففكر « ليفير » في الانسحاب من الميدان والاتجاه الى الرحمانية ، ولكن جموع « المهدي » لكثرة عددها كانت تسد الطريق أمامه ، فأمر رجاله ان يضموا صفوفهم ويخترقوا الجموع التي طوقتهم وركب المدافع على رؤوس المربع لاقتحام هذه الجموع وانسحبوا من ميدان القتال بعد ان فدحتهم الحسائر « (٣٦) .

هكذا كان لقاء شعبنا للغزاة في الوجه البحري ، فاذا انتقلنا الى الصعيد حيث كان « ديزيه » وعميله « يعقوب » يشنون حملة اخضاع الصعيد ، كانت المقاومة الشعبية تعم كل قرى الصعيد ، حتى ليستحيل أن تذكر قرية على جانبي النهر لم تسجل صفحة بطولة في سجل مقاومة الغزو الفرنسي.. ولم تقدم اكثر من شهيد وشهيدة : « صارت البلاد فيما بين أسيوط وجرجا شعلة من الهياج والثورة . شبت الثورة في نحو اربعين بلداً ، وانضوى الي علمها نحو سبعة آلاف من الاهالي » (٣٧) .

« واجه الفرنسيون في الصعيد فيما بين جرجا وأسيوط ثورة واسعة النطاق بعيدة المدى، ولكنهم عاجلواها قبل ان تجتمع قواها وتتحد عناصرها فكانت المعارك التي نشبت بينهم وبين الاهالي أشبه بمذابح فتكت فيها نيران المدافع والبنادق يجموع من الاهالي محرومين من النظام غير مزودين إلا بأسلحة قديمة » .

« ووصل الجنرال « دافو » الى « سوهاج » يوم ٣ يناير ١٧٩٩ حيث كانت تحتشد قوة من الثائرين قدرهم الجنرال « دافو » بأربعة آلاف من الفلاحين مسلحين بالبنادق والحرايب يشد أزرهم سبعائة من الفرسان ، ونشب القتال بين الفريقين. ولكن الاهالي على كثرة عددهم لم يكونوا معتادين خوض المعارك الحديثة فأصلتهم فرقة الفرسان ناراً حامية ، تراجعوا امامهم تاركين ثمانائة من القتلى كما يقدرهم الجنرال « ديزيه » .

« وكانت هذه الواقعة كارثة أصابت الاهالي وكان طبيعياً أن تفضي الى

ارهاب البلاد الاخرى واتحاد الثورة فيها ، لكنها على العكس لم تكسر شوكة
الثائرين ، ولم تشهم عن عزمهم ، واحتشدت جموعهم المسلحة على مقربة من
أسيوط قادمين رجالاً وركباناً من مديريات «المنيا» و«بني سويف» و«الفيوم» ،
فكلف «ديزيه» الجنرال «دافو» ، التوجه ليهاجم هذه الجموع وليطمئن
على الاسطول الفرنسي الذي انقطعت اخباره وتأخر وصوله الى «جرجا» ،
وكان مركز هذا الاسطول محفوفاً بالمخاطر لأنه كان يتسحب في النيل بين بلاد
تائرة وجموع هائجة .

« ووصل «دافو» «طهطا» يوم ٨ يناير .. وهجم الثوار على مؤخرة
الجيش الفرنسي .. فأمر الجنرال «دافو» باطلاق النار عليهم ففتكت بهم
فتكاً ذريعاً وخسر الأهالي عدداً كبيراً من القتلى قدره الضابط «راباس»
١٥٠ قتيلاً من الفرسان وثمانمائة من المشاة . وانتقم الفرنسيون انتقاماً فظيماً
من القرى التي اطلقت عليهم النار فقتلوا من أهلها خمسمائة رجل
وأحرقوها .

وعند جزيرة فيله «أنس الوجود» قال الجنرال «بليار» : «حمل الأهالي
أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ، ورأينا النساء يندشون اناشيد الحرب
والهيجاء ويحثون التراب في وجوهنا ، أما الرجال فأطلقوا الرصاص على
رجالنا الذين ركبوا البحر ، وكنت قد أحضرت معي مدفعاً لإخضاعهم
فدعوتهم الى الصلح والسلام ، فكان جوابهم انهم لا يقبلون منا كلاماً
وانهم لا يفرون من امامنا كما يفرض المالك .. (*) واستأنفوا اطلاق الرصاص
فاضطرتنا ان نرجى احتلال الجزيرة » (٣٨) .

« فالتقى بهم في «الصوامعة» - جنوبي طهطا - يوم ٥ مارس ، وألقى
نار الثورة مشتعلة ووجد بها نحو ثلاثة آلاف من الفلاحين يحتلونها ، فهجم

(*) البعض يفترى عليكم يا اجدادي انكم قاتلتم بتحريض المالك او لإعادتهم !

على المدينة واحتلها ، ودفع الثوار الى النيل فقتل منهم عدد كبير قدرهم الجنرال « ديزيه » بألف قتيل وغريق « (٣٩) .

« وبينما كان الجنرال « بليار » يسمح لجنوده باغتصاب النساء ليرفع معنويتهم ، ويأمر بإتلاف المحاصيل ليهبط بمعنوية المالك .. اضطر « ديزيه » الى ترك اسطوله قرب « قنا » حين زحف شمالاً بأكثر جيشه « (٤٠) .

« وبعدت الشقة بينها فانتهاز الاهالي هذه الفرصة لمهاجمة الاسطول . وكان عدده نحو ١٢ سفينة حربية تقل ذخائر الجيش ومؤنثه ، تتقدمها السفينة الحربية « ايتاليا » . هاجم الاهالي هذه السفن يوم ٣ مارس (آذار) سنة ١٧٩٩ على مقربة من قرية « بارود » وأطلقوا عليها الرصاص فأجابت السفينة الحربية « ايتاليا » على هجمات الاهالي بإطلاق المدافع فقتلت منهم عدداً كثيراً ، لكن الاهالي ومعهم العرب القادمون من القصير تجمعوا وازداد عددهم ونزلوا النيل سباحة وهجموا على السفن فاستولوا عليها عنوة وأفرغوا شحنتها على شاطئ النيل ، ثم ركبوها وقصدوا الى السفينة الحربية « ايتاليا » للاستيلاء عليها ، وكان يقودها القومندان « موراندي » فضاعف اطلاق الرصاص على المهاجمين ولكنه رأى رجال مدفيعته قد اثخنهم الجراح على ظهر السفينة ، ورأى من جهة اخرى جموع الاهالي من الشاطئ الأيسر يتحفزون للهجوم عليه ، ففكر في الانسحاب ولكن الريح عاكسته فجنحت سفينته ، وإذ ذاك هرع اليها الاهالي والعرب من كل صوب وحذب وصعدوا على ظهرها ، فتحقق « موراندي » الخطر المحدق به ، ولكنه أبى التسليم ، فأشعل النار في مستودع البارود ، وألقى هو ورجاله بأنفسهم في الم قاصدين النجاة ، وانفجر مستودع البارود فنسف السفينة نسفاً ، وتفجرت شظايا القنابل على الشاطئ فقتلت عدداً كبيراً من الاهالي ولكن الباقين منهم قاتلوا « موراندي » ورجاله في الم فمات مثخناً بجراحه ، وقتل جميع الفرنسيين الذين كانوا على ظهر السفينة « ايتاليا » وعلى ظهر السفن الأخرى ، وكانت

خسارة الفرنسيين جسيمة فبلغ عدد قتلاهم من البحارة والجنود خمسمائة قتيل (٤١) .

وفي « ابنود » كان مع شعبنا مدافع حديثة « وكانت هذه أول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة في صفوف المصريين » (٤٢) .

« وبعد ساعتين كان الفرنسيون قد فقدوا ستين قتيلًا ، وجرح منهم مثل هذا العدد امام هذا المنزل وحده . وتوقف القتال بعد غروب الشمس .. ولكنه استؤنف في الفجر » (٤٣) .

« وتكبد الفرنسيون خسائر جسيمة فكفوا عن الضرب بعد أن أحرقوا المسجد وأخذوا يحاصرون المنزل طول الليل ، ونصبوا المدافع بحيث تشرف عليه » (٤٤) . « وأفلحنا في شق طريقنا الى الحوش وإشعال النار في البناء » (٤٥) . « ليكرهوا من فيه على التسليم » ولكن المقاومين كما تصفهم مذكرات «دينون» : « نزلوا عدواً الى الحوش وهم عراة يمسك كل منهم سيفاً بيد وبنندقية بالأخرى . وهم يطلقون النار على جنودنا ويقفزون للجائنين الى اللهب محاولين اطفاء النار بأقدامهم .. وراحوا يخوضون النيران كأنهم الشياطين خرجت من الجحيم وأحسست وأنا أشهدهم بمزيج من الرعب والاعجاب . وتخللت المشهد فترات من السكون تسمع فيها صوتاً واحداً (يصلي) وتسمع رد الجماعة بالأناشيد الدينية ، وصيحات الحرب ، ثم يلقون بأنفسهم علينا رغم يقينهم من انهم ملاقون في ذلك حتفهم » (٤٦) .

كانت أمتنا ما زالت على فطرتها السليمة ، تحركها روح الاستشهاد التي قهرت الغرب وصدته ١٢ قرناً . لم يكن قد تم تقريبها بعد ، ولا تم تجريدتها من روح العقيدة وروح الجهاد .

أما المماليك فيقرر «الرافعي» انهم « لبثوا يشاهدون هذه الهزيمة بعيداً ، لم يأتوا شيئاً ولم يعملوا عملاً ، وعسكروا في الصحراء . ذلك كان شأنهم في كل المعارك التي اشتد فيها القتال .. فكانوا يرضون بأرواحهم ويعرضون

الأهالي فداء وضحية . ونفس المعنى يؤكده « هيرولد » : « فبعد ان خدر المالك الفلاحين بدعايتهم ، وضعوم حاجزاً بينهم وبين الفرنسيين ثم انطلقوا هاربين على جيادهم الى الصحراء بينما كان الفرنسيون يذبجون نحو الف من الفلاحين » .

هذه الصورة اذا كانت معلوماتها صادقة من ناحية جن المالك و هروبهم وتجنبهم مقاتلة الفرنسيين (*) ، بل على العكس لقد سبق هذه المعركة انضمام عدد من المالك الى الجيش الغازي ، بعضهم كان لديه شيء من الخجل ، جعله يدعي أنه من أصل أوروبي ومن ثم فوضعه الطبيعي أن يكون مع الجيش الغازي ! وبعضهم لم يفكر حتى في عذر .. إلا أن التحليل الذي يخرج به « هيرولد » عن « تحريضهم للأهالي » غير صحيح ولا دقيق ، وكذلك ملاحظة « الرافي » : « ويعرضون الأهالي فداء وضحية » ! فداء لمن ، وضحية ماذا ؟!

فتحريض المالك كان آخر عامل يمكن ان يستثير الفلاحين للمقاومة ، بل كان الأحرى به أن يحدث تأثيراً عكسياً .. « هيرولد » نفسه ، (ولو انه ينسى) يسجل عشرات الحالات التي قاومت فيها ، نفس القرية ، المالك الفارين ، والفرنسيين المطاردين لهم .

و « الرافي » يعلم ان الوجه البحري كان خالياً تقريباً من المالك بعد الاحتلال . ومع ذلك لم تكن ثورة الأهالي فيه ، أقل من ثورتهم في الصعيد .

والذي حدث أنه لما سقط المالك وأفاقت الجماهير على انهيارهم - بل وأصبحت تتبرأ من جينهم وهرهم كما رأينا في ردهم على الجنرال بليارد - حملت هي مسئولية الدفاع عن وطنها ووجودها . ولأن الفلاحين والصعايدة

(*) كانت عبارة الجبرتي جامعة مانعة بليغة ومختصرة : « وانهمز الغز كعادتهم ! »

وأولاد البلد في القاهرة - كما سنرى - قد محوا بالدم الأسطورة التي راجت قبل الحملة الفرنسية عن الشعب القطيع الذي ينتقل من يد غالب الى غالب ، ولا دخل له بقضية مَنْ يمتلك البلاد .. لأن شعبنا محق بالدم الفرية التي يريد البعض ترويحها اليوم بأنه لم يكن طرفاً في الصراع على السيادة ، بل كانت حرباً بين الفرنسيين .. والسيادة العثمانية والعسكر المماليك .. لأن وقائع التاريخ تكذب ذلك الزعم ، نرى بعض المؤرخين يبحثون حائرين « عن تفسير » لاستشهاد المصريين دفاعاً عن وطنهم !!

كانت المقاومة عامة والرفض شامل ، ففي رسالة الى الجنرال « ديزيه » عن معركة ابنود : « اننا نعيش هنا عيشة ضنكا فإن جميع القرى تقفر من السكان كما اقتربنا منها ولا نجد فيها شيئاً من القوات ولا نرى فلاحاً واحداً يدلنا أو يأتينا بالأخبار أو يحمل رسائلنا. ولا أدري السبب في هذه الحالة (!؟) على اننا مع ذلك لا نعمل عملاً ضاراً في البلاد التي نجتازها » (!!)

ويقرر الرافي ان « الفرنسيين لقوا أشد الجهد في استخدام النوتية المصريين في مراكبهم لامتناع الكثير منهم واستمعصمهم أن يخدموا المحتلين في منفعة أو ضارة » .

اما « ديزيه » (رغم خدمات العميل يعقوب) فهو يقر لنا بليون : « لا اكنتمكم الحقيقة وهي اننا مع ذلك لا نكون سادة البلاد ، لأننا اذا أخلينا بلدة لحظة واحدة من الجنود عادت الى حالتها القديمة » .

وفي بني « عدي » وصل « دافو » اليها يوم ١٨ أبريل ١٧٩٩ « الفى أهلها جميعاً يحملون السلاح ويتحضرون للوثبة والقتال .. فاشتبك الفريقان في معركة حامية دارت رحاها في طرقات « بني عدي » وبيوتها التي حصنها الأهالي وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها على الجنود ، فلقى الجيش الفرنسي « ببني عدي » من المقاومة ما لم يلقى مثله في كثير من البلاد . واستمر القتال الى الليل وانتهت المعركة بغلبة المدافع والنييران الفرنسية على مقاومة

الأهالي ، ذلك ان الفرنسيين لما عجزوا عن الاستيلاء على « بني عدي » لجأوا الى وسيلة الحريق التي اتبعوها في « ابنود » وغيرها ، فأضرموا النار فيها ، فأمتدت الى بيوتها كافة ، وأصبحت البلدة كأتون من نار ، وبهذه الوسيلة تغلب الجيش الفرنسي على مقاومة « بني عدي » واحتلها الجنود وأمعنوا في أهلها قتلاً ونهباً ..

قال الجنرال « برتية » رئيس اركان حرب الحملة الفرنسية في مذكراته : « أصبحت بـ « بني عدي » اكواماً من الخرائب ، وتكدست القتلى في شوارعها ، ولم تقع مجزرة اشد هولاً مما حل بـ « بني عدي » وقدر الجنرال « دافو » عدد القتلى من الأهالي بألفي قتيل ، ويقدرهم « ديزيه » في تقريره الى نابليون بنحو ثلاثة آلاف .

وهناك واقعة شهيرة ينتبه لها دائماً المؤرخون الغربيون ، وبعض المصريين ، ولو ان الاهتمام بها وقف عند حد « الاعجاب » بـ غلام .. فلاح مصري ، يسرق بندق الجيش الفرنسي ، ويرفض الاعتراف على محرضيه ويتحمل الضرب بصبر عجيب !

ففي « الفقاعي » - قرية تابعة لمركز ببا في مديرية « بني سويف » على الضفة الغربية للنيل - (بالصعيد) تقدم أحد غلمان القرية وتغفل جنود الجنرال « ديزيه » كما تغفل جواسيسه بقيادة « يعقوب » . واستولى على بنادقهم فرآه جندي آخر ، وتعبه وهو يحمل بندقية الى ان ادركه وضربه بالسيف على ذراعه ، وساقه جريحاً الى الجنرال « ديزيه » للاقتصاص منه ... وهنا تسجل المصادر الفرنسية (وهي وحدها التي سجلت الواقعة) حواراً يبدو أنه أذهل قادة جيش الاحتلال من غلام لم يتجاوز سنه الثانية عشرة عاري الجسد تقريباً ، حافي القدمين ، على بعد مئات الاميال من الشاطئ الاوروبي ، جريحاً مضروباً بالسيف في ذراعه وساقه ، يمسك به جندي فرنسي ووسط معسكر كامل من المقاتلين ، المسلحين بأسلحة اوروبا الحديثة ! فعندما سأله الجنرال

عما دعاه الى ارتكاب هذا العمل، أجاب الغلام رابط الجأش ناظراً الى السماء :
 « ان الله القادر على كل شيء قد أمره بذلك ، فسأله الجنرال عن حرضه على
 فعلته ، فقال لم يحرضني أحد ، وانما الهمني الله ان أفعل ما فعلت ، ثم رفع
 رأسه ونظر اليه وقال في هدوء وثبات : دونك رأسي فاقطعوه ، فدهش
 الجنرال من شجاعته ، واكتفى بأن يجلده بالسوط ثلاثين جلدة (مثبتاً بذلك
 انه ارحم من القضاة الانجليز عندما واجهتهم فتاة فرنسية في زي غلام بنفس
 الكلمات) فجلد الغلام لا يتأوه ولا يتململ حتى استوفى الثلاثين سوطاً، وقد
 قص الجنرال « بليار » حكايته في يومياته قائلاً : ان هذا الغلام اذا عني
 بتربيته كان ذا شخصية نادرة المثال ، وروى المسيو « فيفان دينون » حكاية
 هذا الغلام في رحلته . اما رواية المسيو « دينون » التي يتحفظ عليها الرافي
 بسبب أدبياتها فتقول ان : « الغلام جرى بأسرع ما يستطيع وهو يخفي
 السلاح تحت جلبابه ، ولم يقف الا بعد ان أصابه الجندي يجرح سيف في
 ذراعه . وجيء به أمام الجنرال « ديزيه » فاستجوبه . فأجاب وهو يتطلع
 الى السماء بأن الله أمره ان يسرق وأن « لديزيه » ان يفعل به ما يشاء . ثم
 خلع طاقيته وأعطاهما للجنرال وطلب اليه ان يفصل في مصيره . وظل طوال
 الوقت هادئاً هدوءاً عجيباً . وأبدى قوة خلق نادرة . أما الجنرال فقد راعى
 صغر سنه وخضوعه لحكمه، ثم حكم عليه بثلاثين جلدة . وانحنى الغلام طواعية
 وتلقى الجلدات على ظهره دون صوت أو دمعة . وعمره يتراوح بين الثامنة
 والعاشره (!) وهو حلو الصورة . ولو اتيح له بعض التعليم لتقدم كثيراً .
 ونرجح أن الغلام كان يتبع تنظيماً ما .. اذ لا يعقل انه كان يسرق
 البنادق لحسابه الخاص ، ولا شك أن أهم ما كان يعنيه ، ونجح فيه ، هو عدم
 افشاء سر هذا التنظيم ، كما يمكن أن نفهم من هذا الحادث ان التنظيم الوطني
 في الصعيد ، أو مصر كلها ، كان يعتمد - كما هي العادة في كل الحروب
 التحريرية - على مخازن العدو كمورد أساسي للسلاح. وقد ثبت دائماً ان الأحداث
 هم خير من يقوم بعمليات من هذا النوع .

ولا نجد في جميع الروايات المتاحة، ما يشير الى دين الفتى ، ولكن لانتشار الإقباط في الصعيد ، وملاحق الفتى في الصورة التي رسمها « فيفان دينون » تسمح البظن بقبطيته (انه كان يمكن تمييز ملامح عناصر الشعب المصري) . وأهم من ذلك أفعال المصادر الغربية والمستعربة الاشارة الى دين الغلام ، ولو كان مسلماً لما فاتهم ذلك . والعبارات التي يتحدث بها ونظراته الى السماء لا تنفي اسلامه ، وان رجحت قبطيته . ولعل « هيروولد » قد أحسن هذا الاحتمال ؛ لذلك بادر بعد قصة بطل « الفقاعي » فوراً ، بالحديث عن مقلومة القرى بالصعيد ، التي يكثر فيها الاقباط ، « للمالينك » !

اضف الى ذلك انه ما من مصدر من المصادر الفرنسية قد حرص على اثبات اسم الفتى ، ولو كان مسلماً ما فاتهم ذلك . فمن حقنا اذن ان نتخيله غلاماً قبطياً ، يضرب يجذوره في هذه الارض منذ آلاف لا حصر لها من السنين ، ويسمو باحسانه الوطني الى الآفاق الحضارية التي ترى في هؤلاء الفرنجة القزاة ، أخفاد الرومان الطغاة الذين نكلوا باجداده وطاردوا رهبانه واضطهدوا كنيسته ، واغرقوا تاريخها بدم الشهداء وأجبروا بطريقها على اللجوء الى الصحراء حتى اعاده العزب . . .

هذه هي المقاومة الشاملة التي اجتاحت الريف المصري ضعيفه ودلتاه .. يلخصها الراقمي ، وهو الذي كان - بحق - خير من أرخها بدقة كاملة ، يلخصها بقوله :

« وصفوة القول انه لا يمكن لامة عزلاء لا سلاح معها ان تدافع عن كيانها ، بأكثر مما فعلت الامة المصرية في عهد الحملة الفرنسية » (٤٧٦) .
« حتى المؤرخ الصهيوني ناداف صاقران يعترف بأن مصر شهدت ثورة فلاحين في ١٨٠٠ ضد المحتل الفرنسي » (٤٨) .

وهكذا كان تاريخ الحملة الفرنسية في الريف للمصري من الدلتا الى الشلال ، هو سلسلة متصلة شبه يومية من اعمال القمع والابادة والنهب والتشكيل الوحشي

يقوم بها جيش الاحتلال. وثورة دائمة ومقاومة متزايدة باستمرار من الفلاحين المصريين يعاونهم أبناء البلاد العربية والاسلامية من مكسيين وجدأويين ومغاربة وأحباش وتونسيين .. وطبعاً الشوام .. وكما سردنا بعض لمحات ، من بعض صفحات المقاومة التي اثبتتها المؤرخون عن مقاومة الفلاحين ، نستعرض بعض سطور من سفر التنكيل الوحشي لجيش البرابرة الفرنسيين بالفلاحين المصريين : ففور احتلال الاسكندرية ، أمر نابليون بهدم منزل الشخص المتهم بقتل جندي فرنسي ، سابقاً بذلك « المدينة » الاسرائيلية بقرن وسبعين عاماً !

وعندما ثار الفلاحون في الدلتا واستطاعوا تحرير « دمنهور » وحكها خمسة عشر يوماً. كان الانتقام : « ان دمنهور زالت من الوجود ، وقد أحرق او ضرب بالنار الف ومائتان الى ألف وخمسةائة من أهلها » .
« وصلنا يوم ٢٦ مسيدور (*) (١٤ يوليو) الى قرية (النجيلة) بينما كان جنود الجنرالين « بون وفيال » ينهبونها ، وكان صياح الأهالي وبكاء النساء ونحيبهم يسم الآذان » (٤٩) .

« صادرنا بعض المواشي التي وجدناها في طريقنا ، وبينما كانوا يقيدونها كان الجنود ينهبون هذه القرية ويخربونها . ان فرقتنا لم تكن تعمل سوى اتمام خراب القرى التي كان يمر بها الجيش لأن الفرق التي تقدمتنا لم تترك فيها إلا ما لا يمكن حمله او تحريكه ، وفي بعض الأحيان كنا نرى النار مشتعلة في الفيضان قبل حضورنا بحيث لم نكن نعرف كيف نحصل على ما يلزم من التبن والشعير لحيولنا » . « ووصلنا الى وردان » . وبالرغم من ان الجنود كانوا في حاجة الى الراحة فإن ذلك لم يردم عن النهب . « ووضعوا أيديهم على ما وصلت اليه من المتاع وأخذوا منها ما راق لهم أن يأخذوه » (٥٠) .
ومن الخطأ أن نتصور أن هذا الاسلوب كان يتميز به صغار القادة فإن

(*) تأمل مهزلة التناقض - او بالأحرى التوافق - بين التاريخ بالتقويم الثوري ، وبين الفعل البربري !

« مينو » كتب الى « كليبر » بتاريخ ١٣ اغسطس يقول : « لقد قمت هذا اليوم بجولة لمعاقبة قرية قتلت بعض الفرنسيين ، فأحرقت القرية وقتلت تسعة من الاهالي ، وسيعتبرون بهذا الدرس كما يعتبر به اهالي وادي النيل » .
وطبعاً لم يعتبر الطرفان ..

« فقامت كتيبة من ستائة من الجنود وحاصرت بلدة « بركة غطاس » وأحرقتها ونهبتها » .

وليس صحيحاً أن نابليون كان مستاءً من ذلك - كما يشهد الراقمي - «إنصافاً للتاريخ»!! بل كان نابليون - الذي يبدو أن اهتمامه بالوثائق وتبرئة نفسه أمام التاريخ ، كان كل ما يشغل باله - فهو يكتب عبارات الاستنكار هذه للنشر ليس إلا وأيضاً كان يرفض في بعض الاحيان أن ينشغل الجنود بالنهب عن الحرب ، او أن تمزق وحدتهم ، عملية الصراع على اقتسام المنهوبات ، ولكن تعليقاته كانت تتضمن : « أن يأخذ أهل « دمنهور » أخذاً شديداً بمسلحهم ازاء كتيبة الجنرال « ديموي » وتجريد الاهالي من السلاح وأعدم خمسة من اعيان المدينة فيهم واحد من العلماء ممن اشتركوا في الواقعة ، والأربعة الآخرون من المحرضين ، واعتقال خمسة وعشرين رجلاً يأخذهم رهائن فيرسلهم الى القاهرة بطريق النيل » (٥١) ..

لنتذكر دائماً أن نابليون هو أول حاكم لمصر تجرأ على اعدام « العلماء » المصريين . ونابليون هو الذي امر : « اغلظوا العقاب للقرى بصرامة وقسوة » (٥٢) .

« إن الجنرال لتورك جمع الخيول والأموال من جميع القرى المجاورة لدمنهور وأنه ارسل الى الاسكندرية بستين جملاً محملة غللاً مما صدره من البلاد » (٥٣) .

« ولكنه اسرف في التشكيل ولم يفرق بين القرى الثائرة والقرى الآمنة الهادئة ، وأوقع بها كلها نهياً وإحراقاً ، مرّ أولاً « بالظاهرية » - بمديرية

« الغربية » على الشاطئ الغربي لفرع « دمياط » شمال « شربين » وتسمى الضهرية - فوجدها خالية من السكان لأن أهلها اخلوها قبل أن تصل اليها الجنود الفرنسية ، كي لا يستهدفوا للانتقام ، ثم بلغ كفر المياسرة « فوجدها كذلك خالية .. ووصل الى « ميت الخولى » فاستولى الجنرال فيال على المدينة وعلى ما وجد فيها من الاسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع قديمة وأمر جنوده بنهب البلدة وإحراقها . وفي اليوم الذي عاد فيه الجنود الى « دمياط » بعد هذا النهب . كانت مدينة «دمياط» أشبه بسوق او مولد باع فيه الجنود الفرنسية الى الاروام ما نالته ايديهم من النهب والسلب ، فكانوا يعرضون المواشي والطيور والثيران والبقر والخيول والحمير والغنم والدجاج والأوز وكثيراً من قطع الذهب والفضة التي كانت حلياً للنساء » (٥٤) .

« وطلبوا كلفة من ابي زعبل ، فامتنعوا فقاتلوهم وضربوهم وكسروهم ونهبوا البلدة وأحرقوها وارتحلوا الى بلبليس » (٥٥) .

« ولما وصل الجنرال « لانوس » الى « ميت غمر » أراد أن يقتص منها انتقاماً لما حل بالفرنسيين والسفن الفرنسية تجاهاها ، فأمر بإحراقها وتدميرها « حتى لم يبقَ منها حجر على حجر » كما يقول ريبو » (٥٦) .

« بعد ان احتل الجنود دمنهور قتلوا من صادفوه من رجال « المهدي » جميعاً ، ولما كان أهل دمنهور هم أول من اتبع المهدي من سكان البحيرة ، فقد أراد الفرنسيون أن يطبعوا هذه المدينة بطابع الغضب والانتقام فأحرقوا مساكنهم بالنار ، وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والاطفال بحد السيف وفي اليوم التالي كانت دمنهور ركماً من الاحجار السوداء اختلطت بها اشلاء الجثث ودماء القتلى » (٥٧) .

« وذكر الجنرال « لانوس » في رسالة بعث بها من الرحمانية الى الجنرال «دوجا» شيئاً من الفظائع التي ارتكبها في دمنهور قال: «كانت مدينة دمنهور

وأهلها هدفاً للانتقام الجنود ، فقد قتلوا من الاهالي نحو ٢٠٠ او ٣٠٠ وبعد ذلك أمرت بتسليم المدينة لفظائع النهب وسفك الدماء. والآن لم يعد لدمهور وجود ، وقد قتل من اهلها نحو ١٢٠٠ او ١٥٠٠ ماتوا قتلاً او حرقاً .

وفي اليوم الذي وصل فيه كلبهر (كلبير) الى القاهرة ليتولى منصبه الجديد كخليفة نابليون . « قدمت طائفة من المسكر من جهة الشرقية وصحبتهم منهويات كثيرة من بلد عصت عليهم فضربوها ونهبوها ومعهم نحو السبعين من الرجال والصغار وبعض النساء وهم موثوقون بالحبال فسجنوهم بالقلعة » (٥٨) .

أما تعليمات نابليون فكانت : « ان الوسيلة الوحيدة لإخضاع هذه البلاد هي : أصدرنا أوامرنا بأن تقدم لكم كل قرية جوادين من خير الجياد ، وأما قرية لم تفعل ، ومضت خمسة أيام من اعلانها بالأمر ، ضربت عليها غرامة الف ريال. وإن هذه هي الطريقة الفعالة للحصول على خمسمائة من الجياد تسد من حاجتكم . وعليكم عند طلب الخيل ان تطلبوا كذلك عدتها من الركاب واللجام لتتوافر لكم في الحال فرقة من الخيالة. فانها الوسيلة الوحيدة لإخضاع هذه البلاد » (٥٩) .

الفصل الرابع

وثارت مدينتي ..

تنظيم الثورة

أما في القاهرة ، فبعد ما أدت مسرحية .. الدخول بلا سلاح ، وشراء الدجاجة بريال فرانسة دورها في بلبة القاهريين الفترة اللازمة .. بدأ الجنود يقومون بالمهام التاريخية لجيش احتلال قنري :

« وفي كل يوم يتقلون على الجمال والحمار من الامتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك مما لا يحصى ويستخرجون الخبايا والودائع ويطلبون البنائين والمهندسين والخدام الذين يعرفون بيوت أسيادهم بل ويذهبون بأنفسهم ويدلونهم على أماكن الخبايا ومواضع الدفائن ليصير لهم بذلك قربة ووجاهة وسيلة يناولون بها اغراضهم » (١) .

وأحقاد ابناء المهنة الواحدة معروفة ، والدولة التي تزور العملة بخفض قيمتها ، لا تألوا جهداً في مطاردة منافسيها من مزيفي العملة ، الذين يعملون لحسابهم الخاص ، كذلك فإن جيش نابليون الذي شن عملية نهب واسعة النطاق ، شن في نفس الوقت حملة مطاردة لمنافسيه من اللصوص غير الرسميين الذين ساهموا في استغلال الفرصة التاريخية بنهب جانب من بيوت المصريين . ولأن ساري عسكر الفرنسيين كان أقوى تسليحاً وأكثر جنداً من ساري عسكر اللصوص ، فقد تمّ القبض : « على شيخ الجعيدية ومعه آخر وبندقوا

عليها بالرصاص ببركة الازبكية ثم على آخرين أيضاً بالرميلة . وأحضر النهابون أشياء كثيرة من الأمتعة التي نهبوا عندما داخلهم الخوف ودلّ على بعضهم البعض « (٢) .

وتتابعت الغرامات او الفرد على زوجات الغائبين فدفعت السيدة نفيسة زوجة مراد بيك وحدها في إحدى الدفعات مائة وعشرين الف ريال أي ثمن مائة وعشرين الف دجاجة، بالسعر الوهمي الذي حاول الجند خداع المصريين به في الأيام الأولى .

« وزوجة رضوان كاشف كانت صالحت على نفسها وبيتها بألف ريال وثلاثمائة ريال وأخذت منهم ورقة وألصقتها على باب الدار وردت ما كانت وزعته من المال والمتاع عند معارفها واطمأنت » ولكن اطمئنانها كان على غير اساس ، فسرعان ما حضر العسكر ، وجفروا ونهبوا وأخذوا : « صاحبة الدار ومعها جارية بيضاء وأخذوها مع الجوارى السود وذهبوا بهن . فأقن عندهم ثلاثة أيام ونهبوا ما وجدوه بالدار من فرش وأمتعة ثم قرروا عليها اربعة آلاف ريال اخرى . قامت بدفعها وأطلقوها . ورجعت الى دارها » (*) .

واضح ان نابليون كان يفضل أن يتم النهب بالوسائل العصرية اي بالفرد والضرائب والرسوم .. الخ .. ولكن ثورة القاهرة الاولى جاءت تكشف عن التتري المتخفي في ثياب القرن التاسع عشر ..

وإذا كان جميع المؤرخين يتفقون في اعتبار الحملة الفرنسية هي بداية المرحلة الحديثة من المسألة الإسلامية. إلا أن ذلك الاتفاق يقوم في نفس الوقت على خلاف جوهرى بين المدرستن: الاستعمارية والوطنية .. فبينما ترى المدرسة

(*) وفي آخر رواية الجبرتي عبارة يبدو ان بعض سطورها سقط من الأصل فتتبي بقوله : « وحصل بينها (أي بين زوجة رضوان كاشف) وبين مباشرها القبطي منافسة قدّهب وأغرى بها ودلّ على ذلك » (٣) .

الغربية الاستعمارية ، ان الحملة الفرنسية كانت بداية بعث القومية المصرية (بالذات) او بداية ذلك الطريق الذي عبدته بعد ذلك اقدم الانجليز والفرنسيين والاطليان في الوطن العربي ، بحيث تحطمت الرابطة « الدينية » وظهرت الدول العربية ، بقومياتها المتعددة ومؤسساتها « العصرية » . ذلك الطريق الذي قطع فيه « محمد علي » خطوات حاسمة ، وأكمل الحكم « الوطني » منذ عام ١٩٢٤ .

ولكن المدرسة الوطنية ترى في الحملة الفرنسية بداية التحدي الحديث والحاسم الذي واجه الغرب به الشرق الاسلامي . التحدي الذي لم يُجيب عليه الى الآن سواء بسحقه او الفناء فيه .. غير ان هذا التحدي قد استثار عناصر المقاومة في الأمة ، ولو أنه لم يصل بالاستثارة الى المستوى الذي يمكن الأمة من التغلب على التحدي وقهره ومن ثم تحقيق البعث وتخطي حافة الخطر . ولا نجح هذا التحدي في سحق مقاومة الأمة نهائياً .. وما زالت الأمة العربية والشرق الاسلامي كله يواجهان هذا التحدي في نوبات من الانفعال ، وارتفاع مؤقت في حرارة الرفض ، دون أن يصل الى الرفض الشامل والمقاومة الخلافة . وقد شهدنا كيف قابلت الأمة من الاسكندرية الى النوبة ، الغزو الفرنسي بالرفض والمقاومة .. وكيف نكل الغزاة الفرنسيين بمقاومة الشعب مؤكداً بذلك الطابع الاستعماري للغزوة .

والمدرسة الاستعمارية التي تعتبر مقاومة الشعوب المستعمرة « ظاهرة شاذة » تحتاج الى تفسير ، وأحياناً الى تبرير ، تجهد نفسها دائماً في تحليل « اسباب » الثورة .. وآخر سبب تجده طبعاً هو التناقض المحتوم بين الاستعماريين والشعوب .. وهي تحاول دائماً أن تفتش عن سبب لثورة من « لا مصلحة لهم أضررت بالغزو » !.. « فنانليون » فرض الضرائب على الاغنياء ، فلماذا يثور العامة ؟ والفلاح المصري أعفى من السخرة في ظل الانجليز فلماذا يثور ؟ وبالذات في السنة التي ارتفع فيها سعر القطن ؟! لا بد

أن السبب هو ارتفاع سعر القطن .. وما أدى إليه من « بطر »
وتطلعات !

ومنذ « ريتشارد قلب الاسد » الى « هيرولد » لا بد ان تفسر مقاومة
الغزو الغربي بأنها من فعل التعصب الديني .. وهذا التفسير يجب ألا يفزعنا
حتى نسقط في شرك نفيه ، فليس يعيب الامم أن تتعصب لدينها ، وقد
عرض المشايخ على نابليون ان يسلم ، فتدين له الأمة العربية بالطاعة ، فرفض !
ولكن المهم هو ما هي المواقف الاجتماعية والسياسية والانسانية والخلقية التي
تتربط على تعصب الأمة لدينها .. فاذا كان شيوخ الأزهر « يفزون » فرنسا
ويبيدون شعبها لفرض الإسلام عليه بالقوة ، فهذا تعصب يحق للفرنسيين أن
يستكروه ، وأن يقاتلوه .. واذا كان شيوخ « الأزهر » يتعصبون لدينهم
ومن ثم ينادون بقتل وإبادة غير المسلمين من ابناء مصر ، فهذا تعصب بمقوت ،
وكذلك لو جاء من المصريين غير المسلمين . ولكن اذا كان تعصب شيوخ
الأزهر ورجال الكنيسة القبطية ، والعامّة المصريين ، يقود حركة التاريخ في
اتجاه مقاومة الاستعمار الغربي وتحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي .. فهذا هو
الجهاد بمفهوم المسلمين ، وهذه هي حرب التحرير الوطنية المعاصرة التي تسير
الزمن ، وخير ما يفعله المستعمر الاوروبي لكي لا يحترق بنيران هذا «التعصب» ،
هو الابتعاد عنه بالعودة الى وطنه !

ونحن نرى خطأ التفاسير التي تحاول ان تفسر ثورة القاهرة الاولى بأنها
كانت ضد الاصلاحات الفرنسية ، كالزام السكان بدفن الموتى خارج المنازل ،
او هدم البوابات او اجبارهم على تعليق الفوانيس . فان الثورة قد نشبت في
شقي انحاء القطر المصري ، وفي القرى حيث لم تصدر الاوامر بتعليق المصابيح ،
ولم تهدم البوابات ولا نبشت القبور .

والثورة لم تنشب فقط بسبب الضرائب ، فكما يعترف « هيرولد » نفسه
ان الذين قاموا بها هم العامة الذين لا يدفعون ضرائب .

الثورة لم تقم بسبب ازمة اقتصادية بل كما يشهد المؤرخون المعاصرون كان
« الطعام اوفر من العادة ، وهبطت اسعار المواد الاساسية » بل أبدى جندي
فرنسي دهشته من استمرار انخفاض الاسعار رغم وجود عدة آلاف من الجنود
الفرنسيين كمستهلكين من الدرجة الاولى في احدى القرى !

الثورة قامت لهذه الأسباب كلها ، ولكن السبب الرئيسي الذي يجمع كل
هذه الاسباب ، ويتغلب حتى على ما قد يعارضها من عوامل ، هو التناقض
بين الشعوب والاستعمار . فهي ثورة وطنية مصرية مائة في المائة وذلك
لا ينفي عروبتها ، واسلاميتها في نفس الوقت ، ولكنه ينفي السخف القائل
بأنها كانت من تحريض ووعود ممثلي العثمانيين والماليك . فهؤلاء كما يسجل
« الجبرتي » لم يكن ثمة من يأمل جدياً في مساعدتهم ونجدتهم . وقد رأينا تعليق
« الجبرتي » الساخر على نجدة السلطان المأمولة عندما أرسل يطلبها منه ، آخر
ديوان ، فكان تعليق المؤرخ المصري ، قبل وقوع الهزيمة ، بل حتى قبل وقوع
القتال : « أرسلوا يأتون بالترياق من العراق » .. وبعدما اخمدت الثورة
وصدر بيان نابليون لم يعجب « الجبرتي » فيه إلا وصفه الدولة العثمانية بأنها
« المغفمة جهالة » . فهذه دولة لم يكن القادة الحقيقيون للأمة يتوقعون الكثير
من نجدتها . وان كان هذا لا يمنع ان المصريين كانوا يتمسكون « بعلقة الدولة
العلية » حتى ان نابليون حاول أن يمن عليهم بأنه أبقاها لهم .

ولا يمنع ان يشور بين المحاصرين الذين يقاتلون تحت وابل من ضرب المدفعية
« الذي ما كانوا قد عرفوه ، ولا من قبل قد عاينوه » لا يمنع انهم ينادون
خفى الألفاظ ، ويأملون نجدة تصل اليهم من المماليك أو جيش السلطان
فحتى الحرب العالمية الاولى كان الجزائريون الطيبون يأملون وصول اسطول
السلطان ليخلصهم من الاحتلال الفرنسي ، وكان المصريون يتابعون باهتمام انباء
الحملة التركية التي يجري اعدادها في الشام لطرده الانجليز من مصر ، ولا عجب
فلطالما دعى الجزائريون والمصريون للسلطان بالنصر ، وإن كان دعاؤهم

لم يستجب .. وفي سنة ١٩٥٦ سرت في بور سعيد اشاعة بوصول الاسطول الروسي .. ولكن اي مؤرخ يحترم نفسه ينسب مقاومة بور سعيد لتحريض الروس !

فبعكس تفسيرات « هيرولد » لا نجد في ثورة القاهرة ظاهرة غريبة عن سائر الثورات - على الأقل - فيما يتعلق بحمل الجماهير للعبء الاكبر فيها ، ولذلك نستغرب ان يفسر « هيرولد » هذه الظاهرة الطبيعية جداً بأن « الاغنياء والمستنيرين استخدموا الفقراء المتحمسين والمحرّضين مطية لبلوغ هدفهم » .

ربما كان هذا الوصف اقرب للصحة بالنسبة للثورتين الفرنسية والامريكية ، حيث كانت مصلحة الطبقة البورجوازية هي المعنية بالدرجة الاولى ، بينما كانت الدماء هي دماء الجماهير ، الأكثر عدداً ، والأكثر سخاء بدمها عادة ، والأكثر استعداداً للاستجابة لصيحة الاستشهاد .

ومع ذلك فما من مؤرخ يستطيع ان ينكر مصلحة الجماهير الفرنسية او الامريكية في مقارعة الأوضاع التي سقطت ، ولكن مصلحة الجماهير في ثورة وطنية بمستعمرة شرقية أكبر من ان تحتاج لإثبات ، وتنفي كل حديث عن التسخير والمطايا !

ولا شك ان سكرتير « بوسيليج » كان يعيش تحت اوهام هذه التحاليل التي يرددها بعده بمائة وسبعين عاماً المؤرخ الامريكي .. عن العامة الذين لا مصلحة لهم في عداء الاحتلال .. لا بد انه كان واقماً هو والسلطة الفرنسية تحت هذا الوهم عندما كتب : « ان شعور الاطمئنان الكامل يسود جميع طبقات المجتمع بفضل اعتدال حكومتنا » .

وجميع المؤرخين المعاصرين للحملة الفرنسية ، والذين جاءوا بعد عشرات السنين ، يجمعون على وصف جماهير الثورة : « بالزعرنة » و « الفوغائية » و « الدهماء » .. وهذا يؤكد أصالتها !

او كما يقول هيرولد : « ولم يكن هذا الجمع يختلف كثيراً عن الجمع الذي سار الى فرساي في ٥ اكتوبر ١٧٨٩ (قبل تسع سنوات واسبوعين) او الذي جاب شوارع باريس في ٢ سبتمبر ١٧٩٢ وهو يرفع ثديي الأميرة دولا مبال على رؤوس الرماح » .

هل كان هناك تنظيم دبر ثورتى القاهرة، الاولى والثانية؟ بمعنى الاعداد لها وتنسيق حركتها مع الاقاليم ، وقيادة معاركها في القاهرة؟

هذه النقطة لا تقف المدرسة الاستعمارية عندها طويلاً .. لخطورة النتائج المترتبة على اثباتها .. ولكن وثائق الحملة الفرنسية تؤكد وجود هذا التنظيم . « ريبو » يتحدثنا عن لجنة لتدبير الثورة :

« لقد اجتمع الى جانب تدمير الأهالي واستيائهم ، نشر الدعاية الى الثورة ، فكان في الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدبير الثورة تعمل على إثارة الكراهية في نفوس الناقلين » (٤) .

« ويقول نابليون في مذكراته ان الشعب قد انتخب « ديواناً » للثورة ونظم المتطوعين للقتال واستخرج الأسلحة المخبوءة ، وان الشيخ السادات انتخب رئيساً لهذا الديوان » (٥) وذكر في تقريره الى حكومه «الديركتوار» عن ثورة القاهرة ان (لجنة الثورة) كانت تنعقد بالأزهر » .

و « الرافعي » يقرر أن « دعاة الحركة تعاهدوا على الاجتماع ليلة الأحد ٢١ اكتوبر ١٧٨٩ لرسم الخطة الواجب اتباعها : فاجتمعوا وكان عددهم في ذلك الاجتماع ثلاثين ، فاتفقوا رأياً على البدء بالعمل في اليوم التالي ، وأزمعوا اقفال الدكاكين ودعوة أكبر عدد من التجار والصناع للذهاب يجمع كبير من الشاكين الى مركز القيادة العامة لرفع الصوت احتجاجاً على الضرائب الجديدة . وبذلك تحدث في المدينة حركة يكون منها الشغب والهياج فتكون مقدمة للثورة (٦) » .

فالثورة كانت مقررة، والاحتجاج على الضرائب لم يكن أكثر من مبرر أو ذريعة .. وهذا التدبير يدل على مستوى عال في الكفاءة والخبرة ، فان هذا هو الأسلوب الأنسب في تفجير الثورات . وتاريخ القاهرة حافل بهذا النوع من الاحتجاج الذي يبدأ به الاصطدام ، ولكن الجديد في ثورة « القاهرة » انها كانت اول صدام شامل على نطاق المدينة كلها ، وانه اتخذ شكل المقاومة المسلحة الدامية .

هذا التنظيم الذي دبر بكفاءة تفجير الثورة ، أثبت في نفس الوقت كفاءته في كتمان تديره ، وكتمان تشكيكه والمنتهمين اليه ، بل ونجاحه في الاستمرار حتى بعد ضرب الثورة اذا استمر التنظيم ، واستطاع ان يعد للثورة الثانية ، بل ونظم اغتيال القائد العام للحملة الجنرال « كليبر » كما سنرى (*) .

ولا بد ان « ديوان الشعب » هذا ، كان اكبر من الثلاثين عضواً الذين اجتمعوا لتحديد موعد الثورة ، ومن الطبيعي ان تكون هذه اللجنة التي اشار اليها الرافي هي « اللجنة المركزية » او « الديوان المخصوص » الذي

(*) وكان المحروقي يدبر شبكة في القاهرة والدليل على ذلك حادثة أو « كاتنة » - بتعبير الجبرتي - سيدي محمود واخيه سيدي محمد المعروف بأبي دفيه .. الذي كانت تأتيه المراسلات بواسطة السيد « احمد المحروقي » فلما كان في التاريخ (رمضان ١٢١٥ ، مارس ١٨٠١) ورد عليه رسول ومعه جواب واربعه اوراق مكتوبة باللغة الفرنسية وفيها الأمر بتوزيعها ووضعها في أماكن معينة حيث سكن الفرنسية فوزع اثنتين وقصد وضع الثالثة في موضع جمعيتهم فلم يمكنه ذلك الا ليلاً فأعطاهما خادمة وأمره أن يشكها بمسار في حائط ذلك المكان وهو بالقرب من الحمام المعروف بحمام الكلاب (؟) ففعل وتلكأ في الذهاب فأطلع عليه بعض الفرنسيين من أعلى الدار فنزل اليه وأخذ الورقة وقبضوا على ذلك الخادم (٧) .. الخ الكاينة !

يحدد ساعة الصفر والذي يتحتم ان تكون عضويته محدودة ، ولأن نابليون
أعدم ثمانين عضواً من هذا الديوان !

ومن الطبيعي ان تكون قيادة الثورة ، او اللجنة التنفيذية للديوان من
المشايع .. القيادة الشرعية للأمة . لكن عضوية الديوان لم تكن قاصرة على
الشيوخ ، بل على جميع قيادات الأمة ، ولا كانت قاصرة على الرجال كما
سنرى من عقوبات نابليون .

بل ان نقولا الترك ، الذي وان كانت كتاباته لا ترجح كتابات الجبرتي
ولا مصادره، الا ان التزامه أقل، ومن ثم فهو يجاهر على الأقل بما وصلت اليه
قناعة السلطة عن وجود تنظيم دقيق واتفق مسبق لدى غالبية الشعب في
انتظار اعطاء الاشارة فهو يقول :

« في ذات يوم نهار الأحد في عشرين ربيع آخر نزل احد المشايخ الصغار
وكان من مشايخ الأزهر . وبدأ ينادي في المدينة ان كل مؤمن موحد بالله ،
عليه يجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغي لنا ان نغازي في الكفار . وكان اغلب
اهل البلد معهم الأوس بذلك .. اما الفرنساوية فكانوا متغفلين عن ذلك » .

ولفظه « الأوس » التي اختارها « نقولا الترك » تعني في العامية المصرية
أمر متفق عليه مكتوم ، له رمز معين .. مما يؤكد وجود تنظيم وعلى
مستوى جماهيري واسع ، وان كلمة السر كان متفقاً عليها .

ويقول الرافي ان « ديوان » الشعب هذا ، قد نظم حملة دعائية ناجحة
ضد اعضاء الديوان الرسمي « ويتهمونهم بمالأة الفرنسيين حتى لا يستمع
الجمهور لنصائحهم في الاخلاص الى السكينة ، وقد افلحوا في احراج مركز
اعضاء الديوان فأخذت منزلتهم تتضعع في نفوس الشعب » .

وهذا الموقف طبيعي وضروري لكل قيادة جماهيرية ، اذ لا بد لها من
عزل الاجهزة الرسمية ، التي مهما تكن عواطفها ، الا انها بحكم الضغط الواقع

عليها ، يمكن أن تكون عامل مثبط في مرحلة المد الوطني .. لذا وجب كشفها وعزلها ، وتجريدها من كل قدرة تأثير على الجماهير . مع استغلال مراكزها في فترات الجزر لتخفيف وطأة التنكيل .

واهتمامنا بجلاء نقطة التنظيم هذه ، ينبع من اهتمامنا بتحديد دور « الديوان » الشعبي الذي انتخبته الجماهير وقاد حركتها .. لكشف تهاافت التحليل الغربي الذي يثير الضجيج حول الديوان الوهمي الذي اقامه نابليون « لتسكين الفتنة » و«تنظيم مالية البلاد» بما يعمر خزينة الاحتلال . هذا الديوان الذي سزى كيف كان يعامله الفرنسيون ، بل كيف كان يتناول عليه امثال «برطامين ويعقوب وشكراالله» من الاعوان المفضوحين للاحتلال، والذي عوقب على فشله في تسكين الفتنة بحله ، وفرض الغرامات على اعضائه . ورغم ذلك يثير المؤرخون الغربيون وتلاميذهم ضجيجاً حول هذا الديوان الالعبوبة ، لكي يحرفوا الانظار عن الديوان الحقيقي الذي مثل الشعب ونظم « الفتنة » وقادها . مجلس المقاومة الوطنية الذي قاد اول ثورة ضد الاستعمار الغربي ، وقاتل أقوى جيش في العالم - وقتها - ودفع اعضاؤه الثمن باهظاً في اول وأشنع مذبحة استعمارية عرفها الوطن العربي . هؤلاء هم نواب الأمة وقادتها ، وتاريخ هؤلاء هو بداية تطورها الحقيقي ، وليس تاريخ العاملين في شرطة الاحتلال ، الهاربين مع الجيش المنهزم ..

ان الحركة القومية .. اي حركة قومية .. لا يمكن تتبع مولدها وتطورها الا في اطار صراعها ضد القوى الاجنبية التي تخضع هذه القومية لارادتها او تعترض نموها ، وما من بداية شرعية لمولد قيادة هذه القومية الا تلك اللجان الثورية التي تتكون خلال الثورة التحريرية .. لذلك فان الديوان الوحيد الذي يجب اعتباره قيادة الامة ، وممثلاً لتلك الإمكانات التي لا حصر لها ، التي فجرتها مقاومة الاحتلال الفرنسي ، واجهضها حكم « محمد

علي . هو ديوان « الدفاع » الذي تزعم ثورة القاهرة ، والذي اعدم نابليون ثمانين عضواً من أعضائه مرة واحدة مبرراً ذلك : « بأنهم كانوا قوماً ذوي تفكير عنيف متطرف^(٨) » . وهو تبرير مثير من ابن « الثورة » الفرنسية ، ومزعج حقاً للذين يحاولون نسبة اتجاه تحريري لملته في مصر ! وهكذا رد ابن الثورة على « التفكير » العنيف ، للوطنيين المصريين ، « بالذبح » العنيف . ولا شك ان « اللواء » « سولكوفسكي » لو أخطأته بنادق الثوار المصريين ، هو وحرسه الخمسة عشر ، لكان قد ساهم في اعدام أبناء ثورة القاهرة ، وهو « الذي انضم الى حملة نابليون ، واحترف الجندي ، لا لشيء إلا لأنه حسبها معينة له في النهاية على القتال لتحرير بولنده . وكان مثالياً تغلب عليه المبادئ الراديكالية .. ولكن لا مبادئه الراديكالية ، ولا آماله في تحرير بولنده افادته في تحمس حق المصريين في تحرير مصر ، وحق المشايخ في ان تكون لهم نظرة « راديكالية » تتنافى مع قبول الاحتلال الاجنبي .. أبى أن يكون للمصريين نفس الحق ، الذي تطلع هو الى ممارسته ضد الذين يحتلون بولنده . وهذا طبيعي جداً ومتفق الى اقصى حد مع نظرتنا الى طبيعة الثورات الاوروبية والخاصية التي تتميز بها ، وهو عدم قابليتها لعبور للبحر الابيض المتوسط . ولذلك كان الوطنيون المصريون عادلين كل العدل ، عندما القوا يحمته الى الكلاب .. وهو نفس ما كان سيفعله « سولكوفسكي » بالجنرال الذي يحتل وطنه بولنده .

ان « ديوان » هؤلاء المتطرفين « ذوي التفكير العنيف » هو الذي يستحق الاهتمام من المؤرخين ، فالامم لا تولد بمرسوم يصدره قائد جيش الاحتلال ، والقومية لا تبعث خلال احتفال يتلى فيه فرمان قائد جيش الاحتلال بواسطة مترجم وتحت حراسة حراب المحتلين .. اي قومية هذه .. واي مولد مشبوه هذا؟! انما تولد الامم في ساحة القتال ضد عدوها القومي.

مع الثورة

ويبدو ان « ديوان الدفاع » الذي قاد عمليات الثورة، قد سبقت ظهوره، عدة تشكيلات تولت التحضير للثورة ، وإثارة الجماهير ، ويبدو انها كانت تعمل في المراحل الأخيرة بشكل شبه علني مع دقة في التنظيم ، استحال على جواسيس نابليون من امثال برظلمين ويمقوب وشكر الله و « اضرايهم » ، استحال على هؤلاء ان يحسوا أو ينتبهوا الى خطورتها . وحادثة قراءة الفاتحة لنابليون تثبت ان عمليات الاثارة والتجنيد كانت قائمة على قدم وساق ، وان مناقشة قضية الثورة كانت مطروحة على نطاق الجماهير . وان المنظمين والداعين لها كانوا يتمتعون بسرعة خاطر مطلوبة دائماً في منظمي الثورات . وان التشكيل الداخلي كان بنأى عن جواسيس نابليون .

فقد كان نابليون في زيارة مفاجئة للشيخ السادات ، ليسأله عن اخبار شاعت عن منشور معاد ، ولكنه فوجيء - كما فوجئت بدورها - بجماعة متجمهرة من المصريين ولغظ شديد يدور بينهم ، ولم يكن يعلم ، ولا كان له ان يعلم ان ذلك من فعل الديوان الحقيقي - الذي ايقن هو بعد ذلك انه برئاسة مضيفه فأى سخرية ! - « فلما نظروه وشاهد هو جمعيتهم داخله أمر من ذلك فصاحوا بأجمعهم وقالوا بصوت عال : الفاتحة . فشخص اليهم وصار

يسأل من معه عن ازدحامهم ، فلفطوا له القول ، وقالوا انهم يدعون لك .
وذهب الى داره . وكانت نكتة غريبة . وساعة اتفاقية عجيبة كاد ينشأ
منها فتنة « (٩) » .

« اخذت الثورة بونايرت على غرة حين قامت . كان يشعر وهو مؤيد في
الظاهر من اعضاء الديوان ، ومن كبار زعماء المسلمين ، انه من السهل السيطرة
على الفوغاء ولكنه كان في هذا واحماً . واغلب الظن انه لم ينخدع في ولاء
المشايع ، ولكنه كان يعتمد على خوفهم ، وما من ريب في انهم غدروا به فقد
أمسكوا عنه علمهم بالثورة الوشيكة . ولكن من المؤكد انه لم يكن لهم يد
في التحريض على الثورة » (١٠) .

وهذا يؤكد تصورنا لطبيعة التنظيم ، وانه كان جهازاً مستقلاً ومنفصلاً
عن القيادة الرسمية المخبرة على التعامل مع الفرنسيين ، هذه القيادة التي كانت
تعطف على الثورة وتجاوب معها، ولكن حماية الثورة وسلامتها حتمت عزلها
وكتان التعاضيل عنها .

ويقول « هيرولد » : « ان الفرنسيين غفلوا تماماً عما كان يببب لهم » ..
فالأمر لم يكن مصادفة ولا انفجاراً عفويًا بل أمر يببب ويفعل عنه من
يببب لهم ..

ويقرر الرافي « ان طبقات الشعب كلها اشتركت في ثورة القاهرة » ولم
يكذب يبدأ شهر اكتوبر حتى قامت الاضطرابات في الدلتا ، ففي منطقة المنزلة
شن الفلاحون حرباً تشبه حرب العصابات بقيادة حسن طوبار الثري « (١١) » .
« وفي طنطا قام الاهالي بثورة في ٧ اكتوبر » (١٢) . ولكن الرافي يرفض
القول بوجود صلة تنظيمية بين تشكيل القاهرة ، والحركات الثورية التي قامت
خارج العاصمة ، حفاظاً على عفوية وطهارة الحركة .. كما يتخيلها مؤرخ
البورجوازية المصرية :

« والواقع انك اذا استبقت الحركات التي قامت هنا وهناك من أقصى البلاد

الى أقصاها أخذتك الدهشة من تقارب تلك الحركات وتشابهها ، على انه ليس ثمة تدبير ولا اتفاق ، بل هي القاهرة عاصمة القطر السياسية والفكرية ، تغذي البلاد بأفكارها وعواطفها ، وتفيض عليها من أمانيتها وآمالها ، وتشركها في افراحها وأحزانها ، فكأن البلاد مرآة تنعكس عليها صورة القاهرة ، أو كأنها الأفق يتردد فيه صدى نداء العاصمة « (١٣) .

وبهذا التفسير (!) يعتقد الرافي انه يمكننا « ان نفهم الحوادث التي وقعت في الوجه البحري في شهر سبتمبر وشهر اكتوبر من تلك السنة » (١٤) .

وهذا التفسير رغم ادبياته ، وصوره البلاغية ، لا يفسر لنا لماذا تظهر صورة الثورة في المرآة في سبتمبر بينما لم يظهر الأصل الا في اكتوبر!.. وكيف ينطلق الصدى قبل ان ينطق الصوت ذاته؟!.. ولا ما هو العيب في وجود تدبير سابق الا الكراهية البورجوازية المتأصلة للتنظيم .. لأنه يفرض الحضور الدائم للجماهير ، بينما كان الأسلوب المفضل للبورجوازية المصرية هو استدعاء الجماهير عند الحاجة اليها و صرفها فور الاتفاق مع المتجبرين .. على أية حال ان للطهارة البورجوازية مفيدة أحياناً ، فأمانة الرافي تجعله يذكر بعد هذا النفي البليغ للتدبير: « ان وحدات من الجيش الفرنسي انطلقت تفتش القرى التي اشتركت في الثورة وتطالب مشايخ البلاد « بتسليم الرسائل التي وردت عليهم ليلة الثورة ، تدعوهم الى الانضمام لصفوف الثائرين بالقاهرة وشد أزرهم » (١٥) .

كما قبض على « سليمان الشواربي » شيخ الناحية وقيل انهم عثروا له على مکتوب أرسله وقت الفتنة السابقة الى « سرياقوس » لينهض أهل تلك النواحي في القيام ويأمرهم بالحضور وقت ان يرى الغلبة على الفرنسيين . واعدموه بقطع الرأس (١٦) .

كانت هذه هي أول ثورة شعبية تواجه نابليون الذي أختص قبل ذلك وبعد ذلك - بفترة ليست بالقصيرة بمحاربة الاقطاعيين - والأسلوب الذي

واجه به الثورة يدل على ان ابن الراية المثلثة الألوان - كألوان اطباق الرز عند المسيري - لا يتردد في استخدام المدفع في دك حصون الاقطاع والنبلاء، أودك استحکامات « الزعر والرعاغ والجميدية والحشرات والبلضاشات » .. ما دام ذلك ضرورياً لمذ خريطة فرنسا، ولا عجب فإن مجده كله يبدأ باستخدام المدافع في تفريق جماهير باريس ..

« اما بونايرت فقد ثار غضبه وهو في مقر قيادته بقصر الألفي . فأمر مدفعية القلعة المعززة بمدافع الهاويتزر والمورتار، بأن تسدد المدافع الى الجامع الأزهر وما حوله من أحياء هي مركز الثورة » (١٧) .

لم يكن الأزهر الذي صب نابليون نيران الثورة الفرنسية عليه، يمثل فقط القيادة المباشرة لثورة اكتوبر ١٧٩٨ .. بل كان قيادة الامة كلها ، تاريخياً وواقعياً ومستقبلياً. لذلك كان الحقد عليه والتركيز على سحقه مسجداً وجامعة ومجاورين ومشايخاً .. ونفوداً ..

« وبدأ ضرب الأزهر بالقبائل حوالى الظهر واستمر الى المساء وأصدر بونايرت أمره الى الجنرال بون بأن « يبديد كل من في الجامع » (١٨) . « فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر ، وحرروا عليه المدافع والقنبر، وكذلك ما جاوره من اماكن المحاربين ، كسوق الغورية والفحامين » (١٩) .. « وتتابع الرمي من القلعة والكيان حتى تزعزعت الاركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور ، ونزلت في البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل . » والى جانب « الضرب في الميان » استصدر نابليون باسم العلماء بيانات ضد الثورة « الفتنة » تحض « على السكينة والهدوء » . وهي البيانات التي انتقدتها « الرافعي » ورأى انه لا حاجة « الى تبيان ما بها من الاغلاط والعبارات الركيكة والأفكار السخيفة ، فإن مجرد تلاوتها يعني عن البيان .. » وهي مملوءة نفاقاً وسخفاً .. وهو ينشرها « لتعرف منها الفرق

بين موقف كبار العلماء في بياناتهم للشعب وموقف أواسط العلماء في قيادتهم
للثورة .

غير انه يكفيننا مثونة الرد عندما يقول : « ومن الواجب تقريراً لحقيقة
واقعة ان نقول ان هذه البيانات وغيرها مما نشر خلال الحملة الفرنسية على
لسان العلماء قد أمليت تحت تأثير الضغط والإرهاب وهذا ظاهر مما ذكره
الجبرتي عن طريقة تحريرها فقد قال عن البيان الاول « وفيه كتبوا » وظاهر
انه يقصد الفرنسيين بكلمة « كتبوا » كما هو سياق العبارة في الكتاب. وقال
عن البيان الثاني : « وفيه كتبوا » .. وقال عن البيانات التي نشرت باسم
الديوان أثناء الحملة على سوريا : « اجتمع اعضاء الديوان فقرأ عليهم تلك
الرسالة بعد تعريبها وترصيفها على هذه الكيفية وهي عن رؤساء الديوان » (٢٠).
وهو هنا يتفق مع الرأي القائل بأن هذه البيانات كانت تحرر بواسطة
الفرنسيين ومترجميهم ومستشاريهم . ويضيف « الرافي » ان الشيخ « محمد
المهدي » كان يتولى تدبير سجعها وترصيفها بالآيات والأحاديث والحكم :

« ولا يفوتنا في هذا المقام ان نشير الى ما ورد في المراجع الفرنسية من
أن الشيخ « محمد المهدي » سكرتير الديوان كان يتولى صوغ المنشورات التي
يريد نابليون إذاعتها على لسان الديوان في قالب عربي مسجع ، ولعل هذا هو
السبب في امتداح نابليون للشيخ « المهدي » وتفضيله على باقي الاعضاء ، فقال
عنه في مذكراته : « انه أذكى علماء الازهر وأفصحهم لساناً وأكثرهم علماً
وأصغرهم سناً » (٢١) « وقد ذكر الجبرتي عن المنشور الذي أذاعه نابليون على
لسان الديوان عقب عودته من الحملة على سوريا » انه من ترصيف وتنميق بعض
الفصحاء والإشارة هنا الى الشيخ « المهدي » لا محالة ، لأنه باتفاق المراجع
الفرنسية هو الواضع لمنشور « نابليون » في قالبه العربي ، ولأن الثابت في
رسالة نابليون التي بعث بها من « يافا » بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ الى
السيو « بو سيلج » مدير الشؤون المالية بالقاهرة أثناء الحملة على سوريا قوله

فيها : « عليكم أن تأمروا بطبع كل المنشورات التي يبعث بها « فانتور » الى الديوان وان تضيفوا اليها المحسنات والتنميقات التي يرى الشيخ « المهدي » إدخالها عليها وأن تنشروها في أنحاء مصر » (٢٢) « فلم يبقَ شك في أن الشيخ المهدي هو الذي كان يتولى كتابة المنشورات التي يوعز بها الفرنسيون .

لقد اطلنا في كشف حقيقة هذه البيانات ، لأن لنا عودة في هذا الشأن عند نقاش المكانة الحقيقية للديوان الرسمي .. ولكنها - أي البيانات - لم تؤثر في مجرى احداث الثورة ، ولا اهتم بها أحد من الثائرين .. أما عندما انتصرت مدفعية الحضارة الغربية على بقايا أسلحة القرون الوسطى ، وهزمت مقاومة الشعب ، وقتها قام اعضاء ديوان نابليون بدورهم المنتظر وهو التدخل لمنع إبادة الشعب :

« فركب المشايخ الى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره من الرمي المتراسل ، ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال » .

ولكن أترانا نشرح مهمة المشايخ الكبار بأبرع وأوضح من عبارة الجبرتي التي لخصت هذه المهمة في ثلاث كلمات أنهى بها فقرته تلك التي أشرنا اليها فقال :

« ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال . والحرب خدعة وسجال » .

فالجبهة الوطنية واحدة . الشيوخ الصغار يقودون الجماهير المقاتلة ، والمؤذنون ينادون بالجهاد ، والشيوخ الكبار يستترون على الحركة ، ويكتمون أخبارها عن نابليون ويسعون في الهدنة إذا ما بدا أن الثورة ستتحول الى مذبح ، وتبين ان الاستمرار في القتال - في هذه المرحلة - يعني الانتحار ..

ويفهم نابليون هذا المبدأ كما يفهمه المشايخ .. فيقبل الهدنة على الفور .. وإذا كان المشايخ يكتمون نية التربص حتى تتاح فرصة أخرى .. فإن نابليون بتفوق مدفيعته لا يحتاج الى تربص بل يشرع فوراً في الاستفادة من الهدنة لكي يصفى الثورة بتجفيف منابعها : قطع الرؤوس وسلب الأموال . « ولا حرب بغير الرجال والمال » .. « استمر ضرب البنادق الموجه للبطاريات

الفرنسية من مآذن جامع السلطان حسن وقبته طوال العصر. ولما أقبل المساء وأحدثت القنابل فعلها أحدثت ثلاث أورط من المشاة و٣٠٠ فارس بالأزهر. وتقدم رجالها لا يعترض ضربهم وسيوفهم معترض ودخلوا الجامع عنوة .

« وهم راكبون الخيول . وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة . ونهبوا ما وجدوه من المتاع . والأواني والقصاع . والودائع والنخبآت بالدواليب والخزانات . ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها . وبأرجلهم ونعالهم داسوها. وأحدثوا فيه وتغوطوا . وبالوا وتمخطوا . وشربوا الشراب وكسروا أوانيه . وألقوها بصحنه ونواحيه . وكل من صادفوه به عروه . ومن ثيابه اخرجوه » (٢٣) .

نعم ويل للمغلوب . وكانت هذه هي أول مرة في التاريخ يُقتحم فيها الأزهر على هذا النحو ، وتهدر كرامته بهذا الاسلوب البربري الذي لا يشبهه إلا الاحتلال الصليبي لبيت المقدس في القرن الحادي عشر .. ولا يفوقه إلا إحراق الاحتلال الصهيوني للمسجد الأقصى في القرن العشرين .

وفي كتاب « نقولا الترك » ان نابليون رفض الجلاء عن الأزهر ، وأن هذا الاحتلال قد أحدث أثراً فظيماً في الجماهير المصرية وقياداتها (وما زال العامة في مصر حتى الآن يضربون المثل على أبشع ما يمكن أن يقع بقولهم : « الخيل دخلت الأزهر ») .

كان الأزهر كما قلنا هو مركز قيادة وزعامة الأمة المصرية ، ورمز عزتها وسيادتها .. واقتحامه وإهانتته على هذا النحو ، هو أهانة للأمة او اعلان لهزيمتها على يد غاز بربري .. فهو ليس مجرد مسجد .. فالفرنسيون هدموا عدة مساجد وضربوا الأزهر من مسجد السلطان حسن الذي احتلوه وركبوا المدافع في مآذنه .. ولا شك ان الاعتداء على حرمة المساجد آثار المصريين

وأهان مشاعرهم، ولكن الازهر اكبر من ذلك .. وباقتحامه على هذا النحو، سقط كل زيف حاول الغزاة أن يستروا أهدافهم خلفه .. وأصبحوا وجهاً لوجه ضد الأمة .. ضد الشعب المصري .. فمها تكن خسائر ثورة القاهرة الاولى، فإن مكسبها الاعظم، هو كشفها طبيعة الصراع المصري بين الغزاة والأمة ..

وقد سجل « نقولا الترك » ان « الشيخ محمد الجوهري » (وقد عرفنا مكانته وزعامته في الفصل الأول) دخل على نابليون قائلاً : « ما قابلت حاكماً عادلاً كان او ظالماً . والآن قد اتيت متوسلاً اليك أن تأمر بإخراج العسكر من الجامع الازهر . فقبل نابليون رجاءه وأمر بإخراج الجنود من الازهر » ..

رحم الله الشيخ « الجوهري » .. عرف ان كرامة الامة وكرامة رموزها ومقدساتها فوق الكرامة الفردية .. وعرف ان مصر قد احتلها الاجنبي وأصبحت مستعمرة .. وانه لم يعد بالإمكان - كما كان الحال - أن يترفع قادة الشعب عن الحاكمين فيأبون زيارة الحاكم .. وغفر الله للشامتين بنا الذين يعتبرون ان مصر تحررت في هذه الفترة بالذات وبدأت تمارس الحكم الوطني!! وكانت نية نابليون متجهة الى هدم الجامع الازهر فقد أصدر الجنرال برتييه رئيس أركان الحرب تعليمة (وهي صادرة بأمر القائد العام الى الجنرال بون بتاريخ ٢٣ اكتوبر) : « يهدم الجامع الاكبر ليلاً إذا أمكن ، وترفع الحواجز والأبواب التي كانت تسد الشوارع » (٢٤) .

ثم بدأت « العدالة » الثورية الفرنسية في الاقتصاص من « الثوار البلديين »! سواء في القاهرة او في الاقاليم : « بعقوبات رهيبه شرفتنا ورفعنا قدرتنا » (٢٥) . كما وصفها تيري فرنسي !

ومن أجل المزيد من التشريف ورفع القدر أصدر نابليون للجنرال برتييه : « تفضل ايها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع

المسجونين الذين أمسكوا وبيدهم سلاح . فليؤخذوا الى شاطئ النيل بعد هبوط الظلام . ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر » (٢٦) . وفضلاً عن هؤلاء المسجونين ، أعدم في القلعة ثمانون عضواً من « ديوان الدفاع (الذي تزعم الثورة) وهكذا نجد جهراً بالمفوع عن الأبرياء وإعداماً للمعارضين في الخفاء ، وتحت جناح الظلام ، وهي سياسة خليقة بأن تحظى برضى ميكا فيلي » (٢٧) .

واستمرت عملية « التشريف ورفع القدر » فتم قطع رؤوس ستة من المشايخ الذين اتهموا بقيادة الثورة . والمؤرخون الذين يتشدقون بشكليات محاكمة « سليمان الحلبي » . لا يكلفون انفسهم عناء تبرير اعدام هؤلاء المشايخ بلا محاكمة معروفة ولا وقائع .. بل اعدام شيخ طائفة العميان بتهمة القيام بعمل مسلح ضد المدفعية الفرنسية . بل ولا يخجل إمام من أئمة المدرسة الاستعمارية مثل « هيرولد » من تبرير جريمة نابليون ، بأن يخلع على هؤلاء المشايخ أوصافاً تحريضية مثل « لا جدال في ان هؤلاء الرجال كانوا اشد رجال الدين المسلمين تعصباً وتهيجاً للجهاير » (٢٨) .

رجال دين .. متعصبون .. هه !

« وفي الصحف الفرنسية ان المشايخ الذين أعدموا لقيادة ثورة القاهرة الاولى كانوا ستة وليس خمسة كما قال الجبرتي » (٢٩) .

وهذا يعزز الظن بأن الجبرتي كان يفتقر الى المعلومات الكافية عن التنظيم الثوري وأشخاصه .

أما الشيخ عبد الله الشرقاوي رئيس الديوان (كما يعرفه الراقمي) فقد ذكر ان العلماء الذين اعدموا هم ثلاثة عشر عالماً . « ودخلوا بخيلهم الأزهر ومكثوا فيه يوماً وبعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض علماء ونهبوا منه اموالاً كثيرة . وسبب وجودها فيه (اي الأموال) ان اهل البلد ظنوا ان

العسكر لا يدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوا ونهبوا اكثر البيوت التي حول الجامع الأزهر ودثتوا الكتب التي في الخزائن يعتقدون أن بها أموالاً . وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم ، كتباً ومصاحف نفيسة « (*) » .

وكانت هذه هي اول مرة يعدم فيها مشايخ الأزهر كالمجرمين .. اول مرة يتجرأ فيها حاكم على اعدام قادة الأمة .

أما المشايخ الذين اعدموا .. فرغم تباين عواطف الجبرتي نحوهم ، وهو الصادق مع نفسه الى اقصى حد ، الموضوعي في الوقت نفسه .. إلا أن عرضه لتاريخهم ومعلوماته عن شخصياتهم ، تضعنا أمام صفة مشتركة فيهم جميعاً هي : « الجماهيرية » ، بكل ما يحيط بهذه الصفة من مواهب ، وصفات مكتسبة ، وغوغائية في بعض الأحيان ، ان لم يقل البعض ، في أكثرها ! المهم انهم كانوا طرازاً خاصاً من المشايخ يستطيعون مخاطبة الجماهير ، وتحريكها .. بل وتنظيم الجماهير .

فالشيخ « العلامة الفاضل الفقيه الشيخ احمد بن ابراهيم الشرقاوي الشافعي الأزهري » ... كان « يأتي اليه الفلاحون من جيرة بلادهم بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم فيقضي بينهم ويكتب لهم الفتاوي في الدعاوي التي يحتاجون فيها الى المرافعة عند القاضي وربما زجر المعاند منهم وضربه وشمته ويستمعون لقوله ويمثلون لأحكامه . وربما أوقه بهدايا ودرام واشتهر ذكره . وكان جسيماً عظيم اللحية فصيح اللسان ولم يزل على حالته حتى اتهم في فتنة الفرنسيين المتقدمة . ومات مع من قتل بيد الفرنسيين بالقلعة ولم يعلم له قبر » .

أما « الشيخ الإمام العمدة الفقيه الصالح القانع الشيخ عبد الوهاب الشبراوي

(*) « تحفة الناظرين » للشيخ الشرقاوي .

الشافعي الأزهري « فكان حسن الالقاء سلس التقرير جيد الحافظة
جميل السيرة .. حتى اتهم في اثاره الفتنة وقتل بالقلعة شهيداً بيد
الفرنسيس » .

و « الشاب الصالح النبیه الفالح الفاضل الفقيه الشيخ يوسف المصليحي
الشافعي الأزهري .. كان مهذب النفس لطيف الذات حلو الناطقة مقبول
الطلعة خفيف الروح » .

« والعمدة الشهير الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان » .

وهو شخصية ديكنزية او دستوفسكية ، استطاع ان ينظم العميان ،
ويجعل منهم قوة ارهاب تخشى صوتها في القاهرة والأرياف . حتى أصبح
بفضل هذا التنظيم المرعب من « اعيان الصدور المشار اليهم في المجالس تخشى
سقوطه وتسمع كلمته ويقال قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا .. ولم يزل
حتى حمله التفاخر في زمن الفرنسيس على توليه كبر اثاره الفتنة وقتل فيمن قتل
بالقلعة ولم يعلم له قبر » . والى جانب الجوسقي الارهابي نجد الغوغائي :
« الأجل المفوه العمدة الشيخ اسماعيل البراوي ابن احمد البراوي الشافعي
الأزهري كان قليل البضاعة إلا أنه تغلب عليه النباهة واللسانة والسلطة
والتداخل وذلك هو الذي اوقعه في حبائل الفرنساوية وقتل مع من قتل
شهيداً ولم يعلم له قبر . وهو ابن اخي الشيخ عيسى البراوي غفر الله
لنا وله » (٣٠) .

لقد كشفت ثورة القاهرة ودماء الشيوخ ، الحقيقة الاستعمارية للوجود
الفرنسي ، وكشفت عن بربرية ووحشية الغزاة ، الذين طالبوا بأن « جميع
الذين شهدت عيونهم ، الجنود الفرنسيين يستسلمون . كان يجب ان يدموا
دون استثناء (*) » (٣١) .

(*) ويقول « ميرولد » ان دينون (صاحب هذا القول المأثور) كان معروفاً بتسامحه ،
وأنة كان يعبر بقوله عن حالة عقلية سادت وقتها بين العسكريين والمدنيين الفرنسيين .

أحس الفرنسيون المنتصرون ، ان هيبتهم الاستعمارية قد تحطمت . وان الاسطورة التي نسجتها هزيمة المماليك وجبنهم وهروبهم .. زالت بفضل مقاومة شعبنا وتحت قيادة شيوخه . فوقفه الأزهر والأحياء الشعبية أثبتت ان الفرنسيين ليسوا فقط قابلين للقتل ، بل وأيضاً يحبون الحياة اكثر من شرف الراية المثلثة الألوان ، الى حد انهم يرفعون ايديهم ويستسلمون لـ «شوقي مسلم»! يحتلون بلاده ويتفوقون عليه تكنولوجياً .. اذن فهزيمتهم ممكنة وجلاؤهم محتوم ، واستقلال بلادنا بحاجة الى ضربات جديدة مريرة ، ولكنها ضرورية وممكنة ، ومثمرة ، فما لا يزيد ينقص كما يقول « نقولا الترك » : ان الناس « فهموا جيداً .. انه انقطع أملهم (اي امل الفرنسيين) من امداد يأتهم من بلادهم ، فقالوا في ذواتهم نحن نضادهم ونحاربهم ، ورويداً رويداً يخلصون ، لأن الذي لا يزيد ينقص » لذلك اقترح الثوريون الفرنسيون ، اعدام كل مصري رأى السوبرمان الاوروبي في لحظة ضعف واستسلام !

واستمرت عملية « التشريف ورفع القدر » و « بعث القومية المصرية » فكتب نابليون لرينيه يقول : « في كل ليلة نقطع نحو ثلاثين رأساً اكثرها لزعماء الثورة ، وفي اعتقادي ان هذا سيعلمهم درساً نافعاً » (٣٢) .

وكما لم يتعلم نابليون .. لم يتعلم شعبنا فقبل انقضاء عام واحد كان نابليون قد غادر مصر الى غير رجعة ، وكانت مصر قد ثارت ثورتها الثانية الأعنف والأقوى .

وينقل الرافعي عن المراجع الفرنسية ان الكثير من المتهمين قد أعدموا سرأً (بلا محاكمة) بل يثبت الرافعي ان هؤلاء المتهمين قد قتلوا بجد السنك ، (٣٣) .

ولنا ان نتخيل - ان تحملت اعصابنا - كيف تم هذا الاعدام ، وفرصة الاختيار امامنا ليست واسعة ، فالسنكي اما ان يذبح كما تذبح الخراف ، او يقتل طعناً في الجسد حيثما اتفق ، في انسان مدني أعزل أسير في يد جيش

منتصر !!.. بل وهذا المذبوح شيخاً في الأزهر ، او سيدة باسلة هبت تدافع عن وطنها .

انها حالة وحشية وكافية لفضح اي ثرثرة عن دور تحريري او تحضيري لجيش الاحتلال « الثوري » هذا .

قال المسيو « بورين »^(٣٤) سكرتير نابليون الخاص في مذكراته : « سيق المسجونون الى القلعة ، وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثني عشر سجيناً كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتغرق في النيل . واستمر ذلك ليالي عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهن احكام الاعدام الليلية » .

وهكذا نرى ان الدور « التحريري » الذي ينسبه مؤرخو المدرسة الاستعمارية الى جيش الاحتلال الفرنسي بالنسبة للمرأة المصرية ، لم يكن يشمل كفاحها من اجل التحرر الوطني ولا حتى من اجل تخفيف الضرائب . بل هو لا يتعدى خصرها ، وإلا لرحب الحكم الثوري « بانطلاق » المرأة من « عقابها » واشتراكها في الثورة .

واذا فهمنا دوافع جيش الاحتلال والسلطة الحاكمة في اعدام النساء الثائرات .. فأبي عذر وأي منطق يخفي عار من يتصدون اليوم لتزوير تاريخ هذا الشعب فيجعلون من مظاهرة تطالب بفتح الحمامات^(*) ، او الخروج مع العسكر الفرنسيين في ثياب خليعة ، وتهتك خلقي ، بداية حركة تحرير المرأة ! وينغفلون عن عمد ، اشتراك المرأة المصرية في اعمال المقاومة في الريف المصري ، واشتراكها في قيادة الثورة بالقاهرة ، على نحو دفعت معه حياتها ثمناً لهذا الاشتراك . فأعدمت قيادة الثائرات ، بجد السناكي في القلعة ، أو أغرقن في النيل !

(*) راجع لويس عوض : قضية تحرير المرأة .

أين يمكن ان يبحث المؤرخ الشريف عن قيادة الحركة النسائية.. وطلائع تحرير المرأة... في سجن القلعة بين النساء الثائرات ينتظرن الاعدام بسناكي جيش الاحتلال.. دون أن يسجل تاريخ الحملة الفرنسية حادثة انهيار واحدة للمجاهدات الباسلات.. أم يبحث عن هذه القيادة وهذه الطلائع في خمائر أشباه « برطمين » ، وفي فراش جنود الاحتلال يقودهن امثال « يعقوب »؟! على أية حال ان ذلك المفهوم يلقي الضوء على طبيعة مفهومهم « لتحرر » المرأة.. - سنناقش ذلك بالتفصيل - المهم ان هذه السطور ليست الاتحذية عابرة للمجاهدات جداتنا الباسلات اللاتي لم يخفن نابليون ولا جيشه بل اشتركن في تنظيم الثورة وشنها.. يقول الراقعي :

« وقد اسرف الفرنسيون في القتل (بعد اخاد ثورة القاهرة الاولى) ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء ، فقتلوا كثيراً منهن ، وهذا من أفظع ما سمع به من التنكيل وسفك الدماء . »

ومن أجلى المزيد من اعمال التشريف ورفع القدر انطلقت قوات نابليون تنهب وتذبح العرب على طول الطريق من العريش الى عكا ..

فبعد معاهدة لم تحترم مع حامية العريش وبعد سلب ونهب غزة ، وقضاء يومين « مع المسيحيين في الرملة » أتم جيش « غلاة الجمهوريين » فتح يافا بنفس الاسلوب الذي تم به فتح القدس منذ ثمانية قرون ! بل وبنفس الوصف « الشاعرى » الذي تتحدث به كتب التراث اليهودي عن المارك « الظافرة » والاعمال « النبيلة » التي قام بها جيش اسرائيل بقيادة مجرم الحرب يهوه :

« وحالما استولى هؤلاء الجنود البواسل على المدينة ودخلوها أعمالوا السيف في نحو ٢٠٠٠ جندي من الحامية ، كانوا يحاولون التسليم . وراح الفرنسيون يقتلون اعداءهم كالجنانين طوال ذلك المساء كله ، والليل كله ، وفي صباح الغد ، فالرجال والنساء والأطفال والمسيحيون والمسلمون ، وكل من له وجه انسان سقط صريع جنونهم ، كما قال «مالو» ، الذي ما زالت الصفحات التي كتبها

في وصف هذا المشهد البشع تتجاوب بشعور الفزع والحزني .. وفي يافا كان النهب والسلب وشق البطون وهتك اعراض البنات وهن ما زلن في احضان امهاتهن المائتات .

« كل هذا ، وشر من هذا وقع في يافا في ٧ و ٨ مارس .. أما نابليون فكان تعليقه الهادىء : « بلغت سورة الجند قمتها : فأعملوا السيف في كل انسان ، وقاست المدينة بعد نهبها جميع الأهوال التي تقاسيها مدينة مقحمة » (٣٥) .

ونابليون لم يخطيء في اعتبار ما جرى في يافا قانوناً عاماً بالنسبة لسلوك الحضارة الغربية .. ولكننا وبكل تواضع- نرفض اعتبار ذلك السلوك البربري ، قانوناً عاماً للسلوك البشري ، وبالذات ، فإن حضارتنا اثبتت العكس .. حضارتنا عندما دخلت ذات المدن لم ترتكب هذه الأعمال .. وكان الفارق مجرد ١٢ قرناً .. الى الوراء !

وإذا كان ذبح أهل يافا بالسيف لا يستوقف المؤرخين الغربيين كثيراً ، لانشغالهم بما يسمونه « مذبحه يافا » فإن هذه المذبحة بدأت بـ « اثنين من ياوران بونابرت هما « بوهارنيه » و « كروازيه » ، ارسلها « نابليون » الى المدينة ليريا ما الذي يمكن عمله لاعادة النظام الى ربوعها ، وناداهما الجنود والترك من نوافذ القلعة بعد ان تبينوهما من حزاميهما العسكريين . وصاح الترك بأنها على استعداد للتسليم اذا وعدوا بالا يعاملوا كما عومل بقية اهل يافا . وأعطى الشاiban على مسئوليتها تأكيدات شفوية بأن رجال الحامية لن يقتلوا . وعلى هذا الوعد خرج الجنود وسلموا سلاحهم . فلما رأى « بونابرته » ياوريه يعودان مع بضعة آلاف من الاسرى أصفر وجهه وقال ساخطاً « ماذا يريدانني ان أفعل بهم ؟ ما هذا الذي صنعاه » (٣٦) .

وبقية القصة معروفة وشائعة: إذ أمر نابليون بذبح الثلاثة آلاف .. الاسرى العزل .. الذين منحوا أماناً باسم الشرف الفرنسي .. ولكن في حضارة لا تؤمن بأن افرادها « سواسية كأسنان المشط يسعى بذمتهم أدناهم » ..

نفذ « الاعدام بدقة تامة » « ومن المسلم به ان ٢٥٠٠ شخص قتلوا لا لضرورة قاهرة ، بل تحقيقاً لراحة ، واحداثاً لتأثير متمعد . . ويترك لنا الميجر « ديتروا » كشف حساب كذلك الذي نجده في أوراق ربة بيت مدبرة ، أو في دفتر توفير طالب نجيب .. ففي حسابات الميجر الفرنسي نجد هذه الارقام :

في ٧ مارس مات اثناء الهجوم اكثر من ٢٠٠٠ تركي	
في ٨ مارس رمى بالرصاص ٨٠٠ تركي	
وفي ٩ مارس رمى بالرصاص ٦٠٠ تركي	
وفي ١٠ مارس رمى بالرصاص ١٠٤١ تركي ...	
الجملة	٤٤٤١ تركي

وكتب المواطن « بيروس » الى امه :

« ان قيام الجنود الحانقين ، بعد اقتحام مدينة ، والاستيلاء عليها عنوة ، بأعمال السلب والنهب والحرق والتقتيل كيفما أتفق ، أمر تقتضيه قوانين الحرب . والانسانية تسدل قناعاً على هذه الفظائع . ولكن صدور الأمر بعد انقضاء يومين أو ثلاثة على الهجوم ، وبعد ان تهدأ سورة الغضب ، في وحشية هادئة ، يقتل ٣٠٠٠ رجل استسلموا لنا بسلامة نية ! تلك جريمة بشعة ستشجبها الاجيال القادمة ما في ذلك ريب ... ان نحو ٣٠٠٠ رجل القوا سلاحهم ، فسيقوا على الفور الى معسكرنا وفصل عنهم بأمر القائد الأعلى المصريون والمغاربة والاتراك .

« وفي صباح اليوم التالي أخذ المغاربة جميعهم الى شاطئ البحر وبدأت كتيبتان في رميهم بالرصاص . وكان أملهم الوحيد في النجاة هو أن يلقوا بأنفسهم في البحر ، فلم يترددوا ، وحاولوا كلهم الهرب سباحة ، فضربوا بالرصاص على مهل ، ولم تمض لحظة حتى اصطبغ ماء البحر بدمائهم . وانتشرت جثثهم على سطحه . وأسعد الحظ نقرأ قليلاً فوصلوا الى بعض الصخور ولكن الأوامر صدرت للجنود باقتفاء أثرهم في قوارب والاجهاز عليهم . اما وقد تم

اعدام هؤلاء الرجال فقد رجونا صادقين الا تتكرر هذه الجريمة وأن يعفى
الاسرى الباقون من القتل .. ولكن سرعان ما خاب رجأؤنا حين اقتيد
١٢٠٠ مدفعي تركي في اليوم التالي ليعدموا ، وكانوا قد جوعوا يومين امام
خيمة الجنرال بونابرت . وصدرت التعليمات المشددة للجنود بالألا يسرفوا في
الذخيرة ، فبلغت بهم الوحشية ان أعملوا فيهم الطعن بالسنيكي .. وقد وجدنا
بين الضحايا اطفالاً كثيرين تشبثوا وهم يموتون بأبائهم. وسيعلم هذا المثال اعداءنا
انهم لا يستطيعون الركون الى صدق نية الفرنسيين، وسيقع دم هؤلاء الآلاف
الثلاثة الضحايا على رؤوسنا ان عاجلاً أو آجلاً « (٣٧) .

ويكشف « هيرولد » دجل نابليون، والتناقض الصارخ بين اقواله وافعاله
عندما يقول : « كانت فرقة الساحل الرهيبة لا تزال تواصل مهمتها حين
أصدر بونابرت في ٩ مارس منشوراً لأهالي فلسطين يقول فيه « الزموا الهدوء
في بيوتكم .. وانا أضمن سلامة الجميع وحياتهم . وسيكون الدين على الأخص
موضع الحماية والاحترام لأن جميع الطبيبات من عند الله والنصر من عند الله» .
وفي اليوم نفسه كتب الى الجزائر يقول « ما دام الله يهيني النصر فاني أحب
أن أحذو حذوه تعالى فلا أكون شقيقاً رحيماً بالشعب فحسب بل بحكامه
أيضاً » . والخطاب دعوة للتسليم .

« ومن المؤن التي استولى عليها الفرنسيون في يافا ٤٠٠,٠٠٠ جراية من
البسكويت و ٢٠٠٠ قنطار من الأرز . وقد نهب الجنود اكثر من هذا كثيراً
قبل ان يتمكن القومسيير من الاستيلاء عليه ، ولكن الاسرى وجب ضربهم
بالنار لأنه لم يمكن توفير الطعام لهم . » !

« وفي ٨ مارس وهو اليوم الثاني من ايام المذبحة ، ارسل الله - الذي من
عنده تأتي جميع الطبيبات - الطاعون على الجيش الفرنسي وصبه على رؤوسهم
بسخاء » (٣٨) .

ويتساءل مؤرخ سيرة نابليون عن نوعية هذا الرجل الذي « أمر يوماً في

هدوء بقتل ١٠٤١ شخص بالسناكي ليحدث ضرباً من التأثير، وأتى في اليوم التالي بنفس الهدوء عملاً يحجم عنه أعظم القديسين « (يقصد زيارة نابليون لمستشفى الجنود الفرنسيين المصابين بالطاعون وتطوعه لحمل جندي مصاب اصابة فادحة واضحة دون ان يتقزز أو يخاف من العدوى) (*).

اما نحن فلا نجد أي حيرة الا إذا سمحنا لأنفسنا بالدهشة من اقدام المستر « هيرولد » على ذبح الدجاج وصيد العصافير والتهام شرائح اللحم الذي يعرف أنها انتزعت من اجساد كائنات حية ، وترقرق الدمع في عينيه اذا ما رأى طفلاً يتألم من حذاء ضيق ! لا تناقض ولا حيرة .. ان ممثلي الحضارة الغربية لم يحسوا أبداً بأن الكائن الملون مكتمل الانسانية ، ومن ثم فذبحه لم يشكل أبداً جريمة انسانية ! ولا نفى عن الذابحين رقعة مشاعرهم ، ولا شكك في حسن سلوكهم البشري ! بل اننا نجد صورة نموذجية لهذا التفكير الذي يدين قتل الهمج للبشر ، ويفخر بإبادة المتمدينين للهمج ، الذين هم نحن ..

نجد هذه الصورة في مذكرات مدرس ، كهل ، في إحدى قرى فرنسا يصف فيها ، هذا المدرس الفاضل ، ذكرياته في الشرق .. إحدى المعارك التي دارت على شاطئ طبرية ، حيث كان «الهمج» على وشك الانتصار على قوات كليبر ، عندما خف نابليون الى المعركة ، وقلب الوضع ، وحول هذا التطور يكتب « ميديه » في شيخوخة هادئة : « تذكر أيها القارئ - ما قلته لك - إننا كنا نموت ظمأً. ولكن ظمأنا للانتقام أطفالاً ظمأنا للماء، وألهب ظمأنا للدماء .. والواقع اننا رحنا نخوض الى خصورنا مياه هذه البحيرة التي كنا

(*) ابو عبيدة قائد الجيش العربي في الشام رفض كل محاولات امير المؤمنين عمر اخراجه من المنطقة الموبوءة بالطاعون وأصر على البقاء في جنده حتى أصيب ومات به قبل نابليون بألف سنة. فضلاً عن أن أبا عبيدة لم يقتل أسيراً واحداً . ولا أعمل السيف في المدنيين .

نشتهي أن نشرب منها قدحاً قبل لحظات . غير أننا لم نعد نفكر في الشرب . بل في القتل ، وفي صبغ البحيرة بدماء هؤلاء الهمج الذين كانوا يطمعون منذ لحظة في قطع رؤوسنا وإغراقنا في البحيرة التي اغرقوا فيها هم ، والتي امتلأت بجلدهم .

بل لعل هذه التفرقة بين مشاعر الانسان شمال البحر الابيض ، وآلام الانسان جنوبيه ، هذه التفرقة التي تميز الحضارة الغربية ، تحمل الجواب على سؤال هيرولد ، الذي يبدو في تساؤله اكثر سذاجة من سذاجة شيوخ الازهر المزعومة ! .. فهو عندما يناقش واقعة أمر نابليون بتسليم حوالي خمسين جندياً فرنسياً كانوا مصابين بالطاعون وميثوس من شفائهم وذلك قبيل اخلاء يافا ، ولمجز الجيش المنسحب او عدم استعداده لمحلهم وهم يحملون هذا المرض المرعب ، وتجنباً لوقوعهم في يد « الهمج » يتساءل « هيرولد » دهشاً عن اسباب اختلاف المؤرخين حول قرار الإعدام هذا واستنكار انصار نابليون اقدم البطل على اتخاذ مثل هذا القرار .. يقول هيرولد : « من الصعب ان نفهم لماذا أثارت هذه المسألة كل هذا الجدل المشوب ، فحتى لو كان بونايرت قد أمر بقتل بضعة عشرات من مرضى الطاعون الميثوس من شفائهم رحمة بهم ، فلا ريب في أن عملاً كهذا يمكن تبريره اكثر من ذبح آلاف من أسرى الحرب ، وهو ما أمر به في يافا قبل ذلك بعشرة اسابيع » .

ولا مجال للدهشة .. فالجدل مفهوم جداً ، والاستنكار طبيعي من جانب المعلقين الغربيين ، فقرار نابليون المستنكر موجه ضد «الانسان» الغربي ولذلك يتعرض لنقد شديد لتحديد مدى انطباقه على المفاهيم الانسانية . أما القرار الآخر الصادر بذبح ٣٠٠٠ مسلم فهو يتناول الهمج ، الكائنات التي خلقت على هيئة انسان لتسهيل مهمة الانسان الغربي ، الانسان الحقيقي المكلف باستغلال هذه الكائنات وحسن الانتفاع بها !

« أما المسجونون المسلمون في القلعة فقد أنهى بونايرت متاعبهم بجل حاسم

على بساطته: فأمر بين ١٩ و ٢٢ يونيه بأن يرمي بالرصاص أثنان وثلاثون منهم دون اتخاذ أي اجراء قانوني سوى توقيع بونابرت. وكان بعضهم أسرى حرب اخذوا في سوريا، استنفدوا أغراضهم بمجرد أن عرضهم في موكب نصره» (٣٩).

وفي ٢٣ يونيو اقترح ديحا على بونابرت هذا الحل: « بما ان حالات الاعدام تتزايد في القلعة فإني اريد أن اعين جلاداً - يقطع الرؤوس - ليحل محل فرقة اطلاق النار. وفي هذا توفير للذخيرة وتخفيف للضجة ». وأشر بونابرت في الهامش « موافق » (٤٠) .

الفصل الخامس

المؤسسات الاستعمارية

وايش يكون نفعكم ؟

وإلى جانب عمليات الاعدام بالرصاص والسونكي والأكياس المثقلة وخنق السيدات ، وإلقاء الجثث في البحر .. كل هذه الاجراءات التي « تشرف وتعلي القدر » .. كان الاداري نابليون يجرب بعض التنظيمات الادارية التي تضمن ضبط الاهالي وتنظيم اعتصار مواردكم .

فلنقطع تتابع المقاومة الشعبية والتنكيل العسكري لتتأمل هذه المؤسسات التي لم تكن اكثر من أجهزة ، تم من خلالها السيطرة على الجماهير لمنع اخلاها بأمن المحتلين و« تنظيم مالية البلاد » او بعبارة اكثر صدقاً « نهب ثروة البلاد » وهما هدفان كانا من الواضح في ذهن منشيء هذه التشكيلات بحيث لم يهتم باخفاء طبيعتها بل سارت الأمور على هذا الترتيب الذي يعرضه الجبرتي :

« وفي يوم الثلاثاء عدت فرنساوية الى بر مصر ، وسكن « بونابرت » بيت « محمد بك الألفي » وفي يوم الخميس أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقلية عند قائمقام ساري عسكر ، فلما استقر بهم الجلوس خاطبهم وتشاوروا معهم في تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان . وفي يوم السبت اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة ، وهي مقدار خمسمائة الف ريال من التجار المسلمين

والنصارى القبط والشوام وتجار الافرنج أيضاً . فسألوا التخفيف فلم يجابوا فأخذوا في « تحصيلها » (١) .

وهكذا نرى ان الأمر شديد البساطة ، ولا حاجة الى فلسفته وتعقيده بالحديث عن برلمان وتجربة وديموقراطية ... الخ .

أبدأ .. الأمر أبسط بكثير .. الثلاثة عبروا .. الخميس جمعوا المشايخ ، وشكلوا الديوان ، الجمعة عطلة .. السبت طالبوهم بالدرام .. فالتمسوا التخفيف ، فلم يجابوا .. وأجبر « مجلس الأمة » (!) على التنفيذ !!

الديوان اذن ليس اكثر من جهاز لجمع الضرائب والغرامات .

بل ان « الجبرتي » يسجل لنا في واحدة من عباراته البليغة العميقة الايجاء يسجل لنا فهم معاصريه لطبيعة الديوان ، وسلطات اعضائه الحقيقية أو بمعنى أدق حقيقة وضعهم اذ يقول : « فماتم هذا الأمر حتى زالت الشمس فأذنوا لهم بالذهاب » .

ألا توحى هذه العبارة : « فأذنوا » بانهم رهائن أو على أفضل تقدير مجرد موظفين لدى السلطة الحاكمة ، سلطة الاحتلال ... التي تملك ان تأذن لهم بالانصراف ، وتملك في نفس الوقت ان تحبسهم حتى تصل بهم الى حالة مزرية لا يفوت عبقرى أمتنا في ذلك العصر أن يسجلها .

فبعد إخماد ثورة القاهرة الثانية جمع سارى عسكر الديوان « وجلس سارى عسكر على كرسي في وسط المجلس ، وقال كلاماً طويلاً بلغتهم حتى فرغ ، فالتفت الترجمان الى الجماعة ، وشرع يفسر لهم مقالة سارى عسكر ، ويترجم عنها بالعربي ، والجماعة يسمعون فكان ملخص ذلك القول أن سارى عسكر يقول لكم يطلب منكم عشرة آلاف ألف الى آخر العبارة الآتية » .

ثم يقول للهندي عبارة تلخص المهمة الثانية التي قامت من أجلها هذه التشكيلات وهي اخضاع « العامة » لسلطة الاحتلال .. « واذا كان الأمر

كما ذكرتم ولا يخرج من يديكم تسكين الفتنة ولا غير ذلك فما فائدة رياستكم وايش يكون نفعكم ؟ »

ففائدة « رئاستهم » ونفع هذه الرئاسة المرجو هو تسكين الفتنة ، اي اخاد الثورة . ثورة جماهير الشرق المستعبدة ضد رجال الثورة الفرنسية . وجمع الدراهم والاناوات والغرامات من الشعب الجائع الذي لم يجد فرقاً بين نهب المالك ونهب الفرنسيين الا ان الثاني اكثر تنظيماً ودقة ، ومن ثم فهو أقدر على اعتصار آخر قطرة دم ، وان الاول كان ينفق ما ينهبه في الداخل . ثم يتابع « الجبرتي » اعطائنا الصورة الدقيقة والنادرة في براعتها للوضع الحقيقي لهؤلاء الرؤساء :

« فبهت الجماعة ، وامتعت وجوههم ، ونظروا الى بعضهم البعض ، وتحيرت افكارهم ، ولم تزل الجماعة في حيرتهم وسكرتهم ، وتمنى كل منهم أن لم يكن شيئاً مذكوراً . ولم يزالوا على ذلك الحال الى قرب العصر ، حتى بال اكثرهم على ثيابه ، وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان (٢) » .

اي قلم فوتغرافي غير قلم « الجبرتي » يستطيع أن يمنحنا صورة معبرة مفحمة لوضعية « نواب البلاد وممثلي الشعب » . وهم يبولون في ثيابهم .. والايجابي منهم « يشرشر ببوله من الشباك » ! ليس فيهم من يجرؤ على طلب السماح له بالتوجه الى دورة مياه ، رغم ان الحضارة الغربية تمن علينا بأنها هي التي علمتنا نظام المجاري !

غير ان المدرسة الاستعمارية في محاولتها التدليل على الدور الحضاري والتحريري الذي لعبته الحملة الفرنسية تجد نفسها مندفعة في تعداد «الاولات» التي أدخلها الفرنسيون في بلادنا .. فهناك أول « برلمان » وأول « مجلس وزراء » وأول « حكومة مسؤولة » وأول « محاكمة عادلة » وأول « مطبعة » وأول « عزل صحي » وأول « تحطيم للبوابات » .. واول « فيلق من العملاء » .. واول « مشروع للاستقلال » .. اول « طلب للحماية الأجنبية » .. الخ .

وهذه المدرسة تصف هذا الديوان « المحصور » بأنه كان تدريباً للمصريين على النظام البرلماني ومسئولية الحكومة امام النواب وتجربة للحكم الذاتي ... ولا شك انها ان كانت قد فهمت - وهو ما لم يحدث لحسن حظ الديمقراطية - على هذا النحو ، من النخبة المصرية ، فلا شك انها قد تركت أثراً عكسياً ، ونفوراً من هذه التجربة .. وكيف يصدق « التلاميذ » المصريون ان « الحكومة مسئولة امام البرلمان » الذي هم اعضاؤه وهم يرون أنفسهم - ان صدقوا انهم نواب - لا يملكون حتى الحق الطبيعي الذي نالته سائر الكائنات الحية ، وهو حق افراز المواد السامة المتجمعة في الجسم !. وأي قاعة لدرس الليبرالية والديموقراطية وبعث القومية ، تلك التي تحولت الى ما يشبه المراهيض العمومية !؟

غير ان المدرسة الاستعمارية - كما قلنا - تنقسم الى الاكاديمية التي بالخارج ، ومدارس الارشاليات التي تعمل في بلادنا .. فالمدرسة التي تخاطب « الاجنبي » تضطر الى ذكر جانب من الحقيقة .. لذلك نجد « كرستوفر هيرولد » يرفض حكاية « أول » هذه بقوله : « ان موقفاً من المواقف لا يصبح تاريخياً الا لأحد أمرين : اما لأن المشاركين فيه على وعي بأنهم يصنعون التاريخ ، واما بفضل نتائج اعمالهم » .

ثم يطبق هذا القانون الصحيح ، على حالة الديوان الذي جمعه نابليون فور احتلال القاهرة ، والذي شرحنا الهدف من انشاءه فيقول :

« ولو كان النواب الذين حضروا افتتاح الديوان العام الذي عقد بالقاهرة في ٤ اكتوبر ١٧٩٨ يملون انهم يؤلفون اول مجلس نيابي في الشرق الأوسط او لو كانت اجتماعاتهم خلال الأسبوعين التاليين قد تمخضت عن أي نتائج ، لكان هذا الموقف تاريخياً » .

فعميد المدرسة يعترف ان الموقف لم يصبح تاريخياً ، فلا نتائج أعمال الديوان ، ولا الذين شاركوا فيه كانوا على وعي بأنهم يصنعون التاريخ ، بل لقد رأينا كيف سجل الجبرتي

نظرتهم الى هذا الديوان ، وستناقش اسباب قبولهم لعضويته . وما حاولوا تحقيقه خلال هذه العضوية ، بل ونحن نذهب الى ان نابليون نفسه رغم كل مواهبه في تخيل نفسه كصانع للتاريخ ، ما كان يؤمن ولا يهدف الى اقامة حكم نيابي في مصر . والاحتلال الفرنسي حكم المغرب العربي منذ احتلال الجزائر الى استقلالها (١٨٣٠ - ١٩٦٢) اكثر من قرن وربع قرن فلم يقم حكماً نيابياً . والاحتلال البريطاني حل مجلس النواب الوحيد والأول من نوعه في الشرق كله ، فور احتلال مصر .

ومن المؤلم ان نجد أنفسنا في حاجة الى مناقشة عداء الاستعمارية الغربية للنظم النيابية في المستعمرات ورفضها قيام ممثلين حقيقيين للأمة . وخاصة في مراحل الغزو الأولى حيث يجري عزل الطبقات الحاكمة ، وحيث لم يكن الوقت قد اتسع بعد لفرض طبقات جديدة موالية قابلة وقادرة على التعاون .

ويعترف « هيرولد » نفسه بان الاجراء المالي الوحيد الذي أقترح هو فرض ضريبة على العقارات في المدن^(٣) . ويقول ان نابليون بعد ما أحس بعجز الديوان عن تحقيق هدفه . أعطته الثورة التي قامت أثر ذلك ذريعة لحل الديوان . فلما أعيد تشكيله بعد شهرين ، لم يبق له من أهميته الأولى غير ظلها.. ولما كانت مصر لم تنضج بعد لتقبل ما يجلبه الحكم الفرنسي من اصلاح ومزايا . لم يكن بد من كسب رضى الشعب بطرق أقل مباشرة فما داموا لا يحترمون غير القوة فيجب ان يحكموا حكماً حازماً^(٤) .

وهذه هي العبرة التي استخلصتها كل قوة احتلال عبر التاريخ كله ، فما من شعب على طول تاريخ الاستعمار . أثبت انه يتقبل «اصلاحات» المستعمرين وانه يستطيع ان ينفذ هذه « الاصلاحات » طواعية وبواسطة ممثليه . بل يتحتم أن يتجرعها بالسيف والمدفع والسوط . واذا كانت شخصية نابليون المنتفخة بالعظمة والاستاذية ، وايضاً لأنها كانت اول تجربة للغرب في العالم

العربي .. جعلته يفكر في تجربة دغدغة مشاعر « الوطنيين » بلبس عمامة ،
وامسك مسبحة وتشكيل ديوان ، فقد كان رد الشعب على « دجله » قاسياً
وعنيفاً، أجبره على ان يكشف عن أنيابه وان يتصرف كما تصرف الاسبان مع
سكان العالم الجديد قبل الثورة الفرنسية بقرنين .

ولقد حاول نابليون ان ينتزع الاعتراف بشرعية احتلاله .. بتشكيل
الديوان ، ثم باستصدار فتوى من المشايخ « أريد من الأزهر أن يصدر فتوى
تأمر الناس بأن يخلعوا عيين الطاعة لي » ورغم ان المشايخ كانوا يعلمون انهم
جميعاً - كما قال الجبرتي - « في القبضة مأسور » الا ان عملية التدجين
والافساد التي تولاها « محمد علي » وخلفاؤه لم تكن قد أنجزت بعد . فكان
المشايخ يحتفظون ببقية من صلابة الاسلام : « فأصفرت وجوههم لهذا الطلب
فأنابت برعب دفين . ثم غلبهم الوجوم والارتباك . وطلب الشيخ الشرقاوي
كبير علماء الأزهر ، الكلمة ، وقال بعد ان استجمع شجاعته ، انك تطلب
رعاية الرسول الذي يحبك ، وتريد العرب المسلمين ان ينضوا تحت رايتك
وترغب في استرداد أجداد العرب . وأنت لست مشركاً ولا وثنياً ، فاعتنق
الاسلام اذن . لأنك لو فعلت لبادر الى الانضواء تحت لوائك مائة الف
عربي من بلاد العرب ومن مكة والمدينة ، ولاستطعت - وانت قائدهم
ومنظمهم - ان تفتح بهم الشرق وتسترد وطن الرسول بكل أجداده ، فلما
قال هذا علت الابتسامات وجوه الشيوخ ، وركع الجميع ضارعين الى الله
أن يسبغ عليهم حمايته . وكانت الدهشة هذه المرة من نصيب الجنرال (٥) .

لا نظن ان هناك منطفاً اكثر انصافاً من منطق الشيخ الشرقاوي هذا ..
بل ان كل النظريات التي تحاول ان تنسب لنا الموقف الديني ، تنقلب على
مفسرها بهذه الواقعة. فنابليون هنا هو الذي يرفض هذا العرض السخي الذي
يحقق له جميع آماله سواء الامبراطورية ، أو الاصلاحية ، ويمكنه من بناء
مجده الشخصي أو تحقيق رسالته الانسانية.. كيفما اختار! ولكنه رفض لسبب

واحد .. هو سبب ديني، رغم كل علمانية الثورة الفرنسية ! فلماذا يختص شيوخ الأزهر باللوم لرفضهم اغراءات نابليون واصرارهم على مقاومته لنفس السبب الذي جعل نابليون يرفض اغراءات الشيوخ ... وهو رفض التخلي عن الدين الموروث !

ربما يقال ان نابليون كان يحاول بناء امبراطورية عربية بسواعد العرب المسلمين، دون ان يغير دينه، وانه كان يحاول ان يثبت ان الامبراطور المسيحي .. يمكن ان يحكم الشرق دون ان يمس الدين المسيحي أو تقاليدته ، تماماً كما كان يحاول ان يعلم المسلمين انه من الممكن ان يسايروا الحضارة الغربية ، وينضوا تحت لواها دون أن يمس الدين الاسلامي وتقاليدته . ويمكن أن نقول بدورنا ان نابليون والمسلمين اقتنعا باستحالة ذلك .

التفسير الاستعماري

فاذا انتقلنا الى التفسير الذي تروجه المدرسة الاستعمارية في بلادنا منذ أول محاولة لكتابة تاريخنا الى ان تتبلور هذه المدرسة بوضوح في المقالات الصحفية التي نشرها « لويس عوض » .. فاننا سنجد الألقاب تخلع بغير حساب على التشكيلات التي أقامها الاحتلال الفرنسي! ...

« فلما أصدر بونابرت مرسومه في ٢٥ يوليو ١٧٩٨ بتشكيل أول مجلس للوزراء عرفته مصر من علماء الأزهر » (٦) .

اما « الشيخ محمد المهدي، فقد اختير سكرتيراً عاماً لمجلس الوزراء » (٧) .
« والمرة الاولى التي يرد فيها اسم الجبرتي وزيراً، هي في تشكيل الديوان بعد مقتل كليبر » .

« كذلك لم يرد للجبرتي اسم في تشكيل البرلمان الاول الذي انشأه بونابرت » (٨) .

ولا شك ان « الديوان » كان موجوداً في مصر قبل الحملة الفرنسية ، وبصرف النظر عن أي جدل حول مدى تمثيله للشعب أو نوعية السلطة التي كان يمارسها، فان البحث إذا ما جرى وراء الاسماء، لرجحت كفة « ديوان »

المالِك على « دواوين » نابليون .. فلماذا هذا الإفراط في خلع الاسماء والصفات .. « أول برلمان » « أول مجلس وزراء » « وزير » .. « سكرتير عام » !
كان في مصر قبل الحملة الفرنسية ديوان دائم هو الديوان الذي يتشكل من الوجاقلية (*) أو رؤساء الفرق ويكون « مجلس شورى الباشا المسمى بالديوان » وإذا كان ثمة مقارنة يمكن ان تعقد بين الديوان العثماني ، والديوان الفرنسي أو كان ثمة مجال للحديث عن المجالس النيابية فإن الحقائق التاريخية في صف ديوان العثماني :

« ولهذا الديوان سلطة كبيرة في ادارة الحكومة ، لأن الباشا (الوالي) لا يستطيع أن يبرم أمراً الا بموافقة اعضائه ، واذا وقع خلاف بينه وبينهم يؤجل البت فيه الى ان يرفع الى الاستانة ولهم أن يطلبوا عزله ، فكانت سلطة ضباط الفرق بمثابة رقابة وأشراف على سلطة الوالي » (١٠) .
وبهذا الوصف يصبح الديوان العثماني ، سلطة برلمانية حقيقية ، تعادل سلطة أرقى البرلمانات المعاصرة ، فهو له حق الفيتو على تشريعات الوالي ، بل وحق طلب عزل الحاكم .

واذا أغرتنا لعبة الألفاظ فاننا نلاحظ تطور هذا « البرلمان » على النحو الذي تطورت اليه كل المجالس النيابية .

فقد « انشأ السلطان سليمان بدل مجلس شورى الباشا ، ديوانين ، الاول الديوان الكبير ، والثاني الديوان الصغير ؛ فالديوان الكبير مؤلف من رؤساء الفرق (اغاواتها) ودفتردارها وروزنامجيتها وأمير الحج وقاضي مصر

(*) ويؤكد الرافي ان هذه الوجاقات أو الفرق العسكرية التي كانت تشكل القوة الحاكمة لم تستمر تركية بل يؤكد انها: « بعد ان استقرت في البلاد انتظم فيها كثير من المصريين ودخلوا في عدادها فصار لها صبغة محلية وبخاصة بعد أن انصرفت تركيا في عهد تقهرها عن ارسال الجنود الى مصر فسد المصريون على قوالي السنين ، الفراغ الذي حدث في صفوف الحامية العثمانية ، ومن بقي منها استوطنوا مصر واندجت سلالاتهم في أهلها » (٩) .

ورؤساء المشايخ والأشراف . ورؤساء المذاهب الأربعة . ولهذا الديوان سلطة البت في شئون الحكومة الرئيسية . وله نقض أوامر الوالي .

وهكذا نجد ان كل التغيير الذي أحدثه نابليون هو استبدال رؤساء الفرق الفرنسية برؤساء الفرق التركية والمصرية وازافة نصارى الشوام والأروام وبعض المواطنين غير المسلمين .. أيساوي هذا كل تلك الضجة التي تثار حول « البرلمان الأول » ؟!

أما الديوان الصغير فكان ينعقد يومياً .. وكان الباشا يحضر جلسات الديوانين من وراء ستار . وللتسلية يمكن ان نشبه ذلك بتحريم الدساتير على الملك حضور جلسات مجلس الوزراء او البرلمان ! ولكنه كان ملزماً « بتنفيذ قرارات الديوانين » .

وأين من ذلك الوصف الهزلي للديوان المعتقل والذي لا يستطيع أعضاؤه تجنب التبول على ثيابهم !. من اجتماع ديوان مصر المستقلة الذي بهر نفس قنصل فرنسا المسيو « دي مايليه » الذي لم يكن قد رأى حتى ذلك الحين (١٦٩٢) اجتماعاً مماثلاً في فرنسا .. فقال : « ان ديوان القاهرة أكثر أهبة من ديوان الاستانة .. وقد رأيت بقاعة الديوان نحو أربعة آلاف شخص مجتمعين وبعد تلاوة أمر السلطان وبيان الباشا ، صاح هذا الجمع بأن السلطان قد مُخدع . وانه من الواجب رفع الحقيقة اليه .. وانتهى الاجتماع بحسم الخلاف على طريقة رضيناها ورضوا عنها » (١١) .

فاذا كان الحديث عن مجالس تراجع قرارات الحاكمين فقد رأينا ان مصر لم يكن أول عهدها بهذه المجالس تلك التنظيمات التي شكلها نابليون، ولا كانت هذه التشكيلات تملك أي سلطة حقيقية ولا نظرية في عهد الاحتلال الأجنبي .. وكيف يمكن تصور سلطة شعبية في ظل المستعمر ؟!

اما المدرسة الاستعمارية التي يمثلها « لويس عوض » فتري ان : « الديوان

العمومي المكون من ستين عضواً ، وهو أول مجلس نيابي عرفته مصر في العصر الحديث .

« والديوان الخصوصي المختار من بين أعضائه والمكون من أربعة عشر عضواً ، وهو أول مجلس وزراء عرفته مصر » (١٢) .

« أما عن موقف الشعب المصري من الحكم النيابي ، فقد بين الجبرتي فرح الشعب بعودة الديوان بعد تعطيله ، بما يدل على أنه برغم وجود رأي عام متطرف يرى في هذه الواجهة من الحكم المصري مجرد أدوات يمارس بها الفرنسيون السلطة المدنية في البلاد ، فقد كان هناك أيضاً رأي عام لا يقل عنه تبلوراً يؤمن بأن الحكم النيابي مجن يقي المصريين الكثير من بلايا الاستعمار الفرنسي ، ويحاول تقليم أظافره والحد من سلطاته المطلقة » (سنترك التعجب الى نهاية الاقتباس) يقول :

« وحتى في البيانات التي كان يصدرها الديوان لتهدئة الخواطر الثائرة ، كانت هناك أسس للحكم استخلصها الزعماء المصريون من بونابرت وخلقائه ، ففي البيان الذي أصدره الديوان الى الشعب المصري بتاريخ ٨ جمادى الثانية ١٢١٣ (١٧٩٨) لتهدئة الخواطر . وهذا يدل على ان العلماء ، قبل اصدار هذا البيان قد اشترطوا العمل بجملة مبادئ أساسية للحكم ، واستخلصوا من بونابرت تمهداً بها وهي احترام الدين وعدم المساس بأحكام الشريعة واقامة العدل والغاء مظالم المماليك (المماليك !؟) واقتصار واجبات المصريين إزاء الدولة على دفع الضرائب .

والمنشور الذي يتحدث عنه صدر والديوان معطل في أعقاب ثورة القاهرة الأولى حيث « بطل الاجتماع بالديوان المعتاد » (١٣) .

يقول الجبرتي : « وفي يوم الخميس ١٦ ربيع الثاني ١٢١٣ أهمل أمر الديوان الذي يحضره المشايخ بيت قائد أغا . فاستمروا أياماً يذهبون فلم يأتهم أحد فتركوا الذهب فلم يطلبوا » .

ولم يصرخ عضو : « لن ننصرف إلا على أسنة الرماح » لأن ما من أحد كان يريد البقاء أصلاً . ورواية الجبرتي عن المنشور لا تترك مجالاً لمثل هذا التفسير الذي يطرحه « لويس عوض » فالجبرتي يقول : « وفيه كتبوا (أي الفرنسيين) عدة أوراق وأرسلوا منها نسخاً للبلاد وألصقوا منها بالخطاط والاسواق وذلك على لسان المشايخ أيضاً ولكن تزيد صورتها عن الأولى وصورتها الخ .

والجبرتي لا يلقي الكلام على عواهنه فهم الذين كتبوها وألصقوها ووزعوها على لسان المشايخ ، وسياق الكلام يؤكد ان المشايخ لم يطلعوا عليها قبل أي مصري آخر ، فضلاً عن ان يكونوا قد استئنذوا في اصدارها أو توقيعها ، ودعنا من الهذر الذي يزعم ان مساومة أو مفاوضات قد جرت بينهم وبين السلطة المحتلة وانهم اشترطوا التعهد بكذا وكذا . . وقد استعرضنا رأي المؤرخين الذي أكدوا ان كل صلة المشايخ بهذه البيانات لا تزيد عن استخدام اسلوب الشيخ « المهدي » في بعض الأحيان « لاضافة المحسنات » ! ونمضي مع مؤرخ المدرسة الاستعمارية(*) : « وبتحليل نصوص هذه الملصقات نخرج بنتيجتين على غاية قصوى من الأهمية : أولاهما ان هذه المجالس النيابية والتنفيذية المصرية كانت لها سلطة اصدار القوانين فيما لا يمس السياسة العليا . وثانيها ان بونابرت كان يعد نفسه (شكلياً) مسئولاً أمام (محفل الديوان) المصري بمثل ما كان مسئولاً فعلياً أمام حكومة الادارة أو المؤتمر الوطني في بلاده ، فكان يقدم التقارير للديوان أولاً بأول عن أعماله وتحركاته وانتصاراته وانسحاباته العسكرية بتفصيل شديد ، بل لقد سمى في تقرير مشهور له جيشه المحارب في سوريا باسم (جيش مصر) . وتحدث عن انتصار هذا الجيش تحدته عن انتصار الجيش المصري(**) . ولا شك ان مراعاة بونابرت ان

(*) لويس عوض .

(**) لا جدال في المهانة الفكرية التي تصيب جيلاً بأكمله نتيجة قراءة هذا التحليل !

يحافظ على هذه المسؤولية الشكلية أمر يلفت النظر حقاً » .

« وبهذا يكون قد استجد في مصر تقليد دستوري أساسه ان يقدم القائد مباشرة أو عن طريق نائبه تقريراً عن نتائج أعماله العسكرية الى « محفل الديوان » قبل نشرها على الناس . ومن العبث ان نظن ان هذه التقارير كانت تقدم سواء لمجرد « العلم » أو للتصديق عليها ، فكلما الفرضين يقوم على التعسف (*) وانما كانت تقدم كعرف دستوري شكلي يتضمن اعترافاً شكلياً بشخصية الديوان العمومي على انه سلطة نيابية شرعية وانه حلقة وصل بين السلطة العسكرية والشعب المصري . وفي كثير من الاحوال كانت هذه التقارير المقدمة الى البرلمان لا تنشر مباشرة ولكن تصدر في صورة بيان يصدره (محفل الديوان الكبير) للشعب المصري (١٤) » .

« ومن التقارير المؤكدة للصفة النيابية للديوان العمومي ، التقرير الوارد من السلطات الفرنسية الى هذا الديوان بشأن الاعمال الحربية في ابو قير . وهذا النص يؤكد أيضاً مسؤولية الجيش أمام البرلمان من ناحية الشكل والتنظيم الدستوري ، وهو وضع مشابه للاوضاع في فرنسا ذاتها بعد الثورة الفرنسية !!

« وأهم من هذا مبدأ « نشر » القوانين والاحكام كشرط نفاذها باستعمال الملصقات في الميادين وعلى رؤوس الشوارع والحواري ، لعدم وجود « جريدة رسمية » وقتئذ وكبديل لنظام المنادي الذي لم تكن العصور الوسطى تعرفه . فقارىء الجبرتي يرى بكل وضوح أن عملية النشر هذه لم تكن قاصرة على البيانات أو الانذارات السياسية أو العسكرية بل كانت تشمل أيضاً وبصفة أساسية القوانين واللوائح والاحكام (١٥) » .

يحاول ان يوهنا ان هذا النشر هو المقصود حالياً بعدم سريان القانون إلا

(*) (! ? ! !)

من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية ! وهذا هو التعسف ، لأن الفرنسيين قد استخدموا اسلوب المنادين ، واستفادوا من المطبعة في اخطار المواطنين بقوانينهم أو قراراتهم . ومن قبلهم منذ عهد « خوفو » كان لا بد من اعلان القانون على الناس لكي ينفذوه ، ولا نعرف أمة قد اكتشفت وسيلة أخرى لتنفيذ القانون دون العلم به . ولكن الزعم بأن هذا شرط دستوري يمكن الطعن على أساسه في شرعية القانون هو زعم لا أساس له من الصحة ، ومجرد شقشة ولغو ، تماماً كالقول بأن الفرنسيين قد حملوا الى مصر مبدأ مساواة المواطنين أمام القانون ، استنتاجاً من اصدارهم قانوناً يحتم على كل صاحب خمار أو وكالة بالتبليغ عن الغرائب الذين يقيمون عنده !.. واضح طبعاً وكما قال الجبرتي ، ان الهدف كان ضبط الغرائب الذين يخشى من نشاطهم. ويستحيل طبعاً ان يستثنى الفرنسيون من هذا القانون إذ يفقد مفعوله ، من وجهة نظر المسؤولين عن الأمن . إذ تصبح خمارات الفرنسيين ووكالاتهم ثغرة خطيرة ينفذ منها الغرائب .. فالحرص على إلزام الجميع بهذا الأمر لا يعكس أبداً الايمان بمبدأ المساواة ! ولا شك انه أجهد نفسه ليجد مثلاً آخرأ يؤكد هذه المساواة ولكنه لم يجد ! لكنه لم يجهد نفسه ليقدم لنا مثلاً لعدم مساواة المصريين أمام القانون قبل الحملة الفرنسية ! حتى يحمل الينا المحتلون هذا المبدأ كما حمل الاسبان مرض الزهري الى أوروبا عند عودتهم من العالم الجديد !

أما وصف بيانات نابليون للشيخ ، بأنها اعتراف بمسئولية نابليون امام الشيخ، وانه كان يسمي جيشه جيش مصر!! فهو خروج بالمناقشة عن حدود الجدية تماماً .. فهذه البيانات التي كانت ترسل الى الديوان لم تكن تفترق في شيء عن البيانات التي ينادي بها المنادي في شوارع القاهرة، وأزقتها ، وتشبه في غايتها وصحتها ، بلاغات اذاعة الشرق الأدنى وصوت الحق ، ورايو اسرائيل خلال حربي ٥٦ و ١٩٦٧ .. أو المنشورات التي وزعها الانجليز خلال

احتلال مصر سنة ١٨٨٢ أو خلال الحرب العالمية الاولى ، بيانات متصلة بالمجهود الحربي والحرب النفسية ..

اما البيانات الحقيقية التي يصح نسبتها الى الاحساس بالمسئولية والمحاسبة فهي تلك التي تضمنتها «المكاتبة» التي أرسلها « بونا برته الى الفرنسيين المقيمين بمصر يقول فيها ان الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سبباً» .

وعبقرية مؤرخنا تتجلى في اتصالاته العجيبة (*) ، التي مكنته من الالماس بالخمسة عشر سبباً كاملة ، وهي تختلف تماماً عن الهذر والدعاية الساقطة « بتفصيل شديد » التي يتضمنها البيان الاول الذي يتحدث عن تدمير عكا وهروب أهلها الى البحر ..

ولم يجد الجبرتي ما يعبر به عن احتقاره لهذا المنشور أبلغ من أن يتبعه مباشرة بنشر الوثيقة المفترض انها سرية للغاية ، والتي لو كان لدى نابليون أي

(*) وأعجب من ذلك ان الجبرتي كان ملماً بالخلافات داخل القيادات العليا لجيش الاحتلال ، فهو يروي تفاصيل الخلاف الذي دار بين القيادة العليا الفرنسية في الاسكندرية.. والرواية في جوهرها متفقة مع ما اثبتته المصادر الفرنسية بصرف النظر عن عباراتها : « وفيه سمع وقفل عن بعض الفرنسيين انه وقع الحرب بين الفرنسيين والانكليزية . وكانت الهزيمة على الفرنسيين وقتل بينهم مقتلة كبيرة . وانحازوا الى داخل الاسكندرية ووقع بينهم الاختلاف واتهم منوساري عسكر رينه وداماص . ورايه منها ما رابه . وكانا سبباً لهزيمة فيما يظن ويعتقد فقبض عليها وعزلها من امارتها . وذلك ان رينه وداماص لما ذهبوا على الصورة المتقدمة ونظر رينه وأرسل من كشف على متاريس الانكليز فوجدها في غاية الوضع والاتقان فاجتمعوا للمشورة على عاداتهم وديروا بينهم أمر الحاربة فرأى ساري عسكر منو رأيه . فلم يعجب رينه ذلك الرأي . وان فعلنا ذلك وقعت الغلبة علينا . وانما الرأي عندي كذا وكذا ووافق على ذلك داماص وكثير من عقلائهم . فلم يرضى بذلك منو . وقال انا ساري عسكر وقد رأيت رأيي فلم يسمعهم مخالفته وفعلوا ما امر به فوقعت عليهم الهزيمة وقتل منهم في تلك الليلة خمسة عشر الفاً وتنحى رينه وداماص ناحية ولم يدخلوا في الحرب بعسكرهما فاغتاز منو ونسبها للخيانة والهامرة عليه وتسفيهم لرأيه » .

احساس بالمسئولية امام المشايخ لاهتم بتبليغهم ولو بسبب من الاسباب الخمسة عشر! ولكن نابليون ذاته ما كان يصل في دجله الى حد اعتبار تسمية جيشه « جيش مصر » انه اصبح جيشنا الوطني ! وانه مطالب بتقديم كشف سير الحملة الى المشايخ ! ولا حول ولا قوة الا بالله من هذا التفسير الذي يحمل مشايخنا مسئولية الحملة على سوريا وما جرى فيها من أهوال ومذابح اشهرها مذبحه « يافا » الخسيسية . انظروا كيف أرخ الجبرتي بوعي من يفضح الزيف ، ويسلح المستقبل بالقدرة على التقييم الصادق للماضي .. فبعد عبارة « الوجه للأهالي » ، يورد نص بيان نابليون المتسم بالاستهتار بعقليتهم والذي يبلغ فيه « نابليون » « النواب » : « ومحقت سراية الجزائر وسور عكا وبالقتل هدمت البلد ما ابقيت فيها حجراً على حجر » يتابع « الجبرتي » بوقار العلماء : « ولما عجز الفرنسيون عن أخذ عكا وعزموا على الرجوع الى مصر . ارسل بوناپرتة مكاتبة الى الفرنسيين بمصر يقول فيها ان الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سبباً » (١٦) .

وبعضها أسباب متفق عليها في جميع الدراسات التي تؤرخ هذا الفشل البوناپرتي ، وبعضها يوحي ان الجبرتي قد أطلع على ترجمة أو أخبر بمعلومات عن هذه الوثيقة ، معلومات دقيقة الى أبعد حد .

على أية حال لم يكن المشايخ غافلين عن حقيقة الاوضاع ، ولا كانوا في وضع يسمح لهم بتصديق بيانات اللورد « هاوهاو .. فنتور » فضلاً عن اعتبارها دليل مسئولية نابليون أمامهم ! بل على العكس ان معلوماتهم الحقيقية كانت تثبت لهم ان نابليون يستهتر بهم اذ يوجه اليهم ويصدر باسمهم مثل هذه البيانات والمعلومات التي لا تقبلها عقول الأطفال ..

ولا شك ان من يعرف خمسة عشر سبباً لعجز نابليون عن أخذ عكا واضطراره للعودة الى مصر ، منها التأخر في مهاجمة عكا ستة ايام حتى وصلت الانكليز وحصنوا عكا باصطلاح الافرنج .. وسقوط « المدافع الكبار التي

توجهت من الاسكندرية بيد الانجليز . ووفاة « ولدتيب » اكبر خصم للانكليز في الهند . « ونقض الصلح بين فرنسا والنمسا » .. من يعرف هذه الأسباب يحتاج الى شجاعة أدبية نادرة وأمانة تاريخية ، لكي يثبت السبب الهزلي الذي أورده « جوبلز بونابرت » في بيانه الذي « أصدره على لسان الديوان المخصوص وعلقوه على الجدران » .. فقد فسر نابليون رجوعه الى مصر بأنه « وعدنا برجوعه الينا بعد أربعة أشهر والوعد عند الحر دين ! » .
وخير تعليق هو عبارة الجبرتي : « انتهى بحروفه » .
وإذا كان ناقل الكفر ليس بكافر ، فناقل اللغو ليس يجهل .

ويقارن الرافعي - بحق - بين رسالة نابليون الجادة الى جنوده ، عن نتائج حملته في سوريا ، تلك الرسالة التي طبعت بالفرنسية ووزعت عليهم عشية الارتداد عن عكا ، وبين رسالته الهزلية الى « محفل الديوان » فيقول : « هذا هو موقف نابليون من جيشه . اما موقفه من الشعب المصري فقد اجتهد في تعميته بستر الفشل الذي أصابه أمام عكا والظهور بمظهر المنتصر الذي أدرك غرضه من الحملة على سوريا ، والاعلان عن سطوته وقوته . ولذلك بادر فيها رسالة بعث بها الى ديوان القاهرة بتاريخ ١٦ مايو (١٧٩٩ م) حشاها بكثير من التموهيات وخلصتها الزعم انه محق دار الجزائر بعكا وهدم البلد بالقنابل . وأن أهلها فروا الى البحر وان الجزائر جريح في خطر الموت . وقد وصلت هذه الرسالة الى مصر في أول محرم سنة ١٢١٤ (يونيه ١٧٩٩) وقرئت بالديوان . فلم يصدقها أحد » (١٧) .

« وغير ذلك من التموهيات التي كان يذكرها في منشوراته تارة على لسانه وطوراً على لسان أعضاء الديوان دون ان يأبه لها أحد » (١٨) .

وإذا كانت الحكومات في المشرق بعد تعلمها تجربة الديمقراطية ، قد اعتادت ان تقدم للبرلمانات بيانات كاذبة . ولعل ذلك هو وجه الشبه الوحيد الذي يمكن أن يستند اليه من يصف مهزلة البيانات التي كان نابليون يوجهها

الى الديوان ، لكي تعمم على الشعب. الا ان تزوير « نابليون » في بياناته كان مفضوحاً ومبالغاً فيه الى حد يفقده كل تأثير .. فأبي حكومة هذه التي تزور على « ممثلي الشعب » حتى جنسية الجيش الذي يغزو بلادهم ! فعندما نزل الاتراك .. جيش الخلافة في أبي قير .. زعم نابليون في بياناته الى « محفل الديوان » انهم من « الموسقو الافرنج الذين كراهم ظاهرة لكل من كان يوحد الله ، وعداوتهم واضحة لمن كان يعبد الله ويؤمن برسول الله ، يكرهون الاسلام ولا يحترمون القرآن وهم نظراً لكفرهم في معتقدهم يجعلون الآلهة ثلاثة وان الله ثالث تلك الثلاثة . تعالى الله عن الشركاء ولكن عن قريب يظهر لهم ان الثلاثة لا تعطي القوة وان كثرة الآلهة لا تنفع .. ونخبركم بالمسلمين ان كانوا بصحبتهم يكونوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم وصية النبي عليه أفضل الصلاة والسلام . بسبب اتفاقهم مع الكافرين الفجرة اللئام . لأن اعداء الاسلام لا ينصرون الاسلام. ويا ويل من كانت نصرته باعداء الله وحاشا لله ان يكون المستنصر بالكفار مؤيداً أو يكون مسلماً » (١٩) .

وكان منطق « بوسليج » اكثر حكمة واكثر اقتناعاً، من كل بيانات الدجل البونابرتيه التي ينمقها « فنتور » ويحليها بالسجع الشيخ « المهدي » .. فقد جمع الديوان وصارحهم بحقيقة الوضع ، ونزول الجيش التركي في « ابو قير » . « وانتم لا شك تعلمون ذلك ، (مش موسقو !!) وقد سافر نابليون لقتالهم ونحن لا نعرف ولا انتم تعرفون نتيجة المعركة . ولكني اعتقد انه في انتظار نتيجة القتال يحسن بسكان العاصمة ان يلزموا الهدوء والسكينة ، لأن النتيجة لا تخلو من واحد من أمرين ، فإما هزيمة للفرنسيين وعندئذ يجلبون عن البلاد ، واما نصر لهم وفي هذه الحالة تستهدف العاصمة لأشد أنواع الانتقام اذا نشبت فيها الثورة » (٢٠) .

وأهمية هذا المنطق لا تنبع من طابعه العملي ، بل من الضوء الذي يلقه على حقيقة العلاقة بين السلطة والديوان ، فهي علاقة تربص متفق عليها من

الجانبيين. وهي أبعد ما تكون عن علاقة حكومة بمجلس تشريعي كما يصورها البعض . كما تلقي الضوء على اهمال الجانبين لبيانات نابليون .

وكل الوثائق تؤكد ان « بوسليج » كان يتمتع بنظرة صادقة لطبيعة العلاقة مع رجال الديوان ، ونوع المشاعر التي يكتونها للسلطة وأهم من ذلك انه كان يتمتع بقدره نادرة على الصدق مع النفس ، وفي مواجهة الآخرين ، وخاصة الرؤساء الدجالين .. فقد كتب لبونابرت عن مشاعر أعضاء الديوان اثناء معركة ابي قير : « ان الشعب المصري بالرغم من ثوراته العديدة ضدنا يمكن اعتباره شعباً وديعاً ، على انه يكرهنا وهيئات ان يحبنا ، مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن ان تعامل بلاد محتملة . ان اختلاف العادات ، وأهم منه ، اختلاف اللغة ، وخاصة اختلاف الدين ، كل ذلك من العقبات التي لا يمكن تذليلها ، والتي تحول دون ايجاد صلات الود بيننا وبين المصريين . انهم يفتنون حكم المماليك . ويرهبون نير الاستانة ولا يحبون حكمها . ولكنهم لا يطبقون حكمتنا ولا يصبرون عليه الا بأمل التخلص منه » (٢١) .

ليس من المؤسف أن يكون « بوسليج » اكثر فهماً ، واصدق تحليلاً من بعض المصريين المعاصرين .. الذين يحدثوننا عن بيانات نابليون للديوان !

والحق ان هذه البيانات لم تكن تقدم لا للعلم ولا للتصديق (*) ، بل للدجل الرخيص المفضوح الذي يكشف زيفه جميع الفرقاء .. ولكن مؤرخ المدرسة الاستعمارية يتشبث بالقشة ، ليثبت ان المنشورات كانت تقرأ اولاً في الديوان قبل لصقها على الجدران ! ليوحي بأن هنال موافقة ما على اصدارها من الديوان ! .. وحجته هي تفسير عبارة الجبرتي « وقرىء بالديوان وألصقوا نسخته المطبوعة بالأسواق (٢٢) » . وهل كان يستقيم أن يقول الجبرتي ،

(*) والرافعي يقرر ان الأهالي اذعنوا لمنشور نابليون « لا قناعة به ولكن نزولاً على حكم القوة » .

« وألصقوا نسخه بالأسواق وقرىء بالديوان » ! ألم يكن يستطيع - وهو المعروف بدقته - ان يقول : « وقرىء بالديوان ثم ألصقوا صوره المطبوعة » او « فلما قرىء بالديوان ألصقوا صوره » ... ولو اننا لا نعارض في ان يكون قد قرىء في الديوان قبل عملية اللصق ، ولكن المدعش هو أن يرتب مؤرخ على ذلك تنظيماً دستورياً ! فرواية الجبرتي ان كان يستفاد منها شيء حول ترتيب الأفعال فهي تفيد ان المنشور صدر في غزه ثم جرى طبعه .. نسخه ، أو بصمه كما يقول الجبرتي . وبعد ذلك قرىء بالديوان الذي كان يعلم كذبه وتضليله كما عبر عن ذلك « الوزير » عبد الرحمن الجبرتي بنشره الأسباب والمعلومات الحقيقية !

أما حكاية ان نابليون سمى « جيشه المحارب في سوريا في تقرير مشهور له باسم (جيش مصر) وتحدث عن انتصار هذا الجيش تحدته عن انتصار الجيش المصري » فلا شك انه - كما قلنا - من المهانة الفكرية والتاريخية ان تناقش هذا الأمر كأنه قضية تاريخية تترتب عليها أية استنتاجات ! والرافعي يقول انه « أراد ان يحتذب قلوب المصريين وان يشعرهم بالسرور بانتصار الفرنسيين ، ولذلك نراه يعبر عن جيشه بأنه «جيش مصر» وانه انتصر على « أعداء المصريين » ويعلق الرافعي : « ولكن هيهات ان ينخدع الشعب عن ذات نفس بذات لسان » (٢٣) .

تري هل صدق أحد في مصر ان حملة نابليون على سوريا هي « حملة مصرية »؟! .. وان جيش مصر حارب هناك ! وان السوريين هم أعداء المصريين .. وان انتصارات نابليون كانت انتصارات لمصر وشعبها! .. ألم يصدر نابليون عدة منشورات بعد ذلك تحذر من الشائعات التي انتشرت بين صفوف المصريين ، عندما شاعت أنباء هزيمة « جيش مصر » ! ونابليون كان يتحدث في تقاريره ايضاً عن « جيش ايطاليا » و« جيش الصعيد » وكانت له باخرة اسمها « ايطاليا » أغرقها المصريون بالصعيد فتشامم واعتقد بأن فرنسا خسرت « ايطاليا » البلد .

ما الأهمية التاريخية لمثل هذه القفشة ؟

اننا - في الحقيقة - امام إلحاح ذكي واع على انفصال المصريين عن العرب ، والعالم الاسلامي .. فالمصريون يمكن أن يسروا بذبح عرب « يافا » وتدمير « العريش » وحصار « عكا » .. حتى لو تم ذلك على يد جيش فرنسي .. يكفيهم أن ينسب هذا « المجد » لجيش مصر !.

والديوان عند مؤرخ « المدرسة الاستعمارية » ، هو مجلس وزراء ، وبرلمان في نفس الوقت فهو يقرر ان « دراسة الجبرتي والوثائق الفرنسية ، تدل على ان (الديوان) كان حكومة بالمعنى التام . إذ كان يدخل في اختصاص هذا الحكم تعيين الموظفين وممارسة السلطة المدنية بوجه عام ، أما السلطة العسكرية فبقيت في يد الفرنسيين » (٢٤) .

« ولم يكن مجلس الوزراء المصري مجرداً تماماً من الارادة المستقلة » (٢٥) .
« ويستدل على ان اختصاص المجلس النيابي باصدار القوانين ، فواضح من الأمثلة التي ساقها الجبرتي وهذا نموذج منها خاص بفرض عقوبة الاعدام في أحوال معينة منعاً لانتشار مرض السفلس » (٢٦) .

وصحة هذا المنشور انه يتحدث عن مرض الطاعون وليس السفلس (!!)
« لمنع الخطر الضروري وهو تشويش الطاعون عدم المخالطة مع المشهورات » .
اما الديوان فلم يكن له علم بالقانون أكثر من علمه بأسباب مرض الطاعون ، أو علم الذين أصدروا القانون . والجبرتي واضح في نسبة القانون الى الفرنسيين :
« ففي سابع عشرين العقدة ١٢١٣ لخص الفرنسية طومارا .. وفيه أي هذا الشهر كتبوا اوراقاً بأوامر ونصها : « من محفل الديوان العمومي الى جميع سكان .. الخ » .. ولا أظن ان مؤرخاً يمكن ان يكون أوضح من ذلك لتأكيد أصل ونسب المنشور .. فصلة محفل الديوان العمومي بسن عقوبة الاعدام ومسئوليته عن أي دم أريق تنفيذاً للقانون لا تزيد عن صلة مصر وجيشها بأعمال « جيش مصر » في سوريا !.

ولكن المدرسة الاستعمارية تصر على ان هذه الوثيقة (مرسوم تشويش الطاعون) ذات أهمية عظمى لأنها تثبت ان ولاية البرلمان المصري فيما يتصل بسن القوانين المدنية كانت نافذة لا على الرعايا المصريين فحسب ولكن على الأجانب أيضاً بما فيهم جنود وجيش الاحتلال « (٢٧) .. ثم ننحدر من الهزل الى التهريج عندما يقول : « بل ان الديوان الديمومي لا يبعد أن يكون تسميته الأصلية من ديموس أي (الشعب) بمعنى ديوان الشعب » (٢٨) .

وهذا الاغداق في الاشادة بأهمية التنظيمات الادارية التي أقامها نابليون ، لا يقصد به « تمجيد » هذه التشكيلات ، بل يقصد به تأكيد فكرة اننا ندين بتفكيرنا السياسي وتعلمنا للديموقراطية .. بل واحساسنا القومي .. بل وتعلمنا لأول مرة فكرة اشتراك المصريين في الحكم أو المسؤولية السياسية .. ندين بذلك كله للغزو الفرنسي . فإذا ما تحولت التجربة الى نظرية أو حتى قانون عام ، كان لنا أن نقول انه لولا الغزو الغربي للشرق لبقى الشرق محروماً من المؤسسات الدستورية ، ممنوعاً من ممارسة أية مسؤولية أو المشاركة في السلطة ..

فهو يقول :

« كل هذه التنظيمات السياسية والتقليدية الدستورية التي استجدت في مصر خلال الحملة الفرنسية ، وفصل الجبرتي ذكرها تفصيلاً وافياً بالاضافة الى النظريات الأساسية الواردة في بيانات « بونايرت الأول » الداعية ضد فلسفة الحق الالهي والنظام الاقطاعي والامتيازات الطبقية الوراثية .. والمنادية بالمساواة أمام القانون ، وبتكافؤ الفرص وبكافة حقوق الانسان وبتمجيد القوة المصرية (*) ، كانت بغير شك الدعائم الأولى للفكر السياسي والاجتماعي الجديد في مصر الحديثة » ولو انه يقرر بانه من « العسير العثور في الجبرتي على افكار سياسية واجتماعية بالمعنى المنظم المبلور في فلسفة نظرية » (٢٩) .

(*) يقصد الاشارة الى انتصارات « جيش مصر » في سوريا !!!

وهذا اتهام خاطيء لفكر « الجبرتي » الاكثر نضجاً وأصدق انتماء من فكر لويس عوض - كما سنرى - اما القول بأننا كنا نترجح تحت فكرة « الحق الالهي » والامتيازات الطبقيّة الموروثة ، ونفتقر الى من يعلمان المساواة أمام القانون .. وتكافؤ الفرص وكافة حقوق الانسان ، واننا فوجئنا بمن يذكر القومية المصرية لأول مرة ، وأسعدنا ان يشيد بقوة جيش مصر الفرنسي !! فذلك قول ان امكن اعفاء قائله من سوء النية ، فلا يمكن نسبته الى العلم بواقع الفكر السياسي الاسلامي .. أو واقع الوضع في مصر . لقد كانت فرنسا تترجح تحت وطأة الامتيازات الموروثة اكثر مما تترجح مصر ، رغم الثورة الفرنسية ، بل انها عادت الى الملكية الوراثية بعد ١٥ عاماً ليس الا من « تنوير » المصريين ! بل ان نابليون نفسه الذي تولى تعليمنا فلسفة الغاء « الامتيازات الوراثية » سيطلق زوجته التي يحبها ، ويهين المشاعر الدينية في أوروبا ، ليتزوج من جديد مجتأ عن « ولي عهد » يرث امتيازات ومملكة نابليون ! وسيبعثر الملكيات الوراثية في أوروبا ، وبعضها سيبقى الى اليوم !

الملكية الوراثية التي لم ينجح الممالك أبداً في اقامتها في مصر ، ولا استقرت أبداً في الضمير الإسلامي .. حتى ولو قامت بالقوة ، لأن الفكر السياسي الإسلامي يرفض المفهوم الغربي لها، وهو المفهوم الذي يعتبر ابن الحاكم ولياً للعهد بمجرد ولادته .. فولى العهد في حضارتنا لا بد أن تتم له بيعة ، أي اختيار لشخصه ، حتى ولو كان ابناً للحاكم .. ورغم شكلية هذا الاجراء في معظم التاريخ الإسلامي منذ معاوية الى عبد الحميد ، إلا ان اشتراط البيعة ، ورفض مبايعة القاصر ، تعبر عن عدم اقتناع الحاكمين والمحكومين في الدولة الإسلامية ، بمبدأ الوراثة ، بالمفهوم الغربي ، وعدم اكتمال الشرعية للحاكم بمجرد انحدره من سلالة حاكم .. والمؤرخون يؤكدون ان احد اسباب انهيار دولة الممالك ، بل السبب الرئيسي الذي وصل بحكمهم الى هذه الهاوية من الصراع الوحشي .. هو عجزهم عن إقرار مبدأ « الوراثة » ، انهم لم يؤمنوا لحظة واحدة بالامتيازات والحقوق الموروثة ، بل الامتياز للسيف وللساعد الذي يحمل

السيف ويقطع الرأس .. حتى الأموال التي جاءت الثورة الفرنسية لتؤكد تقديس حق ملكيتها وحق وراثتها بالطبع!.. لم يكن المالك يؤمنون بهذا الحق كثيراً .. وقد رأينا (*) انه حتى في احلك عصور تخلفنا ، أي عشية الغزو الفرنسي ، لم يكن هناك من يجرؤ على اخافتنا بشعار « الحق الالهي » . فهذا الحق لا وجود له في الفكر السياسي الإسلامي .. فلو فرض وجوده ، لتمثل في السلطان أو نائبه .. ولكن ممثل السلطان كان يخلع في اليوم ثلاث مرات دون أن يجد من يعترض بان هذا عدوان على الحق الالهي ، بل ان اكثر من سلطان ، ومن قبل السلاطين أكثر من خليفه ، قد عزلوا وقتلوا .. بل أي افتراء وجهل ان نسب « فلسفة الحق الالهي » لأمة قُتل ثالث خلفائها (رضوان الله عليه) وتقاتل كبار الصحابة فيها حول الحكم (**).. وما فكر أحد منهم في أن يقهر الآخرين باسم « الحق الالهي » !

أما المساواة أمام القانون .. فأبي مساواة أكبر من أن يتقدم أحد العلماء لبيع سلطان مصر ، تنفيذاً لحكم القانون ! في وقت كان النبيل الفرنسي أو بالأحرى الشعب الفرنسي ، يعتقد ان دم النبيل أزرق ، ويحاكم النبيل أمام محكمة خاصة من طبقته ، الأمر الذي لم يقم له مثيل ولا شبيه في حضارتنا. فليس في حضارتنا قضاء مخصوص !

ما هي الامتيازات الموروثة التي ازلتها الحملة الفرنسية .. وما هو تكافؤ الفرص الذي أتاحته؟! امتيازات موروثة؟!

أين وجدها نابليون؟! في قبيله « محمد كريم » الذي كان صبي قبان فجاء نابليون ليجده حاكماً لاسكندرية؟! بعمامة اكبر من عمامة السلطان ولحية اكبر من لحية مراد بيك !

(*) الفصل الأول .

(**) راجع كتابنا « الحق المر » .

امتيازات موروثه ؟ من : الشيخ « المهدي » صديق « نابليون » ومحل
اعجابه الذي كان صبياً مسيحياً ، وفي رواية يهودياً ، فأسلم وأصبح من
المشايخ المتصدرين واستطاع ان يصل الى مشيخة الأزهر ؟!

امتيازات موروثه ؟!

من .. « مراد بيك » ؟ عن من ورث امتيازاته ؟ ومن هم آباؤه الصيد ؟!
كان عبداً مملوكاً عند الباشا التركي فباعه وجاء الى مصر فأصبح حاكماً
المطلق وجاء الباشا والياً على مصر فعزله عبده السابق الذي أصبح
« مراد » بيك .

امتيازات موروثه ؟! أيمن أن يكون بحثاً علمياً ذلك الذي يقوم على
ان أوروبا علمتنا نحن المسلمين رفض الامتيازات الموروثة ؟!

يقول : « ان المصريين قبل مجيء بونابرت لم يكن لهم مكان في نظام
الحكم لا في الحقيقة ولا في الظل ، وكانوا يعيشون في عهد الاتراك والماليك
في عزلة مطلقة عن سلطات الدولة من حيث هي كيان سياسي ، أي ان
الشعب المصري كله بكافة طبقاته كان معزولاً عزلاً سياسياً ايام الاتراك
الماليك (٣٠) » .

ثم جاء الاحتلال الفرنسي ، الذي لم يفك العزل عنا فحسب بل « بعث
القومية المصرية أولاً ، وثانياً أسس اول مجلس مصري للوزراء وأول برلمان
مصري في القاهرة » (٣١) .

و « نقل اداة الحكم الى المصريين بدلاً من الماليك والاتراك ، وحاول
تصفية أية جيوب غير فرنسية أو مصرية مستنداً الى بعث القومية المصرية في
محاربة منافسيه من المستعمرين (٣٢) » .

« أما الخطوة التي اتخذها بونابرت نحو انشاء سلطة تشريعية في مصر فقد
كانت فكرة ثورية أوروبية بغير جذور واضحة أو تقاليد معروفة في مصر ،

فكرة من وحي الثورة الفرنسية ذاتها التي كان بونابرت نفسه اداة من ادواتها حتى هذه المرحلة من تاريخها (٣٣) .

« وذلك بإنشاء أول برلمان مصري عرف في أيامه باسم « الديوان العام » .

« خطبة افتتاح الديوان العام التي قرئت على الأعضاء في أول اجتماع لهذا المجلس النيابي وهي أشبه شيء بخطبة العرش في العرف الدستوري (٣٤) » .

« وتؤكد فكرة القومية المصرية التي رأينا ان الفرنسيين ركزوا على ايقاظها في نفوس المصريين ليؤلبوهم على الامبراطورية التركية ليلسخوا مصر عن الجامعة الإسلامية التي كان مركزها اسلامبول (٣٥) » .

فالاحتلال الفرنسي اذن هو « بدايات الديمقراطية المصرية ، فكرة وتنظيماً ، بل وبدايات الحكم الجمهوري (*) . وإذا كان من حقنا ان نستنتج شيئاً من شروط (الرؤساء المصرية) لقبول حكم بونابرت والحكم تحت بونابرت (؟!؟) فإن اشتراطهم عدم المساس بالشريعة الاسلامية كشرط للقبول ، يوحي بان بونابرت كان يحاول جاداً ادخال القانون المدني والجنائي الوضعي في مصر ليقوم مقام الشريعة ثم عدل عن ذلك . ويعلن ان المصريين بذلك الوقت « قبلوا النظام البرلماني من نابليون ولكنهم رفضوا فصل الدين عن الدولة » !

ومن العسير على النفس حقاً ، ان تناقش نظرية تجعل احتلال مصر بداية تاريخها الديموقراطي « فكراً وتنظيماً » .. ما من أمة ترضى أن تمتهن كرامتها ويشوه تاريخها على هذا النحو .. وأي سم يترسب في عقول الجيل الناشء ، عندما يلقن ان الاحتلال بعكس — ما يقال — هو الذي حمل الديمقراطية الى مصر فكراً وتنظيماً .. وان المشاركة في الحكم لم يكن لها أي جذور في تاريخنا لا فكراً ولا ممارسة ؟!

(*) هل كانت مصر ملكية في عهد المالك ؟!

اما ان المصريين كانوا في عزل سياسي ، فقد رأينا في الفصل الأول حقيقة الدور الذي كانت تلعبه كل فئة من فئات المجتمع المصري ، والمكانة الخاصة التي كانت لقيادات الشعب المصري : الشيوخ والتجار .. اما ان فكرة انشاء سلطة تشريعية كانت فكرة ثورية أوروبية بغير جذور واضحة أو تقاليد معروفة في مصر ، فيكفي للرد عليها أن نعرف ان المماليك والباشا لم يكن لهم أي حق في ممارسة التشريع بأي شكل من الأشكال وان التشريع بمعنى « الفتوى » أي تفسير النصوص الشرعية ، واصدار الاحكام في الحالات المعاصرة ، كان من حق الشيوخ وحدهم .. فضلاً عن ذلك فإن نابليون تعهد قبل أن ينزل الى البر بحماية الشريعة ! كاذباً بالطبع فإن نزوله على بر مصر كان اكبر هدر لأحكام الشريعة ، ولكن المهم هو أنه لا مجال لادعاء اشتراط الشيوخ ، وتقدم بمطالب .. ليبنى على ذلك الفرض الكاذب ، فرية شنيعة تدعي ان الشيوخ قبلوا حكم نابليون أو قبلوا الحكم تحت نابليون عن اختيار حر .. وبموجب مفاوضات دستورية ، اشتروطوا فيها عدم المساس بالشريعة ، وان كانت حتى هذه « المكرومة » لا يفوته أن يغمزها « فيستوحى » أن نابليون كان معترفاً وضع تشريع مدني وجنائي - متقدم طبعاً - لولا تعصب الشيوخ !

شيوخ الديوان لا قبلوا حكم نابليون ولا ساوموا عليه ، بل كانوا كما وصفهم الجبرتي : « في القبضة مأسور » . أما عن السلطة فكل الذي حدث هو أن السلطة المهترئة الضعيفة في مواجهة سطوة العلماء وزعماء العامة ، تلك السلطة التي كانت من نصيب المماليك الذين لم يحسوا ولا أحس معاصروهم ، أنهم أجانب قط .. بل ان هذا الاحساس لم يستشعره إلا الأجانب ! فالمماليك عند الجبرتي هم « المصرية » .. سلطات المماليك المتفاوتة شدة وانهاراً ، انتقلت الى المحتل الاجنبي ، الى الفرنسيين ولكن على نحو أكثر بطشاً ، وأكثر فعالية ، وأكثر وحشية في التنكيل بالشعب ، والتهجم على

مقدساته ، واعدام قياداته .. اي مشاركة وأي ديمقراطية في عهد كان الأول في اعدام الشيوخ .. قيادة الأمة « فكراً وتنظيماً » ، فهل كان غربياً أن يرفض الشعب الوجود الفرنسي بكافة مظاهره ، أو كما يقرر « ولیم سليمان » : « ان الشعب ثار ضد الوجود الفرنسي ولفظه » وان قادة الشعب كانوا يتشككون في كل اجراءات بونايرت ، بل ويتحالفون مع المالك والعمانيين رغم كل مظالمهم .. ويؤكد انه « فيما يتعلق بنظام الحكم فان الهدف من اقامة المؤسسات المحلية هو حكم مصر لصالح الاستثمار الفرنسي بأكثر فاعلية » « وان « بونايرت » يريد ان أعضاء الديوان يحكمون مصر لا باعتبارهم ممثلين لشعبها ولكن كممثلين للفتاح « (٣٦) .

اما الرافي فرغم تأثره الى حد بعيد بتهويش المدرسة الاستعمارية ، واستجابته لإغراء الحديث عن « أول برلمان » ، و « أول حكومة » لإثبات عراقتنا الدستورية، وللتقليل من اهمية دستور ١٩٢٤ الذي يأتي بالوفد الى الحكم! إلا أن الرافي ، لا ينتمي الى هذه المدرسة ، بأي حال من الأحوال . وهذا يفسر التناقض بين بعض آرائه والحقائق التي يوردها كمؤرخ أمين .

فأريه في الديوان « أن سلطته لم تكن تتعدى مدينة القاهرة وان هذه السلطة لم تكن إلا استشارية ومقيدة بتعهد الأعضاء أن لا يعملوا شيئاً ما ضد مصلحة الجيش فضلاً عن انهم كانوا يعملون ويتداولون بعين من الفرنسيين تحت المراقبة (*) المستمرة « (٣٧) .

وهذا التناقض « غير الجدلي » يطالنا بصفة عامة في تحليل الرافي لدور الحملة الفرنسية . « فنابليون ، وليد الثورة الفرنسية ، كما كان جنود فرنسا ابناء ذلك الانقلاب العظيم الذي أعلن حقوق الانسان ، وقرر حرية الشعوب ،

(*) في تعليقات نابليون : « على الستويان تاليان ان يحضر جميع جلسات الديوان وأن يسعى في معرفة اخلاق اعضائه ومبلغ الثقة التي يمكننا ان نوليها ايها » .

فعل الثورة كان لم يزل يخفق على الجيوش التي ساقتها الجمهورية الفرنسية الى ميادين القتال .

« فنبليون قد استثار الروح القومية المصرية في منشوراته وبياناته للمصريين ، على انه في الوقت نفسه قد أثارها باعتدائه واعتداء جنوده على البلاد وأهلها لأن هذه الاعتداءات أثارَت كراهية الأمة للاحتلال الفرنسي وحملتها على مقاومته بكل الوسائل ، فكانت هذه المقاومة هي النواة التي انبثقت منها الروح القومية المصرية . »

وهنا يتفق معنا في ان القومية تظهر خلال مقاومة القهر الوطني ، وليس خلال التعاون مع القاهرين .

« ومهما قيل في مبلغ ما كانت عليه الأمة المصرية في ذلك الحين من التأخر في العلم والمدنية ، فان الحملة الفرنسية وما احتاجته في نفوس المصريين من روح المقاومة قد هزّت أعصاب الأمة ، هزة عنيفة أزاحت عن ابصارها شيئاً من الغشاوة التي رانت عليها في خلال العصور . »

« فالأمة المصرية لم تدعن للحكم الفرنسي ولم تطمئن اليه بحال من الأحوال ولم تُخدع في حقيقة الأغراض التي كان يرمي اليها نابليون من الحملة » (٣٨) .

ونحن نتفق مع الراجعي في هذا التحليل تمام الاتفاق ، ولكن الراجعي - كانت نقيصته وميزته في نفس الوقت - أنه لم يكن يمتلك نظرية عامة أو موقفاً عاماً من التاريخ ومن الصراعات التي تصنع هذا التاريخ .. بل كان ينطلق من حب شديد لمصر وكل ما يجلب لها الخير ويجنبها الشر ... ولعل ذلك يفسر موقفه العدائي من الثورة العرابية فهو يدين الظواهر بنتائجها .. لا يفترق في ذلك عن العامة .

فنحن ندهش مثلاً من دهشته للمقاومة المصرية وتأريخها بأنها « وتلك أول مرة من نحو مائة وثلاثين عاماً - في تاريخ مصر الحديث - ظهرت فيها الروح القومية المصرية لمقاومة اعتداء دولة اجنبية » (٣٩) ، ولمّ الدهشة يا استاذنا

ألم تكن هذه هي المرة الأولى منذ مائة وثلاثين سنة التي تعرضت فيها مصر لاحتلال اجنبي؟!

اما الحقائق التي يوردها « الرافعي » عن الديوان فتقرر : « ان الديوان لم تكن له سلطة ما في منع الغرامات والقروض الاجبارية التي يفرضها الفرنسيون ، ولعل ذلك كان من أهم الأسباب التي دعت الى سقوط منزلته في نظر الشعب » (٤٠) . ويقول : « ان الديوان لم يكن في مقدوره رفع المظالم ولا منع اقرار المغارم وتبين من تجربته انه لا حول (له) ولا قوة » (٤١) .

ويرى ان الديوان تطور على عهد « مينو » فأصبح « بمثابة محكمة » . وهذا أقرب وصف لطبيعة الديوان التي قدمها الجبرتي : « وصورته انه اذا اكتمل حضور المشايخ يخرج اليهم الوكيل فورييه وصحبته المترجمون فيقومون له ، فيجلس معهم . ويقف الترجمان الكبير رفائيل ويجتمع ارباب الدعاوى فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان وهو من خشب مقفص وله باب كذلك وعنده الجاويش يمنع الداخلين خلاف ارباب الحوائج .. ويدخلهم بالترتيب الأسبق فالأسبق فيحكى صاحب الدعوى قضيته فيترجمها له الترجمان فان كانت من القضايا الشرعية فإما ان يتمها قاضي الديوان بما يراه العلماء . أو يرسلوها الى القاضي الكبير بالمحكمة ان احتاج الحال فيها الى كتابة حجج او كشف من السجل . وان كانت من غير جنس القضايا الشرعية كأموال الالتزام أو نحو ذلك . يقول الوكيل ليس هذا شغل الديوان » (٤٢) .

وهي صورة بعيدة كل البعد عن مجلس وزراء وبرلمان ... الخ .

ورأي الرافعي صريح في ان التشريعات الصحية لم تكن تعرض على الديوان « لتعليق تنفيذه على اقرارها ، بل كان القصد استشارته ومجاملته ، وقد نفذ فعلاً » (٤٣) . فرأي الرافعي بصرف النظر عن حكاية « أول » ان الديوان لم يخرج عن كونه مجلساً بلدياً لمدينة القاهرة عديم السلطات وذلك في بداية تكوينه فمحكمة في نهاية المطاف ، تفصل في القضايا الفردية والأحوال الشخصية

أي في « جنس القضايا الشرعية » كما قال الجبرتي ، وما عدا ذلك يدفع بعدم اختصاص الديوان !

وقرار « نابليون » بإنشاء الديوان الاول ، يؤكد طبيعته هذه ، كمجلس بلدي خاص « بإدارة » مدينة القاهرة :

« معسكر القاهرة في ٧ ترميدور من السنة السادسة للجمهورية (٢٥ يوليو ١٧٩٨) بونابرت عضو المجمع العلمي الاهلي والقائد العام للجيش يأمر بما يأتي :

أولاً : تحكّم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة اعضاء « (٤٤) » .
ومهام الديوان هي : الشرطة ومراقبة الاسواق وتموين المدينة ومراقبة دفن الموتى .

ولكن « لويس عوض » يرفض وصف الديوان بالمجلس البلدي ، ويرد على رأي الراقعي الصادق والمنطقي ، والقائل بأن هذا الديوان لا يمكن وصفه بأنه حكومة مصرية بل هو تشكيل للقاهرة وحدها ، يرد على ذلك بأعجب رد فيقول ان اختصاصات بعض اعضاء الديوان كانت تشمل مصر كلها ... اما من هم هؤلاء الاعضاء؟! فهم « بالصدفة » .. الفرنسيون وحدهم؟! الذين تولوا - كما يسميها - وزارات المالية والمواصلات والجمارك . ولاحظ انها الأعمال التي لا بد من المركزية في ممارستها ، والتي تتجسد فيها السلطة المدنية ، والتي تشكل في الحقيقة جوهر أي حكم في تلك الظروف ، ويفسر هذا الوضع بقوله : « واذا كان الفرنسيون قد احتفظوا بهذه الوزارات الثلاث : المالية والمواصلات والجمارك ، في ايدي « وزراء » فرنسيين لاعتبارهم اياها لازمة للجهود الحربي فهذا لا يغير من الامر شيئاً وهو ان هذه الاجهزة كانت ذات ولاية على البلاد كلها ، وأن التنظيم هو التنظيم بغض النظر عن اشخاص الوزراء . ان كانوا من الاجانب أم من المصريين (!) وفي كل كلام عن ظهور الدولة الحديثة في مصر القائمة على الحكم المركزي من العاصمة ، لا يصح طرح هذه

التجارب الاولى في اقامة حكومة مركزية تحكم البلاد من العاصمة وتمتد ولايتها على كل ارجاء البلاد ، (٤٥) .

وهكذا نرى الاصرار على تنقيح حقائق التاريخ لتتفق مع وجهات النظر !.. فكل اقليم به ديوان .. وذلك يعني ان مصر كان بها ١٤ مجلس وزراء ! والسلطة المركزية هي تلك التي يتمتع بها الفرنسيون وخدمهم ، ورغم ذلك يطلب منا أن نفترض ان ذلك الديوان كان مجلس وزراء ، وإن سلطاته كانت تشمل مصر كلها بصرف النظر عن من الذي يتولى السلطة ، أجنبياً كان او وطنياً ، وواضح ان هذا الفرنسي ليس مجرد أجنبي في مجلس مصري ، يستمد سلطاته من عضويته في المجلس ، كما كان الحال مع نوبار وأرتين في مجلس الوزراء المصري بعد ذلك بأكثر من سبعين عاماً .. بل هو يستمد سلطته من كونه ممثل جيش الاحتلال ، فهو لا يشرف على مالية البلاد بموجب كونه عضواً في الديوان ، وبالتالي فإن سلطاته تحسب للديوان ، بل هو يستمد سلطاته من مصدر خارج الديوان تماماً .. لأنه هو المحتل ، هو السلطة الحقيقية والوحيدة .

ولأن هناك اختلافاً في أسماء اعضاء الديوان إذ أن بعض الأسماء التي عينها نابليون في الديوان بمشورة مستشاريه الشوام والمتعاونين من أهل البلد والجواسيس الذين سبقوا الحملة ، وتضاعف نشاطهم بعد وصولها .. ويبدو أن القائمة كانت مع نابليون حتى قبل وصوله للقاهرة ، ولكن بعض الأسماء التي وردت بالقائمة ، كانت قد غادرت القاهرة قبل احتلالها ، وبعضها رفض الاشتراك وبعضها لم يعجب نابليون بسلوكه ، فأحلّ نابليون محلهم أسماء أخرى... وهنا يتحتم علينا أن نفترض - لحل الاشكال! - وجود «مرسوم بوتارتي ضائع» ! فيقول لويس عوض: «فمن غير المعقول أن يباشر الديمنهوري والشبراخيتي والدواخلي في التشكيل الجديد ، سلطة الوزراء عرفياً وبغير سند قانوني ، (٤٦) .

مسلي جداً أن يندمج الممثل في دوره الى حد الانفعال والبكاء ، ومسلي اكثر أن يندمج المتفرجون مع الممثل الى جو الانفعال ، ولكنه يصبح مزعجاً للغاية إذا ما أصر الممثل على فرض روايته الوهمية كحقيقة من حقائق التاريخ! بل وأن يطعن في التاريخ بالتزوير والنقص والضياع لأنه لا يتفق مع روايته! ولا ندرى لماذا فاته أن يشير الى « مرسوم ضائع » آخر يحدد اختصاصات بقية الاعضاء من غير الفرنسيين .. فالمرسوم الموجود - للأسف - يحدد سلطات من لهم سلطات وهم الفرنسيون. أما بقية المشايخ فلا نجد لهم سلطات محددة، فما من شيخ صدر مرسوم بتحديد اختصاصه ولو كستول عن الصحة، ما من شيخ مسئول عن الكنس والرش، وهي وظائف ليست « مهمة مباشرة للمجهود الحربي » ورغم ذلك ضمن المرسوم حق بتحديدتها .. ولو فكر « نابليون » أنه سيأتي يوم ، يعتبر فيه ديوانه هذا أول مجلس وزراء مصري! لربما أهتم بتحديد اختصاصات الشيوخ! ولكن حتى « الدجال من أعلى طراز » لم يصل في دجله الى هذا الخاطر!.. لذلك اقتصر التحديد على الفرنسيين الذين يتولون مناصب حقيقية .. وحتى هؤلاء لم يبلغ بهم الوهم حد تسمية أنفسهم وزراء .. لأن هذه الأوهام مصنوعة لنا وحدنا : « ثم أنه لا ينبغي أن ننسى أن الانتقال فجأة وفي كل شيء من الحكم المملوكي القائم على اللامركزية المطلقة او ما نسميه اليوم الحكم المحلي الى نظام الدولة الحديثة القائم على المركزية المطلقة او على الأقل المركزية في كل ما يتصل بالشئون العامة التي تمس جميع المواطنين ، لم يكن بالأمر الهين، أدركنا خطورة هذا التحول الجسيم في نظام الحكم في مصر » (٤٧) .

ويصعب على المؤرخ الجاد أن يلمس هذا التغيير من وجهة نظر المصريين على الأقل فيما يتعلق « بالوزارات » الثلاث: المالية والجمارك والموصلات .. فهذه بالخطمية كانت تدار على مستوى ما من المركزية بدونه لا يمكن أن تستمر مصر او أن تحم . فالمالية بصرف النظر عن وسيلة جمعها ، وما يتسرب منها في

الشقوق والقنوات التي تفصل بين القاهرة والفلاح .. إلا أنها كانت تصب في النهاية في القاهرة . والجارك كانت تخضع مباشرة لإشراف مركزي حتى ولو بيعت بعد ذلك . كل الذي حدث هو أن « المال » أصبح يجمع بكفاءة اكبر وبمصف اكثر تنظيمياً ودقة . وإن كان بنفس العناصر وبنفس الاختلاسات ، بل وبنفس التقسيم الهرمي . فلم تكن هناك مركزية يمكن أن يحس بها المصريون .. بل عندما طلب المصريون ضم بولاق الى القاهرة في دفع الغرامة التنكيلية ، رفضت السلطات الفرنسية ، ولم يملك الديوان او « مجلس الوزراء » حتى أن يصدر هذا القرار البلدي البحت ! فالمرکزية المالية بمعنى أن تصب الأموال في النهاية في خزينة فرعون العاصمة بعد أن تشرب منها كل ديدان المجتمع ، حقيقة ليست جديدة على المصريين ، بل يعانونها من أيام مينا وإلى ما بعد نابليون بكثير (*) .

وهو يعتبر التغيير الذي تم في تكوين الديوان بعد ثورة القاهرة الأولى: « هذا التعديل في نظام الحكم النيابي الذي صدر به مرسوم ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ انتصاراً ديموقراطياً محققاً للشعب المصري » . وهو ما اعتبره « هيرولد » الغاء للديوان ! « كذلك كان انتصاراً ديموقراطياً عدول بونايرت عن الاحتفاظ للقائد العام بحق دعوة البرلمان للانقضاء ونقل هذا الاختصاص الى حاكم القاهرة » (٤٨) .

وحاكم القاهرة فرنسي ! وهو يمثل سلطة الاحتلال ، ويمثل القائد العام فهل يعد انتصاراً ديموقراطياً أن يكلف نابليون أحد معاونيه بالإشراف على دعوة الديوان بدلاً من دعوته هو بنفسه !

أما منصب « رئيس الوزراء » فهو حائر بين الشيخ الشرقاوي الذي يعلن

(*) مرة وصف أحد شيوخنا الاجلاء كتابات لويس عوض بأنها « سمادير » وذلك صحيح فبعد ٤ صفحات من الاطناب بالحديث عن أهمية المركزية التي ابتدعها نابليون يقول هو أيضاً « أما مجرد قيام حكومة مركزية قوية او سلطة تنفيذية قوية فقد عرفته مصر في كل عصور مجدها ، فبونايرت لم يأت يجديد في هذا المضمار !! »

لويس عوض انه « أصبح رئيس الوزراء » وبين « المهدي » الذي من وصف موكبه يرى أن من حقنا أن نستنتج أن « محمد المهدي كان في حقيقة الأمر أول رئيس وزراء مصري » .

رغم أن « المهدي » لم يصدر بعضويته « مرسوم » ! ولكنهم اختاروه سكرتيراً للديوان .. « والجبرتي » كان واعياً بحقيقة الديوان .. ولا تعنيه هذه البحوث التي تنشغل بها اليوم .. فكل الشيوخ الذين يحضرون ويشتركون في هذه اللعبة يكونون الديوان . بل ان ذلك السكرتير الذي لم يرد اسمه في مرسوم نابليون بتشكيل الديوان، كان هو الكل في الكل، كما يقول المصريون، ونعني به علامة استفهام عصره ، الشيخ « المهدي » .. فهو لم يكن عضواً في الديوان ، ولكن الجميع يمشون بين يديه كما يعجب الرافعي !

فقد ذكر الجبرتي : « ان الفرنسيين أحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار اليه في دولتهم مدة اقامتهم بمصر وعلى يده تقضي عندهم حوائج الناس وقضاياهم وكانت أوامره نافذة عند ولاة اعمالهم حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر ولما رتبوا الديوان كان هو المشار اليه فيه والموظفون في الديوان من دونه . وإذا ركب حفوا به ومشوا حوله وبين يديه . وفي أيديهم العصي يوسعون له الطريق » (٤٩) .

المتعاونون

والحديث عن « المهدي » يجرنا طبعاً الى اعضاء الديوان .. وبالذات المشايخ.. لأن المدرسة الاستعمارية تحاول من خلال خلع الألقاب على الديوان، أن تصورهم كشركاء ، او متعاونين مع المحتل في حكم مصر .. وما دام هؤلاء الشيوخ لا يرقى الشك الى وطنيتهم . فإن ذلك ينفي صفة العمالة عن عملية التعاون مع المحتل ، او قبول العمل في خدمة جهازه الحاكم ، وبالتالي تسقط التهمة عن كل « المتعاونين » وبالطبع فالهدف ليس « تبرئة الشيخ الشرقاوي » بل ادانة « الشرقاوي » بما يسمح بتبرئة العملاء من أمثال برطلمين وشكرالله ويعقوب .. والآغا عبد العال . ولأننا نرفض هذا الاسلوب فإن علينا أن نوضح الفرق بين موقف المشايخ ، وموقف العملاء ، بين علاقة الشيخ السادات بالمحتل ، وعلاقة يعقوب وفرط الرمان ونيقولا الرومي وعبد العال .

يقول « هيرولد » : « وقد ضمن « بونابرت » بانشائه الدواوين ، التأييد الظاهري من اكثر عناصر المجتمع المصري نفوذاً واستقراراً ، وإن لم يضمن قط ولاءهم او ثقتهم » .

هؤلاء هم المشايخ الذين بحكم مراكزهم يمثلون قيادات حقيقية وزعامات موجودة قبل ظهور الاحتلال .. والاستعمار يحاول - إذا ما استقر - خلق

زعامات جديدة ومنافسة ، وتحطيم الزعامات القديمة . ولكنه في البداية لا يستطيع تجاهل هذه الزعامات . وهي بدورها لا يمكنها ، بحكم بروزها على سطح المجتمع ، أن تتجاهل السيد الجديد ، فأما أن تقاومه وتنتقل الى مواقع المطاردين الخارجين على القانون الاستعماري . وبعضهم اختار ذلك فعلاً ، وخرج الى المنفى باختياره لكي لا يكون تحت سيطرة المستعمر ، ولكي يدير المقاومة بحرية ، ويعود عندما تحين فرصته للانقضاض على المحتل . كما فعل السيد النقيب « عمر مكرم » وبعضهم يبقى الى جانب جماهيره وعلى رأسها ، وإن كان يرفض تلويث نفسه بالانتساب الى جهاز السلطة كالشيخ « السادات » الذي يقول الراجعي ، انه « رفض الاشتراك في مهزلة (*) الحكم مع الفرنسيين » ويفسر ذلك « لعله تورع عن قبول هذه العضوية لأنها لا تتناسب مع مقامه في البلاد » « ولم يقبل هذه العضوية أنفة وتورعا » (٥٠) .

وبعضهم يتمتع ببرونة تكفيه لكي يتعاون مع كل سلطة دون أن يهبط الى مستوى العمالة المفضوحة ، او أن يتدنس بالأعمال القذرة التي يقوم بها العملاء من مستوى الشرطة .. من هؤلاء المرنين الشيخ « البكري » مثلاً.. وإلى حد ما « المهدي ».. ولو ان المهدي كان أبرع وأكثر احتراماً لنفسه في نفس الوقت . أما الفئة الغالبة في ظروف المجتمعات المجردة من وسائل الدفاع الفعالة ، المحرومة من التنظيمات الدائمة ، الفئة الغالبة مضطرة بحكم مركزها ، وبحكم مسؤولياتها أمام جماهيرها مضطرة الى التعامل مع السلطة . (لا أن تعمل لحساب هذه السلطة) ويحركها في ذلك عاملان :

● الاول هو استحالة مقاطعة السلطة او تجاهلها ، لأن السلطة لن تتجاهلهم . ولأن العامة ، جماهيرهم ، ستطالبهم براجعة السلطة ، وحماية مصالحهم وقضاء حوائجهم .

(*) وهذه واحدة من تناقضات الراجعي ، فهو هنا يسمى الديوان - بحق - مهزلة .

● والثاني هو حماية الرعية من التنكيل والابادة ومنعاً لطغيان الذين تحركهم الاحقاد في حالة وقوع المقاطعة الوطنية الشاملة للسلطة ، وحتى في البلدان المتقدمة ، نوعاً ، عن الشرق الاسلامي في القرن التاسع عشر ، يدور الجدل حول مخاطر مقاطعة التنظيمات الادارية التي يقيمها الاحتلال .. إذ لا شك ان وجود الزعماء الحقيقيين يضمن مقاومة بعض الاجراءات او حتى فضح طبيعتها ، كما يضمن بعض الحماية والتغطية لقوى الثورة التي تعمل خارج هذه المؤسسات .

هذا الفريق هو الذي وصفه الجبرتي ، أصدق وصف عندما قال : « من هو في القبضة مأسور » .

هذا عن المشايخ ووجوه الناس . أما الفريق الآخر فهم نفايات المجتمع ، عملاء كل سلطة حاكمة .. وعمالتهم أشد وسرورهم اكبر اذا ما كانت هذه السلطة ، أجنبية عن البلاد .

انها النماذج التي عملت مع الفرنسيين ثم مع الانجليز بعدهم . بل وقبل ذلك ، وفيما بين السيدين ، عملت لحساب المماليك ثم في خدمة أي مستبد .

من هؤلاء كان « برتلي » فرط الرمان .. و « شكر الله » والمعلم « يعقوب » .

وعن هذا الفريق يتحدث « هيرولد » فيقول : « ولكن كان هناك مهام حكومية بغية كره الاضطلاع بها الفرنسيون والمسلمون من الأهالي على السواء .. وهي جمع الضرائب والبوليس . كان المماليك يستخدمون الصيارفة الاقباط في جمع الضرائب قبل وصول بونايرت وكان مما يؤهل الاقباط لهذا العمل تعليمهم . وطاعتهم وخبرتهم بشؤون المال . واضطر (!؟) « بونايرت » للضي في استخدامهم لإداء هذه المهمة ، كما كانوا يؤديونها من قبل ، وأن قدر أن جانباً كبيراً من الأموال التي يجلبونها من الفلاحين يحتجزونه لأنفسهم . فوضع نظاماً يشتمل على مراتب ودرجات من الجباة الاقباط » . وعلى رأس

هرم هؤلاء الموظفين الاقباط كلهم ، ملتزم عام هو المعلم « جرجس الجوهري » .
هؤلاء الصيارفة الذين خلعت عليهم الآن (أي في عهد الحملة) صفة رسمية
كانوا يسفلون مسالك الحكام على حد قول الجبرتي الذي يقول: وقيدوا بذلك
الصيارف من القبط ونزلوا في البلاد مثل الحكام يحبسون ويضربون ويشددون
في الطلب ، (٥١) .

أما المهمة الثانية .. المهمة البوليسية فيقول « هيرولد » : « انشأ «بونايرت»
فرقاً من الانكشارية مؤلفة من الترك واليونان والمغاربة وغيرهم من السفلة (...)
وشذاذ القوم (...) ومن أبرز هؤلاء وألفتهم للنظر أيام الاحتلال الفرنسي ،
مغامر رومي مسيحي يسمى « بارتلمي » او « برتليو » عينه « بونايرت »
« كتخدا مستحفظان » القاهرة (أي نائب المحافظ) .. وكان هذا الضابط
الزاهي المظهر والمسلك يقود سرية قوامها مائة من الاروام والجزائريين
والمغاربة المتوحشين . وكان فارغ القامة ، لا ينسى الناظر مظهره وهو يخرج
على رأس اتباعه الاوغاد في عمامة بيضاء ضخمة تظهر بشرته البرونزية ،
وعيناه تلمعان ، وعلى شفثيه ابتسامة يجمد لها الدم في العروق ، وقد ارتدى
ثوبه اليوناني الموشي بالقصب ، وحزاماً أحمر ، وسراويل ضخمة ، ومعطفاً
تعلوه رمانتان مما يضعها الكولونيل على كتفيه . وكانت زوجته العملاقة الرهيبة
تركب أحياناً الى جواره . وكان « بارتلمي » يحب العراك ، لأنه يتيح له
اظهار شجاعته والتباهي بشبابه ، ولكن أحب الاشياء الى قلبه قطع الرقاب
بالجملة . روى انه إذا لم يجد من البدو المتمردين من يحمل رءوسهم الى القاهرة
تذكراً كان يعزى نفسه برءوس بعض الفلاحين العائري الحظ الذين يصادفهم
في عودتهم للمدينة . وقد قدم للجنرال « ديبوي » مرة زكية بأكملها مملوءة
برءوس البدو بينما كان هو وضيفوه يتناولون طعام الغداء ، وقد آله أنه نغص
عليهم طعامهم . يقول مؤرخ قديم للحملة المصرية : « كان في منظره وهو يسير
الى القلعة وقد جرد سيفه في يده ومن خلفه ضحاياه المكبلين ، ما يكفي
لإخاد كل النوايا الشريرة في قلوب الكثيرين » (٥٢) .

وسنرى أن نظرة المؤرخ القديم هذا ، غير صحيحة ، « فالتوايا الشريرة »
 لم تحمد في قلوب الثائرين المصريين الذين لم يربعهم هذا المرتزق « السافل » ،
 بل اطلقوا ضده لسان السخرية المصرية ، فسموه « فرط الرمان » هزة بالشارة
 العسكرية التي يضعها على كتفيه . وصورته كما سجلها مؤرخ المصريين : « قلدوا
 برطلمين وهو الذي تسميه العامة فرط الرمان كتحدا مستحفظان وركب
 بؤكبه من بيت سارى عسكر وأمامه عدة من طوائف الاجناد والبطالين
 مشاة بين يديه . وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون . وهو لابس فروة بز
 عادة وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة . ورتب له بيوك باشي وقلقات
 عينوا لهم مراكز باخطاط البلد يجلسون بها وسكن المذكور ببنت يحيى كاشف
 الكبير بحارة عابدين أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجواري .. والمذكور من
 أسافل نصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر وكان من الطبجية عند محمد
 بيك الألفي . وله حانوت بنحط الموسيقى يبيع فيه القوارير الزجاج ايام
 البطالة » (٥٣) .

هل هناك صورة نموذجية للعملاء اكثر كالأ من الصورة التي قدمها الجبرتي
 لفرط الرمان هذا ؟!

هل كان « برطلمين » تحركه دوافع قومية او عقائدية او حضارية وهو يقوم
 بمهمته البوليسية ضد المماليك والبدو والفلاحين والعامة المصريين ؟ .. هل يحترم
 مؤرخ نفسه اذا ما وصف برطلمين وبقية الأسافل بأنهم رواد القومية المصرية ؟!
 ولماذا نفتش عن صفات ودوافع مختلفة عن صفات ودوافع « برطلمين »
 عندما نتحدث عن المعلم « يعقوب » وتاريخ الاثنين واحد سواء في خدمة
 المماليك او خدمة السيد الجديد ؟

« برطلمين » المرتزق في الجيش العثماني ، من نصارى الاروام العسكريين ..
 وأثناء التبطل يبيع القوارير الزجاج .. ثم يخدم طويحي عند الملوك « محمد
 بيك الألفي » ، فلما جاء الفرنسيون تألقت مواهبه في قطع رؤوس المصريين .
 نفس تاريخ « يعقوب » كما سنرى .

الفصل السادس

الثورة الخالدة

ثورة القاهرة الثانية

ومعروف كيف نشبت ثورة القاهرة الثانية، على أثر نقض الانجليز اتفاقية «العريش» التي نظمت جلاء الفرنسيين عن مصر بعد عودة «نابليون» الى فرنسا وتولى «كليب» قيادة جيش الاحتلال الفرنسي وكان يائساً من جدوى الاستمرار في مصر.. ولكن الحكومة الانجليزية رفضت اقرار الاتفاق .. ومن ثم انقض «كليب» على الجيش العثماني ، في عين شمس ، الذي جاء بموجب الاتفاقية وشرع في نهب البلد .. وكما هي العادة تمزق الجيش العثماني في ساعات .. وعاد «كليب» ليجد القاهرة مدينة يحكمها الثوار ..

وثورة القاهرة الثانية صفحة مجد مصرية .. فالجيش العثماني كان قد سحق تماماً على يد «كليب» خلال ساعات .. فلم يستغرق خروج كليب من القاهرة وسحقه الجيش الذي كان يقوده الصدر الأعظم في «عين شمس» (٢٠ مارس ١٨٠٠) وعودته منتصراً الى القاهرة ، اكثر من خمسة عشر ساعة . بينما قاومته «قاهرة الشعب» خمسة اسابيع كاملة ..

والجماهير التي رأت سوء سلوك الجيش العثماني وبلغتها ابناء هزيمته الفادحة والمروعة ثم ثارت واستمرت في ثورتها.. لا يمكن اتهامها او اتهام قيادتها- على

الأقل- بأنها كانت تشور من فرط الحنين الى الحكم «العثماني» او بعود وإغراءات العثمانيين والأمل في نجدة جيشهم القوي !

أما القول بأن القتال كان بتحريض المماليك او قيادتهم او لحسابهم فهو لا يصل حتى الى مستوى تزوير التاريخ .. انه افتراء مفضوح ، لأن « مراد » بيك كان قد انحاز نهائياً وعلنياً الى الفرنسيين ، وقد رفض حتى مقابلة مندوب العثمانيين إلا بعد استئذان أسياده الفرنسيين .. وكوفىء هو وزوجته (*) . وأصبح يتقاضى مرتباً ثابتاً من الخزانة الفرنسية ، ويدفع الجزية للفرنسيين ٢٥٠٠ كيس ، ويحكم باسمهم الصعيد (**). واتفق مع الفرنسيين على تبادل الحماية والدفاع المشترك ، فتعهد الجيش الفرنسي بحمايته في حالة مهاجمته وإذ حصل هجوم على المنطقة التي يحتلها الجيش الفرنسي فعلى « مراد بيك » أن يرسل اليها قوة من جنوده توازي على الاكثر نصف قواته . ويتعهد القائد العام بأن لا يقبل أي اتفاق فيه مساس بالزايا المحولة لمراد بك في هذه المعاهدة .

هذه المعاهدة التي يقول عنها الرافعي : « وتمت مفاوضات الصلح وشروط الاتفاق وأمضيت بينما كانت مدافع الفرنسيين تخطر قنابلها على سكان العاصمة » (٢) الثائرة .. ويأتي خلف المعلم « يعقوب » ، فيتهمون القاهرة المجاهدة ، بأنها كانت تشور باغراء وتحريض المماليك بل وقيادتهم !..

(*) بعد الصلح مع « مراد بيك » صرفت سلطات الاحتلال لزوجه المقيمة في القاهرة «مائة الف فضة كل شهر» .

(**) بدأ « نابليون » المفاوضات مع « مراد » ، ويعلق « الرافعي » على هذه المفاوضات بقوله : « وهذا ينافي ما اعلنه « نابليون » في منشوراته وبياناته للمصريين من أنه إنما جاء مصر لمحاربة المماليك وشل عرشهم وأنه لا يستريح ولا يهدأ له بال إلا اذا قضى على دولتهم ومحامهم من الوجود . ولنا أن نستنتج من ذلك أنه كان يخاطب المصريين بلغة والمماليك بلغة أخرى . ولعمري ان اللغتين مشتقتان من نبتة واحدة . هي نبتة الفتح ولغة الاستعمار . تلك اللغة التي مها اختلفت أساليبها فإنها تؤدي معنى واحداً لا يتغير وهو اخضاع مصر وجعلها مطية للطامع الاستعمارية » (١) .

كانت المعاهدة هي مكافأة المحتل لمراد بك على موقفه من ثورة القاهرة الثانية ، فهو قد ساهم في العمليات التي نفذها « كليبر » لاعادة سيطرته على البلاد ، ولعب الدور الأول في تجويع العاصمة الثائرة بمصادرة اربعة آلاف رأس من الغنم كانت في طريقها الى المدينة المحاصرة ، صادرها مراد ، واهداها للفرنسيين ، بل واشترك في القتال :

« وقد بالغ مراد بك في الولاء للفرنسيين بعد هذه المعاهدة ، فلم يكذب يتم التوقيع عليها حتى انفذ الى معسكر الفرنسيين الهدايا والمهمات والغلال والمؤن ، وسلمهم بعض العثمانيين اللاجئين اليه ، وطرد من الصعيد ، درويش باشا الذي جعله يوسف باشا الصدر الاعظم والياً على الصعيد ، وكان قد نزل الوجه القبلي طبقاً لمعاهدة « العريش » .. فطلب « كليبر » الى مراد بك مطاردته تنفيذاً للاتفاق المبرم بينهما ، فتعقبه مراد بيك واضطره الى الانسحاب شمالاً (٣) .

بل كان مراد بك يُستشار في الأسلوب الناجح لاختاد ثورة القاهرة ، وقد بذل جهده لتخريبها من الداخل ، عن طريق الاتصال ببعض العناصر ، ومحاولة اقناعهم بالتسليم أو الانسحاب فلما أعيته الحيل اقترح الوغد على « كليبر » ولي نعمته الجديد .. اضرام النار في القاهرة لاختاد الثورة !

ويقول « ريبو » انه ارسل فعلاً الى « كليبر » عدة مراكب محملة مواد ملتهبة لاحتراق العاصمة (٤) .

وكل الروايات الفرنسية التي جمعها « الرافعي » تؤكد أن « مراد بيك » قدم الحطب اللازم للسلطات الفرنسية لحرق القاهرة لاختاد الثورة : « ولكننا ابقينا عليها حتى نحصل منها على الغرامة الحربية التي كنا في حاجة اليها (٥) .

أي افتراء وتزوير معينين اذن ، أن يقول البعض أن ثورة القاهرة الثانية كانت: « لحساب الاتراك والماليك وبقصد اعادة مصر إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية » .!

وأى عذر بارد أن تبرر خيانة « يعقوب » وتكوينه الفيلىق القبطي تحت إشراف وقيادة جيش الاحتلال بأنه كونه لمقاتلة المماليك !

إن هم المماليك ؟ .. لقد عمل « مراد » و « يعقوب » معاً تحت امره الفرنسيين .. « يعقوب » يطلق النار من داخل قلعته ضد مؤخرة الثوار ، ومراد يجمع الحطب ليحرق المدينة الثائرة !

المفاوضات مع « مراد » وانحيازه للفرنسيين بدأ قبل وصول الجيش العثماني بموجب اتفاقية العريش ، وكان معروفاً موقفه من القاهرة وسجله الجبرتي بعبارة الدقيقة :

« وفي شهر ربيع ثان ١٢١٤ (سبتمبر ١٧٩٩) ثامنه أرسلوا جملة عساكر من الفرنسية الى مراد بيك بناحية الفيوم وعليهم كبير فوقع بينهم وبينه أمور لم تحقق تفصيلها. وترددت بينه وبين سارى عسكر الرسل والمراسلات ووقع بينه وبينهم الهدنة والمهاداة واصطلح معهم على شروط منها تقليده امارة الصعيد تحت حكمهم (٦) » .

وسلوك الجيش العثماني المنحط كان معروفاً ومنتقداً بقلم مؤرخ عصره :
« وفيه (اول رجب ١٢١٤ - نوفمبر ١٧٩٩) كثرت الاقوال وتواترت الاخبار بوصول الوزير الاعظم يوسف باشا الى الديار الشامية وصحبته نصوح باشا و عثمان اغا كتحدا الدولة و حسين اغا .. وباقي رجال الدولة وعسفوا في البلاد الشامية وضربوا عليها الضرائب العظيمة وجبوا الأموال ، وفعلوا مالا خيراً فيه من الظلم وقتل الأنفس بسبب استخلاص الاموال (٧) » .

بل أن فلول المماليك والعمانيين الذين فروا من « كليبر » الى داخل القاهرة .. تحولوا الى عبء على الثورة وعنصر تخاذل يسعى طيلة الوقت للتسليم والمفاوضة أو يقوم بأعمال التخريب (وبالذات العمانيين) ولكن مساعيهم فشلت تحت ضغط الشعب المسلح الثائر ، أو « حفنة من المهيجين

الشعبين الذين طلوعوا من حيث لا يدري أحد يهددون بقتل كل من يتحدث عن التسليم^(٨) .

ولكن كانت هناك عناصر مملوكية ، كما كانت هناك عناصر غير مصرية ، كان لها من دينها وشرفها وانتمائها ، ما جعلها تقاتل ببسالة وتقف الى جانب الجماهير وعلى رأسها في مواقع خالدة ضد طغيان المحتل ونذالة العملاء من امثال « يعقوب » .. « وبرطلين » و « شكر الله » .. والمتخاذلين كالشيخ « البكري » ..

ثورة القاهرة اذن كانت وطنية مائة في المائة ، قامت على أكتاف المصريين وساهمت فيها العناصر العربية والاسلامية الموجودة بالقاهرة ، قبل ظهور التقسيمات السياسية الحالية . وكانت اول ثورة في الشرق تواجه الاستعمار الغربي بهذا الشمول والصمود الذي دام اكثر من شهر كامل !.. بينما لم تستطع باريس بعد سبعين عاماً بقيادة كوميونها أن تصمد أطول من ذلك بكثير !

شهر كامل « وقاهرتي الحبيبة » تقاتل أقوى جيوش اوروبا .. والجوع يفتك بها .. « والقتال من بيت لبيت (*) » وقذف بالمدافع لا يني ليل نهار . وأصبح حي الأزبكية بقصوره وحدائقه أطلالاً.. واشتعلت النيران في المدينة كلها . يقول « نقولا الترك » : « وكانت النساء والأولاد يتخبون ويجمعون تحت العقود الحجر خوفاً من القنابر .. وكنت تسمع في الليل صرخ النساء والأولاد » .

« وفي ١٤ ابريل أمر « كليبر » بهجوم كبير على المدينة . وفي رواية « الجبرتي » ان الفرنسيين استعملوا نوعاً بدائياً من قاذفات اللهب « (٩) (أو النابالم) : « وعملوا فتائل مغمسة بالزيت والقطران ، وكعكات غليظة

(*) هذا الشعار الذي طالما رددته اجيال لم تف به .. سجله كفاح اجدادنا البواسل في ثورة القاهرة الثانية الخالدة .

ملوية على أعناقهم معمولة بالنفط والمياه المصنوعة المقطرة التي تشتعل ويقوى لها بالماء . وهذا ولا ريب اختراع من بنات افكار عضو في اللجنة العلمية ^(١٠) . يقول الجبرتي: ان الفرنسيين « كانوا يلهبون السقائف وضرب الحوانيت وشبابيك الدور، ويزحفون على هذه الصورة شيئاً فشيئاً . والمسلمون أيضاً بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة همتهم وعزمهم .. وزلزلوا في ذلك اليوم واليلية زلزالاً شديداً وهاجت العامة وصرخت النساء والصبيان ونطوا من الحيطان ، والنيران تأخذ المتوسطين بين الفئتين من كل جهة . هذا والأمطار تسح حصاة من النهار وكذلك بالليل من ليلة الجمعة . كذلك الرعد والبرق » وفي وسط هذا الجحيم مضت المفاوضات بين « ناصف » باشا و « كليبر » بواسطة مراد ^(١١) . ها هو الباشا التركي يفاوض ، والملوك الذي كان يحكم مصر قبل الاحتلال ، يتوسط .. ولكن : « ما زال اكثر القاهرة في ايدي الثوار .. وركز « كليبر » جهوده ضد حي « بولاق » الذي أبى التسليم بعد أن وعد بالعفو . وقاتل الفرنسيون كالمجانين في « بولاق » فاستولوا عليه عنوة . يقول الجبرتي : « وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة واحترقت الأبنية والدور والقصور » .

« واستولى الجنود على ما استطاعوا العثور عليه بما في ذلك عدد كبير من النساء ظلوا يعاشروهن معاشرة الأزواج طوال سنة الاحتلال الباقية » ^(١٢) .

جيش اجني يقتحم عاصمة الوطن ، يقتل ويحرق ويدمر وينهب ويسبي النساء .. أين يمكن أن تكون طلائع القومية ؟ .. مع المقاتلين المدافعين عن النساء والأطفال ، المتصددين لقاذفات اللهب ؟! أم « تحت قيادة المعلم يعقوب الباسلة » ؟! الذي قاوم الثورة وطعنها من ظهرها !

إذا كان مفهوماً من مؤرخ غربي أن يقول : « ولم يقاوم (الثورة) سوى درب النصرارى - القبط - تحت قيادة المعلم يعقوب الباسلة » . ولو انه حتى

« هيرولد » اضطر الى الاعتذار عن موقف يعقوب بمقدمة عن السلب والنهب الذي شن على الأحياء « المسيحية » . وهو اعتذار مفتعل شديد التلفيق ، فالقاهرة لم يكن فيها ما يمكن وصفه « بالأحياء المسيحية » بمعنى « الجيتو » الذي توحيه هذه الكلمة ، ومن الجبرتي تعرف أن بيوت المشايخ كانت تجاور بيوت النصارى . وأن أعمال الانتقام قد تناولت المتعاونين مع الفرنسيين سواء من النصارى أو شيوخ الأزهر .. ومن ثم فالزعم بأن « يعقوب » : خان الثورة وضرب الثوار « لأنه كان يدافع عن ابناء » طائفته .. هو زعمواه ، لأن رأس يعقوب كانت مطلباً جماهيرياً عاماً من قبل الاقباط والمسلمين ، منذ ان اختار « يعقوب » معسكره في خدمة جيش الاحتلال منذ لحظة وصول هذا الجيش .. وقام بكل العمليات القذرة التي يتورع المحتل نفسه عن القيام بها كما شهد « هيرولد » . ولأن تربص « يعقوب » سابق على وقوع الثورة بزمن .. فقد حول بيته الى قلعة ووضع فيه أسلحة ، وأقام فيه عدد من الجنود الفرنسيين .. مما مكّنه من القتال ضد المصريين شهراً كاملاً .. فلمن كان يستعد قبل وقوع الثورة ، وقبل وقوع حوادث النهب والاعتداء؟!!

إذا كان هذا الموقف مفهوماً من مؤرخ غربي لا يفوته أن يضرب على وتر مقطوع .. هو الطائفية . فأى عذر للمؤرخين ينتسبون لمصر عندما يجعلون من « يعقوب » هذا .. رائد القومية المصرية؟! . يعقوب الذي « كرنك » في بيته « بالرويعي » وطعن مواطنيه في ظهورهم وهم يقاتلون جيش احتلال اجنبي .. ولا يجد أمثال هؤلاء من المؤرخين ما يعتذرون به عنه إلا أنه كان يتخذ موقفاً طائفيًا يدافع فيه عن « حارة النصارى » ضد ثورة « المسلمين » .. أهذه هي بداية قومية؟! . أيمن أن يكون رائد القومية المصرية ، التي تستبعد الدين هو من قاتل حربياً طائفية؟! .. بل وصبغ ثورة القاهرة بالطائفية ... وظهر وتآلق ولمع خلال طائفته?!

ولكن لأن السبيل الوحيد لتبرئة ابليس هو إدانة الكون كله .. فان جماعة « يعقوب » لا بد لهم ان يدينوا ثورة القاهرة الثانية لكي تتم تبرئة

يعقوب ، وذلك ما يحاوله « لويس عوض » : فتورة القاهرة الاولى « كانت فيما يبدو ثورة وطنية خالصة » (فيما يبدو .. والله أعلم !) .

ويرجح هذا الظن اننا لا نسمع فيها : « عن أي أذى نزل بالأقباط ، وانما اقتصر اعتداء الغوغاء على « نصارى الشوام والأروام » الذين تحزبوا للفرنسيين ولا سيما بعد ما نزل بهم من تنكيل » (١٣) .

والعبارة كما ترى زئبقية ، فهل اعتدى الغوغاء على « نصارى الشوام والأروام » لأنهم تحزبوا للفرنسيين .. أم أن « نصارى الأروام والشوام » تحزبوا للفرنسيين بعدما نزل بهم من تنكيل؟!!

ولكن هذا الاعتذار عن نصارى الأروام يقصد به في الحقيقة تبرير موقف « يعقوب » والتمهيد للطعن في ثورة القاهرة الثانية . ولو انه بهذا التثناء « الحذر » (فيما يبدو) على ثورة القاهرة الاولى ، يدين يعقوب ، فما دامت « على ما يبدو » وطنية ، وما دمنا لم نسمع بوقوع أذى ... الخ .. فلماذا لم يشترك فيها « يعقوب » ؟!

ولكن لأن خيانة « يعقوب » واضحة في ثورة القاهرة الثانية ، فالحل هو ادانة ثورة القاهرة الثانية وتوجيه التهم لها فتوصف بأنها : « حرب دينية صريحة جعلت من الأقباط هدفاً لها » .. كذب وافتراء رخيص .. وينشر قبيل وبعد نكسة يونيو ١٩٦٧ .. (!!)

« وكانت من الأسباب المباشرة لتكتل الأقباط وإنشاء الفيلق القبطي بقيادة المعلم الجنرال يعقوب » .

والذي يقرأ هذه العبارة يظن ان « يعقوب » لم يكن له نشاط سابق على الثورة ، ولا كان له عسكر .. بل ويظن انه أنشأ هذا الفيلق لحسابه وللدفاع عن الأقباط ، وهي صورة مشوهة مزورة تماماً لحقيقة دور « يعقوب » ولحقيقة تكوين ودور هذا الفيلق .

فالفيلق تكوّن بعد ثورة القاهرة الثانية - كما سنرى - ومن فتیان جمعوا قهراً ورغم احتجاجات أهلهم ، وسبقه انشاء فيلق آخر من أوباش المغاربة والشوام والانكشارية ، المسلمين بالطبع .

ولكن « يعقوب » بشهادة « الجبرتي » ، التي « لا يملك أحد أن يطعن فيها » كان في خدمة الفرنسيين منذ اليوم الأول للاحتلال ، وفي ثورة القاهرة الثانية : « كرنك في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي . واستعد استعداداً كبيراً بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى » (١٤) . والجبرتي لا يلقى الكلام على عواهنه - بشهادة ذات لويس عوض - « يعقوب » بنى قلعة ورودها بالسلاح والمحاربين ، في قلب القاهرة ، بعد الثورة الأولى ، التي كانت « فيما يبدو » وطنية ! ولكنها - فيما يبدو واضحاً - لم تنجح في اثارة وطنية « يعقوب » وحميته .. « مما يبدو » معه ان يعقوب لم يكن وطنياً .. !! ثورة القاهرة الأولى دفعت « يعقوب » الى بناء « قلعة » استعداداً للوقعة الثانية .. وقد أجاد استخدامها الى حد أنها استطاعت الصمود طيلة الثورة .. أو شهراً كاملاً .. وطبعاً لم يكن « يعقوب » يبني قلعته هذه لمواجهة المحتلين لبلاده فهو كان يعمل في خدمتهم ٢٤ ساعة في اليوم .. ولا حتى لمواجهة الاتراك اذا عادوا ، فهو أول فأر حمل متاعه وهرب فور غرق السفينة وعودة الاتراك . بل ويشهد محاميه « لويس عوض » ان « يعقوب » لم يكن يخشى الاتراك عند عودتهم ، لأنه يعرف حاجتهم لخدماته .. وانه كان يوسع العيش بأمان ، بل ومواصلة اعماله لو عاد الجيش التركي الى مصر .. اذن ضد من كان يتحصن؟! « فيما يبدو » لا بد انه كان يتحصن ضد ابناء وطنه من المصريين؟! فمن كان يتنبأ قبل الواقعة الثانية باحتمال اشتراك عثمانيين في الثورة المقبلة؟! من كان يتخيل وقوع الظرف النادر الذي أتى ببعض العسكر العثمانية والماليك الى القاهرة؟! بسبب حادث تاريخي عجيب ، هو اجراء مفاوضات وعقد صلح ودخول القوات العثمانية سلمياً الى القاهرة ، ثم نقض الانجليز للصلح ، واضطرار الفرنسيين

لمقاتلة الترك داخل مصر .. لم يكن هناك من يستطيع التنبؤ بهذه التطورات العجيبة حتى يُدعى نيابة عنه ، انه كان يستعد لمقاتلة العثمانيين والمماليك ، هذه مهمة كان يتكفل بها الجيش الفرنسي ان حرباً أو صلحاً .. أما التصرف الطبيعي ، لكل من يتعاون مع المحتلين ، فهو الاحتياط بعد ثورة المصريين الأولى (المفاجئة للجميع) خاصة وان الثورة الأولى قد انزلت قصاصها بفئات من الطفيليين الأجانب الذين يعملون دائماً في خدمة المستعمر .. فئات من اسلاف المعمرين .. كان من الطبيعي أن يستعد كل اعوان الاحتلال ، عملاء الحكم الأجنبي لمواجهة ظروف صعبة ، اذا ما قام الشعب بثورة أخرى ، وكان « يعقوب » الأريب ، أول من أدرك ذلك ، فبنى قلعة وجمع فيها السلاح والمقاتلين .. وصب ناره في ظهر بني وطنه . ويأتي اليوم من يصب نار حقه على ثورة القاهرة الثانية ، فيصفها بأنها « حرب دينية » . و« مسرح للمذابح الدينية ومرجل للضغائن الشخصية . فاستبيح فيها كل شيء » (*) . بل هي حركة مأجورة : « تدفقت فيها الأموال التركية والمملوكية بل والانجليزية ايضاً » . سلمت قيادتها لأعوان الباب العالي ولاصدقائه ولعملائه « (١٥) » .

وإذا كان الحديث عن الذهب الانجليزي خسة ، فإن الحديث عن الذهب التركي اكثر فضيحة ولقد كان شر ما عاناه الثوار المصريين هو نهب وسلب وابتزاز العثمانيين لعواطفهم الوطنية والشيخ السادات يكتب لقائدهم : « والزامكم الكبير والصغير والغني والفقير اطعام عسكريكم (**) » .. أليس غريباً أن ينقل مؤرخ محلل هذه الفقرة ، وقبلها بصفحة واحدة يتحدث عن الذهب التركي الذي دفع رشوة للثوار !

(*) هكذا يصف لويس عوض : الثورة والثائرين!

(**) من كتاب « لويس عوض » نفسه .

نعم لا بد من تشويه صفحة الثورة المصرية لكي تنجو صفحة « يعقوب »
الذي كرنك !

والجبرتي كممثل للنخبة ، لا يتقبل الثورات بنفس راضية ، ولكنه
مع الجهاد ضد الفرنسيين .. وهو ضد سيطرة العامة ، ضد « الفتنة » وبالأكثر
ضد إثارته والعجز عنها !..

وثورة القاهرة أحاطت بها ظروف عديدة يجب وضعها في الاعتبار عند
الحديث عن الأفعال غير « النبيلة » التي وقعت أثناء الثورة :

١ - مدينة شرقية في نهاية القرن الثامن عشر محاصرة جائحة مهاجمها أقوى
جيش في العالم ، وقتها ، وبأحدث أسلحة العصر ، وتذك بيتاً بيتاً ، وتحيط
بها النيران ومناخ عاصف ممطر نادر الحدوث في مصر .

٢ - وجود عناصر عديدة غربية من العثمانيين والعرب ، نقلت هذه
العناصر أسلوبها في القتال ، سواء الخلال وتعض الجند العثماني (قل أن وجد
بينهم اترك خلس فهؤلاء كانوا متفرغين لجهاد بطولي باسل ضد الزحف
الروسي) أو تأثيرات الصدام الصليبي والتعصب المتبادل بين المغاربة
وأوروبا .

٣ - انفعال الجماهير ، بالأحقاد التي نجح الاستعمار في تأجيحها خلال فترة
حكاه ومن خلال الأسلوب الذي اعتمد عليه في تخيير الأعوان ومحاوله تمزيق
وحدة الأمة (سنعترض لذلك في فصل تمزيق الوحدة الوطنية) . وقد رأينا
ان الثورة الأولى لم توجه ضرباتها إلا للعملاء الشوام والاروام .. لأن الاستعمار
عند بداية عهده لم يجد إلا هذا الصنف على استعداد للتعاون . ولذلك كانوا
يشكلون معظم جهازه ، بينما كان « يعقوب » في ركاب ديزيه بالصعيد ، لم
يبدأ جولاته بعد في القاهرة (ويعقوب رافق ديزيه في حملته التي انطلقت
يوم ٢٦/٢٥ أغسطس ١٧٩٨ .. أي بعد وصول نابليون الى القاهرة بشهر
(٢٤ يوليو ١٧٩٨) مما يؤكد ان الأمر لم يكن فيه أي اختيار عقائدي !

فلم تكن قد أتاحت الفرصة للمعلم « يعقوب » جابي « محمد بك الالفي » ليتعرف على مبادئ الثورة الفرنسية . لذلك لم تمتد يد الجماهير بسوء الى مواطن غير مسلم .. ذلك لأن الوحدة المصرية التاريخية والأصيلة كانت سليمة لم تتجح مؤامرات الاستعمار في خدشها ، وقد أدرك الاستعمار ذلك ، فحاول - كما سنرى - تمزيق هذه الوحدة بإثارة النعرات الطائفية واستخدام « يعقوب » وأمثاله في اغراء عدد من الأقباط بل وحتى عدد من المسلمين تنصروا ، لنيل الخطوة عند المستعمر .. كان من الطبيعي أن تمتد يد القصاص لهؤلاء ، وأن يسجل المؤرخ وقوع « اعتداء » أو قصاص على بعض هؤلاء . ولكن ليس أبداً كمظهر من مظاهر حرب دينية . فضلاً عن أن تصور كحرب يشنها المسلمون ضد المسيحيين !..

٤ - انه في المرحلة الأخيرة من الثورة أصبحت الأمور تحت السيطرة الكاملة لجماهير الشارع .. بل حتى التنظيم الذي قاد الثورة وأعد لها فترة طويلة ، والذي كان بقيادة عناصر شعبية مرتبطة وموجهة من القيادات التقليدية وبالذات السيد « السادات » .. يبدو انه حتى هذا التنظيم ، اما ان الشارع تخطاه ، أو جرفه في تياره ، وليست هذه ادانة أو اعتذار ، بل تقرير لتطور طبيعي يفرضه استمرار الثورة ومرارة القتال الذي دار في الأيام الأخيرة . وهو أمر معروف في سائر الثورات من هذا النوع .

على ضوء هذه العوامل يمكن أن نفهم « التصرفات العنيفة » التي يركز خصوم الثورة الاضواء عليها . فجماهير ثورة القاهرة لم ترتكب من اعمال العنف والفوغائية ، ما ارتكبهت جماهير باريس ، ومع ذلك فما من مؤرخ أدان الثورة الفرنسية ، بسبب هذه الفوغائية ، والذين أدانوها ، لم يدينوها لهذا السبب .. بل لأسباب في جوهر الثورة ذاتها .

والمدسة الاستعمارية تعرف ان التشبث بهذه الحوادث التي استنكرها حتى الجبرتي والرافعي ، لا يفيد من تبرئة ساحة الذين قاتلوا مع الفرنسيين .. بل

لا بد من نفس القاعدة الوطنية التي تقوم عليها الثورة ، القاعدة التي تبرر الثورة وتبرر كل قصور فيها .. فاذا ما نسفت هذه القاعدة وقلب العالم رأساً على عقب .. أصبح الثوار خونة .. والخونة ثواراً .

و « لويس عوض » لم يبخل يجهد لتشويه ثورة القاهرة ، وتناول على كفاح شعبنا وتاريخ أمتنا ، وحاول عبثاً إراقة بعض قطرات من سخام الحقد والعار على أشرف صفحات التاريخ المصري .. وهو يطلق اكذوبة أكبر من التاريخ ذاته ! بأمل انه خلف دخان هذه الاكذوبة ، يمكن إخفاء عار « يعقوب » الذي « كرنك » . بل حتى « برطلمين حب الرمان » .. بل ويمكن أن يصبحا بطلين !

وهذه الأكذوبة هي نفي صفة الاحتلال عن الجيش المقتحم للقاهرة ، الضارب للثورة ، بل هو جيش تحرير جاء يحررنا من الترك ، ومن المفاهيم « القروسطية » ، ومن الانتماء الديني ، ويعلمنا ان الدين لله والوطن للجميع (الاروام والفرنسيين والمالطيين ، و « مراد » الذي تحالف وحكم الصعيد ، والسلطان الذي علينا أن نعلق بنديرته ... ولا بأس من الشعب المصري ايضاً الذي يدفع لكل هؤلاء) . والدليل على العلمانية ، التي طفحت في مصر بفضل الحملة الفرنسية ، هو ان « يعقوب ابن حنا » يكرنك في حارة « النصرى » ويشكل فيلقاً يسميه الفيلق القبطي لصد الاعتداءات الطائفية ! ويكتب نابليون الى قائده : « ان النصرى معنا مهما فعلنا فلا تسرف في تدليلهم » !

وفي ظل هذه الاكذوبة ، اذا ما صدقت ، يمكن أن يصبح يعقوب بطلاً وقائداً تحريراً .. بل ويصبح أبطال « بولاك » ، اما « رجعيين » يقاتلون ضد مصلحة أمتهم ، وضد إرادة التاريخ .. بهدف البقاء في ظل الاستعمار التركي .. أو ماجورين صرحاء فتحوا صدورهم للرصاص ومنازلهم للحرق والتدمير ، وعرضوا أولادهم ونساءهم لقاذفات اللهب (نابالم العصر) وقنابر

المدافع من أجل: « الذهب التركي والملوكي والانجليزي الذي جرى أنهاراً» (*)
في مدينة لم تكن تجد في الأيام الأخيرة لقمة خبز ولو بملء الدنيا ذهباً!
واستمرت رغم ذلك ترفض التسليم.. فاذا لم يكن «حب الذهب» فهوالتعصب
الديني.. ويتحسر - لويس - على تطرف الثوار الذي ما كان لحساب مصر!
« ولو ان كل هذا التطرف والغلو كان لحساب مصر ومن أجل استقلالها
لاختلف الأمر ولبدأ الرؤساء المصريون في موقف الانهزاميين المهادين حقاً
للاستعمار الفرنسي، ولكنه كان لحساب الأتراك والماليك وبقصد إعادة مصر
الى حظيرة الامبراطورية العثمانية » (١٦) .

هذا الافتراء، أعتقد اننا فهمنا دوافعه. ولكن لنستمع للجبرتي الذي
وضحنا موقفه من « الثورات » عموماً، ومن سيطرة الفوغاء بصفة خاصة،
ولكنه كمصري وطني.. ومؤرخ أمين صادق يمكن الاعتماد عليه، وهو اذا
كان يفتقر للمعلومات السرية التي أحاط بها الفرنسيون، إلا أنه كان واعياً
بمواقف كل القوى. وسجل للثورة ما لها وما عليها بروح الوطني المتعاطف
المنتقد.. ولترَ هل يمكن وصفه بأنه كان في الجانب المضاد؟!

قال الجبرتي :

« وأما « مراد » بيك فانه بمجرد ما عاين هجوم الفرنسيين على الباشا
والأمراء بالمطرية وكان هو بناحية الجبل ركب من ساعته هو ومن معه ومروا
من سفح الجبل وذهب الى ناحية دير الطين ينتظر ما يحصل من الأمور وأقام
مطمئناً على نفسه واعتزل الفريقين واستمر على صلحه مع الفرنسيين » (١٧)
بل وأرسل « مراد » يغري الماليك الشرفاء الذين وقفوا الى جانب الجماهير
فكتب لهم « ان الفرنسيين لا يظفروا بالعثمانية لا يقتلونهم ولا يضرئونهم
وأنتم كذلك معهم . فاقبلوا نصحي واطلبوا الصلح معهم واخرجوا سالمين .

(*) لويس عوض .

فلما بلغهم تلك الرسالة حنق حسن بك الجداوي وعمان بيك الأشقر وغيرهم وسفها رأيه . ونجح « مراد » كما يسجل الجبرتي في افساد الوفد الذي ذهب اليه : « فلما اجتمع به ورجع لم يرجع على ما كان عليه حال ذهابه وفقدت همته وجنح لرأي مراد بيك » .

ورغم موقف « مراد » والماليك هذا استمر المصريون في القتال لاعادة البلد الى « مراد » بيك - رغم انقه - !

نعود للجبرتي :

« واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب وشدة البلاء والكرب ووقوع البنبات على الدور والمساكن من القلاع والهدم والحرق وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف والجزع والهلع مع القحط وفقد المآكل والمشارب وغلق الحوانيت والطوابين والمحازب ووقف حال الناس من البيع والشراء وتفليس الناس وعدم وجدان ما ينفقونه إن وجدوا شيئاً . (رغم الذهب الانجليزي والتركي !) واستمر ضرب المدافع والقنابر والبنادق والنيران ليلاً ونهاراً حتى كان الناس لا يهناً لهم نوم ولا راحة ولا جلوس لحظة لطيفة من الزمن . ومقامهم دائماً أبدأ بالأزقة والأسواق وكأننا على رؤوس الجميع الطير . وأما النساء والصبيان فمقامهم بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية الى غير ذلك . (وفي أثناء ذلك) فرضوا على الناس من أهل الأسواق وغيرهم مائة كيس فردوها على بعض الناس كالسادات والصاوي . وصار مؤنة غالب الناس الأرز ويطبخونه بالعلس واللبن ويبيعون ذلك في طشوت وأوان بالأسواق . وفي كل ساعة تهجم العساكر الفرنسية على جهة من الجهات ويحاربون الذين بها ويملكون منهم بعض المتاريس فيصيحون على بعضهم بالمنادة ويتسامع الناس ويصرخون على بعضهم البعض ويقولون عليكم بالجهة الفلانية ، الحقوا اخوانكم المسلمين ،

فيرمحوون الى تلك الخطة والتاريس حتى يجلوهم عنها وينتقلون الى غيرها
فيفعلون كذلك .

« ويبدو ان « حسن بك الجداوي » الذي تمتع حقاً بسبعة أرواح ، ونجا
من أهوال لا يمكن أن ينجو منها مملوك كأن الله سبحانه وتعالى كان يدخره
لكي يكفر عن كل سيئات المالك بما بذله في هذه الثورة من جهد .. فكان :
« عندما يبلغه زحف الفرنساوية على جهة من الجهات يبادر هو ومن معه
للذهاب لنصرة تلك الجهة ، ورأى الناس من اقدامه وشجاعته ، وصبره
على مجاهدة العدو ليأذ ونهاراً ما ينبىء عن فضيلة نفس وقوة قلب وسمو
همة . وقل ان وقع حرب في جهة من الجهات الا وهو مدير رحاها
ورئيس كاتبها (١٨) » .

هل يمكن الشك بعد هذه العبارات في موقف الجبرتي .. والى أي جانب
ينحاز بعقله وعواطفه ووطنيته .

« وكذلك المشايخ والفقهاء والسيد أحمد المحروقي والسيد عمر النقيب ،
يمرون كل وقت ويأمرون الناس بالقتال (*) ويحرضونهم على الجهاد وكذلك
بعض العثمانية يطوفون مع اتباع الشرطة وينادون باللغة التركية مثل ذلك » .

والجبرتي لا يفوته أن يستنكر سيطرة الدهماء - وهذه الظاهرة كما
اشرنا - كانت النتيجة المحتومة ، فكلما طال القتال الشعبي ، ضعفت قبضة
القيادات التقليدية ، وزادت سيطرة الجماهير وقطاعاتها الأشد تطرفاً بالذات -
خاصة إذا كانت قطاعات واسعة في القيادة ترغب في النجاة بنفسها
والتسليم .

« وجرى على الناس ما لا يسطر في كتاب ولم يكن لأحد في حساب ولا

(*) لويس عوض يقول انه لا يحس من الجبرتي ان المحروقي وعمر مكرم كانا يلعبان دوراً
قيادياً حاسماً في هذه الثورة .

يمكن الوقوف على كلياته فضلاً عن جزئياته منها عدم النوم ليلاً ونهاراً وعدم الطمأنينة وغلو الاقوات وفقد الكثير منها خصوصاً الادهان وتوقع الهلاك في كل لحظة والتكليف بما لا يطاق ومغالبة الجهلاء على العقلاء . وتطاول السفهاء على الرؤساء وتهور العامة ولفظ الحرافيش . وغير ذلك مما لا يمكن حصره .

وبعد المساعي التي قام بها رسل « مراد » بيك وافق المشايخ الكبار على مشروع صلح ولكن العامة رفضته « فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليه وسبوم وشموم وضربوا الشرقاوي والسرسي ورموا عمائمهم واسمعوم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين . وانهم أخذوا دراهم من الفرنسيين . وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول وتشدد في ذلك الرجل المغربي الملتف عليه اخلاط العالم ونادى من عند نفسه الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر عنه ضرب عنقه . »

ثم يحمل الجبرتي حملة شعواء على هذا « المغربي » الذي فرض ارهابه ، ويبدو انه لم يكن يفكر كثيراً في مقاتلة الفرنسيين قدر اهتمامه بالظهور والحصول على أطياب الطعام وإرهاق القاهريين والبولاقيين المتحمسين لكل من يقاتل المحتل أو حتى يصرخ بقتال المحتل .

بل ان نقد « الجبرتي » لهذا المغربي الدجال ، هو أقوى حجة ضد الذين يحاولون تشويه موقف الجبرتي من الثورة ، فالجبرتي في نقده للمغربي يرتفع الى الذروة من الموضوعية ، فهو ضده ، لا لأنه في الثورة ، بل لأنه ليس في الثورة ولا مع الثائرين ، بل مضلل يتجر بالثورة ، جبان يتهرب من القتال .. اسمع كلمات الجبرتي :

« فيكلف أهل تلك الجهة أنواع المشقات والتكلفات بتعنته في هذه الشدة بطلب أفحش المأكولات وما هو مفقود . ثم هو مع ذلك لا يغني شيئاً إذا

دهم العدو تلك الجهة التي هو فيها فارقتها وانتقل لغيرها وهكذا كان ديدنه وسبحه ... وهكذا الفتن تكثر فيها الدجاجة ولو ان نيته محمضة لخصوص الجهاد لكانت شواهد علانيته أظهر من نار على علم أو اقتحم كغيره ممن سمعنا من المخلصين في الجهاد وفي بيع أنفسهم في مرضاة رب العباد لظا الهيجاء . ولم يتعنت على الفقراء ولم يجعل همته في السلب مصروفة وحال سلوكه عند الناس ليست معروفة .

هذه هي الصورة التي قدمها الجبرتي ، لا التي زورها « لويس عوض » . فالجبرتي مع « المجاهدين » ، « المخلصين » الذين « اقتحموا في الجهاد » ... وهو ضد الانتهازيين الدجالين بالطبع .

ويدهش الجبرتي ويألم في نفس الوقت من تصدي هذا الرجل لتقرير رفض الصلح أو قبوله « فما قدر هذا الأهوج حتى ينقض صلحاً أو يبرمه . وأي شيء يكون هو حتى ينادي أو ينصب نفسه بدون أن ينصبه أحد لذلك . لكنها الفتن يستنسر بها البغاث سيما عند هيجان العامة وثوران الرعاع والنوغاء » .

ونلاحظ ان الجبرتي لا يعترض على رفض الصلح ولكن يعترض على « انقلاب المطبوع » بمعنى تصدي هذا المغربي الذي فرضته الأحداث ، لتقرير مثل هذه الأمور ، متخطياً القيادات الشرعية التقليدية ..

وتبلغ دقة الجبرتي الذروة عندما يفسر احتجاجه :

« على ان المشايخ لم يأمرؤا بشيء ولم يذكرؤا صلحاً ولا غيره وإنما بلغوا صورة المجلس الذي طلبوا لأجله حضرة الكتخدا فبمجرد ذلك قامت عليهم العامة هذا المقام . وسبؤهم وشتمؤهم بل وضربؤهم وبعضهم رمؤا بعمامته الى الأرض . وسمعؤهم قبيح الكلام . وفعلاؤا معهم ما فعلوا وصاروا يقولون لولا أن الكفرة الملاعين تبين لهم القلب والعجز ما طلبوا المصالحة والموادعة . وان بارودهم وذخيرتهم فرغت » .

وما كان الجبرتي بالذي يقبل انهيار قيادة الشيوخ، ورغم ظروف الموقف، ورغم ميولنا اليوم مع العامة، فقد كان « الجبرتي » على حق، ففي هذه المرحلة بالذات كان الخطر الاكبر على مستقبل الأمة هو انهيار قيادة المشايخ، سواء تم ذلك بضربات نابليون من أعلى بإعدام الشيوخ وضم عناصر غريبة مريبة الى التشكيلات التي تضم الشيوخ.. أو جاء هذا الانهيار من أسفل بفقدان العامة ثقتهم في الشيوخ.. كان مستقبل مصر يرتبط الى حد كبير بتدعيم وتطور ارتباط العامة بالشيوخ. لكن المهم في عرض « الجبرتي »، انه ينفي كل ادعاء يحاول أن يصف ثورة القاهرة بأنها فتنة طائفية أو حرب دينية ضد الأقليات غير الاسلامية.. بل توضح عبارات الجبرتي، انها حركة رفض جارفة كانت تحرق كل من يقف قريباً من معسكر الأعداء، أو حتى يشبهه في وقوفه أو رغبته في الوقوف الى جانب هذا المعسكر، أو يعترض مسيرة الثورة، أو حتى يحاول أن ينجو بجلده!

وعلى أية حال فإن شهادة الجبرتي التي التزم الجميع بقبولها تنسب الى « نصوص باشا » أنه هو الذي قال: « للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم. فعندما سمعوا منه ذلك القول، صاحوا وهاجوا ورفعوا اصواتهم ومرّوا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم فذهبت طائفة الى حارات النصارى وبيوتهم التي بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكي فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين لهم ». وهو أيضاً يشهد بأن النصارى: « كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الاسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الامر ». فهذا الاعتداء تحككه هذه العوامل:

١ - انه لم يكن هدفاً للثورة، فكما لا يجوز القول أن معارك القناة سنة ١٩٥١ كانت تهدف الى حرق القاهرة!.. كذلك لا يجوز القول ان ثورة القاهرة الثانية كانت تستهدف الاعتداء على الأقليات!

٢ - ان الاعتداءات كانت منطلقة من دافع قومي، هو اتهام - مها تكن صحته - هذه العناصر بموالة المستعمر والعمل لحسابه ، فليس للعدوان في هذه الحالة صبغة طائفية أو دينية ، تماماً كما حدث في معظم البلاد العربية خلال العدوان الاسرائيلي المتكرر حدث أن انعكس العدوان الاسرائيلي في انفعالات ، ضد اليهود المحليين ، تختلف درجات التعبير عنها من بلد لبلد ، باعتبار ظروف اليهود في هذا البلد . ولكن هذه الاعتداءات لا تتطلق من نزعة عداة السامية، بل من نزعة عداة المعتدي الصهيوني، فهي حتى لو أُدينت في حد ذاتها ، إلا أن هذه الادانة لا يجوز ان تمتد لادانة الموقف العام من أساسه .. وإن كانت نفس المحاولة « الارهابية » ما زالت تستخدم ضدنا ، فإسرائيل أو الصهيونية، تحاول شل يد المقاومين للعدوان الصهيوني بالتخويف بتهمة التعصب ضد اليهود ، أو عداة السامية !.. كذلك كان الاستعمار الغربي ، يلعب دائماً على تهمة « التعصب الاسلامي » لتخويف كل معارضة وطنية لوجوده .

ويؤكد تفسيرنا ان الاعتداءات شملت المسلمين، وحتى المشايخ، والأشراف.. لأن الدافع الاساسي كان دافعاً وطنياً ، ومن ثم امتد العنف للجميع ، لكل الذين ظنت الجماهير أن هوامم مع المحتل .

٣ - ان الانطلاق لمهاجمة بيوت غير المسلمين كان توجيهاً من خارج الثورة، وعارضاً .. ولكن ذلك لا ينفي ان الجماهير كانت مهيأة نفسياً له ، وذلك بفعل ما أشرنا اليه من سياسة المحتل الفرنسي في إثارة الأحقاد والنكرات الطائفية ، ونجاح العناصر العميلة من أمثال « يعقوب » في استفزاز الجماهير ، والايحاء لها بأن غير المسلم له مكانة خاصة عند المستعمر ، وأن غير المسلمين ، لا يعادون هذا المستعمر ، وهو ما سنشرحه .

المهم أن سلوك المصريين في مجموعه كان سلوك مقاومين شرفاء ، وكانت مواقف المماليك الذين انضموا للشوار، تتسم أيضاً بالانضباط وسلوك المقاتلين .

بينما اندفعت عناصر غير مصرية ترتكب الجرائم تحت حماية الثورة، تماماً كما كانت عناصر غير مصرية ترتكب الجرائم تحت حماية الاحتلال . فكان ذلك المغربي الذي « التفتت عليه طائفة من المغاربة البلدية وجماعة من الحجازية ممن كان قدم صحبة الجيلاني الذي تقدم ذكره وفعل ذلك الرجل المغربي أموراً تنكر عليه لأن غالب ما وقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه فكان يتجسس على البيوت التي بها الفرنسيين والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمع من العوام والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلى والثياب.. وتتبع الناس عورات بعضهم البعض وما دعتهن اليه حظوظ أنفسهن وحقدن وضعائهنم » .

ومها تكن شخصية هذا المغربي، ومها تكن حقيقة جنسيته ، فهذه فترة عجيبة حافلة بالعناصر المندسة . ومعظم جواسيس فرنسا في هذه الفترة كانت العامة تسميهم « مغاربة » .. على أية حال ، الثابت انه لم يكن مصرياً . والثابت ايضاً انه قد استحال فرض الطابع الطائفي تماماً على حركة الجماهير ، حتى عندما وصل الانفعال ذروته فالجبرتي يتابع: « واتهم الشيخ خليل البكري بأنه يوالي الفرنسيين ويرسل اليهم الأطعمة . فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض أوباش العامة . ونهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريره وأحضروه الى الجمالية وهو ماشي على أقدامه ورأسه مكشوفة وحصلت له أهانة بالغة وسمع من العامة كلاماً مؤلماً وشتماً » (١٩) ... أما المجرى الرئيسي للثورة فقد ظلّ سليماً ، وطنياً ، مضحياً ، مجاهداً .. وكما أدان الجبرتي التطورات التي لم يقبلها من حركة الفوغاء ، وخاصة انطلاق الغرائز ، والانتقام بالفعل الخاطيء من السلوك الخاطيء ، نراه كمؤرخ صادق منصف ، يشيد بالجانب المشرق من حركة المقاومة ، أو نقل جوهرها السلم النبيل : « وصار جميع أهل مصر إما بالأزقة ليلاً ونهاراً وهو من لا يمكنه القتال . وإما بالأطراف

وراء المتاريس وهو من عنده أقدام وتمكن من الحرب . ولم ينم احد بيته سوى الضعيف والجبان والخائف .

وكان الجبرتي كان يعيش محتنتا .. وكأنه يرد على من يتهم اجداده بالرشوة ، والكفاح بأجر ! مؤرخنا يفند تهمة الذهب الانجليزي ، الذي لم يخطر ببال معاصر « للجبرتي » أن يدعيها .. فيقول الجبرتي دون قصد إلا إثبات حقائق التاريخ : « وبأمر السيد احمد المحروقي وباقي التجار ومساير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب وكذلك جميع أهل مصر كل انسان سمح بنفسه ويجمع ما يملكه وأعان بعضهم بعضاً . وفعلوا ما في وسعهم وطاقتهم من المعونة .

وهي صورة مناقضة تماماً لصورة الآخرين المندفعين لأعمال النهب والسلب . ولكنها هي الجوهر الحقيقي للثورة . أما الذين يريدون صورة نقية تماماً « فلن يعيشوا حتى يرونها . » وفي كل الحركات التي تعتمد على غضبة العامة ، لا بد أن تشوبها عمليات من هذا النوع ، ولكنها لا تقسد جوهر الحركة . ولا يجوز أن ندين الجوهر بالعرض .

ولا شك انه في ظروف عاصمة شرقية في مطلع القرن التاسع عشر . وبعد سنتين من احتلال اجني مزق قيماً كثيرة ، وخلق إحناً لم تكن موجودة ، وأثار أحقاداً واثارات . وفتح الباب أمام عناصر غريبة عديدة ، وعناصر مشبوهة الولاء ، مريبة التحركات . ومع وجود قوات غير مصرية ، اشتهرت بانحطاطها ، يصعب تصور ثورة نظيفة مائة بالمائة .. سديدة الخطوات حكيمة الانفعالات .. فلنعد إذن لثورتنا دون أن ترهبنا محاولات التشويش عليها : « أما الفرنساوية فانهم تحصنوا بالقلع المحيطة بالبلد وبيوت الألفي وما ولاء من البيوت الخاصة بهم وبيوت القبطية المجاورين لهم » (٢٠) .

أما القوات الرئيسية للماليك والعثمانيين فهذه هي الصورة التي يقدمها المؤرخ الذي « يجب ان تقبل شهادته بدون تحفظ » فبعد هزيمة الوزير العثماني

أمام « كليبر » ، وفراره بمن بقي من جيشه . تخلف عنه ببليس جملة من
العسكر . وأما عثمان بيك وحسن وسليم بيك أبو دياب ومن معها فانها تقاتلا
مع الفرنساوية . ثم رجعا الى ببليس فحاصروا من بها . وكان عثمان بيك
وسليم بيك وعلي باشا الطرابلسي وبعض وجاقلية خرجوا منها وذهبوا الى
ناحية العرضي فحارب الفرنساوية من ببليس من العسكر ولم يكن لهم بهم
طاقة فطلبوا الأمان (العسكر) وأخذوا سلاحهم فأخرجوهم حيث شاءوا ..
فذهبوا شتاتاً في الأرياف يتكففون الناس ويأوون الى المساجد الخربة ومات
أكثرهم من العرى والجوع .

هذا جيش العثماني !

« ثم لما لحق عثمان بيك ومن معه بالعرضي ناحية الصاحية تكلموا مع الوزير
وأوجعوه بالكلام . فاعتذر اليهم بأعذار منها عدم الاستعداد للحرب .
وتركه معظم الجيخانة والمدافع الكبار بالعريش اتكالا على أمر الصلح الواقع
بين الفريقين وظنه غفلة الفرنساوية عما دبّره عليهم مع الانكليز فقال له
عثمان بيك أرسل معنا العسكر وانتظرنا هنا فخطب العسكر وبذل لهم
الرجائب فامتنعوا ولم يمثّل منهم إلا المطيع والمتطوع وهم نحو الألف وعادوا
على أترهم وجمعوا منهم من كان مشتتاً ومنتشراً في البلاد ورجعوا يريدون
محاربة الفرنساوية فنزلوا بوهدة بالقرب من القرين لكونهم نظروه في قلة من
عسكره وعلمهم بقرب من ذكر منهم فضاربوهم بالنباييت والحجارة وأصيب
سرج سارى عسكر بنبوت فانكسر وسقط ترجمانه الى الأرض وتسامع
المسلمون فركبوا لنجدتهم واستصرخ الفرنساوية عساكرهم فلحقوا بهم ووقع
الحرب بين الفريقين حتى حال بينهما الليل فانكف الفريقان وانحاز كل فريق
ناحية فلما دخل الليل واشتد الظلام أحاط العسكر الفرنسي بعساكر
المسلمين فأصبح المسلمون وقد رأوا احاطة العسكر بهم من كل جانب فركبت
الخيالة وتبعتهم المشاة ، واخترقوا تلك الدائرة وسلم منهم من سلم وعطب من

عطب ورجعوا على أثرهم الى الصالحية فعند ذلك ارتحل الوزير ورجع الى الشام . أما مراد بيك فإنه بمجرد ما عاين هجوم الفرنسيين على الباشا والأمراء بالمطرية . وكان هو بناحية الجبل ركب من ساعته هو ومن معه ومروا من سفح الجبل وذهب الى ناحية دير الطين ينتظر ما يحصل من الأمور وأقام مطمئناً على نفسه واعتزل الفريقين واستمر على صلحه مع الفرنسيين مع هذا حاصل خبر الشريطين ، (٢١) .

أما في القاهرة ، فكان مركز الثورة في بولاق فإن حي الأزهر ، على ما يبدو ، لم يكن قد أفاق تماماً من الضربة الوحشية التي أنزلها به نابليون . ومن ثم تولت « بولاق » عبء الجولة الثانية . « والحرب سجال » كما تنبأ الجبرتي في صلح الجولة الاولى .

« وأما بولاق فإنها قامت على ساق واحد وتحزم الحاج «مصطفى البشتيلي» وأمثاله وهيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا وأول ما بدؤا به انهم ذهبوا الى وطاق الفرنسيين الذي تركوه بساحل البحر وعنده حرسه منهم . فقتلوا من أدركوه منهم . ونهبوا جميع ما فيه من ضياع ومتاع وغيره ورجعوا الى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودائع التي للفرنساوية . وأخذوا ما أحبوا منها وعملوا كرانك حوالي البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد وقوى في رأسهم العناد . واستطالوا على من كان ساكناً ببولاق من نصارى القبط والشوام فأوقعوا بهم بعض النهب وربما قتل منهم أشخاص .

« والبشتيلي » بالذات كان يعدّ للثورة منذ زمن بعيد ، فقد قبض عليه على أثر معلومات .. ووجدوا عنده بارود كان يخترنه : « الحاج مصطفى البشتيلي الزيات من أعيان أهالي بولاق ، قبضوا عليه في ٢ ربيع أول ١٢١٤ (أغسطس ١٧٩٩) » والسبب في ذلك ان جماعة من جيرانه وشوا عنه بأن بداخل بعض حواصله الذي في وكالته عدة قدور مملوءة بالبارود فكبسوا على الحواصل فوجدوا بها ذلك كما أخبر الواشي ، (٢٢) .

وبعكس ما يفترى كاتب المدرسة الاستعمارية فإن المصريين هم الذين انفقوا على العسكر : « وتكفل التجار ومساير الناس والأعيان بكلف العساكر المقيمين بالمتاريس المجاورة لهم فالزموا الشيخ السادات بكلفة الذي عند قناطر السباع وهم مصطفى بيك ومن معه من العساكر وأما أكبر القبط مثل جرجس الجوهري وفلتيوس وملطي فإنهم طلبوا الأمان من المتكلمين من المسلمين لكونهم انحصروا في دورهم وهم في وسطهم وخافوا على نهب دورهم إذا خرجوا فارين فأرسلوا اليهم الأمان فحضروا وقابلوا الباشا والكتخدا والأمراء وأعانوهم بالمال واللوازم .

هذا عن أكبر القبط .. « وأما يعقوب فإنه كرنك في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي واستعد استعداداً كبيراً بالسلح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى » (٢٣) .

ومن كلام الجبرتي يفهم أن أكبر القبط كانوا يسكنون وسط بيوت المسلمين ، وأن موقفهم — بصرف النظر عن تحليل الجبرتي للنوايا فهذه قضايا لا يعرفها إلا الله ، ولا يدان أحد بها ما دام الفعل جيداً — كان يختلف عن موقف «يعقوب» ، فهم جاءوا وأعانوا — كما فعل أغنياء أو أكبر المسلمين — بالمال واللوازم .. ولم تمتد لهم يد بسوء .. بعكس «يعقوب» الذي « كرنك » (تحصن) منذ البداية ومنذ الواقعة الأولى .

« بعد ثمانية أيام من ابتداء الحركة أتم الفرنسيون حصار القاهرة وبولاق » .

« وقطعوا الجالب عن البلدين وأحاطوا بها احاطة السوار بالمعصم » .

« فكانت جماعة من المفوضين لهم المحصورين داخل المدينة كبعض القبطه ونصارى الشوام وغيرهم يهربون اليهم ويتسلقون من الأسوار والحيطان مجريهم وأولادهم » (٢٤) .

واعقل الثوار مصطفى آغا مستحفظان (المحافظ) وأجريت له محاكمة

ثورية وأعدم وهو الذي أثار حتى أعضاء الديوان بسبب سلوكه وتفانيه في تنفيذ تعاليم الفرنسيين فوق المطلوب أحياناً .

« واتهم مصطفى آغا مستحفظان بمولاته للفرنساوية وانه عنده في بيته جماعة من الفرنسيين. فهجمت العساكر على داره بدرج الحجر فوجدوا انفاراً قليلة من الفرنسيين فقاتلوا وحاموا عن أنفسهم وقتل منهم البعض وهرب البعض على حية حتى خلصوا الى الناصرية وأما الآغا فإنهم قبضوا عليه . « وأقاموا عليه البينة بما ارتكبه من الايذاء وقتلوه « (٢٥) . وفي الجبرتي «خفقوه ليلاً بالوكالة التي عند باب النصر ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد» .

وهو المصير الذي كان ينتظر « يعقوب » لو نالته عدالة الجماهير .. دون أن يحمل ذلك أي تفرقة طائفية فعلى المزبلة خارج البلد يتساوى الآغا « مصطفى » والمعلم « يعقوب » .. كلاهما عميل للاستعمار نكل بالشعب .. أي طائفية مقبته أن نأتي نحن اليوم فنوافق على قتل الآغا « مصطفى » ، ونستنكر الاعتداء على « يعقوب » أو العكس .. مجرد أن « مصطفى » أو « يعقوب » من هذا الدين أو ذلك ؟!

« صار ينادي على الحمار والبغل المعدد الذي قيمته ثلاثون ريالاً وأكثر بمائة نصف فضة أو ريال واحد وأقل ولا يوجد من يشتره وفي كل يوم يتضاعف الحال وتعظم الأهوال وزحف المسلمون على جهة رصيف الحشاب وترامي الفريقان بالمدافع والنيران حتى احترق ما بينهم من الدور . « وقاتل أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم في النيران حتى غلب الفرنسيين عليهم وحصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هول النواصي وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة والحارات . «

« وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات. ومخازن الغلال والسكر والكتان والقطن والأبازير والأرز

والأدهان والأصناف العطرية وما لا تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور والذي وجدوه منعكفاً في داره أو طبقته ولم يقاتل ولم يحدوا عنده سلاحاً نهبوا متاعه وعروه من ثيابه ومضوا وتركوه حياً وأصبح من بقى من ضعفاء أهل بولاق وأهلها وأعيانها الذين لم يقاتلوا فقراء لا يملكون ما يستر عورتهم وذلك يوم الجمعة ثالث عشرينه (رمضان ١٢١٤ - أبريل ١٨٠٠) وكان محمد الطويل (*) كاتب الفرنساوية أخذ منهم أماناً لنفسه وأوهم أصحابه أنه يحارب معهم . وفي وقت هجوم العساكر أنفصل اليهم واختفى البشتيلي فدلوا عليه وقبضوا على وكيله وعلى الرؤساء فحبسوا البشتيلي بالقلعة والباقي بيت سارى عسكر وضيقوا عليهم حتى منعوم البول « (٢٦) » .

« فكانت مدة الحرب والحصر بما فيها من الثلاثة أيام الهدنة سبعة وثلاثين يوماً » .

« وضرب في هذه الواقعة عدة جهات من اخطاط مصر الجليلة مثل جهة الأزيكية الشرقية من حد جامع عثمان والفواله وحارة كنخدا ورصيف الخشاب وخطة الساكت الى بيت سارى عسكر بالقرب من قنطرة الدكة وكذلك جهة الهواء الى حارة النصارى من الجهة القبليه . وأما بركة الرطلي وما حولها من الدور والمنتزهات والبساتين فإنها صارت كلها تلالاً وخرائب وكيان أترية . ومما تخرب أيضاً حارة المقس من قبل سوق الخشب الى باب الحديد . وجميع ما في ضمن ذلك من الحارات والدور صارت كلها خرائب متهدمة تسكب عند مشاهدتها العبرات « (٢٧) » .

ولا بدّ أن الاتهامات كانت منتشرة في القاهرة على نطاق واسع حول « موالسه » الأمراء والعثماني مع الفرنسييس .. فالشيخ « السادات » يتهمهم بأنهم فروا « فرار الفيран من السنور وتركتهم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور » .

(*) العملاء كانوا من كل لون ودين كما ترى .

والجبرتي يتهمهم بأنهم تركوا السلاح والمدافع للفرنسيين لأنهم « حاسبوهم على كلفته ومصاريفه وقبضوا ذلك من الفرنسيات » .

ونقف قليلاً مع الرافي حيث تطالعنا عفته وثورته الطاهرة الذيل !!
فيدي أسفه على وقوع حوادث « اعتداءات يؤسف لها على المسيحيين في المدينة لا يسع الكاتب المنصف إلا أن يشعر بأسف عميق لوقوع هذه الحوادث » .

ويقفز عبر الزمن ليتولى الأسف باعتباره الكاتب المنصف فيعظنا وكأنه يخطب في جماهير ثورة ١٩١٩ : « لأن الاعتداءات المذهبية تشوه الثورات وتلقى عليها تبعات جساماً .. ولا يخفف من هذه التبعة كون الاعتداء لم يقتصر على المسيحيين بل تناول فريقاً من المسلمين ممن اتهمهم الثوار بموالاته الفرنسيين فقد قتلوا محافظ المدينة (مصطفى آغا) بهذه الحجة كما قدمنا ، واعتدوا كذلك على السيد خليل البكري ، ولم يراعوا منزلته ولا مقام بيته ، وشهر به العامة . فساقوه في الشوارع عاري الرأس تتبعه الشتائم والإهانات ، وكادوا يفتكون به ، نقول ان مثل هذه الحوادث ليس من شأنها أن تخفف من تبعة الاعتداء على المسيحيين ، لأنها هي كذلك خليقة بالسخط والاستنكار » (٢٨) .

ومها بذلنا من جهد لا نستطيع أن نفهم اصرار « الرافي » - رغم تقديرنا لمشاعره النبيلة وأنصافه - على أن الاعتداء على المسلمين الموالين للفرنسيين لا يخفف من تبعة الاعتداء على المسيحيين المتهمين بنفس التهمة !؟

كيف يكون « اعتداء مذهبياً » ذلك الذي يستهدف مسيحياً متعاوناً مع الفرنسيين جنباً الى جنب مع شيخ يحمل لقب نقيب الإشراف أي نقيب كل من يحمل لقب « السيد » وينتسب الى نسل رسول الله ! وآخر دوحه ابي بكر الصديق رضي الله عنه - كما يعرف نفسه ويصدقه الناس - كأن على الجماهير أن تشل يدها وتوقف عدلها الثوري ، وتكبح غضبتها ، فلا تمتد الى

المسيحي المتعاون مع الفرنسيين حتى لا تتهم أمام التاريخ بالاعتداءات المذهبية
والنزعة الطائفية !

إن هذه الحساسية المفرطة من جانب بعض الكتاب ، تكشف في الحقيقة
عن طائفية غير معلنة ، طائفية غير موجودة عند الجماهير .. هذه هي
« اللطائفية السوقية » التي يتحدث عنها تأثر جزائري ..

فالطائفية ليست فقط في التنكيل بالمخالفين في الدين « بسبب دينهم » ..
بل ان الوجه الآخر للطائفية هو اعتبارهم فوق القانون وفوق المؤاخذة ،
لمجرد أنهم أقلبيات .. الطائفية هي المعاملة الخاصة للمواطن بسبب دينه ، سواء
أكانت هذه المعاملة شراً أو خيراً .. ومن ثم فالجماهير لم تكن طائفية لأنها
أزلت قصاصها بلا تمييز .. بينما بعض المؤرخين اليوم ينطلقون من مفهوم
طائفي .. عندما يواجهون هذه القضية يمثل هذه الحساسية .

أما إذا كان الرافعي يستنكر الاعتداء على الأفراد ، فهذه قضية محل
نقاش أبدي .. ولكن من الذي يستطيع أن يضبط حركة الجماهير وهي
تخوض حرباً دامية ضد عدو شرس ؟ من الذي يستطيع أن يضبط أعصابها
وسط مدينة محاصرة مشتعلة بالنيران ، من الذي يستطيع أن يمنع هذه الجماهير
التي تواجه الموت محترقة ، من انزال القصاص بيدها من المتهمين بالتعاون مع
العدو المحتل الأجنبي ؟ من الذين يطلقون النار على ظهرها أثناء القتال .. بل
ومن تعرف أنهم سينكفون بها فور انتصار الفرنسيين ؟

« والرافعي » غاضب - « كالجبرتي » - من « غلبة الجهلاء على العقلاء
وتطاول السفهاء على الرؤساء » فهذه الظاهرة عند « الرافعي » - الذي يحتفظ
هو وحزبه « للوغاء » بذكريات مريرة ، بسبب التفاف الغوغاء حول حزب
الوفد .. لذلك يفلسف الظاهرة في شكل نظرية فيقول أن تطاول السفهاء على
الرؤساء : « داء وبيل تظهر اعراضه في اوقات الفتن واشتداد الكروب
والحمن » . « وإذا أردت أن تعرف الى أي حد جر « تغلب الجهلاء على

العقلاء وتطاول السفهاء على الرؤساء « أثناء ثورة القاهرة ، فانظر الى ما كان من أمر مساعي الصلح التي قام بها العقلاء في ذلك الحين لوضع حد للمأساة المروعة والمجزرة للبشرية التي صبغت القاهرة دماء وحرائق وكيف اخفقت تلك المساعي أمام غلبة الجهلاء وتطاول السفهاء . فقد كان العلماء يسعون في حقن الدماء » (٢٩) .

فالمرخ البورجوازي ينتشي ببطولة اسلافه ، ولكن يفزعه منظر الدماء والتضحيات والحرائق .. كم كان يبدو له ، جميلاً أن يقاتل القاهريون ويخترعون المدافع ويصنعون البارود والقنابل . فإذا ما بدا أن الرجحان من نصيب الفرنسيين ، بادر علماءهم فحفظوا الدماء ونجت القاهرة من الحريق والدم !

ان القيادة التقليدية التي قادت كفاحنا الوطني منذ فشل ثورة عرابي ، لم تكف أبداً عن ابداء جميل عواطفها وزغبتها في حقن الدماء وتجنيب بلادنا ويلات الحرب .. آه وكم حققت من دمائنا .. وفرطت في استقلالنا وحقوقنا وكرامتنا كأمة .. فتحت شعار « تجنيب بلادنا ويلات الحرب » انتقلت من التفريط الى الاستسلام ، ومن المساومة الى الخيانة . ولكن تجربة التاريخ أثبتت أن الدماء الوحيدة التي تحقنها المساومة .. هي دماء الغزاة والمحتلين والأعداء . لأن دماء الشعب المقهور تهدر بمعدل أكبر تحت وطأة الاستسلام ، منها في ساحة القتال من أجل التحرر . وان مصرنا الجميلة تدوي وتدمر إذا ما استسلمت للغزاة ، وتنمو وتزدهر خلال حربها التحررية .

فالمجاهدون في ثورة القاهرة ما كان بوسعهم أن يوقفوا الثورة في منتصف الطريق ، والرافعي نفسه وهذه هي مأساته - إذ أنه لا ينتمي الى موقف مضاد ، يبيح له تزور التاريخ - بل يلتزم بالصدق والأمانة في إثبات وقائع التاريخ ، لذا يعترف بعد سطور ليس إلا من لعنه الذين ضيعوا فرصة الصلح ، يعترف بأن كليبر : « لم يكن صادقاً في عهده » للعلماء بإنهاء القتال « دون تشكيل ولا عقوبات » فماذا كانت الجماهير ستكسب إذا ما خانت ثورتها

واستسلمت لرحمة الغازي المتوحش ربما كسب الرأي العام العالمي .. لحسن
حظنا لم تكن هذه الاكذوبة قد عرفت بعد ..

« وبذلك اخفقت المساعي وتجددت المذبحة . وتجددت معها فجائع القتل
وسفك الدماء والاحراق والتدمير . ثم انتهت المأساة بالتسليم بعد أن نزل
بالناس من الخطوب والأهوال ما لم يشهدوا مثله من قبل » هكذا يتأسف
« الرافي » .. وليكن .. فهل من سبيل آخر امام الأمم للتحرر إلا طريق
الدم والخطوب والأهوال وخوض ما لم يخوضوا مثله من قبل .. لكي يحققوا
عزة ونصراً وتقدماً لم يحققوا مثله من قبله !؟

ولكن ليس دقيقاً أن نقول ان « بولاق » استسلمت .. فالحق أن بولاق
أخذت عنوة بجد السيف ، بالحديد والنار .. سقطت شبراً شبراً وبيتاً بيتاً ،
ورصيفاً رصيفاً .. ولا عار على بولاق أن تؤخذ عنوة وأن يقهرها أقوى جيش ،
وقتها ، فالعار لمن يستسلمون بلا قتال ..

نعم أخذت بولاق .. سحقت .. دمرت أبيدت .. فالصورة التي تمت بها
تصفية الثورة ، ليست صورة تسليم واستسلام :

« ولكن نار المدفعية الفرنسية حطمت المتاريس القائمة على مدخل الحي ،
فتغرقت فيها ثغرة كبيرة اندفق منها الجنود الى شوارع بولاق ، وأضرموا
النار في البيوت القائمة بها ، فاشتعلت فيها واتسع مداها ، وامتدت الى مباني
الحي من مخازن ووكانل ومحال تجارة فالتهمتها وما كان فيها من المتاجر
العظيمة ، ودمرت هذا الحي الكبير الذي يعد ميناء القاهرة ، ومستودعاً
لمتاجرها ، وهدمت الدور على سكانها ، فباد كثير من العائلات تحت الانقاض
أو في لهب النار . وكانت مأساة مروعة » (٣٠) .

« وهجموا على بولاق من ناحية البحر ومن ناحية بوابة ابي العلاء ، وقاتل

أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم في النيران (*) حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصروهم من كل جهة ، وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب ، وملكوا بولاق . وفعلاوا بأهلها ما تشيب من هولته النواصي ، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة ، واحترقت الابنية والدور والقصور ، الخ ..

وينقل « الرافعي » عن الميسو « جالان » :

« في اليوم الحادي والعشرين من شهر جرمينال (يوافق ١٤ ابريل ١٨٠٠) انذرت بولاق بالتسليم ، فرفض أهلها كل انذار وأجابوا بإباء وكبرياء أنهم يتبعون مصير القاهرة ، وأنهم إذا هوجوا فهم مدافعون عن أنفسهم حتى الموت . فأخذ الجنرال فريان يحاصر المدينة وبدأ يصب عليها من المدافع ضرباً شديداً أملأ منه في إجبار الأهالي على التسليم ، ولكنهم أجابوا بضرب النار ، فأطلقت المدافع قنابلها على المتاريس ، وهجم الجنود على الاستحكامات فاقتمحوها اكثرها وظلّ بعضها يقاوم ، واستبسل الأهلون في الدفاع ولجأوا الى البيوت فاتخذوها حصوناً يمتنعون بها ، فاضطرت الجنود الى الاستيلاء على كل بيت منها ، والتغلب عليها بقوة الحديد والنار ، وبلغ القوم في شدة الدفاع حداً لا مزيد بعده ، وفي هذا البلاء عرض العفو على الثوار فأبوا واستمر القتال (**) ، فجعلنا المدينة ضراماً ، وأسلفناها للنهب ، وصار أهلها عرضة لبطش الجنود وتنكيلهم ، فجرت الدماء أنهاراً في الشوارع واشتملت النار أحياء بولاق من أقصاها الى أقصاها ، وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة هدفاً للخراب ، ويقرر أنه قد « مضت ثمانية أيام والنار تلتهمها ولا تزال تشتعل فيها » (٣١) . « أما القاهرة فيؤرخ «جالان» أيضاً معركتها: «صبت المدافع قنابلها على المدينة الثائرة، ودوى صوت الضرب في كل مكان.

(*) من أجل الذهب الانجليزي وإعادة حكم المايك ! كما يدعى « لويس عوض » !

(**) رائمة يا مدينتي يا عاصمة العروبة .. خالدة يا أمتي .. وشاهت وجوه المناقنين !

وظلّ اطلاق القنابل والرصاص متواصلاً طول الليل وشبت الحرائق في جهات متعددة وأخذت النيران في كل لحظة تلتهم المنازل بعضها أثر بعض، وأحدثت النار من الحرائب والحرائق في القاهرة، ما لم يحدث مثله منذ بدأ الحصار . وقد قتلنا عدداً كبيراً من الناس في تلك الموقعة المروعة، ولكننا فقدنا كثيراً من الشجعان قبل أن تصبح المدينة في قبضة يدينا .

وبعد أسبوعين من « وقوع المدينة في قبضتهم » يصف « جالان » حالة القاهرة (٥ مايو ١٨٠٠) : « عمّ الخراب أحياء بأكملها وتمثل لنا شبحة الخيف في الأزبكية ، وأثرت في نفسي صورته المفزعة ، فليس في الإمكان أن تخطوا خطوة إلا على كثران من الخرائب والأتربة ، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم ، وزاد هذا المنظر فظاعة أن الجنود مدفوعين بفكرة النهب (*) كانوا ينبشون الجثث من تحت الانقاض والخرائب فكلمنا أظهروا جثة زاد المنظر هولاً وفضاعة » (٣٢) .

« ودخل الفرنسيون الى المدينة يسعون وإلى الناس بعين الحقد ينظرون » (٣٣) .

ولكن قبل أن تنتقل إلى الفرنسيين وما فعلوه بعين الحقد التي نظروا بها إلى المصريين الثائرين . نود أن نقف طويلاً - قدر الإمكان - على أخطر حادثة في تاريخ ثورة القاهرة، بل أخطر حادثة في تاريخ الشرق الإسلامي كله.

(*) أي صورة حضارية قدمت لأبناء القاهرة وجند الثورة الفرنسية ، ينبشون جثث الموتى للتفتيش في جيوبها وقطع الاقراط والحوام من آذان وأصابع النساء !

الثورة الصناعية

إن الصراع الفكري الذي يدور في الشرق وفي عالمنا العربي بالذات منذ الحملة الفرنسية الى اليوم يدور بين مدرستين أساسيتين :

● المدرسة الوطنية وهي تلك التي تقول بأن الشعوب المتخلفة لا يمكنها أن تحقق تقدمها التكنولوجي إلا من خلال رفض قيم الحضارات المتفوقة ، رفض الاندماج فيها ، رفض التبعية لها ، وانه بقدر ما تنشبت الأمة بوجودها وذاتيتها وتراثها وحضارتها بقدر ما تزداد قدرتها على اكتساب عوامل التفوق الآلي عند خصمها . فقضية التقدم والتخلف بالمقاييس المادية ، هي قضية التفوق الآلي بين الأمم . وهي الظاهرة الأساسية الواضحة في صراع الحضارات ، وتحديد علاقة الأمم ببعضها .

وكل أمة يسها هذا الصراع ، أو تصبح طرفاً فيه تدرك ان التفوق الآلي هو الذي يمكن خصمها منها ، أو يمكنها من خصمها ، فما من خلاف على أهمية الآلات التي تصنع الأسلحة ، وتتحول إلى أسلحة .. وليس كسفاً أن يتنبه البعض لأهمية التقدم التكنولوجي !.. لكن المشكلة هي في اكتشاف السبيل الذي يمكن أن تسلكه الأمة المتخلفة «آلياً» لكي تحقق تقدمها الآلي .
هذه هي القضية .

وكما قلنا، فإن رأي المدرسة الوطنية والذي تشهد بصحته تجارب التاريخ كله ، من العرب الى اليابان ، وتبرز صدقه تجاربنا الفاشلة ، بل وتجارب كل الشعوب التي ما زالت تترزح تحت التخلف .. هذا الرأي هو القائل بأنه ما من أمة تستطيع الخروج من دائرة التخلف « ومسايرة الزمن » إلا خلال صراعها ورفضها وكفاحها ضد الحضارات المتفوقة المتقدمة المعاصرة .

● لكن المدرسة التغريبية ، المدرسة الاستعمارية ، تقول بالعكس ، إذ تعتبر ان الحضارة كمجرى نهر ، يكفي أن تشقّ ترعة لمياهه حتى تجري في ارضك، وترتوي وترتبط بالنهر في ذات الوقت . وان كل محاولة للانفصال عن مجرى التقدم هو زيادة في الظلم الحضاري . وأن الحضارة أو التقدم كل لا يتجزأ، فلا يسعنا أن ننقل صناعة اوروبا، دون الفلسفة الاوروبية والسلوك الاوروبي، والأخلاقيات الاوروبية .. والقيم والعقائديت الاوروبية .. وهذا يعني طبعاً الانسلاخ عن جذورنا وخصائص حضارتنا .

إذا أردنا حضارة الغرب -في هذا الرأي- فلا بد من أن نصبح غربيين.. ولأن نقل المصانع ، ودراسة الكيمياء والطبيعة أكثر صعوبة . فان هذا الرأي يتحول في التطبيق الى القول بأن نقطة البدء هي نقل « اسلوب الحياة الغربية » فهذا يجعلنا متقدمين، وبعضهم يقول ان نقل أسلوب الحياة الغربية، والفكر الغربي، وحتى طريقة الكتابة على الطراز الغربي من الشمال الى اليمين، سيقم في بلادنا المصانع . والبعض أكثر صراحة يقول اننا لا نحتاج لنقل الصناعة ما دمنا سنصبح جزءاً من هذه الحضارة نساهم فيها بما أتاحته لنا ظروفنا ، ونستمتع بنقل آخر كلمة فيها دون حاجة بنا الى تكرار نفس الخطوات التي سلكتها هذه الدول .

وبصرف النظر عن الحقيقة البديهية التي تقول أن «اسلوب الحياة الغربية» ليس إلا انعكاساً لطريقة انتاج وسائل الحياة الغربية . أي أن هذا الأسلوب هو نتاج الصناعة الغربية .. فلو أردنا - جديلاً - أن نقيم في بلادنا ذات

المؤسسات الثقافية ، والسياسية والاجتماعية ، واعتناق ذات القيم ، وممارسة ذات العلاقات الغربية ، فلا بد أن نبدأ بإقامة القاعدة المادية التي أفرزت ذلك كله ألا وهي : المجتمع الصناعي . لا أن نقلب الوضع رأساً على عقب !

ومع ذلك فإن تجربة الشعوب أكدت ان نقل القيم ، أو اسلوب الحياة الغربي في مظهره هو الذي يشل القدرة بل وحتى الرغبة الجادة في تحقيق التصنيع أو انجاز الثورة التحضيرية الحقيقية . وأن دعوة التغريب في الحقيقة لا تهدف إلا الى منعنا من تحقيق التحديث الحقيقي .. وأن الدول الغربية المتقدمة ، أو الدول الكبرى ذات مصلحة مباشرة في منعنا من تحقيق هذا التحديث . وأن كل زعم بأن « الغرب » حاول تطويرنا وتحديثنا هو جهل بالتاريخ وتزوير فاضح لتاريخ العلاقات بين الغرب والشرق . لقد كان الاحتلال الغربي للشرق هو العقبة الوحيدة التي حالت دون تحقيق التحديث في الشرق . وبقوة الاحتلال المسلح كان الغرب يمنع إقامة الصناعة في الشرق . ولكن لأن استخدام السلاح باهظ التكاليف وليس ميسراً في كل وقت ، كما أنه يستنفر عناصر المقاومة في الأمم المضطهدة ، الأمر الذي يحمل خطر وضعها في طريق الإجابة الصحيحة على التحدي . لذلك فإن الدول الاستعمارية (رأسمالية كانت أو شيوعية) تفضل أن تعزز قهرها العسكري ، بعملية غزو فكري ، أو غسيل مخ ، تجريباً للشعوب المستعمرة وبالذات لطليعتها المنشغلة بالبحث عن جواب للتحدي .. لذلك فهي تروج فكرة التغريب أو « التحديث » في السلوك والأخلاق وأسلوب المعيشة .

التحديث من خلال التعاون مع الحضارة المتفوقة والانتساب اليها . وذلك فضلاً عن انه يضع الشعب بعيداً عن الطريق الصحيح لتحقيق التحديث الجدي ، فهو يسهل مهمة غزوه حضارياً ..

وقد رأينا كيف قاومت القاهرة « المتخلفة » « المغلقة » غير المغربية ، بل الاسلامية ، الشرقية ، المعتزة بحضارتها ، المتمسكة بذاتها وشخصيتها ..

كيف قاومت ببطولة نادرة جيش الاحتلال الفرنسي خمسة أسابيع ، وكيف قاتلت من بيت الى بيت بالمعنى الحرفي للكلمة . بينما لما تولى عملاء الغرب ، تغريب بلادنا كانت مدننا تسقط بسهولة وتستسلم بسهولة أشد كلما زاد حظها من التغريب !

ولكن ثورة القاهرة الثانية لا تثبت صحة نظرية المدرسة الوطنية ، من زاوية مقاومتها الفريدة في تاريخنا ، للاحتلال الفرنسي فحسب ، بل أخطر من ذلك انها تؤكد صحة الفرضية التي تقول ان الطريق الى التحديث ، أي الطريق الى تحقيق الثورة الصناعية ، يمر خلال مقاتلة الحضارة المتفوقة وبعبارة الراضون لهذه الحضارة .

ففي ثورة القاهرة الثانية ، أوشك المصريون أن يضعوا أقدامهم على بداية الطريق الى الثورة الصناعية .

وتفصيل هذا الحادث العجيب .. والظاهرة التي يفض جميع مؤرخي المدرسة الاستعمارية الطرف عنها ، لأهميتها البالغة ، ولأنها تنسف نظريتهم تماماً ... التفاصيل - المتاحة لنا - تقول : « وبذل الاهالي ما في طوقهم لتأييد الثورة ، وأتوا في هذا السبيل من الأعمال ما أدهش الفرنسيين ، فقد أنشأوا في اربع وعشرين ساعة معملًا للبارود في بيت قائد آغا بالخرنفس وأنشأوا معملًا لاصلاح الاسلحة والمدافع ، ومعملًا آخر لصنع القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديد والآلات والموازين وأخذوا يجمعون القنابل التي تتساقط من المدافع الفرنسية في الشوارع ، ويستعملونها قذائف جديدة للضرب ، قال الجبرتي : « وأحضروا ما يحتاجون اليه من الأخشاب وفروع الأشجار والحديد وجمعوا الى ذلك الحدادين والنجارين والسباكين وأرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك فصار هذا كله يصنع ببيت القاضي والحان الذي يجانبه والرحبة التي عند بيت القاضي من جهة المشهد الحسيني . »

وقال مسيو مارتان (*) أحد مهندسي الحملة وكان شاهد عيان لتلك الثورة :
« لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع احد ان يقوم به من قبل ، فقد صنعوا
البارود ، وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصنّاع ، وفعّلوا
ما يصعب تصديقه - وما رآه كمن سمع - ذلك انهم صنعوا المدافع » (**).
وقال الجنرال كبير في يومياته : « استخرج الأعداء مدافع كانت مطمورة في الأرض ،
وأنشأوا معامل للبارود ومصانع لصب المدافع وعمل القنابل ، وأبدوا في
كل ناحية من النشاط ما أوحى به الحماسة والعصية ، هذه هي بوجه عام
حالة القاهرة عند قدومي إليها ، وإني لم أكن أتصورها في هذه الدرجة من
الخطورة » « تم كل ذلك في ثلاثة ايام » (٣٤) .

وهكذا نرى ان مصر قد طرقت ابواب الصناعة من خلال قتالها ضد
الاستعمار الغربي .. لا من خلال الرضوخ له أو التعاون معه .

وثوار القاهرة هم الذين وضعوا أقدامهم على درب التكنولوجيا ، لأنهم قرروا القتال
ضد الحضارة الغربية ، فمن يعادي الحضارة الغربية ، ويكون جاداً في قهرها ، لا بد أن
يكتشف وأن يمتلك وسائل تفوقها .. ومائة الف متعاون مثل « يعقوب » ،
ومائة الف متردد على بيت « حسن كاشف » حيث كانت المكتبة والآلات
العلمية للحملة ، لم يكن ليفيدهم تعاونهم ولا انبهارهم ، في كسب التكنولوجيا
الغربية .

ولكن من يقرر الرفض . ومن يختار الانفصال بذاته والدفاع عن هذه

(*) في كتابه : « تاريخ الحملة الفرنسية في مصر » .

(**) يلاحظ ج. هيوتز في كتابه : « الابعاد العسكرية في الشرق الاوسط » انه الى حرب القرم
كانت التكنولوجيا غير مستخدمة تماماً في الصناعات الحربية مما كان يتيح للدول الشرقية فرصة
التكافؤ في السلاح مع الدول الأوروبية اذا ما ارادت .. ولكن الثغرة بعد ذلك أصبحت مستحيلة
التخطي .. وهذا الرأي صادق الى حد ما وان كانت هناك تحفظات كثيرة حول الثغرة الحالية .

الذات سيجد نفسه أمام حتمية اكتساب كافة الوسائل المادية لحماية هذه الذات والانتصار لها . ومن ثم تغدو قضية التكنولوجيا قضية جزئية وحيوية في نفس الوقت .. هي جزئية في موقف عام هو الايمان بالذات ، وضمن إطار عام لفهم صحيح لأبعاد هذه الذات واحتياجاتها للتعبير عن نفسها ، وتحرير ارادتها .. وحيوية طبعاً لأنه بدونها لا يمكن تحقيق هذه الذات ولا تحرير إرادتها .

وتجربة التاريخ كله لا تثبت حالة واحدة استحال فيها على شعب متخلف ، اكتساب التكنولوجيا والتفوق فيها .. شرط أن يختار القتال .

ومن هنا كانت أهمية الثورة الثانية للقاهرة . فالثورة الاولى إن كانت قد أكدت رفض أمتنا للوجود الغربي على أرضنا ، فإن الثورة الثانية قد حملت الاجابة على هذا التحدي .. الاجابة على السؤال الذي ما زال بلا جواب منذ الغزو الفرنسي الى الغزو الاسرائيلي : كيف نكتسب تكنولوجيا العدو المتفوق علينا ؟ ! ثورة القاهرة أجابت : بالثورة ضده ، برفض وجوده ، برفض التعايش معه ، بالاصرار على قهره .. الذين رفضوا .. اخترعوا البارود والمدافع والقنابل .. والذين واللاتي قبلن الاندماج الحضاري مع الفرنسيين المتقدمين لم يحملن إلا مرض الافرنجي !

ولعل هذا هو السبب الرئيسي لحرص المدرسة الاستعمارية ، مدرسة التغريب ، على تشويه ثورة القاهرة الثانية وإثارة الغبار حولها لكي تطمس هذه الحقائق .

هذه الجوانب البالغة الأهمية ، التي أثارت انتباه واهتمام رجال ومؤرخي الحضارة الغربية ، فسلطوا تلاميذهم يشوهون حقيقتها، ويفعلون دور الصناع المصريين الذين اخترعوا المدافع والقنابل والبارود . ويتحدثون عن دور المماليك والأتراك الذين ما كانوا إلا عبئاً ، وحلاً متخلفاً على الجماهير ، التي قامت بإنجازات ثورية ، وحضارية حقيقية . ينسون البطولة والتضحيات ،

والانجازات ويركزون تأريخهم على حوادث فردية ، استهدفت بعض الخونة الذين باعوا بلادهم للمستعمر .. وحتى اذا امتدت النار لبعض الأبرياء ، فلماذا ينسون ما فعله الفرنسيون في الاطفال والنساء وكبار السن الذين لم يقاتلوا .. لماذا لم يتهموا الجيش الفرنسي بالحرب الصليبية !؟

تعمى عيونهم عن تلمس تاريخ تطورنا القومي ، حيث يجب أن يكون ، خلف المتاريس وفي الورش التي نبتت ، تصنع لأول مرة الاسلحة « الثقيلة » وتسلح مستعينة حتى بالقنابل التي يقذفها بها عدوها.. بدلاً من ذلك يريدوننا أن نفتش عن قومية مزعومة بين مزابل سفينة بريطانية تحمل برميل خمر يضم جيفة عميل هارب ، وترجمانه المالطي المجنون ! ومشروع كتب بالفرنسية وترجم للانجليزية في تقرير مخبراتي الطابع والأسلوب ! يجعلون هذا حجر رشيد القومية المصرية .. كذبوا ... وبئس والله ما اختاروا لأمتهم .

قوميتنا هي التي صنعت المدافع والبارود ، وما كان لها أن تصنعها إلا في مدينة متحررة مجاهدة ضد الاستعمار الغربي عدو التصنيع في المستعمرات .

ولأن التاريخ لا يرحم فان تجربة الحملة الفرنسية لا تقدم لنا هذه الحادثة وحدها بل تدعها بموقف آخر يجعل القضية أوضح من أن تحتل النقاش .. لقد بذل رجال الحملة الفرنسية - على ما يدعي مؤرخي المدرسة الاستعمارية - بل وكل الحملات الاستعمارية التي حملت عبء رسالة الرجل الابيض ، بذلت جهوداً مضنية في حثنا على الأخذ بالحضارة الحديثة ، وإقناعنا بمسيرة الزمن في كافة الميادين إلا الميدان الوحيد الذي يمكننا فعلاً من مسايرة الزمن ، والقاعدة الوحيدة لقيام الحضارة الحديثة .. ألا وهي تعلمنا الصناعة ! السماح لنا بإنشاء مصنع . وعندما توضع الأمور بهذا الوضوح ، ينعدم الجدل ، ولا تصدر عن السلطة الغربية إلا كلمة واحدة هي : « ممنوع » !

والقصة هي اقتراح تقدم به الجنرال « مينو » وكان « مينو » يمثل مدرسة

المعمرين التي ظهرت في «الجزائر» بعد ذلك.. لذلك : «اقترح الجنرال «مينو» انشاء مصنع للجوخ في القاهرة لسد الحاجة الماسة الى الاجواخ التي انقطع ورودها من اوروبا بسبب الحصر البحري ، لكن أعضاء اللجنة الادارية – لجنة فرنسية تشرف على أعمال الحكومة الادارية ويدخل في خصائصها الشؤون المالية والزراعية والاقتصادية – عارضوا في قبول العمال المصريين في هذا المصنع بحجة الضرر الذي يلحق الصناعة الفرنسية اذا عرف المصريون اسرارها ، وكتبت اللجنة رسالة في هذا الصدد قالت فيها : « ان مقدرة المصريين في تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضرّ بالمصانع الفرنسية » وصرح المسيو كونتي مدير المصنع الميكانيكي الذي أنشأه الفرنسيون انه لا يقبل البتة تعليم أحد من الاهالي أساليب الصناعة . وأخيراً تم الاتفاق بين « مينو » واللجنة الادارية على انشاء مصنع للأجواخ بإدارة المسيو كونتي على ان لا يقبل فيه عامل مصري » (٣٥) .

هكذا بوضوح ، وبغير حاجة الى التلفيق والادعاء ، فبعد ثمانين عاماً كان «كرومر» مضطراً الى ادعاء تخلف المصريين العقلي، وتنافي دينهم مع الصناعة.. لكي يبرر تحريمها علينا بقوة جيش الاحتلال .. وما زالت المكتبة الغربية حافلة بالمؤلفات التي تثبت عجز الشرقي وبالذات المسلم عن التحول الى عامل صناعي فضلاً عن عالم يفقه في التكنولوجيا . والمكتبة الشيوعية تساهم الآن في إثراء المكتبة الغربية في إثبات خطأ محاولات الأمم المتخلفة ، لإنشاء صناعاتها المستقلة ! وكلها طبعاً ، تناقش من زاوية الحرص على مصالحنا نحن ، ومن زاوية الحرص على عدم تبديد طاقاتنا فيما لا أمل فيه ! ولكن ميزة الحملة

(*) لم يقل لنا الجنرال عوض اذا كان هذا القرار قد عرض على مجلس الوزراء ، ومجلس

النواب !

الفرنسية انها كانت مبكرة . وأن كثيراً من الحقائق كانت تسمى باسمها . أو قل انهم لم يكونوا يابهون بمعرفة العرب لتقاريرهم وكتاباتهم في بلادهم فوقتها كان العرب لا يقرأون وخاصة بالفرنسية (*) !.. كان الاستعمار الغربي لم يزل في مرحلة الاعتماد أكثر على القهر العسكري، منه على الغزو الفكري.. لذلك جاء اعتراض رجال الحملة الفرنسية على تعلم المصريين الصناعة ، واضحاً كأشد ما يكون الوضوح في الأسباب : ممنوع لأن المصريين قادرون على تعلم سر الصناعة ، وليس لأنهم عاجزون ! ولا ان تقاليدهم ودينهم .. الخ .. أبداً أسباب الرفض هو خشية الفرنسيين من قدرة المصريين « على تقليد المبتكرات الصناعية» .. لأن تعلم المصريين الصناعة يشكل خطراً على المصالح الفرنسية . ولو استطاع خبراء مصريون أن ينشئوا مصنعاً للجوخ، ولو بمعونة خبراء أجانب غير فرنسيين ، هل كانت سلطة الاحتلال ستقف مكتوفة الايدي أمام تهديد المصالح الفرنسية؟! أليس هذا هو جوهر الصراع بين الغرب والشرق؟! ومع ذلك لا يستحي مؤرخ عالم مثل «كروستوفر هيرولد» من اتهام المصريين بأنهم كانوا العقبة في طريق نوايا نابليون الطيبة نحو تطويرهم، وأن حرصهم على تقاليدهم هو الذي منع مسابرتهم الزمن ، ولا ينجل أمثال « لويس عوض » من تصديق رؤوسنا بالحديث عن « أول برلمان » وأول « مجلس وزراء » ! وينسى أن يحدثنا عن قصة « أول مصنع للجوخ » .

لسنا ندرى كيف يمكن ان يطلب منا الهبوط الى مستوى الثثرة عن امكانية قيام الديموقراطية والبرلمانية والقومية ، أو حتى تعلمها دون ان تقام صناعة في بلادنا .. وكيف يمكن أن تمكننا من « مسايرة الزمن » قوة تحرم علينا تعلم الصناعة ولو عمالاً في مصنع يكسي جنود احتلالها !

(*) البعض يمتد اننا ما زلنا كذلك .

أي « مسايرة للزمن » تلك التي يقرعنا « هيرولد » وصبيته على ان
« نابليون » حاول تحقيقها لنا وفشل بسبب من تعصبنا وجمودنا .. هل
« نساير الزمن » بدون مصنع ؟!

ولنعد الى الحملة الفرنسية بعد سحق ثورة القاهرة الثانية لنرى كيف
جعلنا « كليبر » نساير الزمن .. وكيف امتدت يد القصاص العادل فأنزلت
عقابها بكليبر .

الشربتلي والليمونة

بعد هزيمة الثورة ، أجرى « كليبر » استعراضاً عسكرياً ظهر خلفه كبار أعوان « مراد » : « البرديسي ، والأشقر » « وبعد أيام الزينة الثلاثة ، أقام لهم مراد مأدبة فاخرة ، فذهب الى مراد بيك يجزيرة الذهب باستدعاء ، فد لهم أسمطة عظيمة ، وانبسط معهم وافتخر افتخاراً زائداً وأهدى الى بعضهم هدايا جليلة وتقادم عظيمة وأعطاه ما كان أرسله درويش باشا معونة للباشا والأمراء من الأغنام وغيرها وكانت نحو الأربعة آلاف رأس « (وهي الأغنام التي صادرها اثناء حصار القاهرة وكانت أهم عامل في تجويع المدينة) . « وولوه امارة الصعيد من جرجا الى أسنا ورجع عائداً (*) الى داره بالأزبكية » (٣٦) .

ثم تقرر عقد الديوان .. في جلسة موسعة على « ما يبدو » لمجلسي الوزراء والبرلمان « !! ويرسم ابن القاهرة ، الذي تجري النكتة في دمه ، الشيخ « عبد الرحمن الجبرتي » صورة كاريكاتورية للديوان في اجتماعه الدرامي مع ساري عسكر كليبر أو كلهر كما يكتبها الجبرتي ، بعد هزيمة الثورة ، وشروع المنتصرين في التنكيل .. بالمغلوبين .. ودقة « الجبرتي » وموضوعيته ومرارته

(*) أي كليبر .

لا تترك تفصيلية صغيرة دون أن تقف عليها ومن ثم فالصورة كاملة بكل أبعادها .. وهو كفنان ساخر ، وهي الحقيقة التي طغت عليها شهرته كمؤرخ ، يبدأ المسرحية بهذه المقدمة :

« فلما كان في صباحها يوم الجمعة ثامنه بكروا بالذهاب الى بيت ساري عسكر . ولبسوا أفخر ثيابهم وأحسن هيأتهم . وطمع كل واحد منهم ووطن ان ساري عسكر يقلده في هذا اليوم أجل المناصب أو ربما حصل التغيير والتبديل في أهل الديوان فيكون في الديوان الخصوصي » ..

ورغم كل ما تظاهر به كبير من عفو وسماحة ، فلا نظن أن أعضاء الديوان قد بلغت بهم السذاجة حد تصور ان المناسبة ، مناسبة تكريم ومكافأة ! ولكنها صورة فنية ضرورية لتجسيد النقيض التعس الخالف تماماً لهذه التوقعات الحقيقية أو المفترضة .. وعلى أية حال فإن سخرية الجبرتي من اطماع المصريين ، لا تزيد في تناقضها عن مهزلة مؤرخ يسمي بيانات ساري عسكر امام الديوان على أنها اعتراف بمسئولية الحكومة أمام ممثلي الشعب !! ولا شك ان صورة ما سيعقب هذا اللقاء تبدو أكثر تناقضاً وسخرية اذا ما تماشنا مع الفرض الهزلي الذي يعتبر أعضاء الديوان مجلساً نيابياً ، وسارى عسكر وعصابته حكومة مسؤولة أمام البرلمان ، لذلك نحن نفضل السير مع هذا الوصف المضحك .. وبذلك تصبح الصورة كالآتي :

اجتمع « ممثلو الأمة » في بيت رئيس الحكومة ...

« فلما استقر بهم الجلوس في الديوان الخارج اهلوا حصة طويلة لم يؤذن لهم ولم يخاطبهم أحد » .

وصبر النواب !

« تم فتح باب المجلس الداخلى وطلبوا الى الدخول فيه فدخلوا وجلسوا حصة مثل الاولى ثم خرج اليهم ساري عسكر وصحبته الترجمان وجماعة من

أعيانهم فوضع له كرسي في وسط المجلس وجلس عليه ووقف الترجمان وأصحابه حوالبه واصطف الوجاقلية والحكام من ناحية واعيان النصارى والتجار من ناحية وعثمان بيك الأشقر والبرديسي أيضاً حاضراً . وكلم سارى عسكر الترجمان كلاماً طويلاً بلغتهم حتى فرغ فالتفت الترجمان الى الجماعة وشرع يفسر لهم مقالة سارى عسكر ويترجم عنها بالعربي والجماعة يسمعون .

والوضع هنا ينقلب فسرى ان الشعب هو المسئول امام الحكومة ، وان الحكومة هي التي تحاسب ممثليه :

«فكان ملخص ذلك القول ان سارى عسكر يقول لكم يطلب منكم عشرة آلاف الف الى آخر العبارة الآتية . وأما هذه العبارة فانه قالها للمهدي فقط اننا لما حضرنا الى بلدكم هذه نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس والناس بهم يقتدون ولأمرهم يمتثلون ثم انكم اظهرتم لنا المحبة والمودة وصدقنا ظاهر حالكم فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور فرتبنا لكم الديوان وغمرناكم بالإحسان وخفضنا لكم جناح الطاعة وجعلناكم مسموعين القول مقبولين الشفاعة وأوهمتمونا ان الرعية لكم ينقادون ولأمركم ونهيكم يرجعون فلما حضر العثملي فرحتم لقدومهم وطمتم لنصرتهم وثبت عند ذلك نفاقكم لنا .»

ورد « نواب الأمة » بالرد الممكن في مثل هذه الظروف :

« فقالوا له نحن ما قمنا مع العثملي إلا عن أمركم (!) لأنكم عرفتمونا اننا صرنا في حكم العثملي من ثاني شهر رمضان وان البلاد والأموال صارت له وخصوصاً وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين . وما شعرنا إلا بحدوث هذا الحادث بينكم وبينهم على حين غفلة ووجدنا أنفسنا وسطهم فلم يمكننا التخلف عنهم . فرد عليهم الترجمان ذلك الجواب ثم أجابهم بقوله ولأي شيء لم تمنعوا الرعية عما فعلوه من قيامهم ومحاربتهم لنا فقالوا لا يمكننا ذلك خصوصاً وقد تقووا علينا بغيرنا وسمعت ما فعلوه بنا من ضربنا ويهدلتنا عندما أشرنا عليهم

بالصلح وترك القتال فقال لهم وإذا كان الأمر كما ذكرتم ولا يخرج من يديكم تسكين الفتنة ولا غير ذلك فما فائدة رياستكم وأيش يكون نفعكم وحينئذ لا يأتينا منكم الا الضرر لأنكم اذا حضر أخصامنا قتم معهم وكنتم وإياهم علينا واذا ذهبوا رجعت الينا معتذرين .

وما فهمه سارى عسكر متأخراً هو بالضبط عين ما فهمه المشايخ منذ اللحظة الأولى، عن مهمتهم التي ابتلوا بها، وفرضت عليهم بحكم وجودهم عند سطح المجتمع . هذه المهمة هي التربص بالمحتل ، وخداعه لتخفيف الضرر بالرعية ، وانتظار أي فرصة للانقضاء عليه .. ولما أصبح الفهم متبادلاً .. اتخذت لهجة الحكومة في مخاطبة المجلس أسلوباً لا نظن أن حكومة قد لجأت اليه :

« فكان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخركم وحرق بلدكم وسي حريمكم وأولادكم » .

ولا شك انه بيان مختصر مفيد تقدمه « السلطة التنفيذية » « للسلطة التشريعية » عن منجزات « جيش مصر » في بولاق !.. كقدمة لطلب الثقة ! ولكن « سارى عسكر » كان أشفق بالمشايخ من مؤرخي مدرسة « يعقوب ابن مارية غزال » لذلك لم يتقدم بطلب ثقة بل قال :

« ولكن حيث اننا اعطيناكم الأمان فلا ننقض اماننا ولا نقتلكم بل نأخذ منكم الأموال (وهذا افضل بالطبع للمحتلين ، ولكن بشهادة « هيرولد » نفسه فإن الشعوب تفضل المغامرة بقطع الاعناق عن النهب المحتوم) فالمطلوب منكم عشرة آلاف الف فرنك عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة يكون فيها الف فرانسة عنها خمس عشرة خزنة رومي بثلاث عشرة خزينة مصري منها خمسمائة الف فرانسة على مائتين » .

بل ويسجل هذا الاجتماع « أول » اخرى من سلسلة الأوليات التي تحصيلها

المدرسة الاستعمارية ، « فلأول » مرة وآخر مرة في التاريخ تفرض السلطة التنفيذية غرامات على ذات أعضاء السلطة التشريعية مما يؤكد عدم وجود حصانة !..

« على الشيخ السادات خاصة من ذلك خمسمائة وخمسة وثلاثون الفاً .
والشيخ مصطفى الصاوي خمسون الفاً والشيخ العناني مائتان وخمسون الفاً
نقتطعها من ذلك نظير نهب دور الفارين مع العثملي مثل المحروقي والسيد
عمر مكرم وحسين اغاشتن وما بقي تدبرون رأيكم فيه وتوزعونه على
أهل البلد وتتركون عندنا منكم خمسة عشر شخصاً انظروا من يكون فيكم
رهينة عندنا حتى تغلقوا ذلك المبلغ وقام من فوره ودخل مع اصحابه الى
داخل . واغلق بينه وبينهم الباب ووقفت الحرسية على الباب الآخر ينعون
من يخرج . »

وهكذا أصبح « النواب » يتمنون الخروج ولو على أسنة الحراب . وهذه
أول مرة أيضاً !

وينتهي الجانب الهزلي ليبدأ الجانب المأساوي :

« فبهت الجماعة وانتفعت وجوههم ونظروا الى بعضهم البعض وتحيرت
أفكارهم ولم يخرج عن هذا الأمر إلا البكري والمهدي . »

أما البكري فصلته المشبوهة بل المفضوحة بالسلطة أشهر من ان تحتاج الى
شرح أو تساؤل وقد وصل الأمر الى حد قيام علاقة « ما » بين ابنته ورجال
الاحتلال . بصرف النظر عن مدى هذه الصلة ، وعن شخصية « الرجل »
الفرنسي الذي مثل طرفها المذكور .. أهو نابليون ذاته أم غيره .. ولكن
المتفق عليه بين معاصريه انه كان على علاقة غير مشرفة بالاحتلين ، وحيثما
طالته يد مواطنيه ، عبروا عن رأيهم فيه بعنف ، وبعد ما تم الجلاء أنزلوا
عقاباً صارماً بابنته .

أما المهدي فـ « حرق بيته بمرأى منهم (على يد الثوار) وكان قبل ذلك

نقل جميع ما فيه بداره بالخرفش ولم يترك به إلا بعض الحصر ولم يكن به غير بعض الخدم وكان يستعمل المداهنة وينافق الطرفين بصناعته وعادته» (٣٧).

ولا شك ان كفاءات المهدي كانت في ذروة تألقها في هذه الفترة . فهذا الغلام المسيحي - وفي رواية يهودي - الذي اعتنق الاسلام واستطاع ان يشق طريقه الى قلوب الحكام ببراعة نادرة ، ليصبح شيخاً للجامع الأزهر - على عهد محمد علي - كان المهدي هو النموذج الأزهرى الذي سنجده بعد ذلك في عصور الانحطاط كلها ، سنجده الى جانب السلطة ، يفتق لها ويبرر أفعالها ويعينها على الفتك يجيل المشايخ المقاوم ، بل وحتى المسالين ولكن دون نفاق .

نعود الى السلطة التشريعية في موقفها الحرج : « ولم تزل الجماعة في حيرتهم وسكرتهم وتمنى كل منهم انه لم يكن شيئاً مذكوراً فلم يزالوا على ذلك الحال الى قريب العصر حتى بال اكثرهم على ثيابه وبعضهم شرشربوله من شباك المكان (*) » .

ثم يقدم لنا الجبرتي ، بدون تعليق ، لمحة من التمزق الخطير الذي احدثته الحملة الفرنسية في علاقات المجتمع المصري ، عندما نرى كبار المشايخ يترامون عند اقدام النصارى الذين تفوقوا عليهم في المكانة بسبب تعاونهم مع المحتل « النصراني » !

« وصاروا يدخلون على نصارى القبط ويقعون في عرضهم فالذي انحسر فيهم ولم يكن معدوداً من الرؤساء أخرجه بحجة أو بسبب . وبعضهم ترك مداسه وخرج حافياً وما صدق بخلص نفسه . هذا والنصارى والمهدي يتشاورون في تقسيم ذلك وتوزيعه وتدبيره وترتيبه في قوائم » . حتى الشيخ السادات توسل بالطائفية لكي ينجو من العذاب المهين :

(*) يستطيع لويس عوض ان يضيف الى قائمة الاوليات التي حققها الحملة في مصر : وهذه « اول » مرة يبول فيها أعضاء مجلس نواب على ثيابهم . ! وآخر مرة باذن الله .

« اصعدوا الشيخ السادات الى القلعة وكان أرسل الى كبار القبط بأن يسعوا في قضيته ورهن حصصه ويغلق الذي عليه . فردوا عليه بأنه لا بد من تشييل قدر نصف الباقي أولاً . ولا يمكن غير ذلك . وأما الحصص فليست في تصرفه ولما تكرر ارساله للنصارى وغيرهم نقلوه الى القلعة ومنعوه الاجتماع بالناس وهي المرة الثالثة » . وفي نفس اليوم (٥ محرم ١٢١٥) (مايو ١٨٠٠) يسجل الجبرتي : « طلبوا عسكر من القبط فجمعوا منهم طائفة وزيوم بزيم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك . وأرسلوا الى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الألفين واحضروهم الى العسكر» (٣٨) ولا أظن اننا بحاجة الى التعليق على المخطط الحديث الذي كان يحاول أن يزرع الطائفية في أرض لم تعرفها أبداً عبر تاريخها ، ولكن المحتل الفرنسي حاول إثارتها بإجبار كبار علماء الأزهر على التشفع « بالمسيحيين » عند الحاكم « المسيحي » .

ونتساءل هل يمكن ان يتعلم المصريون « القومية » ويتخلون عن التميز بالاديان على يد حكم يجعل الشفاعة اليه ، بيد المنتسبين الى دينه ؟ أم أن ذلك اللون من الحكم يمثل نكسة في جميع المفاهيم والعلاقات التي أرستها وحدة المصريين التاريخية ..؟!

ويفهم من رواية الجبرتي ان عدل « المساواة في الظلم » كان متوفراً ، فلم يتركوا فئة من الأمة المصرية الا وفرضوا عليها جانباً من الفردة : « حتى وزعوها على الملتزمين واصحاب الحرف حتى على الحواة والقردتية والمحبطين والتجار وأهل الغورية وخان الخليلي والصاغة والنحاسين والدالين والقبانية وقضاة المحاكم وغيرهم . وكل طائفة مبلغ له صورة مثل ثلاثين الف فرانسة وأربعين الف وكذلك يباعون التبناك والدخان والصابون والخردجية والقطارون والزياتون والشواؤن والجزارون والمزينون وجميع الصنائع والحرف وعملوا على أجرة الاملاك والعقار والدور أجرة سنة كاملة ثم انهم استأذنوا للمشايع الخالص

يتوجه حيث أرادوا والمشبوك يلزمون به جماعة من العسكر حتى يفلت
المطلوب منه أما الصاوي وقتوح بن الجوهري فحبسوها ببيت قائمقام والصفاني
هرب فلم يجده وداره احترقت فأضافوا غرامته على غرامة الشيخ السادات
كملت بها مائة وخمسين الف فرانسة وانفض المجلس (*) على ذلك وركب سارى
عسكر من يومه ذلك وذهب الى الجيزة ووكل يعقوب القبطي يفعل في
المسلمين ما يشاء (**). وقائمقام والحازندار لرد الجوابات وقبض ما يتحصل
وتدبير الامور والرهونات .

أما الشيخ السادات ، أبرز المشايخ ، والرجل الثاني بعد الشرقاوي ،
و « رئيس لجنة المصادرات » !! . فقد لقي معاملة تزيل كل الأوهام عن
الديوان وطبيعته :

« ونزل الشيخ السادات وركب الى داره فذهب معه عشرة من العسكر
وجلسوا على باب داره فلما مضت حصة من الليل حضر اليه مقدار عشرة من
العسكر أيضاً فأركبوه وطلعوا به الى القلعة وحبسوه في مكان فأرسل الى
عثمان بيك البرديسي وتداخل عليه فشفع (***) فيه فقالوا له اما القتل فلا تقتله
لشفاعتك وأما المال فلا بد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه . وقبضوا على
فراشه ومقدمه . وحبسوها ثم انزلوه الى بيت قائمقام فكث به يومين ثم
أصعدوه الى القلعة ثانياً وحبسوه في حاصل ينام على التراب ويتوسد بحجر

(*) لم يذكر مؤرخ « أول برلمان » اذا كان قد تلي مرسوم فض الدورة الاستثنائية !!

(**) هذه العبارة من الجبرتي ، فسرهما « لويس عوض » بأن « كبير » عهد « ليعقوب »

« بتنظيم مالية البلاد » و « انه كان يتدخل لتخفيف اعباء الضرائب على مواطنيه » !!

(***) المالك يتشفعون في المشايخ ويقبل الفرنسيون شفاعتهم . ولكن البعض يصر على ان

الفرنسيين جاءوا لنقل السلطة من المالك للمشايخ .. وان « يعقوب » شكل الفيلق القبطي

لحاربة المالك . بينما يعمل « يعقوب » بانسجام تام مع « البرديسي » في خدمة ورعاية الفرنسيين !

وضربوه تلك الليلة فأقام كذلك يومين ثم طلب زين الفقار كتحدا فطلع اليه هو وبرطلمان فقال لها أنزلوني الى داري حتى أسمى وأبيع متاعي وأشهل حالي فاستأذنوا له وأنزلوه الى داره فأحضر ما وجدته من الدراهم فكانت تسعة آلاف ريال معاملة عنها ستة آلاف ريال فرانسة ثم قوموا ما وجدوه من المصاغ والفضيات والفراوي والملابس وغير ذلك بأبخس الثمن فبلغ ذلك خمسة عشر ألف فرانسه فبلغ المدفوع بالنقدية والمقومات أحدا وعشرين ألف فرانسه . والمحافظون عليه من العسكر ملازموه لا يتركونه يطلع الى حريمه ولا الى غيره وكان وزع حريمه وابنه الى مكان آخر . وبعد أن فرغوا من الموجودات جاسوا خلال الدار يفتشون ويحفرون الأرض على الحبايا حتى فتحوا الكنيفات ونزلوا فيها فلم يجدوا شيئاً ثم نقلوه الى بيت قائمقام ماشياً وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا في الصباح ومثيلها في الليل . وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوها فأحضرها محمد السندوبي تابعه وقررره حتى عين الموت حتى عرفهم بمكانها . فأحضرهما وأودعوا ابنه عند آغات الانكشارية وحبسوا زوجته معه فكانوا يضربونه بحضرتها وهي تبكي وتصيح وذلك زيادة في الانكاء .

وكانت مناسبة نادرة للشيخ وزوجته لفهم روح الحضارة الحديثة وممارسة التحرر الشامل الذي جاءت به الحملة الفرنسية .

« ثم ان المشايخ وهم الشرفاوي والفيومي والمهدي والشيخ محمد الأمير وزين الفقار كتحدا تشفعوا في نقلها من عنده فنقلوها الى بيت الفيومي وبقي الشيخ على حاله . وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوها وتغيب اكثر اتباعه واختفوا ثم وقعت المراجعة والشفاعة في غرامة الشيخ فتوح الجوهري والصاوي فأضعفوها وجعلوها على كل واحد منهما خمسة عشر الف فرانسه ورد الباقي على الفردة العامة . وأما الشيخ محمد بن الجوهري فانه اختفى فلم يجدوه . فنهبوا داره ودار نسيبه المعروف بالشويخ ثم انه توسل بالست نفيه زوجته مراد بيك فأرسلت الى مراد بيك وهو بالقرب من الفشن فأرسل من

عنده كاشفاً وتشفع فيه. فقبلوا شفاعته ورفعوها عنه وردوها أيضاً على الفردة العامة .

وهكذا وجد المشايخ أنفسهم بعد عامين من الذبح والنهب والتدمير والتخريب والبيانات التي تتحدث عن تحريرهم من الممالك ، وجدوا أنفسهم يهتمون بزوجة « مراد » بيك ، ويتشفع فيهم الوغد « مراد » ، بل ويرسل كاشفاً يفرج عنهم ويسقط غرامات الفرنسيين !

« ثم انهم وكلوا بالفردة العامة وجمع المال يعقوب القبطي وتكفل بذلك وعمل له الديوان بيت البارودي . »

وواصل « يعقوب » نشاطه في «تنظيم مالية البلاد» واعدادها للاستقلال!
« وألزموا الآغا بعدة طوائف كتبوها في قائمة بأسماء أربابها وأعطوه عسكرياً وأمروه بتحصيلها من أربابها وكذلك علي أغا الوالي الشعراوي وحسن أغا المحتسب وعلي كتبها سليمان بيك . فنبهوا على الناس بذلك وبثوا الأعداء بطلب الناس وحبسهم وضرهم فدهم الناس بهذه النازلة التي لم يصابوا بمثلها ولا ما يقاربها ومضى عيد النحر ولم يلتفت اليه أحد بل ولم يشعروا به ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف . فإن أحد الناس غنياً كان أو فقيراً لا بد وأن يكون من ذوي الصنائع أو الحرف فليزمه دفع ما وزع عليه من حرفته أو في حرفتيه وأجرة داره أيضاً سنة كاملة فكان يأتي على الشخص غرامتان أو ثلاثة ونحو ذلك وفرغت الدراهم من عند الناس واحتاج كل الى القرض فلم يجد الدائن من يدينه لشغل كل فرد بشأنه ومصيبته فزهم بيع المتاع فلم يوجد من يشتري وإذا أعطوهم ذلك لا يقبلونه فضاقت خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه ثم وقع الترجي في قبول المصاغات والفضيات فأحضر الناس ما عندهم فيقوم بأجنس الأثمان وأما أثاث البيوت من فرش ونحاس وملبوس فلا يوجد من يأخذه وأمروا يجمع البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها مطلقاً سوى خمسة أنفار من المسلمين وهم الشراقي والمهدي

والفيومي والأمير وابن محرم . والنصارى المترجمين وخلافهم لا حرج عليهم .

ان زرع المرارة والاحقاد على هذا النحو لا يفيد الا المحتل الأجنبي . كذلك لا يمكن أن نجد مصلحة قومية في اقدم مؤرخ على اعتبار الفترة التي شهدت تحريم ركوب البغال على المسلمين ، يعتبرها بداية التحرر ، وفجر الديمقراطية ، وبداية القومية المصرية ! وما دمنا نقبل شهادة الجبرتي بدون تحفظ فلا بد من التسليم بأن محاولة خبيثة كانت تجري لاثارة الغرائز الخاطئة عند الأقليات ، وتدمير الصلات المتينة التي جمعت عناصر الأمة المصرية طوال القرون التي سبقت الغزو الصليبي الجديد :

« وتناولت النصارى من القبط . والنصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب . ونالوا منهم اغراضهم واطهروا حقدم . ولم يبقوا للصلح مكاناً وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين » .

وامام هذا الهول النازل بالقاهرة ، هاجر أهلها هرباً الى الريف « وكان ممن خرج من مصر صاحبنا النبية العلامة الشيخ حسن - المشار اليه فيما بعد - فتوجه لجهة الصعيد . وأقام باسيوط . فأقام بها نحو ثمانية عشر شهراً وكان كثيراً ما يرأسني بالمكاتبة ويبالغ في ذلك لتثوقه الى مصر » .

وهكذا نرى من كتاباته مدى تأثر الجبرتي بالدور الحضاري للحملة الفرنسية ، أما الشيخ « حسن العطار » فقد خالف قوانين الهجرة في مصر فهاجر من القاهرة الى الصعيد معانداً المثل المصري « بحر سنه ولا تقبل يوم » فقد اتجه هو الى « القبلي » ثمانية عشر شهراً هرباً من الحضارة الفرنسية : « وما كنت أؤثر أن يمتد بي الزمان حتى ارى الاسفار تتلاعب بي كالكرة في ميدان البلدان . حصل لي القهر بخروجي من القاهرة » .

« ثم ان اكثر الفارين رجع الى مصر لضيق القرى وعدم ما يتعيشون به فيها وانزعاج الريف بقطاع الطريق والعرب والمناسر بالليل والنهار والقتل

فما بينهم . وتعدى القوي على الضعيف وأستمرت الطرق مجفرة . والاسواق معفرة . والحوانيت مقفولة . والعقول مخبولة . والحانات والوكائل مفلوقة . والنفوس مطبوقة والغرامات نازلة . والارزاق عاطلة . والمطالب عظيمة . والمصائب عميمة . والمعكوسات مقصودة . والشفاعات مردودة . واذا اراد الانسان ان يفر الى أبعد مكان وينجو بنفسه . ويرضى بغير ابناء جنسه لا يجد طريقاً للذهاب وخصوصاً من الملاعين الاعراب الذين هم أقبح الأجناس وأعظم بلاه محيط بالناس . وبالجملة فالأمر عظيم والخطب جسيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه الم شديد » .

« وفي عشرينه انتقلوا بديوان الفردة من بيت البارودي (أول وزارة للمالية !) الى بيت القيسري بالميدان ووقع التشديد في الطلب والانتقام بأدنى سبب » (٣٩) .

ولنعرف أي هول نزل بالقاهريين ، يجب ان نعرف ان كليبر فرض على القاهرة غرامة ١٢ مليون فرنك بينما بلغت كل ميزانية الحملة الفرنسية التي اعتمدها الحكومة الفرنسية ٩ ملايين من الفرنكات (٤٠) .

ويقول « هيرولد » : « وكان هناك رجل يرتع في هذا الجو الذي يناسب طبيعته ، في الأيام التالية للثورة ، وذلك هو برطلين ضابط البوليس المنتفخ الأوداج الزاهي الثياب ، يقول الجبرتي : « وانتدب برطلمين للعسس على من حمل السلاح أو اختلس ، وبث اعوانه في الجهات ، يتجسسون في الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب اغراضهم ، وما ينهيه النصرارى من ابغاضهم فيحكم فيهم بمراة . ويعمل برأيه واجتهاده . ويأخذ منهم الكثير ، ويركب في موكبه ويسير ، وهم موثقون بين يديه بالحبال ، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجون ، ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب ، ويدل بعضهم على بعض ،

فيضعون على المدلول عليهم أيضاً القبض . وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين
الآغا ، وتجبر في افعاله وطفى ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفي بحر النيل
قذفوهم . ومات في هذين اليومين وما بعدها أمم كثيرة لا يحصي عددها
الا الله (٤١) .

والمدرسة الاستعمارية تحاول طبعاً التركيز على « برطلمين » و « الآغا »
« وشكر الله » .. لكي تستر عار يعقوب . ولكن يعقوب شريك كامل
المسئولية في كل ما أرتكب ضد المصريين بعد ثورة القاهرة الثانية من اعمال
الابتزاز الوحشي ، او اعتصار الليمونة كما كان كليبر يتباهى (*) .

(*) تولى « كليبر » حكم مصر وقيادة قوات الاحتلال بعد عودة « نابليون » الى فرنسا . وفي
عهده وقعت ثورة القاهرة الثانية .

محاولة تمزيق الوحدة الوطنية

تنفرد حضارتنا بتعدد وتنوع واستمرار الاقليات في اطارها(*) .. وحيثما تلفت في خريطة العالم ، فستجد ان الاقليات التي عاشت عبر التاريخ ، وازدهرت ، ونجت ، هي تلك التي أسعدها الحظ فكانت في البلدان التي حكمها المسلمون . ففي الحضارة الاسلامية عاشت كل الاقليات وازدهرت ونحطت كل مخاطر الفناء التي تعرضت لها الاقليات في الحضارات الأخرى . وقضية الاقليات ككل ظاهرة يمكن أن تكون عنصر قوة أو عامل ضعف تبعاً لمنحنى الحضارة العام ، ففي فترات التآلق يصبح تعدد الأقليات عاملاً من عوامل الازدهار بما يمنحه من تنوع وتنافس وتكامل فتعطي الجماعة خير ما عندها ، وفي فترات الانهيار العام تصبح عبئاً ثقيلاً وثورات خطيرة يمكن أن ينفذ منها الخصم .

وبالنسبة للأقباط المصريين ، فان وضعهم يختلف عن سائر الاقليات في العالم كله ، وذلك يرجع بالدرجة الأولى الى تاريخ الكنيسة القبطية كأعرق

(*) قبل ظهور المجتمع الأمريكي الذي هو في الحقيقة تجمع اقلية هاجرت من أوروبا فراراً من طغيان الاغلبية .

واقدم كنائس العالم وكنيسة مستقلة ، لا تتبع اية كنيسة أوروبية، بل ان تاريخها قبل ظهور الاسلام ، هو تاريخ الصراع المرير ضد سيطرة الكنيسة الغربية الأوروبية . ولقد كان من أهم عوامل نجاح الفتح العربي ، والسرعة المدهشة التي تم بها الاندماج المصري في المتحد العربي الذي أقامه الاسلام ، هو دور المخلص الذي لعبه الفاتحون العرب بالنسبة للأقباط المصريين، وبكفي أن يذكر التاريخ أن بطريك الأقباط الهارب في الصحراء عشر سنوات كاملة، من تشكيل وبتش كنيسة الدولة الرومانية ، لم يعد الى كرسي البطريركية ، ويأمن على نفسه ، ويستقر إلا بعد الفتح العربي ، وبسيوف المسلمين وفي حمايتهم . بل لقد وضع هذا الفتح ، نهاية المذابح والاضطهادات التي شنتها اوروبا على اقباط مصر طوال عصر الشهداء . فالدولة الرومانية الوثنية شنقت وذبحت وأحرقت الأقباط المصريين طوال ثلاثة قرون . والدولة الرومانية المسيحية قامت بنفس الدور مع قسوة أشد وتنكيل أبشع ، ضد الأقباط المصريين نفس المدة تقريباً .. لذلك كانت الكنيسة المصرية أقوى القلاع العربية صموداً في وجه اغراءات الغرب وخذاعه . والأقباط المصريون هم أكثر الأقليات اندماجاً وأخوة مع الأغلبية المسلمة .

يقول الدكتور حسين فوزي :

« والذي لا يعرفه الاقلية من المصريين—وما أقل المصريين معرفة بتاريخهم— هو أن أجدادهم القبط تعذبوا واضطهدوا على يد حكام بيزنطة المسيحيين ، أشد بكثير مما عرفوا من مهانة وتقنيل واستشهاد أيام الامبراطرة الوثنيين ساديرس ودقيوس ودقلديانوس ، لا لسبب إلا لأنهم حرصوا على عقيدتهم المسيحية(٤٢) » .

ويلاحظ — بذلك — ان المصريين المسلمين والاقباط يجمعون على طبيعة واحدة للمسيح .. ويخالفون بذلك — معاً — الكنيسة الغربية ..

ويقول الدكتور « وليم سليمان » : « وعاشت كنيسة مصر وشعبها من

جديد - وبعد حوالي مائة عام فقط من سلام « قسطنطين » تحت وطأة اضطهاد عنيف متواصل تنظمه دولة تصف نفسها بأنها مسيحية، ويشارك فيه وينفذه الاساقفة المعينون من قبل الامبراطور البيزنطي ، ويفوق ما كان يصنعه الامبراطرة الوثنيون الذين جاءوا قبل قسطنطين واستمر الوضع على هذا النحو الى ان دخل الاسلام مصر عام ٦٤٠ (٤٣) .

« ولم تنسَ كنيسة مصر هذه الحقيقة من تاريخها قط. وهي تذكر ابناءها اثناء اجتماعات الصلاة الدورية بما لاقاه آباؤهم على يد الممكانيين - الذين باسم المسيحية - ساموهم أشد انواع العذاب . ولا يكاد يمضي شهر الا وفيه ذكرى احد شهداء هذه الفترة . »

« ولم ينسَ أبناء مصر قط الدرس الذي تلقوه من الامبراطورية الرومانية المسيحية. وحين جاءت جحافل الغرب تحمل شعار الصليب رأى فيهم مسيحيو مصر كتائب جديدة من الجند المسيحيين الذين عرفوهم جيداً من القرن الرابع والذين خاضت خيولهم في دماء اجدادهم حتى الركب . »

« والحق ان الحروب الصليبية - بعكس ما قد يبدو - قد أكدت ارتباط المسيحيين العرب ، والأقباط بالذات ، باخوانهم المسلمين ، لأنها أعادت الى الذاكرة القبطية الموقف الظالم للكنيسة الأوروبية منهم ، فقد عامل الصليبيون المسيحيين العرب كرعايا من الدرجة الثانية ، وأعدوا على كنائسهم ورجالهم بل « وأصدروا أمراً بمنع الاقباط من زيارة القبر المقدس » (٤٤) . وانتزعوا دير السلطان منهم ولم يعده اليهم الا صلاح الدين فسموه باسمه «دير السلطان» « يقول جاك تاجر انه « لما احتل الصليبيون القدس منعوا النصارى المصريين من الحج الى هذه المدينة بدعوى انهم ملحدون. وكتب أحد المؤرخين الاقباط يشكو من هذه المعاملة قائلاً: لم يكن حزن الأقباط بأقل من حزن المسلمين» (٤٥) .

هذا بينما يقرر الرحالة « ناصر خسرو » في كتابه المشهور سفرنامه انه عندما زار مصر ١٠٣٥ قبل وصول الصليبيين الى الشام بستين عاماً يقرر أن

أغنى رجل في مصر وقتها كان نصرانياً !

ويخلص وليم سليمان من تتبع تاريخ الكنيسة القبطية الى :

« لقد أدى حرص الأقباط على عقيدتهم وإيمان كنيستهم ، الى رفض كل دعوة للانضمام تحت أي لواء اجنبي ديني أو سياسي وجعلهم أحد الأركان الوطيدة في مقاومة السيطرة الاستعمارية الدخيلة »^(٤٦) . « وكان المبشرون يندمسون حقاً حين يجدون أن الأقباط يفضلون عليهم مواطنيهم المسلمين وينفرون من اولئك الافرنج الغريباء الواقدين »^(٤٧) .

ويفسر « جاك تاجر » كراهية الأقباط المصريين للافرنج الى « ربط الأقباط بين الافرنج - الأوروبيين فيما بعد - والملكيين .. ومن الطبيعي ان يعتبرهم الاقباط حلفاء الملكييين وبالتالي أعداءهم » .

ولعل هذه الطبيعة الخاصة للكنيسة المصرية يضاف اليها العامل الجغرافي الذي قلنا أنه فرض وحدة المصريين . وهو جغرافية مصر ، الأرض السهلة المنبسطة المرتبطة بالنيل من اسوان الى البحر ، والتي تخلو من الجيوب الجغرافية ، التي تسمح بتفوق الاقليات فيها ، فتنزل بنفسها عن الآخرين . بالعكس عندنا كانت قرى المسلمين والمسيحيين متجاورة ، وبيوتهم مختلطة داخل القرية الواحدة والمسجد يجوار الكنيسة ، والعمدة القبطي يحكم قرية غالبيتها من المسيحيين ، والعكس كذلك ، الزي واحد والعادات واحدة . والأقباط أحوال المسلمين منذ « هاجر »^(*) و « مارية القبطية » .. الى آخر قصة حب في القرية المصرية الحديثة ..

يقول وليم سليمان : « وثمة حقيقة مؤكدة في تاريخ مصر ، هي ان الدين لم يكن مؤهلاً أو مانعاً لتولي وظيفة عامة الا بعد دخول الانجليز » ويقول :

(*) هاجر أم العرب وزوجة ابراهيم ام اسماعيل ، مصرية ، وكذلك مارية ام سيدنا ابراهيم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« ويكاد الانسان يبصر تحت ثياب شيوخ الأزهر الذين تصدوا للفرنسيين رغم ادعاء نابليون باعتراف الاسلام ، شخص بنيامين البطريك القبطي ومعاونه ثم خليفته أغاثر وهما يقفان في مواجهة « قيرش » المندوب الديني والمدني الموفد من الامبراطور البيزنطي المسيحي لاذلال الشعب المصري » .

ولا شك ان فترات عصبية قد مرت بالمصريين مسلمين ومسيحيين . ولا شك ان اضطهادات قد انزلت بالاقباط كأبي طائفة أخرى بالمجتمع . ولكن ذلك كان في عصور الانحطاط . وكانت اضطهادات ينزلها بالشعب كله أعوان الحاكم المستبد من المسيحيين والمسلمين ، ولكن التاريخ المصري نظيف تماماً من أية مذابح على مستوى الجماهير بسبب من الطائفية . وقبل الحملة الفرنسية كان الأقباط يشكلون الجهاز المالي للدولة ، ويحتل اكابرم في القاهرة وعواصم المديرية مكانة بارزة لا ينكرها عليهم مواطنوهم (*) . يقول الراقعي « وشارك الاقباط اخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة ، وتخصص الأقباط في الأعمال الحسابية والمالية فعهد اليهم البكوات المماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها وتوزيعها على الأطيان والحاصلات ، فكانت لهم في هذه الناحية من ادارة الحكومة سلطة مطلقة لا ينازعهم فيها منازع ، ذلك ان بأيدي الصياغة سجلات الأطيان والضرائب في القرى واليهم تقدير ما على كل ذي مال من الضريبة ومعرفة الأطيان المزروعة والبور أي « ما يؤخذ عنها الخراج وما لا يؤخذ ، وبيان من دفع من الفلاحين ومن لم يدفع ، وكانت سلطتهم في هذا المجال مطلقة لا رقابة عليها ، وما يثبتونه في دفاترهم حجة لا جدال فيها ، ورؤساؤهم يسمون « المباشرين » وهم أصحاب النفوذ والسلطة عليهم . وكان هؤلاء المباثرون هم وكلاء المماليك وكبار الملتزمين وقواماً عليهم في ادارة املاكهم وتحصيل

(*) يوم كانت حياة الأقليات مستحيلة في أوروبا كان الوزير الاول في مصر مسيحياً .. وهو ما لم تحققة الأقليات الأوروبية الا بعد عشرة قرون تقريباً !

الضرائب من الأطنان الداخلة في التزامهم ، فكان لهم نفوذ كبير في ادارة الحكومة وسلطة لا منازع فيها في القرى، ورئسهم يُسمى « كبير المباشرين » وله نفوذ عظيم يستمد من اتساع أعمال وظيفته وتفرعها في الأقاليم وسلطته على من تحت يده من المباشرين والصارفة والكتبة والمساحين ، ووصل بعضهم الى أرفع مراتب النفوذ والجاه ، كالمعلم رزق والمعلم ابراهيم الجوهري وأخيه جرجس الجوهري (*) . فالمعلم رزق كان كاتب سر علي بك الكبير ومدير حسابات في عهده وكان بمثابة مستشاره ومرجعه في شؤون الدولة ، فكان له من النفوذ والسلطة ما لم يتوافر لأحد من رجال الحكومة . وخلفه في نفوذه المعلم ابراهيم الجوهري . ذكره الجبرتي في وفيات سنة ١٢٠٩ هجرية (١٧٩٥ ميلادية) فقال عنه إنه « رئيس الكتبة الاقباط بمصر . وانه ادرك في الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة .. فكان هو المشار اليه في الكلبيات والجزئيات حتى دفاتر الروزنامة والميرى وجميع الايراد والمنصرف . وجميع الكتبة والصارف تحت ايده وشارته . وكان من دهاقين العالم ودهاتهم لا يغرب عن ذهنه شيء من دقائق الأمور » (٤٨) .

ثم جاء « جرجس الجوهري » الذي ظل في منصبه من قبيل الاحتلال الفرنسي ١٧٩٥ الى ١٨١١ أي بعد الاحتلال والجلء حتى استقرار محمد علي في الحكم ، لم تتأثر مكانته ، ولا تغير مركزه بعودة الماليك والأتراك ، ولا بقيام سلطة محمد علي ، بل كان كما وصفه الجبرتي « فكان رئيس الرؤساء وكذلك عند مجيء الوزير يوسف باشا والعثمانيين وقدموه وأجلسوه لما يسديه اليهم من الهدايا والרגائب حتى كانوا يسمونه جرجس أفندي ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو (والي مصر من قبل الدولة العثمانية بعد جلاء الفرنسيين)

(*) لاحظان أشهر قبطني يشترك في اللقب «الجوهري» مع اكبر مشايخ العصر واكثرهم احتراماً.. وهي ملاحظة ثانوية ولكن تكشف زيف التصور الذي يرسمه البعض عن مجتمع منفصل كأنه مجتمع هندي !

يجانب شريف أفندي الدفتردار ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره . ويراعون جانبه ويشاورونه في الأمور . وكان عظيم النفس ويعطي العطايا ويفرق على جميع الأعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والأرز والكساوي والبن ويعطي ويهب ، وبني عدة بيوت بحارة الوندك والازبكية وانشأ داراً كبيرة وهي التي يسكنها الدفتردار الآن ويعمل فيها الباشا (محمد علي) وابنه الآن الدواوين عند قنطرة الدكة . وكان يقف على أبوابه الحجاب والخدم .

« وفي « ريبو » ان الأقباط كانوا بوفرة في جيش مراد الذي دافع عن القاهرة ، (٢٩) .

هذه هي مكانة الأقباط في المجتمع المصري ، ليست هناك حدود طائفية بالمعنى المفهوم في الحضارة الغربية . ومن ثم فباطل الزعم بأن الحملة الفرنسية ، أو ان الاستعمار الغربي قد غير من وضع طوائف مضطهدة ، أو أنه حقق مساواة ما بين هذه الطوائف . بل بالعكس قد افتعل تناقضاً غير حقيقي ، وعرض هذه الطوائف بالذات لانفعالات غاضبة من جانب الأغلبية (*) .

ومنذ لويس الرابع عشر ، والاستعمار الغربي يهتّم بقضية الأقليات المسيحية

(*) هذا هو الرأي الذي وصل اليه « جاك تاجر » في كتابه الصادر عام ١٩٥١ « اقباط ومسلمون » اذ يقول : ولو ان عداء بونابرت للأقباط لم يذهب به الى حد الاضطهاد ، فانه على أي حال لم يكن رقيقاً بهم . كان يقول عن الاقباط « انهم لصوص مكروهون في البلاد غير أنه يجب مراعاتهم لأنهم يعرفون الأصول العامة لادارة البلاد » « وفي ٢٤ أغسطس عام ١٧٩٩ كتب الى كليبر « كنت مزماً ان سارت الامور سيرها الطبيعي ، أن أضع نظاماً للضرائب يجعلنا نستغني تقريباً عن خدمات الأقباط . » بل ويلخص « جاك تاجر » نتائج الحملة الفرنسية بقوله « وباختصار فإن الاقباط كانوا يتمنون رحيل هذا الأجنبي الذي لم يفيدم بشيء ، بل كان وجوده بينهم يزيد كره المسلمين لهم . » « وان وجود أمة مسيحية في مصر اساء الى العلاقات بين الاقباط والمسلمين بالرغم من ان هذه الامة كانت مشبعة بروح العطف على الأغلبية . »

في الشرق ، ويحاول إستغلالها ، واشتد اهتمام أوروبا بهذه « الدولة التي يقال انها مسيحية » وتقع جنوب مصر وتسيطر على النيل ويمكن ان توجه طعنة قاتلة اليها « ويكتشف الاستعمار الغربي ان هذه الدولة تدين بالولاء لكنيسة مصر » ويحاول لويس الرابع عشر ان يجتذب عدداً من الأولاد الاقباط لتدريبهم في فرنسا ويفشل كما يؤكد « وليم سليمان » في اقناع عائلة قبطية واحدة بارسال اولادها الى باريس .. وفي تقرير كتبه لينتز الى لويس الرابع عشر يغريه بفتح مصر فهناك « تكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثناءها وهنالك لا تخسرون عطف أوروبا بل تجدونها مجمعة على الإعجاب بكم » . ورغم كل ادعاءات نابليون (الطبعة الثورية من لويس الرابع عشر) وعمامته ومسيحته فقد كان في مخططة الاعتماد على عنصر الطائفية في التمكين لاحتلاله (*) ، مستفيداً من أخطاء وفشل الحروب الصليبية في هذه النقطة بالذات .. فنابليون كان أذكى من أن يُخطيء فهم طبيعة حملته وامبراطوريته المنتظرة في الشرق .. فهذه الحملة ما كان لها أن تأمل في كسب الأغلبية ، ولا أن تعمل على دعم الوحدة الوطنية العربية ، بل إن استمرارها ونجاحها يعتمد بالدرجة الأولى على نجاحها في تمزيق هذه الوحدة ، وتقسيم الأمة الى طوائف واغراء الأقليات بالتعاون وجعلها هدفاً لسخط الأغلبية وغضبها لأنها

(*) وهذا ما فهمه احد العملاء، فتقدم به، لتزكية طلب اللجوء الذي تقدم به رفاق يعقوب.. فقد كتب نمر افندي في ١٨ صفر ١٢١٦ (١٨٠١) الى تاليران وزير خارجية فرنسا لكي «يتفضل ويضع هؤلاء المهاجرين في كنفه» كتب يقول له مغرباً بذلك : « كان لويس الرابع عشر يعمل في الظاهر لضم كنيسة الحبشة للكنيسة الرومانية ، ولكنه كان يسعى في الواقع لمد نفوذه السياسي نحو اقاليم افريقيا الوسطى الجذابة ، فبذل جهوداً كثيرة غير مشمرة ليعلم في فرنسا شباباً من المصريين وعلى الأخص من القبط ، فإن بطريرك هؤلاء هو في الواقع بابا الأحباش . ولم ينجح الملك في سعيه هذا، واليوم نرى الجمهورية الفرنسية تحت حكم القنصل الاول تحقق دون عناء ما عجزت عن تحقيقه - اللهم الا الجزء الضئيل منه - الملكية الفرنسية المطلقة » .

هي التي تتولى عمليات القمع والنهب. ولا شك ان نابليون قد نجح في احداث شرح خطير-مؤقت- في الوحدة المصرية ، ولعله مع الحملة الفرنسية كانت بداية إحساس المصريين بالبعد العالمي لاختلاف أديانهم . فبعكس ما تدعي المدرسة الاستعمارية، فإن الحملة الفرنسية أوشكت أن تحطم الوحدة المصرية، لا أن تبعث « القومية » المصرية ، وذلك بادعائها احتضان المسيحيين، وإثارها للأحقاد .. وايغار صدور المسلمين ، باستخدام أسافل غير المسلمين كأدوات للتنكيل لحساب السلطة الفرنسية. ثم التدخل إذا ما اشتكى المسلمون لانصافهم وإنزال العقاب بالموظف المسيحي ! أو « وضع حد لتبجح المسيحيين » كما كتب نابليون لكليبر .

وبعكس ادعاءات المدرسة الاستعمارية، نجد ان سنوات الحملة الفرنسية قد شهدت من عوامل تمزق الوحدة الوطنية ما لم تعرفه مصر في تاريخها قط .. الا بعد مائة عام وعلى يد استعماري قارح هو الانجليزي « غورست » .. لولا ان سحقت محاولاته الحركة الوطنية التي قادها مصطفى كامل ثم محمد فريد وبلغت ذروتها في ثورة ١٩ بصرف النظر عن قيادتها ..

وقد وصل الحال في مصر ايام الحملة الفرنسية الى ان احتاجت الدولة الى اطلاق المنادي في الشوارع : « كل من تشاجر مع نصراني أو يهودي ، يشهد أحد الخصمين على الآخر ويطلبه لبيت سارى عسكر » (٥٠) . ولعل المناداة كانت تحريضاً على التشاجر !

وقد استعان نابليون في البداية بالنصارى الأروام والنصارى الشوام .. لأن نصارى الأروام الذين كان نائب وزير خارجية تركيا (الريس افندي) منهم بصفة دئمة ، لم يتخلصوا قط من عصبيتهم وعداوتهم . وكانوا على استعداد لخدمة المستعمر والقيام له بدور السمسار ، وهم ذاتهم كانوا اداة المماليك ، ولكن ترحيبهم بالمستعمر الأجنبي كان أشد .. أو قل إن مواهبهم في التنكيل والابتزاز كانت تتألق في ظل هذا المستعمر الأجنبي .

« وأخذوا الكثير من نصارى الأروام والقلونجية الذين كانوا مع مراد بيك وبعضهم كان بمصر فأدخلوهم في عسكرهم وزيوهم بهم واعطوهم أسلحة وانتظموا في سلكهم ». وقوات « برطلمين بني الرومي رئيس عسكر الأروام » كانت تتكون من : « اروام وقبط والماليك المنضمة اليهم وبعض فرنساوية » (٥١) .

اما النصارى الشوام فبعضهم كان على علاقة بفرنسا منذ لويس الرابع عشر .. وسرعان ما التقط هؤلاء بعض « الأسافل » المصريين من الذين كانوا في خدمة الماليك والذين انفصلوا عن جذورهم المصرية ، وانفصلوا عن الشعب كله بممارستهم أعمال النهب والسلب لحساب اسيادهم الماليك ولحسابهم الخاص من الرشوة والاختلاس. حتى ان « يعقوب » لم يكن يتورع عن اقتحام الكنيسة على ظهر جواده وشاهراً سلاحه !

ومن الخطأ الفاحش ان نجعل موقف النصارى الشوام أو الأقباط المتعاونين مع الاحتلال موقفاً عاماً ، اذ ان نصارى الشام الذين كانوا في مصر أو الذين جاءوا عندما سمعوا بأنباء الحملة أو الذين أتت بهم جيوش نابليون ، والتقطهم كبير من باريس ، هم من « فئة الدود الذي يتبع سمك القرش » ، وهم كهاجرين لا تربطهم بالمجاهير أية صلة ، يستمدون وجودهم وحميتهم ومكاسبهم من خدمة السلطة .. أي سلطة ، وهم بارعون في كسب ود هذه السلطة من خلال أي منفذ يتاح لهم ، وهم مع الأقباط والاروام والمسلمين الذين يعيشون في العاصمة حول السلطة ويقومون لها بالأعمال القذرة ، ليسوا الا الطبقة السفلى من جهاز الدولة أو الحذاء الذي تحوض به السلطة في أوحال القمع والجباية . وهؤلاء الذين يلتفون حول السلطة لا يمثلون بأية حال مشاعر أو اتجاهات أو مصالح الشعب القبطي .. لا يمثلون الفلاحين الاقباط في الريف الذين كانوا يُعتصرون الى جانب اخوانهم المسلمين بلا تمييز . بل والذين يستحيل تمييزهم عن الفلاحين المسلمين .. ونفس الشيء بالنسبة لابن المدينة القبطي . وكل الأسماء القبطية التي لمت في خدمة الفرنسيين ، وحاولت هي وحاول الفرنسيون ، كما يحاول

المؤرخون المفروضون اليوم، ان يفسروا هذا التعاون بالتقارب الديني . كل هذه الأسماء كانت تقوم بنفس العمل لحساب الممالك المسلمين ، ولو بفجور أقل ، وهو طبيعي في مجتمع مستقل مستقر. فالعامل الديني لم يكن الا وسيلة لتحقيق مكاسب مادية ، ووسيلة ارتزاق .

وتاريخ الحملة الفرنسية يؤكد ان الأقباط قاتلوا في الصعيد، معقلهم وقتها، ضد الغزو الفرنسي الى جانب اخوانهم المسلمين، وليس في تاريخ الحملة الفرنسية بالصعيد، حادثة واحدة - ولو كانت لثرتوا حولها طويلاً - لا توجد حادثة واحدة لاستقبال ودي من قرية قبطية ، ولا مذبحه طائفية بين الفلاحين المصريين . بل ليس مصادفة أن أعنف مقاومة لقيها الجيش الفرنسي كانت في الصعيد . فالرافعي يقرر : « ان المقاومة التي لقيها الجيش الفرنسي في الصعيد كانت أشد ما أصاب الفرنسيين في مصر .. قال القومندان «دي لاجو نكير» في هذا الصدد : « ان المقاومة التي لقيتها الجنود الفرنسية في الوجه البحري كانت في الغالب ذات صبغة محلية ، ولكن فرقة الجنرال ديزيه هي التي اضطرت أن تواجه حركات حربية حقيقية » (٥٢) . ويقول الجنرال بليار في يومياته « ان كل القرى التي نجتازها نجد خالية من السكان لأنهم يخلون قراهم قبل أن نصل إليها » . وفي رسالة الى الجنرال ديزيه عن معركة أبنود : ان جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها . ولا نرى فلاحاً واحداً يدلنا أو يأتينا بالأخبار أو يحمل رسائلنا ، ولا أدري السبب في هذه الحالة (٥٣) ، ! (سيادته لا يدري السبب ؟ !)

فإذا عرفنا أن أكبر نسبة من الأقباط كانت في الصعيد ، استحال علينا ان نتصور وقوع هذه المقاومة العنيفة ونجاحها واستمرارها اذا ما افترضنا ان هذه النسبة الهائلة من السكان قد وقفت ولو على الحياد .. بالعكس وقائع التاريخ تؤكد أنهم قاتلوا جنباً الى جنب مع مواطنيهم المسلمين ، ضد جيوش الروم الجدد ، وتعرضوا معهم لكل صنوف التنكيل والابادة .

وما من منصف يستطيع اتهام الجبرتي بالتعصب ، ولكنه كمؤرخ أمين يتميز بتعبيره الصادق عن احساس عصره ، دون أن يفسدها أو يشوهها بموقف فكري سابق أو لمواجهة موقف فكري لاحق .. لذلك يسجل « الجبرتي » الظواهر الطائفية المؤسفة التي نجح الفرنسيون في خلقها. والغريب ان الجزء الثالث من تاريخ « الجبرتي » - الذي يفترض فيه وفقا لنظريات المدرسة الاستعمارية أن يكون متأثراً بالليبرالية وروح الثورة الفرنسية - هو اكثر الأجزاء حديثاً عن « النصراني » « وافعالهم » .. وذلك بتأثير المناخ الفاسد الذي خلقه الاحتلال الفرنسي ، في محاولته شق وحدة الأمة، وخلق طابور خامس تعتمد عليه أداة الحكم الإستعماري.. لذلك نجد «الجزء الثالث» حافلاً بحديث النصراني والاستفزازات ، سواء ما كان منها مقصوداً ، أو ما ظنه المسلمون استفزازاً بفعل الحساسية المتفاقمة عندهم.. أو حتى بفعل عناصر مندسة .. فنلاحظ مثلاً في الحادثة التالية ان الذي يثيرها هو ترجمان ضابط الخطة أي موظف لدى سلطة الاحتلال ..

« مر نصراني من الشوام على المشهد الحسيني وهو راكب على حمار . فرآه ترجمان ضابط الخطة ويسمى السيد عبد الله فأمره بالنزول اجلالاً للمشهد على العادة . فامتنع . وضربه والقاه على الأرض . فذهب ذلك النصراني الى الفرنسيين وشكا اليهم السيد عبدالله المذكور فأحضره وحبسوه » ولم يطلق سراحه الا بعد ان دفع ستة آلاف درهم زعم النصراني الشامي انها كانت يجيبه وفقدت وقت الحادث ! .

ورغم ان الحادثة بين نصراني شامي وترجمان ضابط فرنسي. فلنسنا بحاجة الى الحديث عن تأثيرها المحتوم على العامة ، ولا عن التفاصيل التي يمكن أن تضاف إليها في تناقلها وروايتها .

ووقعت « جزئيات » كما يسميها الجبرتي منها :

« ان رجلاً صيرفياً بجوار حارة الجوانية وقع من لفظه انه قال السيد احمد

البدوي بالشرق والسيد ابراهيم الدسوق بالغرب يقتلان كل من يمر عليهما من النصارى . وكان هذا الكلام بحضر من النصارى الشوام . فجاوبه بعضهم وأسمعه قبيح القول . ووقع بينهما التناجر فقام النصراني وذهب الى دوي وأخبره بالقصة فأرسل وققض على ذلك الصيرفي وحبسه وسمر حانوته وختم على داره « ... واضح تحيز السلطة الفرنسية ، وتعهدا إظهار هذا التحيز ، جماعة من الحمقى تبادلوا الشتائم .. فلماذا يقبض على المسلم وحده ؟!

« واتفق ان بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف يسمى السيد أحمد الزرومن أعيان التجار بوكالة الصابون أنه تحدث بذلك فأمرؤا باحضاره وذكروا له ذلك « ورد السيد أحمد الزر الضربة بأن قال : « أنا حكيت ما سمعته من فلان النصراني فأحضره أيضاً » .

ان الحملة الفرنسية لم تكن فقط تشكل خطراً على الوحدة المصرية ، بل وعلى الوحدة العربية ككل ، وهو الهدف الذي تابعه الانجليز بعد ذلك . ولا شك ان عاملاً من عوامل ما يسمى « بنفور المصريين من الدعوة العربية » يعود الى خبرتهم المريرة مع هؤلاء « الشوام » الذين كانوا اداة المستعمر الأجنبي والمستبد المصري من نابليون الى كرومر ..

وفي حملته على الشام حرص « نابليون » على الضرب على الوتر الديني ، وأهاج ذكريات الحروب الصليبية ، ودق أول اسفين معاصر في وحدة الجماهير ، مؤكداً بذلك - كما قلنا - أكذوبة المزاعم الغربية والمستغربة التي تنسب له دوراً في بعث « القومية العربية » أو الدولة العلمانية بالمعنى الليبرالي .. بل على العكس كان جيشه يهيج العامل الديني حيثما تحرك ..

و « هيرولد » شديد الاهتمام بإبراز تعاون المسيحيين في الشام مع نابليون : « وفي أوائل ابريل أنهى المخبرون المسيحيون الى بونابرت أن نحو ٧٠٠٠ مقاتل من اقليم نابلس قد تجمعوا في الجليل (٥٤) » .

« وفي الرملة وصل اليها الفرنسيون في أول مارس ، تبين ان الأهالي المسلمين هربوا في اليوم السابق ، وان المسيحيين بقوا بها ليرحبوا بالفرنسيين^(٥٥) »
« وقوبل الفرنسيون بفرح عظيم - من الأهالي المسيحيين . وأنفق الجنرال بونابرت وضباط أركانها الليل في دير الناصرة^(٥٦) » .

« وآلاف المسيحيين والدروز في ارجاء فلسطين كلها أقسموا على الانضواء تحت لوائه » (نابليون) .

« ان عدداً من المسيحيين الفلسطينيين شاركوهم (أي الفرنسيين)
تقهرهم هرباً من انتقام الجزائر »^(٥٨) .

وهكذا كان جيش باعث القومية العلمانية .. يتقدم يسبقه جواسيس من دينه .. ويتراجع يتبعه طاوور منهم !

« ويقول نابليون (نفسه) ان فرح المسيحيين لا يمكن وصفه . فقد رأوا قوماً من دينهم بعد قرون طويلة من الظلم .. وقد ظل هؤلاء المسيحيون ثابتين على ولائهم حين تنكر له الحظ ، وقد أفاد منهم خلال حصار عكا كله^(٥٩) .

وبعد ثورة القاهرة الأولى نلاحظ ان تشكيل الديوان أصبح من خمسة مشايخ ؛ الشرفاوي ، المهدي ، الصاوي ، البكري ، الفيومي .

ومن التجار : المحروقي وأحمد محرم .

ومن القبطة : لطف الله المصري .

ومن الشوام : يوسف فرحات ونخايل كحيل ورواحة الانكليزي .

ومعهم وكلاء ومباشرون من الفرنسيين ومترجمين .

ونلاحظ ان الاقباط قد مثلوا بشخص واحد . ولكن هذا التمثيل المبالغ فيه للنصارى الشوام ، ينفي حكاية بعث القومية المصرية . فقد كان الاتجاه عند المستعمر ، الى اقامة شيء شبيه بالمجالس البلدية المختلطة التي سادت المستعمرات . هذه المجالس التي كانت تتكون من ثلاثة فئات: السادة البيض،

المواطنون من الدرجة الثانية ، وهم طبقة مهاجرة تتعاون مع المستعمر وتعيش في حمايته، ورغم انها ليست من الجنس الأبيض، ولا تتمتع باحترام المستعمرين البيض، إلا أنها تتمتع بقدر من الصفاقة يجعلها تحترق السكان الأصليين، وتتصور نفسها أرقى منهم مع قدر من الذلة يجعلها تقبل العمل عند المستعمر كأداة .

ولم يكن للنصارى الشوام في مصر، لا العدد ولا المصالح التي تسمح أو توجب تمثيلهم بهذه النسبة في الديوان الدائم ، الذي بهذا التشكيل لم يكن يعبر إلا عن الشعب ، ولا عن محاولة تدريب الشعب على حكم نفسه ، بل كان محاولة لتحويل مصر الى مستعمرة افريقية نموذجية وتحويل شعبها الى مواطنين من الدرجة الثالثة .

وفي احتفال أول وفاء للنيل بعد الاحتلال ، الموافق ٥ ربيع أول ١٢١٣ (أغسطس ١٧٩٨) قاطع المصريون الاحتفال - وفاء النيل - وكانت حالتهم لا تسمع بالتزهد والاحتفال كما جرت العادة . ولكن الديدان التي تحيط بجيش الاحتلال تحددت الحزن العام :

« أما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتزهد في المراكب على العادة سوى النصارى الشوام والقبط والاروام والافرنج البلديين ونسائهم وقليل من الناس البطالين حضروا في صباحها » (٦٠) .

وفي يوم السبت حادي عشره (ربيع الأول ١٢١٣ - أغسطس ١٧٩٨) كان يوم عيدهم الموعود به - الفرنسيون - فضربوا في صبيحته مدافع كثيرة ووضعوا على كل قائم من الحشب بنديرة من بنديراتهم الملونة وضربوا طبولهم واجتمعت عساكرهم بالبركة الخيالة والرجالة واصطفوا صفوفاً على طرائقهم المعروفة بينهم ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبطة والشوام فاجتمعوا بيت صارى عسكر بونايرته وجلسوا حصة من النهار ولبسوا في ذلك اليوم ملابس الافتخار ولبس المعلم جرجس الجوهري كركة بطرز قصب على اكتافها الى أكمامها وعلى صدرها شمسات قصب بأزرار. وكذلك فلبسوا وتعمموا بالعائم

الكشميري وركبوا البغال الفارمة وأظهروا البشر والسرور في ذلك اليوم الى الغاية »

« وسكن بوسليك مدير الحدود بيت الشيخ البكري القديم ويجتمع عنده النصارى القبط كل يوم » (٦١) .

« النصارى الشوام والافرنج البلديين وغيرهم فصاروا يعملون عليهن ارهاصات وتخويات » (٦٢) (على نساء الغائبين بعدما فرض نابليون عليهن الغرامات) .

« وفيه وقعت كائنة الحاج محمد بن قيمو المغربي التاجر الطرابلسي وهو انه كان بينه وبين بعض نصارى الشوام المترجمين منافسة فأنتهى الى عظمة الفرنسيين انه ذو مال وانه شريك عبد الله المغربي تابع مراد بيك فأرسلوا بطلبه » (٦٣) .

لذلك نجد ان ثورة القاهرة الأولى لم تنهب إلا « دور النصارى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التام » (٦٤) .

والجبرتي حريص ، رحمه الله ، على نفي الدافع الطائفي بل وتأكيد العامل الوطني لسلوك العامة ، فهم لم يهاجموا الأروام ونصارى الشوام إلا بسبب انتسابهم للفرنسيين ، بل ويشير الى ان بيوت المسلمين نهبت أيضاً مما ينفي شبهة الطائفية . تأمل عبارة الجبرتي التي كتبت قبل أكثر من مائة وستين عاماً :

« وتخرتبت نصارى الشوام وجماعة أيضاً من الأروام الذين انتهبت دورهم بالحارة الجوانية ليشكوا لكبير الفرنسيين ما لحقهم من الرزية واغتمتوا الفرصة في المسلمين وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين ، وضربوا فيهم المضارب وكانهم شاركوا الافرنج في النواذب . وما قصدهم المسلمون ونهبوا ما لديهم إلا لكونهم منسوبين اليهم . مع ان المسلمين الذين جاوروهم نهبهم الزعر أيضاً وسلبوهم .

وكذلك خان المليات المعلوم الذي عند باب حارة الروم وفيه بضائع المسلمين وودائع الغائبين فسكت المصاب على غصته واستعوض الله في قضيته .

كذلك حرصت السياسة الاستعمارية على ابراز بعض « الاسافل » من « النصارى البلديين » لكي تحدث الانشقاق المطلوب . بعد أن جربت الاستعانة بكافة الاقليات سواء النصارى الشوام والاروام .. أو بعض الجاليات الاسلامية التي جرى تجنيدها والحاقها بجيش الاحتلال . وكان ان طفح عند السطح امثال « يعقوب » و « شكر الله » وأضر بها ، وبدأت الاصطدامات مع هذه العناصر .

« وانضم اليهم الاسافل من القبط والارذال من المنافقين وتقرّبوا اليهم بما يستميلون قلوبهم به وما يستجلبونه لهم من المنافع والمظالم وأجهدوا أنفسهم في التشفي من بعضهم وما يوجب الحقد والتحاسد الكامن في قلوبهم الى غير ذلك مما يتعذر ضبطه . وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » (٦٥) .

ولم يقتصر الأمر على استغلال الدين من جانب الاقليات غير المسلمة ، للتقرب الى المستعمر والحصول على مغانم العالة . بل ان بعض المسلمين اقتنع - بواقع الحال - أن السبيل الوحيد لنيل ثقة السيد الجديد ، والحصول على فتات السلطة ، هو الخروج من الاسلام واعتناق دين الغزاة !

« ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والاروام واليهود وركوبهم الخيل وتقلدهم بالسيوف . بسبب خدمتهم للفرنيس . ومشيم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول . واستذلّاهم المسلمين . كل ذلك بما كسبت أيديهم . وما ربك بظلام للعبيد . والحال الحال والمركز في الطباع ما زال . والبعض استهوته الشياطين ومرق والعياذ بالله من الدين . ولا حول ولا قوة إلا بالله » (٦٦) .

وأصبح سكان مصر حسب المنشورات التي تصدر عن الديوان بدون مشورة

منه أو علم مسبق في كثير من الأحيان هم : « فرنساويًا أو مسلمًا أو رومياً أو نصرانياً أو يهودياً » (٦٧) .

ان آخر ما يمكن نسبته للحملة الفرنسية ، هو الزعم بأنها هزت التصور الديني للوجود ، بالمعكس تماماً لقد نشطت هذا التصور الى أقصى حد . لقد كان الجبرتي يقسم أهل مصر الى الأمراء واولاد البلد أو أولاد العرب .. أو المشايخ ومساكين الناس والزعران والحرافيش والفلاحين والاعراب .. ولكن حكومة الثورة الفرنسية قسمتنا الى : مسلمين ونصارى ويهود ! وتبادلت الديدان وغالبية الشعب الشنطة والكذب بانتصارات الفرنسيين وهزائمهم ..

« فلما تحققت هذه الأخبار كثر اللفظ في الناس واطهروا البشر وتجاهروا بلعن النصارى واتفق ان تشاجر بعض المسلمين بحارة « البرابرة » بالقرب من « كوم الشيخ سلامة » مع بعض نصارى الشوام . فقال المسلم للنصراني إن شاء الله تعالى بعد أربعة أيام نشتفي منكم وكلام من هذا المعنى . فذهب ذلك النصراني الى الفرنسيين مع عصبة من جنسه وأخبروهم بالقصة وزادوا وحرفوا وعرفوهم أن قصد المسلمين اثاره فتنة » (٦٨) .

وبعد وصول الأنبياء بسقوط « العريش » في يد نابليون : « أظهر النصارى الفرح والسرور والأسواق والدور وأولموا في بيوتهم اللوائم وغيروا الملابس والمعائم وتجمعوا للهو والخلاعة وزادوا في القبح والشناعة » (٦٩) .

« خرج النصارى البلدية من القبطة والشوام والاروام وتأهبوا للخلاعة والقصف . وخرجوا في تلك الليلة عن طورهم . ورفضوا الحشمة وسلكوا مسلك الأمراء سابقاً من النزول في المراكب الكثيرة المقاذيف . وصحبتهم نساؤهم وقحايمهم (*) وشرايهم وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفريات . ومحاكاة المسلمين ، وبعضهم تزياً بزي أمراء مصر ولبس سلاحاً

(*) قحاب جمع قحبة وهي المومس .

وتشبه بهم . وحاكى ألفاظهم على سبيل الاستهزاء والسخرية وغير ذلك ..
ووقع في تلك الليلة بالبحر وسواحه من الفواحش والتجاهر بالمعاصي والفسوق
ما لا يكيف ولا يوصف ، (٧٠) .

وانتشر الشك ، وتبادل المسلمون والنصارى الاتهامات :

« ولم يعلم من فعل هذه الفعلة واختلق هذه النكتة . ولعلها من فعل بعض
النصارى البلديين ليقوموا بها فتنة في الناس ينشأ منها القتل فيهم والأذية لهم .
وسبحان الله علام الغيوب » (٧١) .

أما بعد ثورة القاهرة الثانية فقد تفاقم الأمر وأصبح الوضع خطيراً كما
أشرنا (*) .. إذ ركز الفرنسيون على اختيار عناصر غير مسلمة ، ووكلوا
اليهم مهمة التنكيل بالناس . وتآلق نجم « يعقوب » في هذا المجال حتى أصبح
اسمه يمثل كل الفحش الاستعماري ، والاستبداد الفرنسي والتنكيل الوحشي
بالمجاهير . ولا نظن ان شخصية أخرى قد تمتعت طوال القرن التاسع عشر
بكراهية القاهريين ، مثل « يعقوب » الذي كان قد سبق له وفاز بتاريخ دام
في الصعيد . ووصل المخطط الاستعماري ذروة نجاحه عندما أصبح المصريون
يترجون السلطة أن تعاملهم مباشرة دون تدخل أحد من « القبطة » في علاقة
السلطة بالمصريين !

(*) وهذا ما اشار اليه «جاك تاجر» عندما قال : « ولما آل الحكم الى الجنرال كبير لم يتردد
هذا القائد في محابة النصارى . فيأذن للجنرال المعلم يعقوب بتكوين الفرقة القبطية . وقد فرض
كبير ضريبة على جميع السكان ما عدا النصارى » ويقرر «جاك تاجر» : « النصارى اعتقدوا
بعد انتصار كبير ان اركان حكم الفرنسيين قد وطد الى الأبد وانهم سيظلون اسياده دون منازع
وقد استفلوا حظوة المحتل فتفطرسوا وتمجرفوا » .

ومرة اخرى لا نذهب مذهب « جاك تاجر » في التعميم ، بل نعتقد ان هذا السلوك اقتصر
على الديدان الانتهازية التي تعيش حول السلطة في القاهرة أما بين المواطنين العاديين وكرام
الأقباط والمسلمين فان المودة لم تنقطع والمواساة لم تنعدم .

« وفي عشرينة (محرم ١٢١٦ - يونيه ١٨٠١) توكل رجل قبطي يقال له عبد الله من طرف يعقوب بجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس . فتعدى على بعض الأعيان وانزلهم من على دوابهم وعسف وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه فتشكى الناس من ذلك القبطي وأنها شكواهم الى بليار قائم فامر بالقبض على ذلك القبطي وحبسه بالقلعة » (٧٢) .

« وفي يوم الثلاثاء سابعه انتدب للنميمة ثلاثة من النصارى الشوام وعرفوهم ان المسلمين قاصدون الوثوب على الفرنسيين في يوم الخميس تاسعه فأرسل قائم خلف المهدي والآغا فأحضرهما وذكر لهما ذلك فقالا له هذا كذب لا أصل له وإنما هذه نميمة من النصارى كراهة منهم في المسلمين ففحص عن اختلق ذلك فوجدهم ثلاثة من النصارى الشوام فقبضوا عليهم وسجنوهم بالقلعة حتى مضى يوم الخميس فلم يظهر صحة ما نقلوه فأبقاهم في الاعتقال » (٧٣) .
وأصبحت السلطة تتقرب للشعب بالتشديد على النصارى (*) .. « لاستجلاب خواطر الرعية !

بل واستطاعت السلطة ان تنقل الحقد على جرائمها في نهب وهدم بيوت المواطنين ، الى الحقد على النهازين للفرص الذين يستفيدون من هذه النكبات ، وان تعطي هؤلاء النهازين صفة طائفية ، لكي تزيد اشتعال الفتنة وتعمق الانشقاق في الوحدة الوطنية :

« فأخذوا ما وجدوه للعرب من بهائم وغيرها والذي عصا عليهم ضربه

(*) وجاء في أحد التعليمات الادارية الفرنسية «ان الاقباط ما هم في مصر الا أقلية مكروهة من المسلمين لانهم يعملون على اثارة هذا الحقد عليهم .. وليس من الحكمة بل من الخطر ان نتحالف معهم ونمنحهم الامتيازات . لذلك سيحضر رؤساء الامتين اليونانية والسورية جلسات الديوان على ان يكون رأيهم استشارياً فقط (٧٤) » .. وهكذا عامل المحتل ، الاقباط أعرق لمصريين ، معاملة الأجانب !

ونهبوه أيضاً ونهبوا جمالاً وبهائم من لم يعص أيضاً ودخلوا بذلك المدينة فصاروا يبيعون البقرة بريالين وثلاثة والنعجة وابنها بريال . فاشترى غالب ذلك نصارى القبط .

« فكانوا إذا دهموا داراً وركبوها للهدم لا يمكنون أهلها من نقل متاعهم ولا أخذ شيء من أنقاض دارهم فينهبونها ويهدمونها وينقلون الانقاض النافعة من الاخشاب والبلاط الى حيث عمارتهم وأبنيتهم وما بقي يبيعون منه ما أحبوا بأجنس الاثمان لوقود النيران وما بقي من كسارات الخشب يحزمه الفعلة حزماً ويبيعونه على الناس بأعلى الاثمان لعدم حطب الوقود وبياشر غالب هذه الافاعيل النصارى البلدية » (٧٥) .

وبعد مقتل كليبر « انفلت عيار » التنكيل واستوحش الفرنسيون من المصريين وأطلقوا حشراتهم وأذناهم يفتكون بالمصريين ويعمقون الجرح الوطني ..

« ونزل بالرعية الذل والهوان . وتطاوت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد والاقباط والشوام والاروام بالاهانة حتى صاروا يأمرونهم بالقيام اليهم عند مرورهم .

شهر ربيع الثاني ١٢١٥ - اغسطس ١٨٠٠ بعد مقتل « كليبر » « فيه اشتد أمر المطالبة بالمال وعين لذلك رجل نصراني قبطي يسمى شكر الله . فنزل بالناس منه ما لا يوصف . فكان يدخل الى دار أي شخص كان لطلب المال وصحبته العسكر من الفرنساوية والفعله وبايديهم القزم فيأمرهم بهدم الدار ان لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه من غير تأخير الى غير ذلك . وخصوصاً ما فعله ببولاق فانه كان يجبس الرجال مع النساء ويدخن عليها بالقطن والمشاق وينوع عليهم العذاب ثم رجع الى مصر (*) يفعل ذلك » (٧٦) .

(*) كانت بولاق تعتبر خارج القاهرة التي يذكرها الجبرتي باسم مصر .

« فدهى الناس وتحيرت افكارهم . واختلطت اذهانهم وزادت وساوسهم وأشيع أن يعقوب القبطي تكفل بقبض ذلك من المسلمين ويقلد في ذلك شكر الله واضرابه من شياطين اقباط النصارى . واختلفت الروايات فقيل ان قصده ان يجعلها على العقار والدور . وقيل بل قصده توزيعها بحسب الفردة وذلك عشرها لأن الفردة كانت عشرة ملايين فالذي دفع عشرة يقوم بدفع واحد على الدوام والاستمرار » (٧٧) .

هذه هي الشهور التي سبقت جلاء الفرنسيين وفي ركبهم « يعقوب » . وواضح ان آخر ما كان يفكر فيه يعقوب في هذه الايام هو استقلال مصر ، بل كان منشغلاً في توزيع الفردة . وان آخر ما كان يخطر ببال مواطنيه هو الظن بأنه منشغل ببحث استقلال مصر!.. بل كانوا يخمنون ما الذي ينوي أن يفعله بهم لاعتصار آخر قرش يجيوبهم!.. لم يكن « يعقوب » يمثل لمعاصريه الا رمز الخراب والدمار والنهب الوحشي لحساب المستعمر ..

« وفي أول شعبان ١٢١٥ - ديسمبر ١٨٠٠ حضر التجار الى الديوان وذكروا أمر المليون وان قصدهم ان يجعلوه موزعاً على الرؤوس ولا يمكن غير ذلك . وطال الكلام والبحث في شأن ذلك . ثم انحط الامر على تفويض ذلك لرأي عقلاء المسلمين وأنهم يجتمعون ويدبرون ويعملون رأيهم في ذلك بشرط ان لا يتداخل معهم في هذا الأمر نصراني أو قبطي » (٧٨) .

وأسكر الفرنسيون ما ظنوه النجاح الكامل في تمزيق وحدة الامة ، وما اعتقدوا انهم غرسوه من الاحقاد التي لا شفاء منها ! فمضوا خطوة أبعد في تكريس انقسام مصر الى مسلمين وأقباط . « طلبوا عسكر من القبط فجمعوا منهم طائفة وزيوهم بزيمهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك . وأرسلوا الى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الالفين وأحضرهم الى مصر وأضافوهم الى العسكر » (٧٩) .

والحقائق المتاحة لنا تعزز افتراض جمع هؤلاء الشبان - كما اشرنا - قسراً،

وتؤكد ان عقلاء واكابر القبط ما كانوا راضين لا عن زعيم ولا عن سلوكهم (**).
ويجب ان نرفض ادانتهم بجرائم العسكر الذين « اضافتهم اليهم » لأنهم لم
يكونوا اكثر من اداة مغلوبه على أمرها . بل الجرم يقع على يعقوب وامثاله
الذين ساعدوا على تنفيذ هذه العملية (**). ولكن لا جدال في خطورة الأثر
الذي كان سيركه هذا الفيلق - الذي كان سيخصص بالطبع لأعمال القمع
الداخلية - على الوحدة الوطنية .

كان « كليبر » يمضي في سياسة مرسومة واضحة هي تفتيت المقاومة
المصرية التي بلغت ذروتها في ثورة القاهرة الثانية، كان يعتمر الشعب بالغمرات
المرعبة ، التي ما تزال تبعث القشعريرة حتى اليوم عندما تذكر أرقامها ،
وتذكر معها حالة المصريين المالية وقتها .. وفي نفس الوقت كان يتابع تمزيق
وحدة الشعب .. وبذلك لم تكن مصر مهددة فقط بالافلاس والحراب المادي
بل كانت مهددة اذا ما استمر حكم « كليبر » ، بفتنة طائفية . مهددة بالتحول
الى « هند » أخرى ... لولا وعي الشعب .. ولولا ان المقاومة الوطنية
تحركت سريعاً وضربت ضربتها في قلب « كليبر » .. وكانت طعنة سحقت
المؤامرة .. وأبقت لمصر وحدتها .. بل وأهم من ذلك كانت ضربة عززت
الوحدة العربية ..

(*) وهذا ما يقرره « جاك تاجر » بقوله : « الاقباط لم يظهروا حماساً زائداً في طلب
تجنيدهم ، فلم تؤلف الفرقة القبطية الا في عهد الجنرال كليبر وفي ظروف خارجة تماماً عن ارادة
الاقباط » (٨٠) .

ويقرر - كما هو المفروض في أي مؤرخ يحترم نفسه - « ان الجنرال يعقوب انكر وطنه ان
لم يكن قابلاً فقلباً منذ اللحظة التي كون الفرقة القبطية .. وسرى من جهة اخرى ان الامة
القبطية استقبلت عمل الجنرال يعقوب بفتور » (٨١) .

(**) ونحن مع « جاك تاجر » في احتجاجه ، لأن بعض الكتاب لم يفرقوا بين موقف المعلم
يعقوب وبين موقف سائر الاقباط » (٨٢) .

الفصل السابع

الليمونة سحقتم الشربتي

نادرة ولكنها غير عجيبة !

« وفي يوم السبت حادي عشرين محرم ١٢١٥ (يونيو ١٨٠٠) وقعت نادرة عجيبة »

وكان من المحتوم ان تقع، بل أن تاريخنا كله كان سيقى عقيماً ان لم تقع.. فبعدها بطش كبير بالمصريين « قتلاً وحرقاً وسبياً للنساء والبنات والغلمان » وبعدها اعتصر البلاد « كما يعصر الشربتلي الليمونة »-على حد قوله- بأن أفلسها بالغرامة الوحشية ، وبعدها زرع الأحقاد التي تهدد وجودنا كأمة موحدة .. ظن ان الليمونة المعصورة قد فقدت قدرتها على الحياة .. وتحولت الى نفاية .. فإذا بالليمونة تعتصره هو ، وتقذفه الى الفناء ..

كان لا بد أن ترد أمتي الضربة .

كان لا بد أن يموت « سارى عسكر » كظهر ..

وقد كان ..

قتله فتى من حلب في عمر الورود .. عمره ٢٤ عاماً .. نموذج « المجاهد » الاسلامي .. أو الثوري الشرقي ، الذي وهب نفسه للقتال ضد الاستعمارية الغربية .. مؤكداً الوحدة العربية ^(١) قبل ظهور « المتهمين » بها وفيها ،

بقرون ونصف قرن .. ولم تكن حادثة فردية بأية حال من الأحوال . بل هي من اعداد وتنظيم ذلك التشكيل العجيب الذي ترد اخباره في شكل همسات متناثرة في كتابات المؤرخين . ذلك التنظيم الذي دبر ثورة القاهرة الاولى وأعدم منه نابليون ثمانين من « القادة » ! وكان من بينهم عدد من النساء . ثم استطاع أن يجدد نفسه ، ويعد السلاح ، ويدبر اتصالات سرية ويقود « الثورة الثانية » المجيدة . ويشرف على قيادتها خمسة أسابيع ، ينجز خلالها ما أدهش العدو .. وأذهل المؤرخين ..

هذا التنظيم استطاع أن يوجه ضربة رائعة في هدفها وأحكامها . وذلك بتنفيذ اغتيال « سارى عسكر » ، القائد العام لقوات الاحتلال في عملية هي الاولى في الشرق ، والفريدة في نوعها لقرن وربع قرن .. والتي تتميز حتى اليوم بضخامة الهدف ، وبنجاح العملية مع ضآلة خسائرها بالنسبة للتنظيم الثوري الذي نفذها . فلم يسقط إلا الخلية التي باشرت تنفيذ العملية ولم يصل التحقيق الوحشي لأي طرف خارج هذه الخلية .

هذه العملية أعدتها احدى خلايا التنظيم في الأزهر .. وهي التي تعرضت للتحقيق الفاسد ، الذي أجرته قوات الاحتلال وانتزعت به اعترافات باطلة قانوناً .. ومشكوك في صحتها لأنها انتزعت بالضرب والتعذيب (*) الذي يفسد شرعية أي تحقيق (حتى ولو كان الضرب وفقاً لعوائد البلاد !)

في هذه التحقيقات ان الشاب « الحلبي » ذهب الى ضابط تركي « يشكو من الضرائب المفروضة على ابيه فطلب منه هذا خدمة صغيرة (**) » (٤) !

اما ما هي هذه «الخدمة الصغيرة»؟! فهي ان يقتل «سليمان الحلبي» الموجود في غزة ، القائد الأعلى للجيش الفرنسي الموجود في القاهرة في حماية خمسين

(*) يجب الرجوع الى التحليل الوطني الصادق لطبيعة هذا التحقيق في مسرحية : « سليمان الحلبي » للكاتب القبطي المبدع : « الفريد فرج » .
(**) انظر تعليقنا على الوحدة العربية في فصل الحواشي والمراجع .

الف جندي فرنسي، ولما تنقضي سوى بضعة شهور على تمزيقهم جيش الوزير !
هكذا ببساطة كأنه يطلب منه توصيل علبة معمول لخدم المشهد الحسيني!

والذي يعرف حالة الجيش التركي ونوعية اغواته يستبعد جداً أن يهتم
« احمد آغا » و « ياسين آغا » بقتل « كليبر » !..

ان هذا التطرف وهذه الحماسة مستغربان من اغوات العثمالي .. ولكن
هذه الأسطورة تقليدية في جميع التحقيقات الاستعمارية مع الوطنيين .. فلا بد
من مؤامرة أجنبية ، ويد محرقة ، وتحريض من الخارج .. ومبلغ من المال
يدفع أو يحسم ! والوطني لا يمكن ان يكون إلا قاتلاً مأجوراً .. تحركه دولة
أجنبية لقاء مغنم شخصي .. ان هذه المقدمة التقليدية لا تستحق أن نتوقف
عندها كثيراً . بل ان كبيرهم « كرسوفرهيرولد » نفسه ، رغم موافقته على
حكاية الاغويين ، نراه مضطراً الى الاعتراف بالتلفيق : « والاعترافات التي
تنترع بالتعذيب تحتل الشك ، ولكنها ليست بالضرورة كاذبة . وسجل
محاكمة سليمان لا يترك مجالاً للشك في ذنبه واعترافه - بما فيه الجزء الخاص
بالضابطين التركيين اللذين كلفاه بهذا المهمة - وهو في أغلب الظن صحيح .
أما المنطق الذي الصقت به المحكمة الخاصة - المشكلة كلها من الفرنسيين -
التبعة النهائية في مقتل كليبر بالصدر الأعظم فنطق زائف لا أساس له في
اعتراف سليمان » (٥) .

وما دمنا سلمنا بتحريض الاغويين فلماذا نفترض انها يريدان قتل « كليبر »
لحسابها الخاص ، وما المانع من قبول الرواية الفرنسية كاملة ، التي تزعم انها
حرضا سليمان الحلبي بتكليف من الصدر الأعظم (*)؟! ولكن الرواية كلها
متهافئة وفاسدة ، بأجماع الملحقين على ضرب المتهمين ، باستثناء لويس عوض

(*) وما دام « هيرولد » اعترف بالتزوير من جانب المحققين في بعض اجزاء المحضر فكيف

تميز الصحيح من المزور !؟

المعجب بالمحاكمة كاملة والمعتذر عن ضرب المتهمين والمتطوع لاتهم سليمان بأنه قتل كليبر باغراء وتمويل الذهب التركي !

وسليمان الحلبي كان « مراده يغازي في سبيل الله » .. وهو قد اتجه الى مركز الثورة . حيث كان كل متعاطش « للمغازاة » يعرف ان قيادة «المغازين» هناك .. اتجه الى الأزهر .. حيث تلقته خلية من الشوام ، لازمته ، ملازمة تامة طوال شهر كامل ، وسواء أكان قد انضم لهذه الخلية بارشاد من أعضاء التنظيم خارج الأزهر .. أو ان هذا التنظيم كان من الدقة والحساسية بحيث التقطه فور وصوله ، وعرف حماسه ، وأيضاً استفاد من كونه قادم من خارج مصر ، وبالتالي لا يتعرض للمراقبة . ولا اشترك في ثورة القاهرة ولا تعرض للملاحقة وتقارير يعقوب وشقي العملاء الذين لم تكن تفوتهم مراقبة شيوخ الأزهر ومجاوريه (تلاميذه) ..

كان «سليمان الحلبي» خير من ينجح - بصرف النظر عن انه نجح فعلاً - في تنفيذ ذلك القرار المصري باغتيال كليبر ، انتقاماً من أسلوبه الخسيس في اخماد ثورة القاهرة الثانية ، والتسكيل والابادة للذين مارسها جيشه في اعقاب هزيمة الثورة ثم اعتصاره الوحشي للبلاد ..

لم يكن ثمة رد من قبل التنظيم الذي قاد الثورة الا الحكم باعدام « كليبر » (وهذا التطور من المقاومة الشعبية المفتوحة الى العمل الارهابي الفردي معروف وطبيعي في سلوك التنظيمات السرية) .

ولا يمكن وصف علاقة « سليمان الحلبي » بالخلية الأزهرية بأنها كانت مصادفة أو مجرد دردشة أخبرهم فيها بنيتها في قتل « كليبر » . فليس هكذا يتم اغتيال قادة جيوش الاحتلال . وكل الدلائل تدل على أن الفرنسيين كانوا قد أقاموا جهاز مخابرات على درجة عالية من الكفاءة .

بل لقد تعرض «سليمان» لامتحان طويل دام شهراً كاملاً لم يقتصر بطبيعة الحال على امتحان جديته وتقوية عزمته بل تخللته بدون شك مراقبة دقيقة

لتصرفات وعادات المحكوم باعدامه ، واعداد لحظة التنفيذ وإجراء عدة تجارب تفسر هذا النجاح.. إذ يستحيل على شاب قادم من «حلب» أن يعرف طرقات القاهرة ، حتى ولو كان قد قضى بها فترة من الوقت قبل هذه المرة ، خاصة وأن خارطة القاهرة تغيرت كثيراً خلال سنوات الاحتلال وهو يأتي في اعقاب التدمير الشامل الذي أحدثته ثورة القاهرة الثانية .. كذلك التسلسل الى قصر القائد العام لقوات الاحتلال والاختباء هناك وعدم الخطأ في الشخص المفروض انه لم يره من قبل . ثم تنفيذ مهمته بنجاح ..

اهتم التنظيم بكل التفاصيل حتى الفتوى شرعية الاعدام لم ينسها .. وسبقى خالدة في التاريخ تلك الخلية الفدائية الأولى المكوّنة من ثلاثة من طلبة الأزهر .. الذين نفذوا بنجاح نادر عملية ممتازة ثم احتفظوا بسر التنظيم رغم التعذيب الوحشي .. فكانت اعترافهم في أضيق حدود ، بل تثير الدهشة إذا ما قورنت باعترافات أعضاء التنظيمات المعاصرة ، (ورغم اعترافنا بتطور تكنولوجيا التعذيب ، إلا أن السبب الرئيسي هولونية عقائد اليوم وصلابة عقيدة طلبة الأزهر في فجر القرن التاسع عشر) .. فصلابة خلية الأزهر تؤكد التربية التنظيمية .. ففي البداية كان الإنكار التام ثم الاعتراف على النفس ، وعندما ترتفع درجة التعذيب ، وتبلغ قسوته حداً لا يستطيع الجسد أن يتحمّله معها أرادت النفس .. يكون الاعتراف في حدود ما يعلمه المحققون فعلاً .. مع الحرص في نفس الوقت ، رغم بشاعة التعذيب ، على سلامة التنظيم ، وسلامة القيادة ، سواء السياسية أو التنظيمية ، وسلامة الشرف من أن تشينه اعترافات غير محدودة لا تهدف إلا الى إطالة التحقيق وحفظ الحياة .. والعادة في مثل هذه التشكيلات الارهابية أن تعتبر الخلية المعينة ، مهمتها منتهية بمجرد تنفيذ العملية ، فتعترف على نفسها كلون من البطولة وضرب المثل للآخرين ، واعتزازاً بما حققته من ناحية ومن ناحية أخرى لحرص خسائر التشكيل الذي تبعمه ، فهي وقد سقطت فعلاً في يد السلطة قد انتهى

دورها .. و باعترافها تهديء المحقق وتصرفه - الى حد ما - عن التنقيب .

إننا نجد هذا الفهم خلف سلوك خلية «الشوام» التي نفذت العملية بنجاح. فهم قد بادروا بالإنكار التام ، حتى « سليمان » نفسه ، الذي قبض عليه مجروحاً ملطخاً بدم « كليبر » ، ثيابه ممزقة ، مختبئاً في الحديقة .. حتى « سليمان » انكر تماماً في البداية فلما « ضرب على حسب عادات البلاد » « لحد انه طلب العفو ووعد أنه يقر بالصحيح » .. كانت اعترافاته في أضيق نطاق .. ورفاقه عندما قبض عليهم كانت اعترافاتهم بالتقسيط .. وبالضرب طبعاً . واعترفوا على سليمان « المضبوط » والذي اعترف عليهم ، ولكن عندما أراد المحققون أن يوسعوا دائرة الاتهامات ويجروا القيادات . فسألوه هل « أخبر بالذي قال له عليه سليمان لأحد من المدينة وخصوصاً الى الشيخ الشرقاوي » فجاوب الشيخ « محمد الغزي » الذي ضرب « كعادة أهل البلد . فحالا انضرب لحد أنه طلب العفو ووعد أنه يحكي على كل شيء فارتفع عنه الضرب » (*) .. جاوب الشيخ محمد الغزي : « أنه ما اخبر أحداً بذلك وحتى اذا وضعوه تحت القتل ما يقول ذلك » (**). « سئل هل يعرف أحداً خلاف سليمان حضر لأجل غدر الفرنسيات وأين هم قاعدین فجاوب أنه ما يعرف وإن سليمان ما قال له على أحد . سئل سليمان المذكور انه يشهر رفاقه فجاوب أنه لم يعرف أحداً في مصر وأن تخمينه ما فيه غيره الذي قاصد قتل الفرنسيات » .

والسيد « احمد الوالي » انكر في البداية طبعاً أن « سليمان » أخبره بنيته

(*) وفي ميدان التحقيقات الجنائية ، لا نجد اننا قد حققنا تقدماً كبيراً . فما زال الضرب هو الأسلوب المتبع لانتزاع الاعترافات . فقط أصبحت محاضر التحقيق اكثر تزويراً فهي لا تثبت الضرب . بل تقول ان المتهم ووجه بالحقائق فاعترف .. وبمضها يكتب « فاستيقظ ضميره » !!

(**) الشيخ محمد الغزي كان على صلة بالشيخ الشرقاوي فقد كان يبيت فترة ما في بيته .

في قتل سارى عسكر . فلما وجه باعتراف سليمان وقيل له : « انه لم يصدق في قوله لأنه ينكر أن سليمان ما أخبره بأنه كان ناوي بقتل سارى عسكر فجاوب الآن لما فكره سليمان افتكر انه اخبره » !

« سئل هل سليمان ما عرفه برفقائه وهل هو ما تحدث مع أحد بذلك وخصوصاً مع شيخ الجامع الذي هو ملازم مخبره بكل ما يجري فجاوب أن سليمان ما قاله على رفقائه وهو ما أخبر بذلك أحداً ولا أيضاً شيخ الجامع . »
« سئل هل سكن سليمان بالجامع لسبب أنه قال له على مراده في قتل سارى عسكر فجاوب لا لأن كل اهل الإسلام تقدر تسكن في الجامع » .

وكان « عبد الله الغزي » وقوراً للغاية وهو يعد المحققين أن يخبرهم في المرات القادمة عن كل الذين « يحضرون بهذه النية » أي نية قتل قائد عام قوات الاحتلال ! معتدراً عن غلظته بعدم أخبارهم هذه المرة !

« سئل هل يعرف ان سليمان أخبر أحداً خلافه في مصر . فجاوب أن ما عنده علم بذلك سئل هل يعرف أن موجود بمصر ناس خلاف سليمان متوكلين في قتل الفرنسية فجاوب أن ما عنده خبر وان تخمينه لم يوجد أحد » .

اما مصطفى افندي فقيه الكتاب الذي بلغ من العمر ٨١ عاماً ، والذي واجه موقفاً حرجاً بين أيدي المحققين الذين حاولوا اتهامه بالفتوى بقتل سارى عسكر ، وعلى اساس ديني . وحاولوا احراجه بالسؤال التقليدي عن الجهاد في الاسلام . فقد حاول الفقي « مصطفى » افندي ان يبرىء ساحته دون ان يلتزم بانكار مبدأ الجهاد فأجابهم : « انه يعرف ان القرآن ينهى عن المغازاة وان كل من قتل كافراً يكسب أجراً » ! ورفض « سليمان » رغم الضرب اتهام « مصطفى » افندي « وبما أنه رجل اختيار (عجوز) وضعيف قوي ما رأى مناسب يخبره عن ضميره » .

كذلك رفض « سليمان » محاولات توسيع القضية ومحاوله التركيز على اتهام

المشايخ الكبار ، بل اخترع حجة عجيبة لنفي صلته بالشيخ الشرقاوي الذي ركز المحققون جهودهم على اتهامه : « سئل هل هو من ملة المغازين . وهل ان المشايخ سمحوا له في قتل الكفار في مصر ليكتب له أجر ويقبل عند النبي محمد . فجاوب انه ما فتح سيرة المغازاة إلا الى الأربعة مشايخ فقط الذين سماهم . سئل هل إنه ما تحدث مع الشيخ الشرقاوي . فجاوب أنه ما شاف هذا الشيخ لأنه ما هو من ملته بسبب أن الشيخ الشرقاوي شافعي وهو حنفي ! ورفض « المتهمون » جميعاً الدفاع عن أنفسهم أمام المحكمة ، ولعله أول قرار مقاطعة عرفته المحاكمات السياسية في الشرق .

وفي مرافعة الاتهام حاول « سارتلون » أن يشهر بالجهاد : « ان العتة النسكي هو منصوب في أعلى رأسه المضطرب من زيغانه وجهالاته بكالة إسلامه وباعتماده أن المسمى منه جهاد وتهليك الغير المؤمنين » « وسكن بموجب تربياته بالجامع الكبير ويتحضر فيه للسيدة التي هو مبعوث لها ويستدعي الرب تعالى بالمناداة . وكتب المناجاة وتعليقها بالسور مكانه بالجامع المذكور أعلاه . وتأنس مع الأربعة مشايخ الذين قرؤوا القرآن مثله وهم مثله مولودين ببر الشام . نعم ! كلهم مولودون ببر الشام .. وهكذا تحت ضربة سليمان ورفاقه كل العار الذي سجله « الشوام » المتعاونين مع المحتل .

واقترح ممثل العدالة الفرنسية ، وهو يستقبل قرن التحرر ، ويودع قرن الثورات من أجل حقوق الإنسان، اقترح ان « عظمة الاثم تستدعي أن يصير عذاب مهيب . فإن سألتهموني . أجبت أنه يستحق الخوزقة وان قبل كل شيء تحترق يد ذا الرجل الاثم . وانه هو يموت بعذابه ويبقى جسده مأكول الطيور »^(٦) .. عبارة تذكرنا بنصوص « يهوه » أو الآلهة الشريرة في اساطير اليونان والفرس .. أو مخلفات التتار !

وقد استجابت المحكمة ، المشكلة من زمرة أبناء فرنسا : الحرية والمساواة والاخاء .. والمبادئ الديمقراطية والليبرالية ... الخ ، استجابت لمطالب

الادعاء كاملة. فقضت المحكمة « بعد الاطلاع على مرسوم تشكيلها »! بالآتي:
 « افتوا أن سليمان الحلبي تحرق يده اليمين . وبعده يتخوزق ويبقى على
 الخازوق لحين تأكل رتمه الطيور وهذا يكون فوق التل الذي برا قاسم بيك
 ويسمى تل العقارب . وبعد دفن ساري عسكر العام كلهر وقدام كامل
 العسكر وأهل البلد الموجودين في المشهد » . « وأيضاً أفتوا على محمد الغزي
 وعبد الله الغزي وأحمد الوالي « أن تقطع رؤوسهم وتوضع على نوابيت
 وجسمهم يحرق بالنار وهذا يصير في المحل المين أعلاه . ويكون ذلك قدام
 سليمان الحلبي قبل أن يجري فيه شيء . هذه الشريعة والفتوى لازم ينطبعا
 باللغة التركية والعربية والفرنساوية » .

ولعل هذه العبارة الأخيرة هي التغيير الوحيد الذي يميز القرن التاسع
 عشر عن القرن الرابع عشر .. فخان التتار لم يكن بوسعه أن يصدر حكماً
 أبشع ، ولا أكثر بربرية من هذا الحكم . ولكنه لم يكن بوسعه أن يطبع نصه
 بثلاث لغات . وهذا الفارق التكنولوجي ، لم يكن مهم كثيراً «سليمان الحلبي»
 الذي سيشاهد ثلاثة من رفاقه تقطع رقابهم ، ثم يحرقون أمام عينيه ... أما
 هو فتحرق يده اليمنى وهو حي ! وتحرق وهي متصلة بجسمه ، يقيد ويوضع
 فوق الخازوق ، ثم توضع يده اليمنى فوق فحم ملتهب لتشوى وهو ينظر ..
 ثم يطلب منه أن يهتف ثلاثاً بالثورة القانونية التي أدخلها جلادوه في الشرق
 الإسلامي المتخلف ! يهتف بحياة « أول محضر تحقيق » .. « أول محكمة
 تشكل على الأسس القانونية الحديثة في مصر المحروسة ... » أول مطبعة
 تطبع قرار التنكيل به .. أول خازوق تفرغ عليه راية الثورة الفرنسية !
 الحمد لله .. الجلادون الفرنسيون كانوا أرحم « بسليمان الحلبي » من
 مؤرخي المدرسة الاستعمارية من أمثال « لويس عوض » .. فهم على الأقل لم
 يتوقعوا أن يغتبط « الخوزق » بتحضر مصر .. بل توقعوا كما يقول المثل
 المصري ، أن « يشتم الخوزق السلطان » حتى ولو كان السلطان يمثل الثورة
 الفرنسية !

المحاكمة

المدرسة الاستعمارية ، تهتم اهتماماً كبيراً بمحاكمة « سليمان الحلبي » .. ولها العذر . لأن هذه المحاكمة والإجراءات التي سبقتها والأحكام التي صدرت ، والطريقة التي انتقم بها من الشاب البطل ، تغطي بالخبز والعار تاريخ الحضارة الغربية كله . وتفضح كل أكاذيبها عن وحشية الشرق ودمويته .. ففي عصور تألقنا لم نرتكب قط مثل هذا التنكيل الوحشي .. وعندما طعن « علي بن ابي طالب » كانت آخر وصاياه « اياكم والمثلة .. » « رجل برجل » ولم يطلب اكثر من تنفيذ حكم اعدام شرعي وقانوني بل واشترط أن يبقى القاتل مسجوناً الى أن يتوفى هو رضي الله عنه . ولو كان يعلم أنهم يقبلون شفاعته ، لنهائم عن إعدامه ، والدليل على ذلك قوله « فإن عشت رأيت فيه رأي » .

وعندما اجتاح الغضب ابن عمر بن الخطاب ، لما سمع بمؤامرة فارسية - يهودية ، هي التي أدت الى مصرع والده .. فاندفع فور وقوع الحادث فقتل ثلاثة من الذين اتهمتهم المصادر التي يثق بها .. ثارت نائرة المجتمع الإسلامي ، وسجل « الطبري » هذه الغضبة الإسلامية، لخرق العدالة ، وحرمان المتهمين من المحاكمة في كلمة خالدة وهي قوله: « وأظلمت الدنيا بالناس ثلاثة أيام » !.

أظلمت الدنيا بالمسلمين في القرن السابع الميلادي لأن ابن امير المؤمنين أذهله منظر أبيه المطعون ودمه ينزف ، فسحب سيفه وقتل من أجمعت الروايات على أنهم هم الذين دبروا الجريمة . واعتقل ابن عمر ، وطالب الرأي العام بإعدامه .. بل واعتبر المؤرخ الإسلامي ، ان تجنب عثمان القصاص من ابن عمر ابن الخطاب ، بفتوى عمرو بن العاص ، أن الجريمة وقعت في فترة لم يكن للمجتمع فيها سلطة مستقرة ، وقبل أن يتولى عثمان الخلافة ، ومن ثم فهو غير مسئول عنها .. ولذلك لجأوا الى عفو أصحاب الحق المدني، فسلموم ابن أمير المؤمنين وسيفاً .. وسألهم ولي القصاص : هل لي الحق كل الحق في أن أقتله؟ قالوا نعم !.. قال هل يصيبني مكروه إن قتلته (وهو فارسي لم يستوعب بعد العدالة الإسلامية) قالوا : لا .. هذا حقك .. عندئذ عفى الرجل .. ومع ذلك يقول المؤرخ الإسلامي .. إن هذه كانت أول ثغرة في الاسلام .. وبداية كل النكبات التي وقعت !..

الى هذا الحد كان ضميرنا القانوني حساساً وعادلاً ومتميزاً في عصور تألقنا .. بينا رجال الثورة الفرنسية ، خرجوا غاضبين - كما سئى - يقتلون النساء والأطفال ، ثم نكلوا بوحشية لا مثيل لها في التاريخ بالقاتل .. ولم تظلم عليهم الدنيا ، ولا اهتز ضمير فرنسي واحد ..

ولكن المدرسة الاستعمارية ، تريدنا أن نغفل عن هذه الحقيقة ، وننبره بشكليات المحاكمة !!.

والجبرتي المنصف الدقيق لم يفته أن يسجل المحاكمة ويبيدي دهشته من اجراءاتها، ولعلها أول دهشة يسجلها قلم شرقي لطقوس العدالة الغربية المتوارثة عن الفهم الروماني الذي يهتم بالشكل والإجراءات اكثر من الاهتمام بالموضوع، أو بالعدالة ذاتها .

والحق انه أمر يثير الدهشة وتمعز عقليتنا عن فهمه أن ينطلق الجنود

الفرنسيون فور سماعهم نبأ قتل كليبر : « قتلنا بسيوفنا وخناجرنا جميع من صادفنا من الرجال والأطفال » (*) (٧) .

لا شك أن الجبرتي له عذره إذ يدهش من أولئك الجنود الذين يقتلون بلا مناقشة ولا محاكمة ، أطفالاً لا شبهة في براءتهم من مسئولية مصرع الجنرال قائد الحملة . ولكنهم يهتمون ، بإجراء محاكمة وتسجيل محضر تحقيق لمتهم أمسك وهو يحمل خنجراً تغطي ثيابه الدماء ولا شبهة في أنه هو القاتل !

الجبرتي رأها ظاهرة تستحق التسجيل ولكن تلاميذ المدرسة الاستعمارية يحاولون الاستدلال من ذلك على سمو العدالة الفرنسية ! ويؤرخون « بمحاكمة التفيتش » هذه .. دخول « أول تجربة للقانون الحديث والعدالة » في الشرق المتوحش ! « وهيرولد » عميد المدرسة ، لم يستطع أن يذهب هذا المذهب ، بل يعلق على دهشة الجبرتي : « والذي أدهش الجبرتي هو أن تتاح لرجل ذنبه واضح ، محاكمة قانونية بدلاً من أن يعدم فوراً . ولكن الواقع أن الاجراء الذي اتخذ في هذه الحالة كان يختلف اختلافاً كبيراً عن الاجراءات الفرنسية العادية - لسبب واحد هو أن المتهمين لم يمثلهم محام - ولم يكن الغرض من المحاكمة انصاف المتهمين ، بل الكشف عن شركائهم في الجريمة » (٨) .. هذا هو رأي « كرستوفر هيرولد » .

فإذا تركنا جانباً هذه الاجراءات ومحاضر التحقيق فإن اسلوب التحقيق والأحكام والتنفيذ تخزى أي محاكمة تترية . ولم يجد كاتب التحقيق عذراً يستر به هذا الخزي إلا قوله أنه يتفق وتقاليد البلاد ، ولو أن « هيرولد » يعلق : « أما سليمان فقد رأت المحكمة أن تطبق عليه عقوبة تسمح بها تقاليد الحكم في البلاد ، ولكنها لا تتفق مع مبادئ الجمهورية الفرنسية المستنيرة » (٩) .

(*) نقلها « هيرولد » عن يوميات الجاويش فرانسوا وعلق بأن الجاويش يذكرها « في غير حياء كما هو واضح » .

وبالنسبة للحكم على « سليمان » بالذات يصعب جداً أن نطابقه على تقاليد البلاد .. فقد جمع كل الابتكارات الوحشية التي تفتق عنها العقل الشرير للانسان .. ولم نقرأ في تاريخ « الجبرتي » كله، عقوبة نفذت بمثل هذه الوحشية قبل الحملة الفرنسية .

أما إجراءات التحقيق فقد سارت كلها على النحو التالي ومع جميع المتهمين : « فلما ان كان المتهم لم يصدق في جواباته أمر سارى عسكر أنهم يضربونه حكم عوائد البلاد . فحالا انضرب لحد أنه طلب العفو ووعد أنه يقر بالصحيح فارتفع عنه الضرب » .

ولا شك أنها كانت فرصة نادرة « للمتهمين » وهم يضربون حسب « عوائد البلد » ولسليمان الحلبي وهو تحرق يده حياً .. وينفذ الخازوق في أحشائه على دقات موسيقى الجيش الفرنسي .. وراية الحرية والمساواة والاخاء ترفرف فوق رأسه .. لا شك أنها كانت فرصة نادرة لكي يتعلم الازهريون أنه « من الممكن مسابقة الزمن مع الاحتفاظ بعوائد البلاد لا تمس » ! بل وتشهد هذه العوائد بعثاً وتطويراً نادرين !

وبعد ضرب « المتهمين » وإقرارهم « قطعت رؤوس المشايخ الثلاثة » . ثم بدأت عملية التنكيل الهمجى بالفق الحلبي الذي عرف نفسه بأنه « ابن عرب » .. والذي كان يتمتع بحالة نادرة - اسطورية لم يعرفها التاريخ قط - من الشجاعة والسيطرة على النفس (*) ، وإخضاع الجسد لإرادة الروح .. والذي غسل عار كل ما ارتكبه العملاء « الشوام » .. وكان رداً بليغاً مفحماً على كل من تسول له نفسه استقلال موقفهم للطعن بالوحدة العربية ، بل وهادياً مبكراً للطريق القويم الذي يجب أن تمر عبره القومية العربية .. فالذين

(*) هل ترك أترأ مذهلاً حتى في نفوس الفرنسيين الى حد ان الجنرال « مينو » سمى ابنه من زوجته المصرية « سليمان » ! أما ان التسمية كانت محاولة من « مينو » للتقرب الى المصريين الذين توجهوا « سليمان » بطلا قومياً .. ومجاهداً خالداً .. ونفس الشيء عن « سليمان » باشا الفرنسي .

عبروا من الأزهر ، كانوا رمزاً لوحدة هذه الأمة وصلابتها في مواجهة الغزو الاستعماري .. والذين عملوا في خدمة المحتل ، وعادوا الأزهر ، وتكروا لتراث هذه الأمة وتاريخها ، لم يكونوا إلا أداة تفكيك الوحدة العربية ، وعنصراً من عناصر التمكين للسيطرة الأجنبية .

ولنسمع وصف محرقة جنكيزخان الفرنسي .. كما يصفها «هيرولد» نفسه:

« ولا بدّ أن هذا اليوم كان أروع يوم في حياة الرومي برطمين . فقد بدأ بقطع رؤوس الشيوخ الثلاثة ، وكان الفحم أثناء ذلك يحمي في بجمرة . ولم يشكُ « سليمان » ويده تشوى على الحجر ، ولكن حين انزلت جمرة الى مرفقه ، نبه « برطمين » الى أن الحكم عليه لم يذكر المرفق ، بل اليد فقط . ورأى « برطمين » في هذا مما حكمة من سليمان . وقال سليمان أن برطمين نصراني كلب ، وأصرّ على حقوقه حتى أزيحت عن مرفقه الجمرة . وقد سجل الجاويش « فرانسوا » (*) التفاصيل الجراحية لخوزقة « سليمان » بعد إحراق يده ، وهو يزعم أنه راقبها على بعد خمس خطوات .. ويستطيع هواة هذه الأشياء الرهيبة أن يرجعوا اليها في يومياته . ومن الطريف أن نذكر أن جميع الحاضرين ، بما فيهم « المريض » كانوا فيما يبدو ينظرون الى هذا الاجراء الوحشي على أنه إجراء عادي لا غبار عليه (**). ولما أتم « برطمين » القسم التمهيدي من العملية ، رفع الخازوق قائماً وعليه سليمان ثم غرس في الأرض . ورجا سليمان جندياً فرنسياً واقفاً بقربه أن يعطيه شربة ماء . وكان على وشك أن يناوله زمزميته لولا أن منعه « برطمين » فإن أقل شربة من الماء كفيلة بقتله فوراً ، فيتعطل بذلك مجرى العدالة .. واستأنف المشهد سيرة تاركاً سليمان على خازوقه يصلي » (١٠) .

(*) وهو الذي سجل بغير رعشة ضمير أنه ورفاقه ذبحوا الاطفال والنساء بسيوفهم وخناجرهم.

(**) (11) .

هذه هي المحاكمة التي تجعلها المدرسة الاستعمارية نموذجاً للعدالة التي بهرت المصريين ، وتستدل بها على الانقلاب القانوني الذي تمّ في عقول النخبة من مقارنة الجبرتي بين محاكمة الفرنسيين الذين لا يتبعون دين ، وبين أفعال الهمج المنتسبين للإسلام .

« لويس عوض » ينبتها الى هذه المحاكمة : « وأهم من ذلك كله الوقفة الطويلة التي وقفها الجبرتي أمام محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر وأظهر فيها دهشته وإعجابه من الطريقة التي يجري بها الفرنسيون محاكمتهم » (١١) .

« ومما أبرزه الجبرتي ان استجواب سليمان الحلبي ظلّ يأخذ الطريق القانوني (!!) رغم إصراره على الانكار فلما لم تجد معه الوسائل القانونية جرى ضربه « على عادة أهل البلاد » ليعترف فاعترف . وواضح من السياق ان العرف في مصر ايام الترك المالك كان يقوم على تعذيب المتهمين لاستخلاص الاعترافات منهم » (١٢) .

العبارة مصاغة بطريقة توحي كأن الجبرتي هو الذي يبرر ضرب المتهم بأنه « على عادة أهل البلاد » فوضع العبارة بين قوسين وبعد القول بأن الجبرتي أبرز ان استجواب سليمان أخذ الطريق القانوني رغم إصراره.. الخ.. مما يوحي بأن العبارة مقتبسة من كلام الجبرتي.. وأن الجبرتي قد كتب تعليقاً والحقيقة غير ذلك فالجبرتي نشر محضر التحقيق ، أو ملف القضية بنصه وحرص على ألا يغير حرفاً منه رغم رأيه السيء فيه من ناحية الصياغة . وعبارة « جرى ضربه على عادة أهل البلاد » منقولة من محضر التحقيق بحروفها وجاءت على لسان المقرر الفرنسي . وما كان الجبرتي « ممن يغير الكلام » ومن حقه إذن ألا يغير أحد كلامه وينسب اليه ما لم يقله . فلا الجبرتي قال أنه استجوب بالطرق القانونية ولا قال انه « ضرب على عادة أهل البلاد » اما اعتذار « لويس عوض » بأنه يفهم من السياق ان العرف في مصر ايام الترك المالك كان يقوم على تعذيب المتهمين لاستخلاص (انتزاع

أفضل يا دكتور لويس ! الاعتراف منهم . فهو تبرير قالته قبله بمائة وسبعين عاماً المحكّة الفرنسية ، ولم يفدها في التنصل من لطخة العار التي أدانت شرف الثورة الفرنسية ، وما من قانوني شريف في العالم كله يقبل هذا الدفع : « على عادة أهل البلاد » !

إذن انتهت التجربة ، وسقط النموذج ، وقفل باب النقاش .. إذا كانت العدالة الفرنسية لن تتحقق إلا باتباع « عادة أهل البلاد » .. فما الجديد ؟ التحقيق تم على عادة « الأتراك المماليك » في انتزاع (أو استخلاص للتلطيف) الاعترافات ، والمعقوبة تمت على عادة خان التتار !.. فما الجديد ؟ أكل الثورة القانونية هي في فتح ملف للقضية وطبعه من عدة نسخ ؟ لو كان للخان التتري مطبعة لفعل .. أو ربما لاستحى أن يطبع وينشر مثل هذا الحكم الوحشي ..

ويجب أن نلاحظ ان الجبرتي قد بدأ كتابة احداث الحملة الفرنسية (بمعنى تنسيق ومراجعة مذكراته اليومية) بعد خمس سنوات من جلاء الفرنسيين (١٢٢٠ - ١٨٠٥) وكانت مصر تعيش في ذلك الحين - وقت كتابة الجزء الثالث - أحلك سنوات مرت في تاريخها كله .. فالانهيار التركي والمملوكي كان قد تجاوز القاع . لذا فإن مؤرخاً مثل الجبرتي ، ووجهة نظره معروفة في فساد الحكم العثماني والمملوكي ، ما كان بالذي تفوقه هذه المناسبة لكي يصوب سهام نقده للاتراك والمماليك كتعبير عن مشاعر المصريين الذين كانوا في هذا الوقت يقااتلون الأتراك والمماليك . وكوسيلة من وسائل المعارضة للمتسلطين الاتراك والمتقاتلين المماليك . أنستكثر على الجبرتي أن يعير هؤلاء الذين يزعمون أنهم يستبدون بمصر بحجة انهم خلصوا البلاد من حكم « الكفرة » فيقول لهم ان حكم « الكفرة » كان أحسن منكم .. ولكن أيجز لنا أن نستنتج من ذلك أنه كان يرجح حكم الكفرة ، ويتمنى دوامه !؟

هل من شعب عربي .. أو حتى شرقي ، استقل حديثاً ، لم يتحسر كاتب فيه ، أو حتى قطاع ضخم من مثقفيه على أيام سيادة القانون في عهد الاستعمار .. وكتب عن الضمانات التي كانت للفرد في ظل الاستعمار ؟ هل يجوز إذن أن يستنتج مستنتج من ذلك ، وجود تيار بين المثقفين يفضل الحكم الأجنبي؟! .. المدرسة الاستعمارية تريد أن تقول ذلك ، وهي تقوله لحساب اليوم والغد ، وليس لحساب الأمس .. ولذلك نحن نختلف معها ، وبهذه الحدة ، فلو كان الأمر مجرد مناظرة حول الأمس ، لما طال الجدل ، ولا كان العنف فيه .. ولكن الخلاف في الحقيقة هو حول الحاضر والمستقبل .

« والرافعي » ولو ان أخلاقياته لم تسمح له بالهجوم على « سليمان الحلبي » إلا أن المناخ الذي تربي فيه وكتب فيه كتابه هذا بالذات (أواخر العشرينات) حيث كانت القيادة المثقفة للحركة الوطنية تعاني ضربات قاصمة بتأثير الاغتيالات السياسية التي سادت هذه الفترة . هذا المناخ جعل عبارات « الرافعي » تتم عن سخطة على « الجريمة » فهو لا يتحدث عن « سليمان الحلبي » إلا بألفاظ : « القاتل » « الجاني » « قطعنه القاتل » « وعاد الجاني مرة ثانية » « ولاذ الجاني » « مكان الجريمة » « مما يدل على القاتل » « القبض على القاتل » « دلائل الجريمة » « بدم الجريمة » « فلما سبق القاتل » « وفي صباح الجريمة اندس القاتل » « وأخذ في ضرب القاتل » .

كأننا نقرأ محضر ضبط حرره شرطي فرنسي وليس « الجزء الثاني من تاريخ الحركة القومية في مصر » !!

وهو وان لم يسقط الى درك « لويس عوض » فيبرر ضرب «سليمان الحلبي» بحجة « انه من عوائد البلاد » إلا أنه لم يرتفع الى مستوى « الفريد فرج » و « هيرولد » في استنكار الضرب صراحة بل اختار عبارة تقطر نفاقاً بورجوازيًا : « ومع هذه البيانات القاطعة كان القاتل ينكر الجريمة ، فاتبع

معه برتلمي الرومي طريقة التعذيب لا كراهه على الاعتراف (١٣) : « طريقة التعذيب » و « لا كراهه » عبارة ترضي جميع الأطراف . وتبقي قائمها في اطار حزام العفة .

ولا يفوت « الرافي » ان يتمدح القضاة الفرنسيين لهدوء أعصابهم : « وقد كان في استطاعتهم أن يأخذوا كثيراً من الأبرياء يحناية القاتل ، لكنهم لم يفعلوا فكانوا نموذجاً للمعدل ومدعاة للاعجاب » (١٤) .

ولا عجب وهو من الجيل الذي ما زال يحمد الله لأنه نجا الكنانة من أخطار التنكيل البريطاني ، بالقبض على قتلة اللورد موين !! والذي شاهد وزارة تسقط وسودانا يفصل وغرامة تفرض .. ودستوراً يتحول الى قصاصة ورق وبرلماناً يحل لأن مصرياً قتل سارى عسكر الانجليز بالسودان .

ثم يصف لنا « الرافي » جنازة كبير في ٢٣ سطرأ .. ويؤرخ « اعدام المحكوم عليهم » في ثلاثة سطور ، ويحذف منها حرق يد سليمان حياً .. مع انه لا يفوته ان يصحح للجبرتي موعد تنفيذ الحكم وانه كان بعد دفن « كبير » وليس قبله ، كما اخطأ الجبرتي واستحق من الرافي أن يوبخه على خطأه هذا ، فيتهمه بأنه « لم يحضر الجنازة ولا تنفيذ الحكم ولم يغادر بيته في ذلك اليوم الرهيب فلم تصله حوادثه كلها على حقيقتها » (١٥) .

وبحرق الانسان الحي .. والقتل على الخازوق .. ختمت الحملة الفرنسية صفحتها الحضارية في مصر منبهة كأعنف ما يكون التنبيه ، كل الذين خدعهم الشكليات . نبيتهم الى ان الاستعمار هو الاستعمار .. وان الحكم الوحشي هو وسيلته الوحيدة في مواجهة تطلع الشعوب المشروع للتحرر ..

وصدقت على نحو مزعج نبوءة العامة المصريين عندما علقوا على النصب التذكاري الذي أقامه الفرنسيون وغطوه بعلم الثورة الفرنسية ، ليكون

رمزاً لثورة العصر .. لكن العامة في مصر ، لم تجد فيه إلا ما سجله نقولا الترك : « ان الفرنسيين كانوا يقولون ان هذه شجرة الحرية ، أما أهالي مصر فكانوا يقولون ان هذه اشارة « الخازوق » ^(*) الذي ادخلوه فينا واستيلاؤهم على مملكتنا . واستمر هذا العمود نحو عشرة أشهر . وحينما رفعوه استبشرت أهل مصر وابتهجت بالفرح » ^(١٦) .

ورغم الرمزية التي في تشبيه اولاد البلد . فقد أتاحت لهم الفرصة ليروه مجسداً .. « وبرطلين » يرفع « سليمان الحلبي » بعد أن اجلسه على الخازوق ، ويمنع عنه الماء ليبقى ينزف وتمزق احشاؤه أطول مدة ممكنة تحت حماية جند الثورة الفرنسية ، المشبعين ببادئها .. والراية التي كان احرار أوروبا يتخاطفونها تظلل « تل العقارب » ..

ويسدل الستار على مسرحية الآخاء والعدالة والمساواة .. وتطبيق الليبرالية لأول مرة في الشرق ! وتأكل الطيور جثة « سليمان الحلبي » .. ومع كل قطعة لحم من جسده الطاهر .. تتمزق كل الأساطير والأضاليل عن أي دور تحرري أو حضاري يمكن أن يقوم به الغرب الغازي في الشرق المغزو ..

رضوان الله عليك يا شهيد الاسلام .. يا شهيد العروبة .. يا شهيد مصر ..

(*) وكانت وجهة نظر المصريين لها ما يبرها ، فان « الجبرتي » ، ولو أنه لا يثبت هذا التعليق البارع الذي أورده « نقولا الترك » ، الا أن وصفه لقاعدة « الخازوق » يعطي المصريين الحق في اعتباره رمزاً لانتصار الفرنسيين ، فالجبرتي يقول : ان قاعده النصب « به تصاوير بالأسود مصور فيه مثل حرب المهالك المصرية معهم وهم في شبه المنهزمين بعضهم واقع على بعض ، وبعضهم ملتفت الى خلف (١٧) .

ويستحيل طبعاً ان يصدق المصريون ان هذا النصب يرمز للحرية والمساواة والاخاء او « شعارهم وإشارة الى قيام دولتهم في زعمهم » .

يا شهيد الشرق .. ولتبقى ذكراك خالدة رمز الوحدة العربية الوطنية ،
المعادية للاستعمار ..

واللعنة على كل الطغاة الذين انزلوا بك العقاب الوحشي .. والعار لكل
الذين يتطاولون اليوم على سيرتك .. ويدافعون عن جلاديك .. اللعنة والعار
على عملاء الأمس الذين كانوا الى جانب وفي خدمة جلاديك يعدون الخازوق
والجمر الملتهب .. واللعنة والعار على الذين يزورون التاريخ اليوم ليبرثوا
أعداء الجلاد وعملائه ..

ولنتقل الى « تحرير المرأة » !

تحرير المرأة من تحت الزنار !

وإذا كان يمكن لتلاميذ المدرسة الاستعمارية وحتى اساتذتها ان يشقشقوا حول : « القومية » و « الليبرالية » و « التجربة البرلمانية » .. فإن منطقتهم يفقد كل جدية بحكاية « تحرير المرأة » !.. فلم يوجد قلم يحترم نفسه جرؤ على الزعم بان عام ١٨٠٠ هو عام تحرير المرأة المصرية ! عام ١٨٠٠ عام هزيمة ثورة القاهرة الثانية ، عام سبي جنود الاحتلال لنساء مصر وبناتها وغلماها .. هو عام تحرير المرأة المصرية .. انفرد بهذا الكشف « لويس عوض » !.. يقول :

« أما عام ١٨٠٠ فهو عام تحرير المرأة ففي الجبرتي وصف لبدائيات حركة السفور ووصف لبدائيات حركة تحرير المرأة ووصف لما أصاب بعض نساء القاهرة من انطلاق نتيجة لمخالطة المصريين للفرنسيين ومحادثتهم في الزي وفي السلوك » (١٨) . ويستشهد على حركة التحرير هذه بقول الجبرتي : « ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء . وهو انه لما حضر الفرنسي الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستاتات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحير

ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة . فمالت اليهم نفوس أهل الاهواء من النساء الاسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن . وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار . ومبالغة في اخفائه . فلما وقعت الفتنة الاخيرة بمصر . وحاربت الفرنسيين بولاق وفتكوا في أهلها . وغنموا أموالها واخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات . وصرن مأسورات عندهم فزيهون بزني نساءهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الاحوال . فخلع اكثرهن نقاب الحياء بالكلية وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر . ولما حل بأهل البلد من الذل والهوان وسلب الأموال . واجتماع الخيرات في حوز الفرنسيين ومن والاهم . وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها (*) فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس الى الشهوات وخصوصاً عقول القاصرات . وخطب الكثير منهم بنات الاعيان وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم . فيظهر حالة العقد الاسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها « ومنها أنه أوفى النيل اذرعه ودخل الماء الى الخليج وجرت فيه السفن . وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطن بالفرنسيين ومصاحبتهن لهم في المراكب . والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة . وعليهن الملابس الفاخرة والحلى والجواهر المرصعة ، وبصحبتهن آلات الطرب وملاحسو السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المجاديف بسخف موضوعاتهم وكثائف مطبوعاتهم . وخصوصاً اذا دبت الحشيشة في رؤوسهم وتحكمت في عقولهم .

(*) حذاءها .. ولم تكن هذه مفاجأة تامة للجبرتي ففي تاريخه لأحد شيوخه الذي تعلم على يدهم ذكر الجبرتي أن شيخه هذا كانت امرأته تضربه (١٩) .

فيصرخون ويطلبون ويرقصون ويمزرون ويتجاوبون بحاكة ألقاظالفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم شيء كثير .

« وأما الجواربي السود فانهم لما علمن رغبة القوم في مطلق الانثى . ذهبن اليهم افواجاً فرادي وأزواجاً . فنظطن الحيطن وتسلقن اليهم من الطيقان ودلوم على نخبآت اسياذهن وخبايا امواهم ومتاعهم وغير ذلك » .

ويفهم « لويس عوض » من عبارات الجبرتي انه كانت هناك « ثورة نساء » او « ثورة حريم » في مصر او « على الاقل في القاهرة عام ١٨٠٠ » ...

ومع ان الجبرتي لم يترك فرصة لسوء الفهم هذا ، فان تلميذ المدرسة الاستعمارية يصر على انها كانت ظاهرة عامة تابعة عن ثورة تحررية ، وليست حالة انهيار تحدث في جميع المجتمعات التي تتعرض للاحتلال والنهب والسلب والتجويع ، وأسر بنات الأسر ، كالجواربي ، ووضعهن في معسكرات الجنود « مأسورات » .

مؤرخ المدرسة الاستعمارية يجعل من انحطاط المرأة الى حد التكبب بالجنس - وهذا واضح من اشارة الجبرتي الى بذل الفرنسيين الأموال للنساء - ثورة نساء وبداية تحرر المرأة ! وهو بذلك يعكس احتقاراً عميقاً للمرأة .. كما يعكس مفهوماً بورجوازيًا وقحاً لمعنى تحرر المرأة . ولكنه لا يكتفي بذلك بل يصر على أن يجعل هذا التحرر بعلم رجال مصر ورضاهم .. ورغم عبارة الجبرتي الواضحة التي تصف السلوك الطبيعي للمتكسبات بأجسادهن في المجتمع المصري الذي ما زال يقتل الراقصة أو بنت الهوى ، رغم مائة وسبعين عاماً من « تحرر المرأة » !.. ولكن ضغط الحاجة ، مع الانهيار الخلقى والشره الى المكاسب دفع بعض : « أهل الأهواء من النساء الأمافل والفواحش ، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء ، وبذل الأموال لهن » .

فالجبرتي دقيق واضح : الفريق الأول او « الرائدات » هن من النساء

الاسافل والفواحش .. وهن يذهبن الى هناك بسبب خضوع الفرنسيين للنساء وبذل الأموال لهن . وحتى الغوازي والراقصات ، وكانت حارات القاهرة وموالدها بل حتى في اعماق الصعيد تعج بمثلهن قبل الحملة الفرنسية .. ولكن حتى هؤلاء الفواحش يحتجن في البداية الى التكتّم في اتصالهن مع « كفار » .. جنود جيش احتلال اجني .. وهو ما وصفه الجبرتي بدقة تغني عن كل تعليق :

« وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في اخفائه . »

ولو انتقلنا مائة وأربعين سنة بعد ذلك لوجدنا نفس الظاهرة مع الخادمت والساقطات اللاتي ذهبن الى الجيش الانجليزي ، ففي البداية كان الأمر يتم في تكتّم وخجل فحتى المومس تحجّل من مضاجعة الخواجة المحتل .. وحتى مجتمع الساقطات يرفض أن تتعهر ابنة البلد امام المحتل الكافر (*) .

بل حتى في فرنسا ذاتها ، لم تكن كل « مومس » تقبل ان تظهر علانية في شوارع باريس متأبطة ذراع جندي نازي (**)! ..

(*) هذه النقطة رسمها بوضوح جبرتي مصر الحديثة « نجيب محفوظ » في زقاق المدق .

(**) ونشرت الصحف وأنا اشرف على طبع هذه السطور نبأ العقاب الذي اتزله الوطنيون والوطنيات في ايرلندا بالفتيات اللاتي يصادقن الجنود البريطانيين قالت صحف يوم ١١/١١/١٩٧١ :

« ربطت فتاة مراوحة- في التاسعة عشرة من عمرها- بعمود اثاره اللية الماضية في حي بوغسايد (لندنديري- ايرلندا الشمالية) وصب عليها القار لانها اقامت علاقات مع جندي بريطاني. ووقف جمهور ساخر يتفرج فيما اخرج رجال منظمة الجيش الجمهوري الايرلندي مرتادوهرتي ، البالغة من العمر ١٩ سنة ، بالقوة من منزلها . واخذوا يهتفن « عاشقة الجنود » وقد أمسك نحو ٨٠ امرأة بتلابيب الفتاة وشد وثاق الفتاة وحلق شعر رأسها ، وصب الاسفلت فوق رأسها وكتفيها. وقالت فتاة اخرى انها تلقت انذاراً يوم الاثنين الماضي بأنها ستقتل اذا شوهدت مرة أخرى تتحدث الى جنود بريطانيين . وازافت ان ست فتيات جئن بعد دقائق وقصصن شعرها حتى مستوى جلد الرأس. وقالت لقد ادركت انني سأعاقب وانه من الحكمة قبول هذا الوضع بدلاً من مقاومته. واكدت انها لن تقابل أى جندي بريطاني بعد الآن . (النهار - الانوار)

وهكذا فشلت حركة تحرير المرأة في ايرلندا !

وهل تقبل - بسهولة - مومس عربية في العريش أو نابلس أن تسير
علانية الى جانب جندي الاحتلال الاسرائيلي؟ أم ترانا مضطرين الى افتراض
تحرر اكبر في المومس المصرية منذ قرن وسبعين عاماً! .. واذا كان البعض
لا يرى الاحتلال الفرنسي شبيهاً بالاحتلال النازي أو الاحتلال الاسرائيلي ،
أو يعتبر الشعب المصري أقل وطنية من الشعب الفرنسي والشعب العربي اليوم.
فان مومسات مصر في فجر القرن التاسع عشر ، كان رأيهن غير ذلك .

.. ففي البداية كان لا بد حتى للمومسات ، أن يلتزم بعض الحياء ..
تخرجاً او خوفاً من انتقام المجتمع .. ولكن مع الانهيار الشامل وسقوط
القاهرة تحت أقدام الغزاة بعد الثورة الثانية أو « الفتنة الاخيرة » ، وأسر
بنات الاسر وتحويلهن في عصر تحرير المرأة الى جواري وسبايا ، واجبارهن
على التحول الى غانيات .. وليس زوجات بأي حال من الاحوال ، كما يزعم
مؤرخ المدرسة الاستعمارية ، عندئذ سقط الحياء .. فما دامت بنات الاسر
« تبهدلن » فهل تتعفف المومسات والفواحش ، بالعكس لم يبق امامهن إلا
ان يكشفن اكبر قدر ممكن من عوراتهن بعد أن حميت المناقصة بقيام اكبر
سوق للحریم والجواري عرفه تاريخ مصر .. وبعدها انهارت قدرة المجتمع
على المقاومة وهو يرى بنات وزوجات شريفات يتحولن الى رقيق في مواخير
وخماير ومعسكرات جيش الاحتلال . ومع الضربات التي نزلت بتنظيمات
المقاومة بعد سحق الثورة الثانية .. يقول الجبرتي :

« وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في
اخفائه . فلما وقعت الفتنة الاخيرة بمصر . وحاربت الفرنسيين ببولاق
وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسوه من النساء والبنات
صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزي نساءهم وأجروهن على طريقتهن في كامل
الأحوال فخلع اكثرهن نقاب الحياء بالكلية . وتداخل مع أولئك المأسورات
غيرهن من النساء الفواجر ، ولما حل بأهل البلد من الذل والهوان وسلب

الأموال واجتماع الخيرات في حوزة الفرنسيين ومن والاهم . الخ »
فالجبرتي حريص على أن يفرق بين نوعين النساء والبنات المأسورات. وهو
يكسر لفظة « مأسورات » مرتين في فقرة واحدة . والنوع الآخر هن
الأسافل والفواجر من النساء ممن يتكسبن بالجسد عادة ..

ولكن مؤرخ المدرسة الاستعمارية يصر على ان هذه الظاهرة هي من
« مظاهر التحرر في المظهر والسلوك بين نساء مصر » و « ان هذه الظاهرة
عمت نساء مصر » وبالذات الحرائر وربات البيوت !

فيقول : « فلو كان الجبرتي يتحدث عن مجتمع الساقطات والفواحش
بالمعنى الاجتماعي ، لما كان هناك مجال للكلام عن الاحتشام واثقاء العار
والحرص على التستر ، لأن بنات هذه المهنة لسن بحاجة الى الاحتشام ولا
قدرات عليه ، ولسن مسؤولات حتى يبتغين الحرص على التستر واثقاء العار.
فهو إذن يتحدث عن الحرائر من ربات البيوت وبناتها عن سيدات المجتمع .
وهؤلاء ما كان يمكن ان يخالطن الفرنسيات والفرنسيين الا برضاء الأولياء
عليهن » (٢١) .

وهكذا نجد ان المجتمع المصري في تحرره ، تحولت نساؤه الى بغايا يتعلقن
بسترات جيش الاحتلال ، ورجاله الى ديوثين يرضون بذلك !

ولا شك انه في مثل هذه الحالات ، حالة جيش احتلال يدمر العاصمة
ويسبي بناتها ويجمع أهلها الى حد الموت ويفرض غرامة مالية مدمرة كتلك
التي فرضها « كليبر » .. ويضرب الشيخ « السادات » في حضور زوجته ،
 ويفرض الغرامات الفاحشة على نساء المالك .. لا شك ان الانهيار يمتد الى
فئات وحالات فردية في سائر الطبقات . وحتى يومنا هذا فان التعاون مع
المحتل لا يختص به الجياع للخبز وخدمم والتهتك في احضان جنود الاحتلال
يحتذب الراغبات في الاموال لجوعهن ، والراغبات في الأموال لانهارهن
وجوعهن الطبقي .. والراغبات في الجنس . والراغبات في التهلك ذاته .

ولكن أحداً لا يسمي هؤلاء ثوريات ولا يجعل من انهيارهن بداية لتحرير المرأة ! لأن المرأة لا تتحرر من نصفها الأسفل ، ولا تتحرر في ذات لحظة فقدان الوطن لحريته .

والجبرتي دقيق في عبارته فهو يفرق - كما رأينا - بين البنات والسيدات المأسورات ، وواضح انه يعتذر عنهن بالأسر - والجارية غير مسئولة عما يجبرها مالکها عليه من الفحش وان كان ديننا ينهي عن اجبارهن على الفاحشة - الجبرتي يفرق بين هؤلاء وبين الأسافل والفواجر الراغبات في المال أو الجنس والمال ومعاً .. وبين فئة ثالثة ، هي التي أجبرت على ان تستر علاقاتها مع جيش الاحتلال تحت ستار الزواج ، واعتناق الجنود للإسلام !

فليس من حق أحد أن يتقول على الجبرتي، ويقول أنه منفعل بحكم موقفه الأخلاقي (متزمت يعني ! باعتباره فقي !) وليس من حق أحد أن يلوي عنق النص ، أو حتى يرفضه تماماً لتستقيم النظرية التغريبية ..

ولكن « لويس عوض » يرى أن الفواجر هنا نعت أخلاقي وتعليق شخصي من عند الجبرتي .. وليس وصفاً لطبقة أو فئة أو مهنة . وهكذا اتسعت طبقات النساء اللواتي حاكين المتفرنسات والعادات الفرنسية « فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار » بتأثير سبايا الفرنسيين المتحدرات من بنات بولاق .

وعبارة « سبايا الفرنسيين المتحدرات » ليست هزلية ، ولا وضعت للتفكه ، وان كانت كذلك ، بل هي منطقية للغاية مع هذا التفسير الجنسي للتاريخ .. فكونهن « سبايا » الفرنسيين لا يتنافى أبداً - في هذا المنطق - مع كونهن « متحدرات » .. فالحرية التي يدور حولها الجدل هنا هي الحرية الجنسية - بالمعنى السوقي المبتدل - ومن ثم يمكن ان تكون المرأة جارية سبية « متحررة » بل وطلیعة ثورة تحررية ، لأنها تلبس الفستان وتخرج سافرة الوجه متأبطة ذراع محررها ومالکها في نفس الوقت !..

أليس هذا المحتل للوطن هو أيضاً باعث قوميته !.. اليست هذه جدلية !
ويستمر الطعن في الجبرتي الذي فسر اندفاع الفواجر بلا حياء بعد سقوط
ثورة القاهرة الثانية ، بما جرى على بنات اسر بولاق من أسر دوسي واجبار
على العيش ككفانيات في ركاب الجيش المحتل . يرفض « لويس » هذا التفسير
من الجبرتي ويصفه بأنه اجتهاد غير معقول في تفسير هذه الظاهرة لأن العقائل
والحرائر وصاحبات الحشمة والوقار لا يحاكين السبايا إلا إذا كانت السبايا من
العقائل والحرائر وصاحبات الحشمة والوقار ، إلا إذا كن زوجات لا سبايا
أي كان لهن وضع اجتماعي شرعي معترف بشرعيته . ويستشهد بما ذكره
الجبرتي عن الزيجات الفرنسية - المصرية . وهذه حجة للجبرتي ، فهو لم يفغل
هذه الظاهرة بل عددها ضمن تصنيفه الدقيق والتطوري لظاهرة النساء في
معسكر المحتلين، التي بدأت بالفواحش والفواجر ثم بالجواري والسبايا من بنات
المدينة الثائرة المهزومة . ثم باندفاع الفواجر والأسافل وخلع برقع الحياء من
جانبهن . ثم بأولئك الذين أرادوا الجمع بين الدين والدنيا فاشترطوا أن يتم
ذلك على سنة الله ورسوله !

وحق النصوص التي يستشهد بها « لويس » من « نقولا الترك » تؤكد
صحة معلومات الجبرتي .. ف « نقولا » عندما يتحدث عن النساء المصريات
في معسكرات جيش الاحتلال يؤكد انهن : « مملوكين من الافرنج جهاراً
ماشين معهم في الطريق . ناعمين قايمين في بيوتهم » .. ولو كن زوجات لما
كان في « نومهن وقيامهن » في بيوت ازواجهن ظاهرة تحتاج الى تأريخ ..
حتى ولو سبب هذا الزواج ألماً لبعض المواطنين . فان خير ما تفعله الزوجة
هو أن تنام وتقوم في بيت زوجها، على الأقل في مطلع القرن التاسع عشر!..
وما كان نقولا الترك ليستخدم عبارة : « مملوكين من الافرنج جهاراً » ..
ولا اندهش من مشيهم معهم .

وهيرولد يؤكد ذلك بقوله « واستولى الجنود على ما استطاعوا العثور

عليه ، بما في ذلك عدد كبير من النساء ظلوا يعاشرهن معاشررة الأزواج طوال سنة الاحتلال الباقية» (٢٣) (سنة تحرير المرأة) !

ان ظاهرة الانحلال، ظاهرة عامة في المستعمرات وهي لا علاقة لها ببركر المرأة ، اذ انها ظاهرة تنشأ عند قشرة المجتمع ، عند نقطة احتكاكه بالمحتل الأجنبي .. وهي « كالحب الافرنجي » سرعان ما تضرب يجذورها وتصل الى قلب المجتمع اذا ما اتاحت لها الفرصة بالاستمرار والتحول من ظاهرة اجتماعية الى قانون اجتماعي .. وهي اذا اتاحت لها هذه الفرصة فلن تتحول أبداً الى ثورة نسائية ولا الى حركة تحرير المرأة . لأن المرأة لا تتحرر على يد جيش احتلال يهتك الأعراض ويفتصب الفتيات القاصرات بله الأطفال ! « وهن ما زلن في احضان امهاتهن المقتولات » !! وبأسر النساء والبنات ويحتفظ بهن كجوارى في وقت لا يفكر فيه في أن يضع امرأة فرنسية في هذا الوضع .. « جارية » هي صفة مرفوضة بالنسبة للفرنسية حتى لو كانت واحدة من الثلاثمائة مومس التي كتب نابليون يطلب من حكومة الادارة اسعافه بهن ! ولكن استرقاق المصريات مقبول .. فالمصرية أقل من أوضع امرأة فرنسية .. الفرنسيون لم يعبروا عن أي احترام للمرأة المصرية ، ولا حتى اولئك الذين اجبروا على اجراء زواج شكلي لمجرد الرغبة في الحصول على جسد امرأة متمنعة - هي أو أهلها - على البغاء الصريح ، حتى هؤلاء لم يكن لديهم أية نية حقيقية في الارتباط بالزوجات الا في حالات نادرة تأثرت بما ينشأ بعد ذلك بحكم العواطف الانسانية التي لا يمكن تفادي تأثيرها ولو على التتار !

وللتدليل على ان المخالطة كانت ثورة ، واتجاهاً تحريرياً يضرب لنا مثلين:

« وليس هناك ما يدعو الى الظن بأن كل من خالط الفرنسيين أو حاكمهم او قبل وجوهاً من حضارتهم قد فعل ذلك عن مجرد افتتان بأسلوب الحكام في الحياة - وهو ظاهرة اجتماعية وانسانية - أو عن مصلحة ذاتية أو رغبة في التزلف الى الحكام . ولا شك أن تحرير المرأة على النحو العملي هذا الذي

وصفه الجبرتي ، كان « حركة » اجتماعية بالمعنى المألوف ، وتعبيراً عن رأي عام بين المثقفين وفي شرائح معينة من مختلف مستويات المجتمع المصري بضرورة الانفتاح لهذه الحضارة الحديثة والقيم الاجتماعية الحديثة التي جاء بها الفرنسيون من أوروبا . وأدركت بعض فئات المصريين أنها السبيل الى نهضتهم والى خروجهم من ظلام العصور الوسطى . انظر مثلاً الى مأساة زينب البكرية بنت الشيخ خليل البكري نقيب الأشراف أيام الحملة الفرنسية . والى مأساة سيدة أخرى من سيدات ذلك العصر اسمها هوى ، « مأساة عصر كامل سقط بين حضارتين فدفعت ثمناً رهيباً لاجترائه على تحدي القديم قبل انتصار الجديد » (٢٤) .

ولنا ان نتوقع ، طبعاً ، تتويج « زينب البكرية » و « هوى » كرائدات في حركة تحرير المرأة . ونموذج لهذا الرأي العام بين المثقفين . الذي أدرك ضرورة « الانفتاح » لهذه الحضارة الحديثة وانها السبيل الى نهضتهم ، وخروجهم من ظلام العصور الوسطى ... الخ .

فلندرس - بكل اهتمام - المثلين اللذين يقدمهما ..

اما زينب البكرية فكانت دون السادسة عشرة ؟! .. ومن ثم فلا يمكن ان تمثل حركة ولا أن تقود ثورة .. لا شك اذن أنه يعني ابيها الشيخ « خليل البكري » بالحديث عن قطاع المثقفين الذي ادرك اهمية « الانفتاح » ... الخ اذ لو كانت بنات مشايخنا في سنة ١٨٠٠ يدركن قبل سن السادسة عشرة ، اهمية « الانفتاح » الحضاري وظلام العصور الوسطى ، وينشغلن بنهضة مصر ، لكان كل حديث عن دور الثورة الفرنسية في تحرير المرأة ، لغو وعيب ..

المقصود اذن هو والدها الشيخ البكري الذي يصبر لويس على أن ابنته كانت تخالط الرجال الفرنسيين بعلمه .

والشيخ « البكري » ، لسوء حظ المدرسة الاستعمارية - اسوأ مثل يمكن ان يضرب على « الانفتاح » على الحضارة الحديثة .. فهو الذي سأل السؤال

المضحك في بيت « حسن كاشف » وافحم « برتولية » بتحديه له ان يكون في مراکش والقاهرة في نفس الوقت . واستدل به « لويس » نفسه على ان حضارتين كانتا تتواجهان لأول مرة .

اما من هو « البكري » فيكفي ما يثبته « لويس » المعجب به ..
« كان محبا للحياة ، وكان شرابه المفضل مزيجاً من الكونياك والنيبيذ البورجوني الممتق يشربه حتى الغيبوبة » (*).

وهو حب للحياة غريب .. يفضي الى الغيبوبة عن الحياة كل الحياة ! ليس هذا شأننا فلكل وجهة نظره في التعبير عن حبه للحياة .. ولكن هذا الذي يسكر (طينه) بأشربة فرنسية الى حد الغيبوبة ، وما يسبقها بالضرورة من النشوة والعريضة . والذي أثبتت له كتب التاريخ حبه للعلمان ، واراقتة ماء وجهه عند سلطات الاحتلال في النزاع على غلام يهواه . هذه الواقعة التي يطويها مؤرخ المدرسة الاستعمارية من تاريخ حياة رائده هذا !.. الذي عبر عن ايمانه بالانفتاح على الحضارة الحديثة بتقديم ابنته (***) لجيش الاحتلال .. لكي تنهض مصر على أكتافها .. مع ان المدرسة الاستعمارية كلها ترددت في نعمة بيغائية ان حضارتنا كانت حضارة علمان. وان الفرنسيين علمونا الاهتمام بالمرأة ! ورغم ذلك نجد ان الرائد الوحيد الذي « انفتح » على حضارة الكونياك والنيبيذ البورجوني ، هو أحد مشاهير عشاق العلمان . والذي اكتفى الحكم

(*) وهذه الرواية اثبتتها أيضاً هيرولد نقلا عن مذكرات مملوك نابليون بونابرت .

(**) ويشير « هيرولد » الى قصة بنت البكري هذه، ويؤكد انه ليس لها سند كتابي ويقول « وليس في امكاننا ان نعرف ، على وجه التحقيق ، لم والى أي مدى أغضى أبوها الشيخ عن هذه الصلة ، ولعله كان مشغولاً عن مراقبة ابنته مراقبة مشددة بالجري وراء مملوكه المتنازع عليه، أو يشرب زجاجات البرندي والبرجندي كل ليلة » « وكانت تعرف في أيام عزها بـ « فتاة القائد المصرية » (٢٥) .

الجديد بعد الجلاء ، بمعاقبته على تعاونه مع الفرنسيين ، بجرمانه من الغلام ..
مملوكه !

والبكري منذ ان قبل نقابة الأشراف من السلطة الجديدة الفرنسية ،
ليحل محل عمر مكرم الذي قاد الجماهير يوم غزو القاهرة ، ثم رفض البقاء
في ظل الاحتلال ، وعاد ليقود ثورة القاهرة الثانية . وتوج زعيماً جماهيرياً
قاد زحف المصريين ومحاولتهم لتقرير مصيرهم ، لولا أن صفاه محمد علي
باشا .. البكري منذ أن قبل تولي منصبه ، ارتبط بالمحتلين على نحو لم
يكن يسهه معه المقاومة .. ومثل هذا الشيخ الذي جامل ، من قبل ، الباشا
التركي بالمبيت معه ، تزلفا للجيش العثماني الزاحف .. ثم هذا السكير الى حد
الغيوبة . المفضوح لدى المحتلين بشذوذه الجنسي ، لم يكن بالذي يريثق الدم
على جوانب الشرف الرفيع ثأراً من مداعبات قواد جيش الاحتلال لكريمته.
وبندالة نادرة سلمها للاتراك وهو يقول : « إني برىء منها » ! نفس عبارة
الشیطان التي تقطر ندالة .. وتركهم يكسرون رقبتها .. ناجياً برقبته التي
طالما انهالت عليها صفعات مواطنيه كلما اتبحت لهم الفرصة .

أي رائد هذا البكري؟! وأي دور تحريري يمكن ان تلعبه ابنته؟!!

تبقى « الفتاة البائسة الأخرى » « هوى » !.. ولا بد - اذن - منها
كانت عواطفنا ان نعتبرها هي وحدها ، المقصودة بتلك المقدمة ذات الرنين
العالي « كان حركة اجتماعية بالمعنى المألوف وتعبيراً عن رأي عام بين
المثقفين .. الخ » .

لا بد لنا ان نستسلم للمقادير أو حكم الهوى .. ونعتبر ان السيدة «هوى»
هي المقصودة شخصياً لأنه فيما اتاحه لنا التاريخ من مصادر ، لا نعرف أحداً
من ذويها يصلح لتمثيل هذه النخبة المصرية المنفتحة . ف « هوى(*) » غير

(*) لعلها هي التي خلعت اسمها على جميع « بنات الهوى » !

معروفة العائلة .. واسمها وحده يوحي بخلفية خاصة .. ولا يعرف لها اكثر من زوجين ، غير مصريين ! فزوجها الاول هو « اسماعيل كاشف » من امراء المماليك . فلما جاء الفرنسيون خرجت عن طورها وتزوجت نقولا .. ونقولا هذا الذي تحدثنا عنه كثيراً ، هو « رومي » أي يوناني ، عمل في خدمة « مراد بيك » فلما جاء الفرنسيون نقل ولاءه لهم . وسارت « هوى » على خطاه فانتقلت اليه وصعدت الى القلعة وعاشت معه . وبمجرد ان انهزم الفرنسيون أمام الانجليز .. خرجت بغير وفاء ولا حياء ولا مروءة ، تحمل متاعها على حمارين متسللة من القلعة الى أحياء القاهرة حيث اختفت . وجن جنون « نقولا » زوجها أو بالأحرى خليلها . واستنجد بالفرنسيين الذين جردوا حملات تفتيش عن الهاربة من « التحرير » والمختبئه بعيداً عن الحضارة الحديثة . والعائدة بهواها ومتاعها الى ظلام القرون الوسطى ، على ظهر حمارين !

وباسم التفتيش على « هوى » وجد « عبد العال » الآغا مناخاً رائعاً لنشاطه ، ومهاراته ..

« فكان يتنكر ويلبس زي النساء ويدخل البيوت بحجة التفتيش عليها فيزعج أرباب البيوت والنساء ويأخذ منهن مصالح ومصاعاً ويفعل ما لا خير فيه ولا يخشي خالقاً ولا مخلوقاً » (٦٦) .. وفشلت كل حيل الآغا عبد العال في العثور عليها .. ومن يغلب « هوى »؟! وما أن عاد حكم المماليك حتى ظهرت « هوى » وعادت لزوجها القديم تائبة نادمة .. الذي أقامها معه مدة كافية لرد اعتباره ، ثم استأذن في قتلها ، فأذن له وقتلها ...

اهذه هي قيادة حركة تحرير المرأة! .. على أية حال هذه هي الأمثلة التي اختارها وما كان بوسعها ان يختار أفضل! ..

وإذا ما استثنينا الخلاعة والتبرج والسير مع « جوني(*) » وفي حمايته ما هو الجديد الذي قدمته الحملة ، فيما يتعلق بالنظرة الى المرأة .. ولن نقول ان أي دراسة ولو خاطفة، تثبت ان مكانة المرأة في الحضارة الشرقية عموماً، وفي الحضارة الاسلامية بالذات ، أعز واکرم واکثر انسانية ، مما وصلت اليه الحضارة الغربية في العالم كله .. لن نقول ذلك.. بل سنسلم بأن التخلف العام الذي كان طابع حياتنا ، قد اصاب مكانة المرأة ، فهل عكست الحملة الفرنسية في سلوكها أي مفهوم مثير كفيل بتفجير حركة تحرير؟!..

سلوك الحملة لم يعبر عن نظرة للمرأة أكثر من كونها وسيلة للتفريغ الجنسي.. والضابط الفرنسي الوحيد الذي نظر الى « الأنثى » المصرية كامرأة .. هو « مينو » الذي تزوجها وانجب منها واصطحبها ، هي ومن أنجبت ، الى فرنسا ، ولو أن الزوجة المصرية تعرضت هناك لمحنة شديدة ، عندما أصر قائد الحملة الفرنسية وابن الثورة « العلمانية » على تنصير ابنه. وعارضت هي ، واحتال عليها « مينو » بفتوى مستشرق(**) زعم لها أن الأديان كلها واحد، وقرأ لابنة الحمامي الرشيدى ، آية من القرآن تثبت ذلك!.. والغريب انه لم يقتنع لا هو ولا مينو بالآية وإلا لما أصر على تنصير ابنه !

أما السلوك العام لجيش الاحتلال ، فلم يعكس أكثر من بحث عن « انثى » أي انثى « مطلق الانثى » لتلبية حاجة « مطلق الذكر » المتوتر في جيش يضم زهرة شباب فرنسا .

ولا نظن ان استيلاء الجزائر « بيرييه » على « بعض النسوة » و « بعض الأثاث » و « بعض المجوهرات من منازل الأمراء المماليك » يمكن أن يكون السلوك المفجر لقضية تحرير المرأة .

(*) الاسم الذي كانت تطلقه المرمسات على العسكري الانجليزي في مصر اثناء الحرب العالمية الثانية .

(**) اقرأ فصل « دفاع عن الطهطاوي » في كتابنا : دراسة في فكر منحل .

وعندما قدمت لتابليون نفسه « هدية من ست نساء » لم يعترض إلا على رائحتهن وزيادة وزنهن « (٢٧) !.. وكان تابليون يعتبر ان ثياب النساء هي رمز الجبن ، وارتدائها إهانة بالغة للرجل ، فقد أصدر أمره بمعاينة الجراح الفرنسي الذي خاف من عدوى الطاعون : « ان المواطن بوايه جراح مستشفى الاسكندرية بلغ به الجبن أن يرفض علاج الجنود المجروحين المخالطين للمرضى الذين قيل انهم يشكون مرضاً معدياً . إنه غير جدير بأن يكون مواطناً فرنساً . وسيلبس ملابس النساء ، ويوضع على حمار ، ويستحب في شوارع الاسكندرية وعلى ظهره لافتة كتب عليها : « غير جدير بأن يكون مواطناً فرنسياً ، لأنه يخشى الموت » (٢٨) ..

لقد فاز بسخرية التاريخ ذلك الخليفة العاجز الذي أهان المرأة عندما كتب للماليك في القرن الثالث عشر يقول لهم إذا لم يكن لديكم رجالاً فقولوا لنا لنرسل لكم . وذلك يوم تولت السلطة شجرة الدر ، فقهرت لويس التاسع دون معونة ذلك الخليفة الذي يشك التاريخ في زعمه توفر الرجال عنده .. ولكن لم يحدث في تاريخنا قط أن عوقب « جبان » بالباسه ثياب النساء ، فهذه مذلة للنساء وليس للرجل المعاقب.. وهو ما فهمته النساء الفرنسيات في الحملة وكان مثار احتجاجهن ..

ما الذي كان بوسع الحملة الفرنسية ان تعلمه لنساء مصر .. لنساء الممالك مثلاً عن مكانة المرأة ، وتاريخ الممالك يبدأ وينتهي بامرأة عظيمة .. يبدأ بشجرة الدر ، التي تولت الحكم ودعى لها على المنابر ، وضربت العملة باسمها ، بل وأهم من ذلك أنها قهرت « لويس » التاسع ملك فرنسا ، وأسرتة وحجسته وأذلتة ومرغت كرامة فرنسا في تراب المنصورة ... ليس في تاريخ فرنسا امرأة مثل شجرة الدر ..

أو « نفيسة » المرادية .. زوجة « علي بك الكبير » ثم زوجة « مراد بيك » وكانت على جانب كبير من الثقيف والتهديب ، الى روعة في الجمال

وسمو في العواطف، تعلمت العربية قراءة وكتابة (أصلها شركسي) وأقبلت على الكتب العلمية تطالعها وتدرسها ، فارتقت مداركها واكتسبت احترام العلماء والبكوات المالميك . وكذلك اجتذبت قلوب الشعب بما اشتهرت به من البر والاحسان ورفع المظالم وحماية الضعفاء ، فعظمت مكانتها بين طبقات الشعب . وسرت شهرتها الى الأوساط الأوروبية إذ عرف عنها الميل الى تنشيط التجارة والصناعة ومعارضة البكوات المالميك في سلب أموال التجار، وقد أهدتها حكومة فرنسا قبل الحملة الفرنسية ساعة مرصعة بالماس قدمها لها القنصل « مجالون » اعترافاً لها بعبراتها وخدماتها للتجارة . وكانت تتبرع بإعانات شهرية لكثير من العائلات التي اخنى عليها الدهر ، واستمرت تؤدي هذه الإعانات حتى في أيام محنتها ، ولما جاءت الحملة الفرنسية وانهزم مراد بك في واقعة الاهرام بقيت هي في القاهرة فاستهدفت للأتاوات والغرامات الحربية « (٣٠) . » وبالجملة فقد كانت من الخيرات ولها على الفقراء بر وإحسان ولها من المآثر الخان الجديد والصريح داخل باب زويله « (٣١) .

كل ما عرفته السيدة نفيسة من الفرنسيين هو الغرامات الفادحة .. التي اضطرتها كما يقول « ريبو » الى « أن تنزل عن حليها وجواهرها ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان أهداها لها القنصل « مجالون » باسم الجمهورية الفرنسية تقديراً لخدماتها ورعايتها . فكان اضطرابها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجاً شريفاً منها « (٣٢) .

لم يكن في الحملة الفرنسية كلها امرأة احتفظ التاريخ باسمها ، كما احتفظ باسم السيدة نفيسة . ولا كان في فرنسا ذاتها امرأة تتمتع بنفوذ وتجري مفاوضات وتدير شؤون السياسة ، كما كانت السيدة نفيسة التي لم ترَ من الفرنسيين إلا محصل الغرامات !

وكانت لدى زوجة « عثمان بيك الطنبرجي » فرصة نادرة للتعرف على رسالة الفرنسيين في تحرير المرأة . فقد أرسل ديوي قائمقام الى الست نفيسة

وطلب منها احضار زوجة عثمان بيك الطنبرجي فأرسلت الى المشايخ تستغيث بهم فحضر اليها الشيخ محمد المهدي والشيخ موسى السرسى وقصدوا منعم فلم يمكنهم فذهبوا صحبتها ونظروا في قصتها « (٣٣) ». وكانت تهتمها أنها حاولت الاتصال بزوجها . وطلب المشايخ مواجبتها بالرسول المزعوم الذي اعترف عليها . ولكنه لم يحضر « الى بعد الغروب » فطلب المشايخ الافراج عن السيدة : « دعوها تذهب الى بيتها وفي غد تأتي وتحقق هذه القضية فقال دبوي نونو .. معناه بلغتهم النفي . أي لا تذهب . فقالوا له دعها تذهب هي ونحن نبيت عوضاً عنها فلم يرض أيضاً وعالجوا في ذلك بقدر طاقتهم فلما أيسوا تركوها ومضوا فباتت عندهم في ناحية من البيت وصحبته جماعة من النساء المسلمات والنساء الافرنجيات . فلما أصبح النهار ركب المشايخ الى كتحدا الباشا والقاضي فركبا معه وذهبا الى بيت سارى عسكر الكبير فأحضرها وسلمها الى القاضي . ولم يثبت عليها شيء من هذه الدعوة « (٣٤) » ورغم ذلك ينهي « الجبرتي » الحكاية بقوله « وقرروا عليها ثلاثة آلاف ريال فرانسه » .

أما نظرة الفرنسيين للنساء ، فهذا هو « ديزيه » فاتح الصعيد ، « الفنان الثوري » « من كان يلهب مشاعر يعقوب » يكتب لصديقه في فرنسا يحدثها عن حريمه : « أحببت استير الصغيرة ، وهي فتاة جورجية لطيفة جميلة كفينوس ، شقراء ، رقيقة . وكانت في الرابعة عشرة ، برعمتي وردة وقد آلت إليّ بحق الميراث ، لأن سيدها مات . ثم أهديت ساره ، وهي حبشية رعناء في الخامسة عشرة من عمرها ، وقد رافقتني في رحلاتي . كذلك ملكت « مارا » وهي طفلة ساذجة من دجلة . وفاطمة وهي فارعة الطول ، حسناء جميلة التكوين ، ولكنها تمسة جداً .. اولئك حريمي ، وإلى هؤلاء يجب أن أضيف ثلاث زنجيات ، وغلماً أسود صغيراً اسمه باقل ، ومملوكاً صغيراً اسمه

اسماعيل ، حلو الصورة (*) كأنه ملاك « (٣٥) .

ولم تشهد المنطقة بين القاهرة وعكا ، خلافاً فيما يتعلق بمرکز المرأة في حملة يقودها « نابليون » أو الأمير « بارم ديله » أو « المنفوخ بيك » أو « أبو مناخير فضة » . فقد خرج جيش الثورة الفرنسية ومعه « عدة مواهي ومحفات للنساء والجواري البيض والسود والحبوش اللآتي اخذوهن من بيوت الأمراء وتزياً اكثرهن بزي نساءهم الافرنجيات » .

ولولا أن الفرنسيين يحبون صغيرات السن ، لقلنا أن بعض هؤلاء الجواري خرجن مع « علي بيك الكبير » « ومحمد ابو الذهب » ، وتزيين وقتها بزي نساءهم « التركيات » !

بل إن هذا الاندفاع - الذي يحدثنا عنه « الدكتور لويس » - من جانب النساء الى « التحرير » لم يلق ترحيباً من كبار المسؤولين عن الحملة الذين كانت لديهم وسائلهم في الحصول على « الانثى » .. وكانت لديهم ميزة الاختيار من بين « مطلق الانثى » . ولذلك فزعوا لما أصاب الجيش على يد المومسات المندفعات لتحرير المرأة . فقد كتب الجنرال ديحا حاكم القاهرة الى بونابرت : « ان البغايا وباء يتفشي في مساكن الفرنسيين ولا بدّ لإبعادهن من إغراق من يقبض عليهن في الشكنات . وكان تعقيب بونابرت في الهامش : كلف آغا - الانكشارية - بهذه المهمة » . وتنفيذاً لهذا الأمر « قطعت رؤوس اربعمائة مومس (***) وخيطن في غرائر والقين في النيل » (٣٦) .

(*) لم يخبرنا « هيرولد » المهم بعشق الشرقيين للعلمان عن سبب احتفاظ « ديزيه » بملوك حلو الصورة !

(**) لم يكن نابليون ضد المومسات ، بل ضد المومسات « البلديات » ، وبعض الأحيان ، وليس طول الوقت ، فإن مورهد يقول ان « أول قائدة بالطلبات التي أرسلها بونابرت الى فرنسا فور احتلال القاهرة ولحفظ معنويات الجند تتضمن طلب « مائة مومس فرنسية » (٣٧) .

وعندما انتهت الحملة ، وتقرر جلاء الفرنسيين ، لم يسجل التاريخ للحملة الثورية حتى « تحريرها » للمرأة بالمعنى اللغوي الذي قصر المدرسة الاستعمارية على أنه المعنى الوحيد الذي عرفناه ، في حضارتنا ، للحرية .. أي تحرير العبيد والجواري ! حتى هذا لم يتكرم به جنود الثورة الفرنسية ، بل أصروا على بيع جواريمهم وقبضوا الثمن نقداً .. ثمن بنات بولاق، بعد أن عاشروهن سنة كاملة معاشرة الأزواج !.. يقول هيرولد خجلا : « وفي أثناء ذلك (أثناء إتمام الجلاء) كان أهم ما يشغل الجنود الفرنسيين ، تصفية ممتلكاتهم وبيعها نقداً ، بما في ذلك خليلاتهم » (٣٨) والعبيد الذكور فقط هم الذين أسعدهم الحظ فاحتفظ بهم كبار الضباط .. فحتى نابليون أخذ معه « رستم » (*).

على أية حال ، ليس ثمة دليل ولا في عصرنا الحاضر على أن وضع المرأة المسلمة في داخل الحريم ، ليس اكثر ارضاء للمرأة من وضعها في كباريات الغرب . ولا نشك في أن نسبة كبيرة من الـ ٣٠٠ امرأة اللاتي جنن مع الحملة الفرنسية للترفيه ، كن سيفضلن « الحريم » على العودة الى مواخير باريس .

(*) وكانت تجارة العبيد ستشهد ازدهاراً حقيقياً ، لو نجحت مشاريع نابليون أو لو طالت أيامه في مصر ، فقد فكر في شراء الزوج ، وكتب لديزيه في يونيو ١٧٩٩ : « أود ايها المواطن الجنرال ان اشترى ٢٠٠٠ او ٣٠٠٠ زوجي من تزايد اعمارهم على السادسة عشرة » (٣٩) ثم كتب بعد ايام قليلة الى سلطان دارفور يقول : « ارجوك ان ترسل لي بالقافلة التالية ٢٠٠٠ عبد اسود تزايد اعمارهم على السادسة عشرة بشرط ان يكونوا اقوياء اشداء ، وأسأثرهم كلهم لحسابي » (٤٠) « رأي ان توفد الرسل الى سنار والحبشة ودارفور لشراء ١٠٠٠٠٠ عبد صغير كل سنة » (٤١) .

وكا جاء الرعي بعد الصيد فلا شك ان خطوة نابليون الثانية كانت ستكون توليد وتربية العبيد .

ولدينا حالة واحدة على الأقل تنفى هذا الزعم الذي طال ترديده عن افضلية حياة الحانات في الغرب على حياة الحرمين في الشرق. فقد اتاحت لإمرأة غربية أن تختار .. واختارت : « أصر ديزيه على أن يرد والي القدس عاملة فرنسية في أحد مطاعم الجيش ، وهي أرملة جاويش قتل في المعركة . وكان الباشا قد أخذها ليضمها الى حريمه . ووافق الصدر الأعظم . ولكن زوجة الجاويش لم توافق وأعلنت أنها في غاية السعادة حيث هي ، وقد ظلت فعلا تعيش في القدس سعيدة حتى عمرت » (٤٢) .

مطلق الانثى .. ومطلق التزوير 1

ثم ينهار منطق المدرسة الاستعمارية تماماً ، بهذه السقطة أو التزييف النادر للنصوص والألفاظ .. هذه الفقرة التي تعفي كل قلم من عبء المناقشة .. يقول لويس عوض : « وربما كان أهم ما ورد في الجبرتي عن موضوع تحرير المرأة(*)» هو تلك الفقرة التي تصور هروب « الجوارى السود » من بيوت أسيادهن والتجائهن الى الفرنسيين طلباً للحرية « لما علمن رغبة القوم في مطلق الانثى » اي ان تحرير المرأة كما نقول اليوم او « اطلاقها » من عقابها . ويبدو ان هذه الانطلاقة المفاجئة كانت مقترنة بألوان من المغامرة العنيفة ، لأن الجوارى كن يلبغان الى نط الحيطان والخروج والدخول من النوافذ شأن السجناء لكي يصلن الى منازل الفرنسيين . بل بلغ من بغضهن لسادتهن انهن كن يرشدن الفرنسيين الى الخابىء التي يكتنز فيها اولئك السادة أموالهم لكي يصادرها الفرنسيون . وواضح من كلام الجبرتي عن رغبة الفرنسيين في «مطلق الانثى» ان الحملة الفرنسية حين جاءت الى مصر جاءت ومعها افكار الثورة الفرنسية

(*) الجبرتي لم يكتب شيئاً عن موضوع تحرير المرأة .

عن تحرير المرأة، وانها روجت بين المصريين لهذه المبادئ ما استطاعت الى ذلك سبيلاً (*)، (٤٣) .

ان البكري ذاته ، وحتى لو وصل الى الغيبوبة عبر بحر من الكونياك ، لا يمكن أن يفسر عبارة « مطلق الانثى » هذا التفسير : « اطلاق المرأة من عقالها » أو « تحرير المرأة كما نقول اليوم » !. وعبارة الجبرتي :

« وأما الجوارى السود فانهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الانثى ذهبن اليهم أفواجاً فرادى وأزواجاً فنظن الحيطان وتسلقن اليهم من الطيقان ودلوهم على مخبات أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك » (٤٣) .

وأظن أنه من المهانة للغة العربية ان نناقش معنى « مطلق الانثى » .. التي فهمها « الخواجه » هيرولد بمجرد قراءة الجبرتي وهو متيقظ ، فيقول في معرض شرحه للوسائل التي حل بها الجيش المشكلة الجنسية لجنوده :

« أما الفرنسيون الزاهدون في الزواج ، الذين لا يصبرون على العزوبة ، فكانت أمامهم وسائل أخرى أكثرها غير واف بالغرض . فقد رافق الجيش الى مصر نحو ٣٠٠ امرأة أكثرهن تسلل على السفن ، ولكن الحسان القليلات منهن كن اما مرهقات ، واما حكرأ للبعض . وكانت البغايا من السكان كثيرات ، ولكنهن - فيما خلا قلة من صغيرات السن - كن غير مغريات ، قبيحات ، مصابات بالأمراض . وقد حل كبار الضباط مشكلتهم دون ان يبذلوا جهداً يذكر ومنهم الجنرال بيريه الذي كان في وسعه ان يكتب لصديقه الكبتن لوجواي « لقد ترك لنا الأمراء المالك بعض النسوة الأرمنيات

(*) نتم كاتب ذلك بالتزيف لأنه لما نشره أول مرة في الصحيفة، نهبه أكثر من كاتب لبشاعة الخطأ في فهمه « لمطلق الانثى » ولو كانت مجرد غلطة لصححها عندما جمع المقالات في كتاب ولكنه لم يفعل . ومن ثم فمن حقنا ان نصف موقفه هذا بتزيف النصوص واحتمار عقلية قارئه وثقاتهم .

والكرجيات اللطيفات اللائي استولينا عليهن لصالح الأمة (*) .. - ترى ماذا كان رأي مدام بيريه في هذا الكلام حين قرأته في مجموعة الرسائل التي ضبطها الانجليز ونشروها (**). - ويقول الجبرتي ان الجوارى السود كن أشد رغبة واستعداداً حتى من الأرمنيات أو الكرجيات . « وأما الجوارى السود » (الخ) وقد لاحظ الجبرتي وغيره من الاخباريين العرب عموماً غرام الفرنسيين بالنساء ، ولعلمهم ما كانوا يلحظونه لو كان الفرنسيون يؤثرون الغلمان (***) ، (٤٦) (!)

هذا ما فهمه الخواجه.. وهو رغم الوخزات والسموم التي يوجهها لحضارتنا ومجتمعنا في ذات العبارة .. مثل حديثه عن الغلمان .. الا انه لم يسمح لنفسه أن يسقط في التفسير المضحك عن تحرير المرأة ، أو ان يترجم « مطلق الانثى » بأنها اطلاق المرأة من عقابها !.. لا شك ان « لويس عوض » بتفسيره المضحك « لمطلق الانثى » قد وضع مدرسته ، ونظريته في موضع لا تحسد عليه.. وأعفى كل خصومه من مسئولية اخذه أو اخذ منطقته على محمل الجد !

(*) لو عاش هذا الجنرال الساخر ليقراً « لويس عوض » لاعترف ان نكتة « لصالح تحرير المرأة » اكثر سخرية !

(**) السؤال طرحه هيرولد .. والجواب (بمنطق لويس عوض) هو ان مدام بيريه يجب ان تبتهج كثوية اصيلة لان زوجها عاكف على تحرير المرأة ما استطاع الى ذلك سبيلاً! وقدر طاقته!

(***) على اية حال لم تكن «الجوارى السود» من وحدهن الذين تتطلعن الى التحرير بالهروب الى جنود فرنسا ، الذين يرغبون في مطلق الانثى ، بل كانت هناك حركة «تحرير» في الاتجاه المضاد تماماً : « وفيه احاط الفرنسيين بمنزل حسن آغا الوكيل المتوفى قبل تاريخه وذلك بسبب انه وجد ببيته غلام فرنساوي محتف اسلم وحلق راسه وقبضوا على احد خشداشينه وحبسوه لكونه علم ذلك ولم يخبر به » (٤٧) .

الفصل الثامن :

الجنرال العميل .. والشيخ المؤرخ ..

يعقوب يبحث عن سيد

وكما كانت « هوى » و « زينب البكرية » ومن خلفها قطيع النسوة في معسكرات جيش الاحتلال هن رائدات حركة تحرير المرأة ، كذلك تقدم لنا المدرسة الاستعمارية من داخل هذه الشكنات رائداً للقومية المصرية ، في شخص أحد المتعاونين مع الفرنسيين .

ولأن المدرسة لا تستطيع ، لأسباب «شوفينية»! ، أن تنصب الرومي « برطلمين » رائد للقومية المصرية التي زرعها الاحتلال الفرنسي ، لذا فقد وقع اختيارها على المعلم يعقوب ، فنسبت اليه التفكير في استقلال مصر ، ونسجت عنه الاساطير والمجائب. وهو لم يكن اكثر من عميل وضيع أو من « أسافل القبط » إذا اما استعرنا لغة عصره عمل في خدمة كل سيد، كما عمل أسافل الروم وأسافل المسلمين مصريين أو مغاربة ..

عميد المدرسة الاستعمارية « كرسوفر هيرولد » يندفع في مدح يعقوب الى حد اهانة مواطنيه : « فالمعلم يعقوب بن حنا ومارية غزال كان يتسم بصفة نادرة بين قومه هي الشجاعة والكفاية الحريتان » (١) .

« اشتغل من قبل ناظراً لدائرة زميل لمراد يدعى سليمان بك.. كان خبيراً بطبيعة البلاد وبأهلها ، وله في كل مكان صلات » (٢) .

هذا الجابي عند الملوك « سليمان بك » آغا الانكشارية ، شأنه شأن كل العملاء من طرازه ، سرعان ما ينقل ولاءه أو كراباجه (ولا نقول بندقيته) من يد الى يد فور تغير السيد ، فعندما جاء الفرنسيون عينوه جابياً على الصعيد الذي لم يكن قد خضع لهم بعد ، ولكي تتم الجباية والتحصيل ، الحقوه مرشداً وجاسوساً وجابياً يجيش « ديزيه » الذي تولى مهمة اخضاع الصعيد المصري .. وهكذا في العقد الخامس من عمره وبعدهما أفنى الأربعين عاماً الأولى من حياته في خدمة الاستبداد المملوكي ، تولى خدمة المحتل الأجنبي .

عميد المدرسة الاستعمارية ، يؤكد أن هذا « المرشد » كان شريكاً لديزيه في حملته (!) ويؤكد ان أهل الصعيد كان يسمون فرقة ديزيه « جيش المعلم يعقوب » وهكذا سمى نابليون الحملة السورية « جيش مصر » .. أما الحملة على الصعيد فما هي تُسمى « جيش المعلم يعقوب »! .. وحتى لو أخذنا هذه التسمية على محمل الجد ، فسنجد انها غير مستغربة اذ ان « يعقوب » هو الذي كان يتولى عمليات القمع والتحصيل المتصلة « بالأهالي » . ف « ديزيه » الفرنسي كما أكد « هيرولد » نفسه كان « يأنف من هذه المهام القذرة » .. والضرورية في نفس الوقت لجيش احتلال . وفي مثل هذه الحالات فان الناس يهتمون بالعمل اكثر من اهتمامهم بالعدو الأجنبي الذي مها تكن كراهيتهم له ، فانها لا تخلو من الاحترام . وما دام الجميع قد أرتضوا كارهين أو راغبين « بالجبرتي » كمرجع وحيد وصادق ودقيق لهذه الفترة ، فهو وحده ، لا المؤرخ الأمريكي الذي يملك ان يحدد لنا مهمة ومكانة ودور المعلم « يعقوب » في حملة « ديزيه » : « في خامس عشره سافر عدد كبير من عسكر الفرنسيات الى جهة الصعيد وكبيرهم ديزه وصحبته يعقوب القبطي ليعرفهم الأمور ويطلعهم على الخبآت » (٣) .

مرشد .. يصاحب حملة تآديبية ، يطلعهم على الخبآت ويعرفهم الأمور ، هل يمكن أن تتمن اللغة على نحو يجعل هذا التعريف ينطبق على شيء اكثر من جاسوس .. مرشد ..

و « يعقوب » هذا يحمل الجرم الاكبر في كل الجرائم التي ارتكبها جيش « ديزيه » في الصعيد .. ولكنهم يريدون افعال قضية له واختاروا هذا المسخ بالذات ليجعلوه رائد القومية المصرية بل هو ابو استقلال مصر !

ولقد قدمنا لمحة من تاريخ المهمة القذرة التي قام بها يعقوب في صعيد مصر (فصل المقاومة الشعبية) ورأينا كيف كان « يجري ايقاظ وبعث القومية المصرية » ولا شك أن عمله لحساب الاستبداد المملوكي - ولا يمكن تبرير ماضي يعقوب هذا حتى عند المدرسة الاستعمارية - قد قتل كل إحساس فيه ان وجد أصلاً .. فجرائمه وقعت في الصعيد حيث كانت تعيش أعلى نسبة من الاقباط . وهذا يعني أنه لم يفرق في تنكيهه بين مسلم وقبطي ، ولا يجوز نسبة مواقفه للأقباط ، فقد كان محتقراً من أكابر القبط المحترمين ، مطروداً ومعتدياً بوقاحة على الكنيسة ، كما سزى ، يدخلها مقتحماً على صهوة حصانه ، وكان البابا المصري ضده ، وحتى أسرته تهرأت منه .. كان سبة للأقباط والمصريين وللشركيين عموماً .. نموذجاً للعالة للمستعمر الغربي ، والذين يصنعون منه بطلاً اليوم ، هم في الحقيقة يدافعون ويروجون لفكرة الافتتاح على الغرب ، ويخطئون الدعوة الى مواجهة ومقاومة سيطرة العالم المتفوق تكنولوجياً ..

كان « برطلمين » الرومي في القاهرة يتولى ايقاظ وتحضير القومية المصرية يعاونه « شكر الله » وهو الآخر أحد رواد القومية المصرية !.. بينما كان « يعقوب » في ركاب « ديزيه » يتولى نفس المهمة في صعيد مصر ، مهمة إدخال الحضارة الغربية في ظلام العصور الوسطى . ولنقرأ شيئاً من تفاصيل يوميات هذه الرسالة التحضيرية :

« لقد كان « ديزيه » مضطراً لفرض ضرائب والاستيلاء على الماشية والجمال والحيل ، وكانت توسلات القرويين أن يعفوا من الضرائب لأنهم دفعوها فعلاً لمراد تلقى في مقر القيادة بالقاهرة الرفض بلا استثناء . ومع

ان كثيراً من القرى المصرية دفعت الميرى المفروض عليها مرتين في تلك السنة . فإن السلطان سليم الثالث ، الذي كان الفريقان يجمعانها باسمه ، لم ير منها قرشاً واحداً (*) . وبعد ان لاحظ دينون هذه العمليات المالية عدة أسابيع بدأ يرثي « للأهالي » الذين أتينا الى مصر لنحقق لهم الرفاهية ، ذلك انهم اذا أكرههم الخوف على ترك قريرتهم عند اقترابنا منها ، ثم عادوا اليها ، لم يجدوا فيها سوى الطين الذي بنيت به حيطانهم فأدواتهم ، ومحاريتهم ، وأبوابهم ، وسقوف بيوتهم ، كلها كانت تستعمل وقوداً لطهو حسانتنا ، وقدرهم تكسر وتمحهم يؤكل ، ودجاجهم وحمائمهم يشوى ، وأينما وقفنا بقرية أمرنا هؤلاء البؤساء بالعودة والا عوملوا معاملة العصاة أو حلفاء الاعداء ، واكرهوا على دفع الضريبة مضاعفة . فاذا اذعنوا للتهديد وجاءوا ليدفعوا الميرى ، كان رجالنا يخطونهم أحياناً بسبب كثرة عددهم ، وما يحملون من عصي ، فيحسبونهم جماعة من الرعاع المسلحين ، وفي هذه الحالة تطلق دورياتنا النار دون تردد ، قبل أن يتسع لهم الوقت لبيان غرضهم . ثم يدفن موتاهم ونظف أصدقاء حتى يجدوا الفرصة للثأر دون أن يتعرضوا للخطر . صحيح أنهم لو ظلوا في قريرتهم ودفعوا الميرى .. لوفروا على أنفسهم مشقة الرحلة الى الصحراء ، وتمتعوا بمشاهدة طعامهم يؤكل بطريقة منظمة ، وتلقوا نصيبهم منه ليأكلوه ، واحتفظوا بأجزاء من أبوابهم ، وباعوا بيضهم للجنود ، واغتصب من زوجاتهم وبناتهم عدد أقل « (٤) .

« أما احتلال بليار لأسوان فقد بدا في الأسبوعين الأولين نزهة يتخللها الطريف القليل من القتال واغتصاب النساء » .

« وما حظ المواطنين بليار ودينون من التحضر ، اذا كان فيها هذه الحساسية الشديدة لروعة أطلال مضى عليها خمسة وثلاثون قرناً ، وهذا الاغضاء عن اغتصاب الجسد الحي » (٥) .

(*) لاحظ ان الفرنسيين كانوا يجمعون الضرائب باسم السلطان تماماً كالملك .

يشير الى اهتمامها بكشف الآثار الفرعونية ، حتى لو أدى ذلك الى قتل اطفال المصريين الأحياء واغتصاب نساءم ..

« وبينما كان الجنرال بليار يسمح لجنوده باغتصاب النساء ليرفع معنويتهم ، ويأمر باتلاف المحاصيل ليهبط بمعنوية الممالك » (٦) .

وأى أمة حية لا بد أن تهب لمقاتلة هؤلاء البرابرة المتوحشين الذين يقتلون الرجال ويفتصبون النساء ويحتطبون بأدوات الحضارة والانتاج . ويسرقون الماشية والطعام . لذلك لم يخطئ « ديزيه » وهو يكتب لبونا بربرت « لو أنك تركت هذا الاقليم دون جنود ولو لحظة واحدة ، لارتد فوراً الى سادته الأولين » (٧) .

ولا شك ان الجدية تفرض علينا أن نتصور اهتمام « ديزيه » بالأعمال العسكرية وتفرغ « يعقوب » لأعمال النهب والتفتيش على الخبآت أموالاً كانت ، أو قنيتات صعيديات مسلمات أو قبليات ، يقدمهن الى سادته من الضباط والجنود الفرنسيين .. هكذا كانت مهمته ، وبمكس كل ما تروجه المدرسة الاستعمارية فإن « دعاية القبلي البارعة » - كما يصفها « هيرولد » - لم تجد أي صدى في نفوس الفلاحين المسلمين والأقباط ، بل لاقت نجاحاً بين صفوف الممالك رجال « مراد » : « الذين كانوا يهجرون جيشه زرافات وينضمون الى جيش ديزيه بعد أن قنتهم ولا ريب دعاية القبلي البارعة .. ودب الشقاق بين البكوات » (٨) !

هل كان المعلم « يعقوب » يروج دعاية بين صفوف الممالك عن بعث القومية المصرية ، وضرورة أن تكون مصر للمصريين وبذلك يكسبهم ويقنعهم بالانضمام الى صفوف الفرنسيين؟! ..

ان هذا الانضمام المملوكي الى جيش الفرنسيين في الصعيد سواء أكان بسبب نشاط « يعقوب » ، وهو غير مستبعد لصلاته القديمة بأسياده الممالك ، أو كان بسبب انهيار الممالك أمام التفوق الفرنسي ، وكنتيجة لانتهاه دورهم

التاريخي قبل الحملة بسنوات عديدة ، فهم كطبقة خارج التاريخ ، لا يستغرب تحولها الى مرتزقة وتحليلها حتى عن الدفاع عن مصالحها والوطن الذي تحمكه ..
ومها يكن السبب ، فإن الواقع يخالف تماماً الصورة التي ترسمها المدرسة الاستعمارية أو التغريبية ، عن الحرب التي دارت في الصعيد .. هذه الصورة التي تتحدث عن حرب بين الفرنسيين والماليك . الفلاحون فيها خارج أرض المعركة ، ينتظرون من يفوز ليتقدموا له بالطاعة ! ومن ثم فالذين تعاونوا مع الفرنسيين ، كانوا يحاربون الماليك الفلاحين ! هذه الصورة مخالفة للحقيقة ، فالحرب كانت تدور اساساً بين الفرنسيين الغزاة والفلاحين المنهوبة ارضاقهم والمغزوة ارضهم .. والى جانب الفرنسيين كان قطيع العملاء من امثال يعقوب والماليك الهاربين الى صفوف الجيش الغازي ، والى جانب الفلاحين كان المتطوعون من الاشقاء العرب .. اما عن الماليك فكان موقفهم ما بين هارب تاهب للقرى التي لم يصل اليها النهابون الفرنسيون بعد .. أو نخامر تجري مساومته للانضمام للجيش الفرنسي .. وكان السيف من نصيب الفلاحين وخدمهم : « فخف دافو الى المكان وفي أول مايو قتل ٢٠٠٠ من الفلاحين المسلحين في بني سويف ، وكانت خسائر الفرنسيين ثمانية رجال وهو عمل مجيد بلا ريب » (٩) ..
اذا كانت سخرية هيرولد مريرة ، فإن أمر منها أن يأخذها « لويس عوض » على محل الجد ، وينسب لعملية تقتيل اجدادنا الفلاحين ، مهمة تحضيرية وبعث للقومية المصرية ، ولكن يبدو انه لا حيلة له في هذا التفسير فلكي يبرىء العميل « يعقوب » من دم مواطنيه الفلاحين ، كان عليه ان يبرىء ساحة الحملة الفرنسية كلها ، ويدين الفلاح المقتول ، ويتقدم بالشكر للغازي الفرنسي الذي كان يحضر الهندي الأحمر ! اما البدو : « فيطاردون في الصحراء اينما كانوا ، وفي كل يوم يستولى رجالنا على غنيمة منهم . فتارة يأخذون نساءهم على غرة ويحملونهن رهائن ، ونارة يستولون على ماشيتهم وخبولهم وأبلهم . أما الابل فقيمتها لا تقدر .. كان منظر هذه الفرق المغيرة وهي عائدة من غاراتها عجبياً .. فكل فارس يحمل تحت معطفه شاة أو جدياً يأمى ،

ويأخذه خفية الى زقاق . وقد يبيع الرجل منهم حصاناً مسروقاً ببضعة قروش ، أو يهرب آخر يحمل ويعود آخرون بنسوة غاية في القبح ملكوهن بحق الغزو^(١٠) . « ومع ان بونابرت شجع السرقة اذا حققت منفعة ، فانه كان يبدي سخطه على القتل بطريقة علنية^(١١) .

وإذا كان دور « يعقوب » في الحرب هو التجسس فان مواهبه الحقيقية التي صقلت في ظل الممالك، هي اعتصار آخر نصف فضة مع الأهالي .. وفي معرض الدفاع المتهاقت عن جرائم «يعقوب» يستعير « لويس عوض » التعبير الساخر الذي استخدمه « هيرولد » عن عمليات نهب المصريين ، يستعيره كحقيقة !.. فيطلق على الدور الذي قام به يعقوب في نهب المصريين صفة « تنظيم مالية البلاد » فيقول لويس عوض : « وعهد كليبر الى « يعقوب » بتنظيم مالية البلاد » وقد سخرنا من هذا التعبير بقدر ما وسعنا في كتاب « الغزو الفكري » لنجد بعد صدوره ان « هيرولد » قد سخر بدوره من هذا التعبير ، وفسر هذا « التنظيم » بأنه النهب والسطو .. تنظيم مازسه الفرنسيون والممالك على السواء ..

« ووافق الجنرال بونابرت هذه المرة على أن الجنود في حاجة الى الراحة فأجاب ديزيه بأن يدع مراد وشأنه فترة وان « ينظم » الفيوم – والتنظيم معناه جمع الضرائب ومصادرة الأغذية والحيل – (الشرح لكرستوفر هيرولد) وفي أواخر اكتوبر عاد ديزيه الى « الفيوم » التي كان مراد قد « نظمها » قبيل عودته ، وأحس الأهالي ان القوم أسرفوا في تنظيمهم ففي ٨ نوفمبر ، بينما كانت كثرة رجال فرقة « ديزيه » خارج العاصمة « ينظمون » الاقليم ، اضطر نحو ٥٠٠ من الجنود ثلثهم مرضى بالرمد – الى الدفاع عن العاصمة ضد آلاف من الفلاحين المسلحين . وفقد الفرنسيون أربعة رجال ، وقتلوا نحو ٢٠٠ . ولم يحل ٢٠ نوفمبر حتى أخلى « ديزيه » الفيوم بعد أن نظمها تنظيمياً شاملاً ، ولم يترك بها حامية ولا ديوانا اقليمياً ، ثم استقرت فرقته في بني

سويف على النيل انتظاراً للأمداد ، أما هو فذهب الى القاهرة ليستوثق من الحصول على مطالبه . وكان مراد في هذه الأثناء يكتب لشتى زعماء القبائل في شبه جزيرة العرب عبر البحر الأحمر ويشرع في « تنظيم » الصعيد ،^(١٢) .

ها هو كبيرهم يعترف انه لا فرق بين «تنظيم» الحملة الفرنسية ، و «تنظيم» الممالك .. نهب البلاد وسرقة الماشية والحيول، فهل يستغرب ان يهب الشعب لمقاومة هؤلاء « المنظمين » وهل يستغرب أن ينظر الى الذين « أوكل اليهم الفرنسيون مهمة تنظيم البلاد» نظرتة الى العملاء المنحطين الذين يقومون بأكثر الأعمال دناءة ، التي يأنف المستعمر نفسه من ارتكابها بيديه ، وهل يمكن تسمية هؤلاء النهابين وادواتهم رواداً للقومية أو باعثن لها ؟!

كان « يعقوب » في خدمة جيش «ديزيه» وفي مقدمة الذين تولوا «تنظيم» مالية البلاد !

وكان هذا رأي المصريين فيه .. فهو الذي سافر مع الفرنسيين « ليعرفهم الأمور ويطلعهم على الخبآت »^(١٣) . وعندما قام حكم « كليبر » الذي يصفه « هيرولد » بأنه « ارهاب مالي » . فكليبر كان مصمماً على ان « يعصر مصر كما يعصر « الثريتلي » الليمونة »^(١٤) .. وكان يعقوب هو العصاراة التي استخدمها « الثريتلي » الفرنسي ليستخرج آخر قطرة من عصير الحياة في مصر . ولنسمع شهادة من لا يملكون الطعن في شهادته : « وركب سارى عسكر (كليبر) من يومه ذلك ، وذهب الى الجزيرة ، ووكل يعقوب بفعل في المسلمين ما يشاء » . « ثم انهم وكلوا بالفردة العامة وجمع المال يعقوب . وتكفل بذلك . وعمل الديوان لذلك بيتت البارودي »^(١٥) !

وخرجت الناس من المدينة ، وجلوا عنها ، وهربوا الى القرى والأرياف . « وفي كل وقت وحين ، يشتد الطلب ، وتنبت العيون والعسكر في طلب الناس وهجم الدور وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر وهدلتهم وحبسهم وضرهم » « فدهى الناس ، وتحيرت أفكارهم ، واختلطت أذهانهم ،

وزادت وساوسهم ، وأشيع أن يعقوب تكفل بقبض ذلك من المسلمين ، يقد في ذلك شكر الله واضرابه .

وقد رأينا الدور الذي لعبه «يعقوب» خلال ثورة القاهرة الثانية، وكيف كان الطابور الخامس المسلح الذي قاتل ضد مواطنيه الثائرين ، ثم تولى بعد قهر الثورة ، عملية التنكيل والاعتصار المالي . وفور توقيع وثيقة استسلام وجلاء جيش الاحتلال الفرنسي .. بادر « يعقوب » فخرج بمتاعه وعازقه وعدى الى الروضة . وكذلك جمع اليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى. واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا الى قائمقام وبكوا وولولوا وترجوه في ابقائهم عند عيالهم وأولادهم فانهم فقراء وأصحاب صنائع ما بين نجار وبناء وصائغ وغير ذلك فوعدهم انه يرسل الى يعقوب انه لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه ، (١٦) .

وهذا النص يكشف بوضوح طبيعة « الوفد » الذي سافر به يعقوب . فهم خليط من الذين ارتكبوا بأشخاصهم جرائم وعرفوا أنهم يستحيل عليهم نتيجة ذلك العيش بين مواطنيهم بعد جلاء الفرنسيين . وعلى رأس هؤلاء « يعقوب » طبعاً ، الذي كان فضلاً عن جرائمه ، له علاقة خاصة بامرأة ، رفضت اسرته والكنيسة الاعتراف بشرعيتها .. وآخرون أجبرهم «يعقوب» بطريقة أو بأخرى على الذهاب معه رغم بكاء الأهالي، ورغم محاولات الهرب والاختفاء . وحتى لو كان القائمقام قد ارسل بتنبيه الى « يعقوب » داخل معسكرات الفرنسيين .. فما كان « يعقوب » بالذي يهتم بتنفيذ وصايا القائمقام واجراء استفتاء بين « الصنایمية الغلابية » الذين جمعهم .. وما كان «القائمقام» بالذي يتابع تنفيذ نصائحه وهو منشغل باجلاء جيش احتلال واستقبال جيش آخر ..

وسافر معه أيضاً بعض المغامرين الذين استطابوا الخدمة في مؤخرة جيش فرنسا ، وكانوا يطمعون في خدمات جديدة في مستعمرات جديدة ، وبعضهم

قاتل فعلاً في خدمة جيش فرنسا في الجزائر رغم تقدم السن به ... وبعضهم كان يحلم بعودة ثانية الى مصر مع الجيش الفرنسي الذي طالما توعد أو تهدد الفرنسيون المصريين بعودته .. « فهل بت من أن نعود مرة اخرى » .

هذا الخليط هو الذي خرج الى الروضة كما يسجل الجبرتي :

« وفي يوم الأربعاء تاسع عشر صفر الخير ١٢١٦ خرج المسافرون مع الفرنسيين الى الروضة والجيزة بمتاعهم وحريمهم وهم جماعة كثيرة من القبط وتجار الافرنج والمترجمين وبعض مسلمين ممن تداخل معهم وخاف على نفسه بالتخلف وكثير من نصارى الشوام والأروام مثل بني وبرطلين ويوسف الحموي وعبد العال الآغا أيضاً طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه من أطقم وسلاح وغيره . ولم يحمل معه إلا ما خف حمله وغلائمه » .

إن آخر ما يمكن أن يوصف به هذا الخليط هو وصفه «بالوفد المصري» . وآخر مهمة يفكر فيها هي «البحث في استقلال مصر» .. فإن أسوأ ما ينزل بمثل هذا الخليط هو استقلال مصر .. وآخر جهة تصلح للمفاوضة في الاستقلال، هي الوجهة المتجهة اليها هذه القوة المهزومة الراحلة .

هذه هي مخلفات الجيوش وأوساخ الاستعمار التي تعلق بجذائه وترحل معه .. يوجد منها العديد في عواصم كل الدول الاستعمارية مع زوال عصر الاستعمار ورحيل قواته .. هي العصي التي يطالب الوطنيون الاستعمار بأن يحملها على كاهله ويرحل .. فيفعل !

يعقوب كان منشغلاً بجمع متاعه وأمواله ، وتجميع عدد من المرتزقة .. ولكن المدرسة الاستعمارية منشغلة بتنصيبه بطلاً وطنياً، وباعناً للقومية المصرية، ورائداً لاستقلال مصر ! وكل النظريات التي تدافع عن « يعقوب » هي في الحقيقة تبرر الاستعمار وتروج للتعاون مع المحتل .. فما دام المستعمر أكثر تقدماً - وهو لا بد ان يكون - وما دام الواقع الوطني متخلفاً .. فان

التعاون مع المحتل وخدمته لا يشكل خيانة ، بل على العكس ان كبير المتعاونين يصبح بطلاً تقديمياً ورائداً قومياً !!

« يعقوب » الذي عرفناه في « الجبرتي » - المصدر الوحيد المعتمد لهذه الفترة من جميع الاطراف - كان - كما رأينا - أفقاً من اسافل القبط - كما كان الأغا عبد المال من اسافل المسلمين -.. عمل في خدمة المالك ثم رشحه الأغا لخدمة الفرنسيين : ولأنه سبق له الخدمة في الصعيد ، على عهد المالك ، فقد الحقوه بخدمة الجنرال «ديزيه» ليطلمه على المحبآت ، وكان اداته وعميله في التنكيل الذي نزل بالصعيدة أقباطاً ومسلمين .. ثم عاد الى القاهرة حيث حول بيته الى قلعة حربية ضمن الخطة الفرنسية التي اعقبت الثورة الأولى وهي تطويق القاهرة بالقلاع المحصنة تحسباً للتحرك المقبل . وعندما وقعت الثورة الثانية أصلى مواطنيه ناراً حامية من قلعته هذه وبواسطة جنود فرنسيين كانوا بها بصفة دائمة . فلما انتهت الثورة « ظهر » وأشرف على سلخ المصريين في العملية المعروفة باسم جمع الفردة (١٢ مليون فرنك) . واستعان به الفرنسيون في تجنيد عدد من شباب القبط ، ارادوا بهذا الفيلق فصم الوحدة الأبدية بين عنصري الشعب المصري ..

وكانت علاقته سيئة بالكنيسة المصرية يتناول على كبارها ولا يتردد في اقتحامها على ظهر حصانه شاهراً سيفه ، وكان منبوذاً من عائلته . رفض اخوته الاعتراف بشرعية زواجه من امرأة كان يعاشرها وهجرها بنذالة ، عندما فر هارباً مع جيش الاحتلال .

هذا هو يعقوب « الجبرتي » وكافة المصادر التاريخية المتاحة .

ورغم ان « لويس عوض » يتوعد بأن « شهادة الجبرتي في عجائب الآثار ينبغي ان تؤخذ بلا تحفظ على أنها تمثل وجهة نظر الطليعة المثقفة في البلاد » (١٨) .

إلا أنه يعفى نفسه من هذا الالتزام فيما يتعلق « بيعقوب » ، بل يجري

« تدويقتى » العبارات وحذف الفقرات ، واغفال الشهادة كلياً في كثير من الأحيان ليقدم لنا هذه الصورة عن يعقوب :

ولد المعلم « يعقوب » في « ملوى » حول عام ١٧٤٥ من حنا ومارية غزال . والتحق في عهد « علي بك الكبير » بخدمه « سليمان » اغا الانكشارية أو رئيسها ، واستطاع من خلال اشرافه على ادارة املاك رئيس الانكشارية أن ينمي ثروته (ثروة من ؟ !) فلما نشب القتال بين مراد بك وجيش قبطان باشا اشترك المعلم يعقوب مع نخدومه سليمان بك في هذه الحرب ، وظهرت مواهبه في القتال كما ظهرت في الادارة . وعندما دخل بونايرت مصر التحق المعلم يعقوب بخدمه الفرنسيين في وظيفة ادارية في اعمال « الأورنص » بجيش الجنرال ديزيه وصاحب الجنرال ديزيه أثناء حملته على الصعيد ، فكان يشرف على عمليات تموين الجيش الفرنسي بالأغذية وبمختلف الاحتياجات وكان يشترك في قتال المماليك بشجاعة وضاووة جعلتا الفرنسيين يقدمون له سيفاً تذكاريّاً تكريماً له .

وكما تفعل طالبة المدرسة في اخفاء عار مهنة أمها فتختار الفاظاً رقيقة لوصف هذه المهنة ، نجد الدكتور يصف عمليات النهب الوحشي بأنها تنظيم التموين وامداد الجيش بالأغذية، كأبي متعهد في الجيش البريطاني أو « الاورنص » كما يختار اللفظ! وقد رأينا في الفصول الماضية واستناداً الى المصادر الفرنسية ذاتها كيف كان يجري « تموين » الجيش بنهب وحرق القرى المصرية . اما الزعم بأنه كان يقاتل المماليك ببسالة .. فالمصادر الجادة كلها لا تتحدث عن قتال « يعقوب » بل عن تجسسه ، « كرستوفر هيرولد » وهو معجب « بيعقوب » لأسباب مفهومة طبعاً ، ولكنه يحترم قلمه ويتزهه عن التزيف الرخيص لذلك فكل ما يشير به عن يعقوب هو : « فيما نحي الى المعلم يعقوب » « وصلت الانباء للمعلم يعقوب » التقارير التي وصلت الى المعلم يعقوب .

ورأى الظليمة المثقفة في مهمة يعقوب أجملها الجبرتي في العبارة الموجزة :
« ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخبات » .

هذه واحدة .. والأخطر منها هي صياغة « لويس » لعبارته بما يوحي
وكان يعقوب ومعلمه كانا في الصعيد يقاتلان المماليك . وقد رأينا من وقائع
التاريخ ان المماليك لم يكونوا أبداً هم العدو الذي يقاتله « ديزيه » في الصعيد ،
بل الشعب المصري : الصعايدة ومن انضم اليهم من الاشقاء المجاهدين العرب .
بينما لم تقع الا اشتباكات محدودة جداً مع المماليك ووسط حماية الأهالي .
و « الرافعي » يحمل حملة شعواء على المماليك الذين تركوا الصعايدة يقاتلون
وحدهم وهربوا دائماً .. والجبرتي « يشهد » : « وفر الغز كعادتهم » « وهيرولد »
يتهم المماليك بأنهم كانوا يغزرون بالصعايدة أو الفلاحين – كما يقول – فيقاتل
الفلاحون ويهرب المماليك ، أو ينهبون ما لم يصل اليه النهب الفرنسي !
« ومورهد » في حديثه عن المتع التي نعم بها جيش « ديزيه » في الصعيد
يقول : « ولا شك انه كانت ثمة صنوف اخرى من المماليك فالاعتصاب وهتك
الأعراض لم يكونا من الجرائم الكبرى في مكان تدور فيه رحى القتال ،
ويغيب رجاله وقد حملوا السلاح للقاومة » (١٩) .

فيعقوب لم يكن يقاتل بضراوة ضد المماليك ، بل ضد أبناء الصعيد ،
وهتك الأعراض لم تكن تتعرض له نساء المماليك ، فهؤلاء كن في قصورهن
بالقاهرة ، بعد أن « صالحن على أنفسهن » .. بل كانت تتعرض له بنات
الصعيد قبليات ومسلمات ، في ملوى وأسيوط و « الفقاعي » وجرجا وقنا
وأسوان . أم ياترى كان « يعقوب » رائد القومية المصرية يتدخل لمنع
الاعتصاب عن القبليات وقصره على المسلمات !؟

بل ان الدور الوحيد الذي يثبت « هيرولد » ليعقوب في ما يتعلق بالمماليك ،
هو نجاح دعايته في كسب عدد منهم الى العمل مع الجيش الفرنسي !! ..
فأين القتال !؟

نعود لسيرة المعلم « يعقوب » بقلم المعلم عوض : « فلما غادر بونا برت مصر عاد المعلم « يعقوب » الى القاهرة وكلفه كليبر بتنظيم مالية البلاد وعينه قائداً للفيلق القبطي الذي شكل في مصر ليعاون الفرنسيين في حريمهم ضد المماليك.. ثم عين المعلم يعقوب مستشاراً (*) لمسيو استين مدير الادارات العامة ورقاه القائد العام « عبد الله جاك مينو » الى رتبة جنرال وجعله مساعداً للجنرال بليار في مارس ١٨٠١ للدفاع عن القاهرة ضد هجوم الجيش التركي الانجليزي.. ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصيره ومصير الفيلق القبطي بمصير الجيش الفرنسي وعند تسليم القاهرة في يونيه ١٨٠١ دخل الجنرال يعقوب في اتفاقية التسليم « وهكذا غادر القاهرة ليجر الى فرنسا مع الجيش الفرنسي بعد ثلاث سنوات قضاها في التعاون مع الفرنسيين » (٢٠) .

ما من فقرة حفلت بكل هذا القدر من التزييف .. ولا حتى منشورات نابليون بعد هزيمته أمام اسوار عكا .. « تنظيم مالية البلاد » .. التعبير الذي بينا أن « هيرولد » وضعه للسخرية من عمليات النهب الوحشي للمصريين ، يستخدمه « لويس عوض » جاداً !! « كليبر كلف يعقوب بتنظيم مالية البلاد ! » .. نسمع شهادة الجبرتي : « فلما وقعت الفتنة السابقة وظهر يعقوب القبطي وتولى أمر الفرده وجمع المال تقيد (مصطفى الطاراتي) بخدمته وتولى أمر اعتقال المسلمين وحبسهم وعقوبتهم وضرهم فكان يجلس على الكرسي وقت القائلة ويأمر أعوانه باحضار افراد المحبوسين من التجار وأولاد الناس.. فيبطحونه ويضرب بين يديه ويرده الى السجن بعد ان يأمر أعوانه ان يذهب الى داره وصحبته الجماعة من عسكر الفرنسيين ويهجمون على حريمه وأمثال ذلك » .

ولقد بقي « مصطفى الطاراتي » معاون « يعقوب » ، حتى تجرع من

(*) بابا تاجر غلال مبالوة !

نفس الكأس على يد العثمانية واستخرج منه صناديق لا حصر لها من المال (فقد استطاع هو أيضاً أن ينمي ثروته) ثم داروا به يتسول ، وهرب منهم ليتعرف عليه أحد ضحاياه فيقبض عليه ويسلمه : « فقبضوا عليه وقتلوه وتركوه مرمياً تحت الأرجل وسط الطريق وكثرة الازدحام ثلاث ليال » (٢١) .

ولا شك ان معلمه « يعقوب » كان سيلقى ما هو أنكى لولا انه كان أحرص من « مصطفى الطارقي » فحمل صناديقه وهرع الى المركبة الانجليزية مع فلول الجيش الفرنسي المنهزم .

تنظيم مالية البلاد؟! فلتسمع رأي « الجبرتي » الذي اعتبرته ممثلاً لرأي الطليعة المثقفة .. لنعرف رأي هذه الطليعة في « تنظيم مالية البلاد » التي اضطلع بمسئولياتها يعقوبك هذا .. (الذي لم يكن الجبرتي يذكره في مظهر التقديس الا : « يعقوب اللعين ») .

« فورعوها (أي الغرامة) على الملتزمين وأصحاب الحرف حتى على الحواة والقردتية والمحظين والتجار وكل طائفة مبلغ له صورة (*) مثل ثلاثين الف فرانسة وأربعين الف وكذلك يباعون التنباك والدخان والخردجية والمطارون والزياتون والشواؤن وجميع الصنائع والحرف وعملوا على أجرة الاملاك والعقار والدور أجرة سنة كاملة .. ثم انهم استأذنوا للمشايخ الخالص يتوجه حيث أرادوا والمشبوك يلزمون به جماعة من العسكر حتى يفلق المطلوب منه أما الصاوي وفتوح بن الجوهري فحبسوهما ببيت قائمقام والعناني هرب فلم يحدوه وداره احترقت فأضافوا غرامته على غرامة الشيخ السادات كملت بها مائة وخمسين الف فرانسه وانفض المجلس على ذلك وركب سارى عسكر من يومه ذلك وذهب الى الجيزة ووكل يعقوب القبطي يفعل في المسلمين ما يشاء » .

(*) أي كبير .. أو كما نقول « مبلغ وقدره » .

هذه هي العبارة التي استند إليها « لويس عوض » ، ليقول ان كليبر عهد الى « يعقوب » بتنظيم مالية البلاد !!

« ثم انهم وكلوا بالفردة العامة وجمع المال يعقوب القبطي وتكفل بذلك وعمل له الديوان ببيت البارودي » « فدهى الناس بهذه النازلة التي لم يصابوا بثلها ولا ما يقاربها ومضى عيد النحر ولم يلتفت اليه أحد بل ولم يشعروا به ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف . »

« والحوانيت مغلوفة والعقول مخبولة والحانات والوكائل مغلوفة والنفوس مطبوقة والغرامات نازلة والأرزاق عاطلة والمطالب عظيمة والمصائب عميمة . »
« تولى رجل قبطي يقال له عبد الله من طرف يعقوب يجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأتزلهم من على دوابهم وعسف .. »

« فدهى الناس وتحيرت أفكارهم . واختلطت أذهانهم وزادت وساوسهم وأشيع ان يعقوب القبطي تكفل بقبض ذلك من المسلمين ويقلد في ذلك « شكر الله » واضرا به من شياطين أقباط النصرارى . واختلفت الروايات فقليل ان قصده أن يجعلها على المقار والدور وقيل بل قصده توزيعها بحسب الفردة . »

اما « شكر الله » الذي يقلده « يعقوب » فهذا هو رأي الطبيعة المثقفة فيه : « اشتد أمر المطالبة بالمال وعين لذلك رجل نصراني قبطي يسمى شكر الله . فنزل بالناس منه ما لا يوصف . فكان يدخل الى دار أي شخص كان لطلب المال وصحبته العسكر من الفرنساوية والفعلة وبايديهم القزم فيأمرهم يهدم الدار ان لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه . وخصوصاً ما فعله ببولاق فانه كان يجبس الرجال مع النساء ويدخن عليهم بالقطن والمشاو وينوع عليهم العذاب . . . »

أهذا تسميه تنظيم مالية البلاد يا دكتور !!؟

« الفيلق القبطي الذي شكل في مصر ليعاون الفرنسيين في حربهم ضد المماليك » .

نسمع أولاً شهادة الجبرتي :

« ومنها (أي من حوادث عام ١٢١٥) (١٨٠٠ - ١٨٠١) ... ان يعقوب القبطي لما تظاهر مع الفرنسيات وجعلوه ساري عسكر القبطة جمع شبان القبط وحلق لحام وزيام بزي مشابه لعسكر الفرنسيات ممييز عنهم بقبع يلبسونه على رؤسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة مع ما يضاف اليها من قبح صورهم وسود أجسامهم وزفارة ابدانهم^(*) . وصيرهم عسكره وعزوته . وجمعهم من أقصى الصعيد . وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصرى التي هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر . وبنى له قلعة وسورها بسور عظيم وابرار وباب كبير يحيط به بدانات عظام . وكذلك بنى ابراراً في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية وفي جميع السور المحيط والأبرار طيقاناً للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذي رمه الفرنسيات ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلاً ونهاراً وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنسيات » (٢٢) .

ويقول « شفيق غربال » : « كتب الجنرال مينو الى بونابرت كتاباً في برومير للسنة التاسعة للجمهورية ما يأتي : « اني وجدت رجلاً ذا دراية ومعرفة واسعة اسمه المعلم يعقوب . وهو الذي يؤدي لنا خدمات باهرة ومنها تعزيز قوة الجيش يحنود اضافية من القبط لمساعدتنا » .

ويعلق « شفيق غربال » بعد هذا النص الذي يورده : « ونحن نسلم بأن هذه القوة كانت من أدوات تثبيت الاحتلال وبأنه لولا هذا لما سمحت السلطات الفرنسية بإنشائها » (٢٣) .

(*) الجبرتي هنا يعبر عن احتقار الأصيل ، للمسخر العميل ، الذي يقلد سيده .

هل كان يعقوب يهدف الى قتال المماليك؟!... الفيلق القبطي تم تشكيله بعد ثورة القاهرة الثانية.. فهل كان القتال ضد المماليك هو المهمة المطروحة؟! أي مماليك؟!.. « مراد » الذي « خامر » واتفق « ودعى الفرنسيون في وطاقه » وأكرمهم اكراماً زائداً؟! وقبض منحة منهم ، وأهداهم الغنم ، وتولى حكم الصعيد بأمرهم وتحت حمايتهم.. وبمرتب شهري له ولزوجته تقبضه في القاهرة؟!!

أم المماليك الذين أصبحوا يظهرون في الاستعراضات خلف « كليبر » ، كما رأينا في اجتماعاته واستعراضاته ، بل ويتشفع بهم المشايخ عند الفرنسيين؟! ليخففوا عنهم اضطهادات يعقوب ومطالبه المالية؟!.. ويسيرون في جنازة « سارى عسكر » كليبر!.. ويأسف عثمان بك البرديسي ، لأن « مينو » لا يأخذ بنصائحه ويستعد لمواجهة الزحف التركي – الانجليزي ويقول : « إن قائداً مثل الجنرال مينو سيكون سيباً في ضياع الجيش الفرنسي ! » ... البرديسي بك آسف على ضياع الجيش الفرنسي ! اما مراد فهو يبلغ رسائل ابراهيم بك الى الجنرال مينو !

من حق الكاتب ان يتخذ موقفاً خاصاً من التاريخ ، ولكن ليس من حقه ان يزور هذا التاريخ . فعندما تكون « الفيلق القبطي » لم يكن ثمة قتال مع المماليك . بل كان في الجيش الفرنسي فيلق آخر من المماليك . وكانت قوات المماليك الرئيسية بقيادة « مراد بك » تطارد فلول العثمانيين بأمر من القيادة الفرنسية!..

فلم يكن « يعقوب » وحده الذي اكتشف وحدة المصالح (بدافع من عقيدته – كما يقول لويس) مع الفرنسيين ، ولا كانت الجوارى السود وحدهن اللاتي اكتشفن ان الفرنسيين يحملون لقاح الثورة الفرنسية ويتفجرون بالشهوة « لاطلاق الانثى من عقابها » . بل المماليك أيضاً اكتشفوا وحدة عقائدية مع الفرنسيين . « فالرافعي » يقول ان عدداً منهم عرض نفسه على الفرنسيين

ليضموم اليهم فقد ذكر « ريبو » حوادث معينة لهذا التحول ، منها أن احد ممالك « عثمان بك حسن » طلب من ضباط الجيش الفرنسي ان يأخذوه اليهم ، وحبته أنه قبل أن يكون مملوكاً كان مجرباً (من سكان المجر) ومن فرسان الجيش النمساوي فأسره الاتراك في بعض حروبهم مع النمسا وصار بعد ذلك مملوكاً . فقبل الفرنسيون خدمته . وانضم الى صفوفهم ، ودخل آخرون في الجيش الفرنسي زاعمين انهم كانوا جنوداً في الجيش النمساوي وأسرم الاتراك وارسلوا الى الآستانة . ثم نقلوا الى مصر وصاروا في عداد الممالك . ويقول « ريبو » : ان الفرنسيين قد قبلوهم في صفوفهم وصاروا من رجالهم الشجعان ! ويدخل في هذا السياق ان نابليون جند في صفوف الجيش الفرنسي جميع الممالك الفتيان الذين تتراوح اعمارهم بين السادسة والثامنة عشرة ، وألحقهم بالجيش ليتدربوا على القتال ، ويستخلص « الراقعي » من هذا العرض ، النتيجة الصحيحة التالية : « فمقاومة الممالك قد تلاشت اذن امام الجيش الفرنسي » (٢٤) .

ونحن نسأل ما هو الفارق الذي يجده المؤرخ التزيه بين الفيلق الذي يقوده يعقوب ، والفيلق الآخر الذي يقوده « نقولا بابا زوغلو » !!

يقول الراقعي :

« ونظم الفرنسيون هذه الكتيبة في عهد نابليون ، وجعلوا القبطان الرومي « نيقولا بابا زوغلو » قومنداناً لها ورفقه الى رتبة جنرال بعد اخذ ثورة القاهرة الثانية (واضح انه قد جرت حركة ترقبات بين العملاء) وكان في عهد الممالك خادماً عند مراد بك ورئيساً للترسانة التي انشأها بالجيزة . ويقول المسيو مارتان في كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية في مصر) انه خدم الممالك الى ان حلت بهم الهزيمة في معركة الأهرام فعرض خدماته على الفرنسيين ومن ذلك الحين وضع نفسه تحت تصرفهم ، ويقول الجنرال رينيه في كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس) ان عدد جنود هذه الكتيبة بلغ في

عهد كليبر ١٥٠٠ مقاتل ، (٢٥) والجبرتي يعرفنا بتاريخه مع المماليك قبل ان ينقل البارودة الى الكتف الآخر : كذلك اتخذ مراد بيك اتباعاً له من النصارى الأروام « وجعل عليهم رئيساً كبيراً رجلاً نصرانياً وهو الذي يقال له نقولا بنى له دار عظيماً بالجيزة وأخرى بمصر وله عزوة واتباع من نصارى الأروام المرتبين عسكرياً وكان نقولا المذكور يركب الخيل ويلبس الملابس الفاخرة ويمشي في شوارع مصر راكباً وامامه وخلفه قواصة يوسعون له الطريق في مروره على هيئة ركوب الأمراء ، (٢٦) ..

ما الفرق بين يعقوب ونقولا ؟.. كلاهما خدم المماليك ، وكلاهما انتقل لخدمة الفرنسيين فور هزيمة المماليك ، وكلاهما استعان به الفرنسيون في تكوين تشكيل عسكري على اساس طائفي .. وكلاهما رقاہ الفرنسيون بعد ثورة القاهرة الثانية ، أي بعد جهوده الى جانبهم ضد الثوار المصريين ، الى رتبة جنرال ..

ما الفرق ؟!.. لماذا ندين « نقولا » .. ويفلت « يعقوب » من العقاب ؟!
مادام الصوت صوت يعقوب والفعل فعل يعقوب ..

بل واين هي المعركة التي خاضها فيلق يعقوب ضد المماليك ؟!

يقول لويس عوض :

« ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصيره ومصير الفيلق القبطي بمصير الجيش الفرنسي » .

ما المقصود بعبارة « منذ ذلك التاريخ » يريد أن يقول منذ عهد اليه الفرنسيون بالدفاع عن القاهرة ! والحقيقة ان مصيره ارتبط بالفرنسيين قبل ذلك بكثير ، منذ ان عمل في خدمتهم وقاتل ضد مواطنيه ، ونكل هؤلاء المواطنين .

ومرة اخرى نجد عبارة منمقة: « دخل الجنرال يعقوب في اتفاقية التسليم »

كانه وقعها .. أو كأنه أحد الاطراف أو كأن له بنداً خاصاً .. والواقع أنه اندرج هو وأمثاله تحت البند الذي يتحدث عن : « المتداخلين مع الفرنسيات » (*) وهو البند العاشر من اتفاقية العريش قبل ثورة القاهرة وقبل انشاء الفيلق .

ويحذف من التاريخ ان سليمان بك اغا الانكشارية هو الذي قدمه الى « نابليون واطرى اخلاصه ، لما آانس فيه الشجاعة وظهرت له قوته واستعداده فقربه هذا اليه » (٢٨) .

نتابع سيرة يعقوب :

« ان المعلم يعقوب تشرب أفكار الثورة الفرنسية في هذه الاجتماعات الكثيرة التي اختلط فيها الضابط بالدبلوماسي بالفنان (يقصد ديزيه) فالتهمت روحه بحب الحرية لبلاده » (٢٩) .

ولقد رأينا كيف عبر « يعقوب » عن التهايه هذا ، بالتنكيل بمواطنيه ، واشعال النار في القرى والمنازل .. وتكوين جند ماجور لم يسمه حتى « بالفيلق المصري » بل اختار له تسمية ، الحمد لله على لطفه بمصر ، اذ عجل بنهاية الاحتلال الفرنسي قبل أن تحدش الوحدة المصرية .

اما « ديزيه » « الفنان الدبلوماسي الضابط » فيعرفنا به « هيرولد » بأنه « ليس لدينا دليل على انه كانت له أي ميول علمية متأصلة » « وكان مصاباً بالسيلان » (***) وكتب وهو بمصر الى جيببته بفرنسا - كما رأينا - يقول انه « محاط بحريم كامل » . وليس في سلوك « يعقوب » حادثة واحدة ، تشير

(*) فلا يحصل التشويش لاحد من سكان الاقليم المصري من اي ملة كانت وذلك لا في اشخاصهم ولا في اموالهم نظراً الى ما يمكن ان يكون قد حصل من الاتحاد ما بينهم وبين الفرنسيات مده اقامتهم بأرض مصر « (٢٧) .

(**) مرض سري ..

الى حبه للثورة الفرنسية أو تشربه لأفكارها فضلاً عن أن يكون قد سمع بها قط.. وكل وقته بالصعيد كان مخصصاً لجمع الاخبار عن المقاومة الوطنية، وتسهيل النهب ومساعدة الجنود الفرنسيين في هتك اعراض الصعديات.. وتزلفه للانجليز وسبه للفرنسيين فور هزيمة الفرنسيين ينفيان عنه اي ايمان بالثورة الفرنسية.. فالجبرتي عدو الفرنسيين لا نعدم له كلمة انصاف هنا أو هناك في حق الفرنسيين.. بينما طلب الاستخدام الذي قدمه يعقوب للانجليز حافل بالسب لسادته الاقدمين!..

يوصل « لويس عوض » تجميل تاريخ يعقوب :

« والمعروف انه عندما تحالف الانجليز مع العثمانيين لاستخلاص مصر من الفرنسيين وردها للباب العالي ازدادت ضرائب الاحتلال الفرنسي الى درجة يشعة فأثقلت كاهل المصريين لمواجهة نفقات الحرب ، فكان المعلم يعقوب يتدخل لدى السلطات الفرنسية آنأ لتخفيف عبء الضرائب ، وآناً لتسيطها ، (٣٠) .

نعم ! اذا كانت تبرة ابليلس تتطلب ادانة الكون كله ، فإن هذه التبرة أيضاً تتطلب تبرير كل الجرائم .. لذلك فالعبارة مصاغة على نحو مذل حقاً لكتابها !

« لما تحالف الانجليز مع العثمانيين لاستخلاص مصر من الفرنسيين وردها للباب العالي » .

وهكذا نرى انه ليس لمصر ولا للمصريين دخل في الأمر .. الانجليز يحاربون الفرنسيين « لأخذ مصر » منهم واعطائها للباب العالي .. وبسبب هذا « العدوان » الانجليزي - التركي . كان الفرنسيون بحاجة الى المال « لمواجهة نفقات الحرب » ! فزادت « الضرائب » وهو اسم مهذب للفردة والغرامة والاثاوة .. نعم زادت الضرائب والى درجة يشعة .. ولكن لمواجهة نفقات الحرب . وهنا يأتي دور « يعقوب » للتدخل لتخفيف الأعباء وتسيطها ، فهو هنا لا يمثل السلطة في مواجهة الأهالي يجمع لها المال من الشعب .. أبداً..

هو يمثل الشعب في مواجهة السلطة! وطبعاً كما رأينا فإن رأي الجبرتي ووقائع التاريخ ضد ذلك تماماً « ووكل يعقوب بالمسلمين يفعل بهم ما يشاء ! » أظن ولا أعجمي يمكن أن يترجم هذه العبارة الى « ووكل يعقوب بالمسلمين يتشفع لهم كما يشاء ! » !!

ويصل بالتزوير الى ذروته :

« ويعقوب كان يستطيع ان يبقى في مصر والراجح انه كان مؤمناً على حياته واملاكه لحاجة الترك الى خدماته .. ولكن الجنرال يعقوب كان يحمل في جعبته مشروعاً خطيراً كان في نيته عرضه على الانجليز والفرنسيين . وهذا هو مشروع « استقلال مصر » (٣١) .

الامر يحتاج لهدوء اعصاب .. فلنبداً بتتبع التاريخ :

« ١٤ - ٧ - ١٨٠١ جلاء الجيش الفرنسي عن القاهرة ،

٢٨ - ٧ - ١٨٠١ وصل رشيد .

١ - ٨ - ١٨٠١ ركب يعقوب « الفرقاطة » الانجليزية « بالاس » التي كان قومندانها الكابتن « جوزيف آدموندز » وأبحرت بالاس » في ١٠ - ٨ - ١٨٠١ متجهة أولاً الى « قبرص » وساحل آسيا الصغرى .

« وبعد ان ابحرت بيومين ١٢ - ٨ - ١٨٠١ اصابت « يعقوب » الحمى واشتد عليه المرض فمات بعد أربعة ايام في ١٦ - ٨ - ١٨٠١ .. ومن هذا نعرف ان «الجنرال يعقوب» أفضى بمشروعه الخاص باستقلال مصر «لادموندز» قبطان الفرقاطة « بالاس » في أول يومين من الرحلة أي قبل ان تخرج بالاس من ميناء ابو قير » (٣٢) .

« وقد كتب ادموندز الى اللورد « سانت فنسانت » وزير البحرية الانجليزية برسالة ينبئه فيها بما كان من حديث بينه وبين الجنرال « يعقوب »

وكان يقوم بدور المترجم بينها رجل يدعى « لاسكاريس » (*) وكان موضوع الحديث هو مستقبل مصر ...

ولنا أن نفترض من واقع سلوك يعقوب ومهاراته وتقلبه من خدمة المالك والقتال معهم بضراوة ، الى خدمة الفرنسيين والقتال معهم بنفس الضراوة .. لنا ان نفترض انه قد عرض خدماته على الانجليز للقتال معهم بضراوة ضداي عدو وليكن الفرنسيون بالذات ! خاصة بعد ان ابدى الكابتن له « بعض مظاهر الرعاية الخفيفة » فدفعه ذلك الى محادثتي عن وطنه !

أدرك يعقوب بحاسة العمالة ، وهي أنشط حواسه ، ان الانجليز هم سادة المستقبل ، وبواسطة « لاسكاريس » الآفاق شبه المجهنون بدأت عملية البيع للكابتن الانجليزي . و « لاسكاريس » كأبي سمسار ممتاز لا بد أن يقدم الصفقة للخواجة الانجليزي على أساس انها تحفة نادرة . وأن يعقوب هو « زعيم من زعماء طائفة الاقباط يدعى يعقوب وانه بحكم هذه الصفة يتمتع بمكانة عالية وتفوذ كبير في مصر » . وقد رأينا أي مكانة كان يتمتع بها هذا الذي يندرج تحت تعريف الجبرتي لامثاله « اسافل القبضة » وكان يعقوب يعرف جيداً مكانته بين مواطنيه فحول بيته الى قلعة ليأمن داخلها من مواطنيه إذا ما حاولوا التعبير له عن « تقديرهم » .. في غيبة الحماية الفرنسية !

وتقدم « يعقوب » يعرض خدماته فأعلن : « ان أي حكم في مصر في نظره خير من الحكم التركي » والمعنى أوضح من ان يكون في بطن الشاعر .. انه يفضل الحكم الانجليزي (***) .. « اما التعاون مع فرنسا ثلاث سنوات »

(*) هذه الصيغة التجهيلية مقصودة لاختفاء دوره .

(**) بل ان موقف يعقوب لا يفضل بكثير ولا قليل موقف المالك . فلإن « عثمان » بك كتب الى السير « سدي سمث » شخصياً « نحن على يقين من ان مراد بك كان شديد الخوف من الباب العالي ، وانه وضع نفسه تحت حمايتكم . ولسنا أقل منه خوفاً ، وأنت تعلم انه ما من قوة في الأرض نضع فيها ثقة أتم مما نضعه في بلاط بريطانيا العظمى . وكلنا اخوان ، نشق أولاً في =

فلا تقلق بالك - يا خواجا - فلم يكن عن ايمان بفرنسا ولا عن تشرب لروح الثورة الفرنسية ، ان هذا التعاون مع الفرنسيين يجب الا يعوق مستقبله في خدمة الانجليز .. فهو: « ما انضم الى الفرنسيين الابدافع الوطنية لتخفيف آلام اخوته المصريين » ، وانه يعرف ان فرنسا ليست الدولة العظمى الوحيدة في اوروبا . ورجا يعقوب (بواسطة لاسكاريس) آدموندز ان يحمل آراءه هذه الى القائد العام الاميرال اللورد كيث ليحملها بدوره الى مجلس الوزراء البريطاني .

= الله العلي القدير ، ثم فيكم ، ونضع انفسنا تحت حمايتكم ، ونزيدكم ان تمكثوا مع ابنائنا وأسرتنا في القاهرة بأمر الباب العالي وبضمان الانجليز « (٣٣) فليس يعقوب وحده هو الذي كان يرى ان أي حكومة افضل من حكم الاتراك وليس « يعقوب » وحده الذي طلب الحماية البريطانية .

وان كان هيرولد يرى « ان المصادر الفرنسية تجمع على ان مراداً ظل وقيلاً للفرنسيين حتى النهاية » (٣٤) .

وهذه المدرسة - مدرسة الاستقلال بالانجليز - وجدت في وقت مبكر بل وان صحت اتهامات « ريبو » فإن هذه المدرسة قد لعبت دوراً في تقرير مصير الحملة الفرنسية، بل وفي مصير الصراع البريطاني - الفرنسي ، أخطر مما لعبه يعقوب وامثاله . اذ ان اسطول « نلسن » كان يتقدم بقيادة سفينة مصرية وبارشادها الى خليج « ابو قير » حيث وجه الضربة المعروفة جيداً للاسطول الفرنسي هناك « (٣٥) .

وفي يوميات الجنرال كليبر يفسر افشائه ديوان الاسكندرية بأنه « لمقاومة دسائس الانجليز في المدينة » (٣٦) .

مع فاروق ان يعقوب والماليك كانوا يريدون استبدال سيد منتصر بسيد منزه ، لكي يمكنهم من الاستبداد بشعب مصر في حماية الحراب الأجنبية ، وهو موقف وصولي لا اخلاقي وعمالة في نفس الوقت .

اما الوطنيون المصريون الذين حاولوا الاستعانة بدولة أجنبية لضرب الاستعمار الأجنبي القائم فعلاً ، فهو وضع اضطر اليه الوطنيون اكثر من مرة ، بصرف النظر عن نتائجه .

ويأسف «لويس عوض» لأن «المنية للعاجلة حالت دون ان يضع الجنرال يعقوب مشروعه في صيغة مكتوبة» .

وهو أسف في غير محله ، لأننا لا نعتقد أن مثل مشاريع يعقوب عن عرض الخدمات ، تكتب أو تقدم في صيغة مكتوبة .. انها اتفاق «جنتلمان» - أو نقول «آجنت مان» !. اتفاق يقوم على استمرار حاجة الطرفين لبعضهما . ونشك ان «يعقوب» كان باستطاعته ان يكتب مشروعاً سياسياً على الاطلاق فلو كان «يخرج من يده» لكتبه خلال ثلاث سنوات طوال قضائها في التعاون المستقر الآمن على شخصه والتمتع بالنفوذ المطلق داخل قلعته الحصينة التي طالما كرنك فيها في درب الواسع ، كلما حاول مواطنوه ان يستقلوا .

أما التقرير الذي كتبه «لاسكاريس» عارضاً خدماته هو بدوره على من يشاء من الأوروبيين بعدما خدم مع جيش الاحتلال الفرنسي ، الذي استولى عليه في مالطة ضمن ما استولى عليه من ممتلكات فرسان القديس يوحنا !

«ولاسكاريس هذا كلفه الجنرال مينو تنظيم شبكة تجسس بالتعاون مع يعقوب تمتد الى سوريا» (٣٧) .. وكان من الطبيعي ان يتصل بيعقوب فهذه مهنته ولعبته ..

ولأنه لا يوجد أي دليل لافي تاريخ يعقوب في خدمة المماليك او الفرنسيين ولا في جهوده في «تنظيم مالية البلاد» ولا في سلوكه وتاريخه على ظهر الفرقاطة الانجليزية ما يثبت صلته بمشروع «لاسكاريس» لذلك لا يجد ورثة «يعقوب» من حيلة في نسبة مشروع «لاسكاريس» الى يعقوب إلا «هذا التلازم الذي دام نحو خمسة شهور (بين لاسكاريس ويعقوب) هو ما يجعل بعض المؤرخين يرون في مذكرة لاسكاريس تعبيراً دقيقاً عن آراء الجنرال يعقوب» .. ولا شك ان هذا التلازم كانت تستغرقه مهام اخرى تماماً ، بحكم المهمة التي كلف بها الجنرال مينو ، لاسكاريس ، وهي تنظيم شبكة تجسس في

مصر .. والجنرال مينو حكم من ١٤ يونيه ١٨٠٠ (قتل كليبر) الى مارس ١٨٠١ (تاريخ رحيله للاسكندرية) فاذا كان قد كلف لاسكاريس بهذه المهمة الصعبة وهو غريب عن البلاد ، فلا شك ان اقصى ما كان يستطيع مناقشته مع يعقوب ، العديد المشاغل ، هو تنظيم هذه الشبكة ونشر فروعها من الاسكندرية الى اسوان .. بل والى الشام في بعض الروايات .

وهذه الشبكة كما هو ثابت من رسالة « مينو » الى « يعقوب » كانت تتولى التجسس على الأقباط كما المسلمين .. ويفهم من هذه الرسالة ان « يعقوب » اعتبر في نظر الفرنسيين مجرد عميل لا يدين بالولاء إلا لهم ، ولا يتردد في التجسس والوشاية بالأقباط ، « فمينو » لا يتحفظ ولا يختار عباراته وهو يكلف يعقوب بالتجسس على الأقباط ومراقبتهم بل يأمره على هذا النحو : (مع انها برتبة واحدة .. جنرال !) :

« انت تعلم انني قليل الثقة في عدد كبير من مواطنيك الاقباط ، فراقبهم بعناية فائقة اذ انهم غير مرتاحين الى الاجراءات الادارية التي اتخذتها والتي ترمي الى اعادة النظام الذي لا يحبوه » (*) .

فيعقوب لم يكن مصرياً ولا قبطياً .. لا في نظر المصريين والاقباط فحسب ، بل ولا حتى عند الفرنسيين .. الذين عرفوا مكائته الحقيقية وكانوا سيعاملونه على اساسها في فرنسا ، ما جعله يبحث عن سيد جديد يتقدم بخدماته اليه ، سيد لا يعرف عنه كل ما يعرفه الفرنسيون .. فلجأ بواسطة لاسكاريس الى البريطانيين ...

ولا شك ان المقابلة بين « يعقوب » و « وادموندز » و « لاسكاريس » قد تمت . وفيها عرض « لاسكاريس » على الخواجة .. الانتيككة التي يرغب في بيعها : « يعقوب القبطي ذو النفوذ الواسع في مصر » .. اما المشروع فهو من

(*) جاك تاجر عن رسالة مينو بتاريخ ١٢ مارس ١٨٠١ .

تأليف لاسكاريس .. وبعض اللحات من آدموندز .. اذ لا يمكن ان يكون من يعقوب الراحل الى فرنسا ، مها قلنا في قلبه وسوء خلقه وقلة وفائه ، لا يمكن ان يكون مشروعه ذلك الذي يصفه « لويس عوض » بأن محور نظرية الجنرال (المعلم بقت له نظرية !) يعقوب التي يبسطها امام الانجليز هو ان استقلال مصر في مصلحة انجلترا اكثر من أي بلد آخر « (٣٨) .

فالمشروع المحفوظ في سجلات وزارة الخارجية البريطانية والذي كشفت عنه (*) في ١٩٢٤ ... ألفه لاسكاريس وتقدم به الى الحكومة البريطانية زلفي .. فهو يطلب :

● حماية بريطانية تحقق فصل مصر عن تركيا ..

● تشكيل « الفرقة الأجنبية » من قوات مرتزقة قوامها بين ١٢ الف و ١٥ الف جندي ، تتولى اخضاع مصر وحماية الحكم المنشود . ولا تهدف للدفاع ضد الأوروبيين « ان هذا لا يمكن ان يحدث إلا بعد وقت طويل . « بل تكفي « لوقف الاتراك عند الصحراء وتحطيم الممالك في داخل مصر . «

● يسجل المشروع - ولو مبكراً - الأسلوب الاستعماري الخسيس في لعبة : « فرق تسد » ، واثارة الطوائف بعضها ضد بعض والحكم والاستقرار من خلال ضرب فئات الشعب الواحد بعضها ببعض . ورغم احتقارنا للمعلم « يعقوب » نرفض ان ننسب اليه كمصري مثل هذا التخطيط البشع لتمزيق وطنه :

« ويجب الا يفوتنا ان نذكر في هذا المقام ان مصر المقسمة الى طوائف متعددة ، تتوفر بها الوسائل اليسيرة لاقامة التعارض فيما بين هذه الطوائف بقصد حفظ التوازن بينها » . هذا المخطط نبريء منه « يعقوب » .. وهو

(*) نشره لأول مرة - ولا نبريء تاريخ نشره من الاعيب السياسة البريطانية -

لا يصدر عن فكر مصري بأي حال من الأحوال ، بل هو مخطط استعماري أجنبي .. وبإصرار أشد نرفض محاولة الدكتور « لويس عوض » اتهام أكابر القبط بالمسامة في مثل هذا المشروع عندما يلح: « كذلك نعرف ان الجنرال يعقوب قبل سفره الى أوروبا اجتمع بزعماء الأقباط من زملائه القدامى مثل المعلم جرجس الجوهري والمعلم انطون ابو طاقية والمعلم فلثاؤوس والمعلم ملطي . ولا نعلم على وجه التحقيق ماذا دار في هذا الاجتماع وهل كانت له صبغة سياسية أم انه كان قاصراً على مناقشة المسائل المالية . ولعله أطلعهم على مشروعه ونواياه اما بالنسبة للمشايخ والعلماء ، الذين كانوا يمثلون الحكم الوطني في مصر يومئذ فليس في الجبرتي أية اشارة تدل على ان الجنرال يعقوب قد التقى بهم على محادثات سياسية » (٣٩) ...

ولكن يعقوب كان متساعماً سخياً فقد « تصور نفسه ممثلاً لكل طوائف الشعب المصري » !

والتقرير المرفوع من الكابتن جوزيف ادموندز الى حكومة جلالة الملك لا يترك مجالاً لاجتهادات ولا تخمينات حول طبيعة الصفقة التي اراد « يعقوب » ان يعقدها ، او اراد « لاسكاريس » أن يعقدها لحسابه مع حكومة جلالة الملك الانجليزية ، قبل ان تعالجه الحمى فتمنعه من نقل البندقية للمرة الثالثة من خدمة المالك الى العمالة للفرنسيس الى العمالة للانجليز .. والتقرير مكتوب بدقة الانجليز ويثبت براءة وذكاء الكابتن « ادموندز » . فرغم تهويلات السمسار « لاسكاريس » وادعاءات « يعقوب » واكاذيبه ، نجد الكابتن الانجليزي دقيق الى ابعد حد في اختيار العبارات . وهو في مجموعه لا يزيد عن تقرير يرفعه موظف مخلص الى حكومته بعد مقابلة مع جاسوس دولة معادية يعرض خدماته واستعداده لنقل الولاء الى السيد الجديد معتدراً عن اخلاصه وولائه للسيد القديم ، يجهله بإمكانيات السيد الجديد ! وسب - لا يشرف « يعقوب » ابدأ - في اسياده القدامى الذين حملوه معهم ، ويجرد

ما ركب « الفرقاطة » الإنجليزية نهش عرض الدين لحم اكتافه من خيرهم :
« الفرنسيون خدعوم ولهذا فالمصريون الآن يحقرونهم احتقارهم للترك
فيما مضى » .

يا لضياح مبادئ الثورة الفرنسية التي « أشربت بها روحه » !.. ضاعت
هكذا بمجرد ان اظهر الكابتن الإنجليزي : « بعض مظاهر الرعاية الخفيفة
نحو هذا المنفي العائر الحظ فدفعه ذلك الى محادثتي عن وطنه » .

ويفهم من تقرير الكابتن « ادموندز » :

١ - انه كتبه للفت انتباه السلطات البريطانية لاعتقاده « أنه قد يكون
من النافع لبلادي أن بعض الاشخاص الذين يسمون انفسهم « الوفد المصري »
موجودون حالياً في باريس » .

٢ - ان « لاسكاريس » « ويعقوب » لكي يقنعا « ادموندز » بمقابلتهما
والاستماع الى عروضها وقبول استخدام يعقوب قد خلعا على يعقوب بعض
الاهمية .. « أحد زعماء هذه الطائفة ويتمتع بحكم هذه الصفة بنفوذ عظيم وقد
جعله الفرنسيون قائداً على فيلق ليحصلوا على مساعدته » .

ولا شك ان « ادموندز » قد خفف شيئاً من العبارات التي اضافها « يعقوب »
على نفسه وخلصها سمساره عليه ، والتي يرددها سمسارته اليوم ، ولكنه كان
مضطراً لذكرها ، بحكم الدقة التي تتسم بها مثل هذه التقارير عادة ، وتقارير
الموظفين الانجليز بصفة خاصة - في القرن التاسع عشر على الأقل - وأيضاً
لتبرير ازعاجه لرؤسائه والكتابة اليهم .

٣ - وبعد ان يشير الى ما قدمه الى هذا « المنفي » العائر الحظ بما دفع
الأخير الى الحديث . (ولفظة منفي التي تكرر في التقرير تشير الى طبيعة
خروج يعقوب كما كان هو ومعاصروه يفهمون هذا الخروج . وبالطبع هو

منفي من قبل مواطنيه والسلطة الجديدة ، وليس خارجاً بهواه لاداء مهمة سياسية كما يدعي الدكتور لويس عوض) .

« وصرح لي ان من رأيه ان اية حكومة تحكم بلاده تفضل حكومة الترك »
البعض يسمون ذلك دعوة للاستقلال !..

ودفعاً لمظنة ولائه للفرنسيين يؤكد : « انه انضم الى الفرنسيين بدافع من رغبته الوطنية في تخفيف آلام مواطنيه » .

والمدحش انه ما عدا حالاتنادرة كان الجواسيس فيها يتمتعون بروحمرحة وعملية ، نجد ان الخونة بدأوا بنفس المقدمة .. وهي ادعاء الرغبة في تخفيف آلام المواطنين والعمل لمصلحة البلاد العليا (*) .. على اية حال شكراً لتواضع يعقوب فهو لم يبرر خدماته للفرنسيين ، بادعاء ايمانه بمبادئ الثورة !..

« وان الفرنسيين خدعومهم ، ولهذا فالمصريون الآن يحرقونهم احتقارهم للترك فيما مضى . وانه لا يزال يأمل في خدمة بلاده بواسطة الحكومات الاوروبية » .

هذا الملعون الذي لا يستطيع خدمة بلاده الا بواسطة الحكومات الاوروبية !!

« ويعتقد ان رحلته الى فرنسا سوف تسفر عن هذ النتيجة » ..
واعتذار مرة اخرى عن ارتباطه بالفرنسيين، مصحوب بمد اليد لبريطانيا:
« وقد جعله الفرنسيون يعتقد ان بلادهم هي اقوى بلاد اوروبا، ولم يكن يعرف شيئاً عما لاجلثرا من قوة بحرية عظيمة » (**)
« ومع ذلك فقد كان يعلم

(*) حق « منيرروفا » الذي سرق طائرة ميغ ولجا الى اسرائيل قال في بيانه انه فعل ذلك لتخفيف آلام الاكراد الذين تبيدم حكومة بغداد !!
(**) والي ما يعرفك يهلك يا به !

انه بغير تأييد بريطانيا العظمى فان رغبته في أن يرى وطنه يتمتع بالاستقلال مقضى عليها بالفشل . وهو يرجو رفع ذلك الى حكومة بريطانيا .. » اذ ان الجنرال كان قد اعرب لي عن رغبته في ابلاغ هذا الموضوع الى القائد العام (البريطاني طبعاً فقد انتقل الولاء الى القائد العام المنتصر) ثم إبلاغه عن طريقه الى الحكومة البريطانية .

ثم التعمد التقليدي الذي تقدمه المحاربات لكل جاسوس أو عميل في اللقاء الأول :

« وقد تعهدت للمعلم يعقوب (لاحظ انه هنا يصفه « بالمعلم » وليس الجنرال) الا استخدم أو تستخدم الحكومة البريطانية في أي وقت من الاوقات ابلاغاتهم استخداماً يمكن ان يعود عليهم بالضرر . »

واعتذار من الكابتن البريطاني لتخطية البيروقراطية البريطانية ورفع هذه « المعلومات بالطريق المباشر » الى وزير البحرية متخطياً رئيسه القائد العام « اللورد كيث » آملاً أن يقربني سيدي اللورد على مسلكي هذا .. لأن الجماعة ذاهبين « للاقامة في باريس » العدو القومي لبريطانيا مما يحتم المبادرة بالاستفادة من خدمات هذا الوفد .

وهكذا تكتمل صورة تقرير معلومات وعرض خدمات . فلا اظن ان المباحثة في مشروع استقلال مصر بضمانة «الدول» الاوروبية يستدعي تخوف يعقوب وتوسله الا تستخدم « ابلاغاته » هذه ضده .

اما حكاية « الوفد المصري » الذي حدث « لاسكاريس » ويعقوب ، الكابتن عنه ، فلم يكن لدى الكابتن من وسيلة للتأكد من صحته رغم وجود افراده على ظهر الباخرة ! فكل الدلائل كانت تشير الى جماعة من الهاربين من وطنهم لتعاونهم مع المحتل . لذلك نجد الكابتن الانجليزي متحفظاً للغاية في حديثه عن هذا الوفد :

« وقد أبلغني صديقه لاسكاريس ، فهكذا يسمي نفسه (!!) وقد قام له

بدور المترجم فيما جرى من محادثات بيننا ، ان الجنرال يعقوب رئيس وفد يحمل تفويضاً أو عين بمعرفة أعيان مصر لمفاوضة دول أوروبا في استقلال هذا البلد «(*)» .

« وقد عرفني السيد « لاسكاريس » ان الوفد قائم وأنه مكون من المندوبين المسافرين على ظهر السفينة « بالاس » . ولم أستطع ان افهم ان كان السيد « لاسكاريس » نفسه عضواً في هذا الوفد(**) أم انه كان يتصرف بوصفه سكرتيراً مترجماً فحسب . وبما ان هذا الوفد - الذي ليس في استطاعتي تحديد صلاحياته قد ذهب في الغالب للاقامة في باريس » .

واضح ان الرواية كلها عن الوفد ومهامه وصلاحياته موقع شك عند الكابتن . فالمسافرون كانوا على ظهر سفينته وكان بوسع « يعقوب » ان يقدم له ولو ممثلين عن الوفد يميزون ادعاء وجود مثل هذا التشكيل ، ولكنه لم يفعل ، واكتفى بادعاء السيد « لاسكاريس » بأن الوفد قائم .. بل لعلها قصة اخترعها « لاسكاريس » أثناء الترجمة ولم يفهمها « يعقوب » ولا أشار اليها .. أما المسافرون فهم من عرفنا نوعيتهم ، وما كانوا يفكرون أبعد من « الاقامة في باريس » ، كما قال الكابتن في تقريره .

وهذا « الوفد المصري » يعرفنا به « كرسوفر هيرولد » بعد أن استقصى امرهم: ٧٦٠ من الأقباط والروم والمماليك الذين فضلوا ان يصبحوهم الى فرنسا « وأما المماليك والأقباط والسوريون الذين تبعوا الفرنسيين الى فرنسا وكانوا صالحين للخدمة العسكرية فتألف منهم سلاح المماليك . وعاش الباقون عيشة الضنك على رواتب ضئيلة « (٤٠) » .

(*) هذه النسبة حتى « لويس عوض » نفسه اضطر الى نفيها فهي اذا كانت محل شك عند الكابتن الانجليزي ، فهي مفضوحة الى حد البشاعة عند القارئ العربي !

(**) له لأ .. حتى يكون للالطة دورها في استقلالنا !

هؤلاء هم طليعة القومية اليعقوبية ولحسن الحظ فهم لا يقتصرون على طائفة واحدة ، بل من اسافل الممالك والاروام ... الخ

وبعد وفاة يعقوب بالحمى ووضع جثته في برميل خمر .. كان على « لاسكاريس » ان يمضي في اللعبة وحده .. وباسم الوفد الوهمي .. فكتب تقارير سلمها للكابتن الانجليزي وهي التي وصفها مؤرخ بريطاني بعد ذلك بقرن وربع قرن .. بأنها اول مشروع لاستقلال مصر !.. فتلقت عبارته البيغاوات ! ولا جدال في صحة ما ذهب اليه المؤرخ « شفيق غربال » - وهو يعطف على يعقوب - عندما قرر أن « مشروع استقلال مصر لا ينتسب الى الجنرال يعقوب بقدر ما هو من نسج خيال الفارس لاسكاريس سكرتيره (!) ومترجمه الغريب الاطوار الخصب الخيال الذي صور تاريخ هذه الفترة تصويره لشخصية دون كيشوته » .. ورغم كل احتجاجات المدرسة اليعقوبية فالرأي الذي وصل اليه « شفيق غربال » هو الرأي الوحيد الممكن ، والذي يصل اليه كل مؤرخ جاد . فلا صيغة المذكورة ولا أفكارها تمت الى « يعقوب » بصلة . والمحادثة التي سجلت مع الكابتن رغم ما يفترض من تلوين المترجم لها ، وإضافاته اليها لا تزيد عن عرض الخدمات والاستعداد للعمل لحساب الانجليز . أما المذكورة ، فلا شخصية يعقوب ولا نشاطه في مصر ، ولا معلومات معاصريه عنه توحى بمثل ما جاء فيها .. بل إن بعض عباراتها واضحة النسبة الى مصدرها مثل قوله :

« ليس هناك ما هو أعجب لها وأكرم من القيام باجراء سياسي بسيط لتبديد ظلمات الجهل والهمجية التي تغشي هذه البلاد الذائعة الصيت ، التي كانت فيما مضى مهداً لنور عقولنا ولعلمونا ولقنوننا . وكانت باختصار مركز الحضارة الأول الذي انتشرت منه الحضارة عن طريق الاغريق حتى بلغتنا . واذا كانت مصر ذات الماضي المزدهر العظيم لا تستطيع ان تحرك في دول أوروبا شعور العرفان يميلها ، فهي تستطيع ان تثير الشفقة فيها » .

واضح ان « لاسكاريس » هو المتكلم وهو المفكر ، فبصرف النظر عن الضمير في هذه الفقرة .. فالمعلم « يعقوب » لم يكن يعرف شيئاً عن عظمة مصر ، بل كان هو ومواطنوه ، المسلمون والأقباط يسمون آثار هذه المدينة العظيمة « المساخيط » ويستخدمون مومياء مشيدي هذه المدينة كسماد فاخر لمحاصيلهم الزراعية يسمونه « الكفرية » نسبة الى الكفرة الذين حرقهم الله فتحولوا الى هذا السماد .. ويسندون أبواب بيوتهم بأحجار تحمل كتابات المساخيط وصورهم .. وأحياناً يبيعونها « لأغبياء كفرة » تدافعوا لشرائها لأكثر من قرن بعد ملاحظة « لاسكاريس » . وكل معلومات المعلم يعقوب عن « الاغريق » - ان كانت لديه - هي ان بلادهم هي مسقط رأس زميله ومنافسه « برطلمين حب الرمان » !

وسنجد في مذكرات « لاسكاريس » هذه ، عرض من الفارس لأن يكون حلقة الوصل بين الانجليز ، وهؤلاء المصريين (القادمين من مصر : الأروام والمهاليك والمصريين) الذين توجهوا الى باريس ، لمراقبة نشاطهم واستغلالهم لمصلحة السياسة البريطانية في الشرق .

والمذكرات تكشف سوء خلق « لاسكاريس » وعدم وفائه وسرعته في نقل ولاءه ، مما يجعله خير رفيق وخير ترجمان عن « يعقوب » .. فيعقوب الذي بكى على « ديسيه » (*) وعرض ان يتبرع بثلاث نفقات اقامة نصب تذكاري له ، وترجى ان يدفنوه معه.. ذلك يوم كانت الراية الفرنسية ترفرف على القاهرة ، والأموال تجمع باسم الجمهورية الفرنسية ! « يعقوب » هذا سرعان ما انهال طعناً وسباً في الفرنسيين مؤكداً احتقار المصريين لهم ! كذلك « لاسكاريس » الذي أنطلق مع قوات نابليون معلناً ايمانه بالثورة الفرنسية رافضاً القتال ضد جيشها مقاتلاً معها .. وأقترح ان يقيم في مصر مدينة باسم « مينو بوليس » تيمناً وتخليداً لاسم القائد العام الفرنسي « جاك مينو » ..

(*) « ديزيه » ..

هو نفسه « لاسكاريس » الذي يبادر فور هزيمة الهنسيين الى الطعن فيهم ،
وشجب تاريخ الحملة الفرنسية كله ، في تقريره المرفوع الى القائد العام البريطاني ..
اكبر قوة كانت تعمل وقتها ضد الثورة الفرنسية !

فهو يبدأ باعلان : « ان مصلحة فرنسا في نجاح المشروع اقل من مصلحة
انجلترا .. ولا سيما اذا تجددت رغبة الجمهورية الفرنسية في امتلاك مصر مرة
اخرى » وهو ما ينبغي الارتياح فيه !

« اما من جهة عواطف المصريين نحو الفرنسيين فهي مباشرة وليدة الطريقة
التي حكمهم بها الفرنسيون أثناء اقامتهم في مصر. ولن اقف عند هذا الموضوع
لأنني اعتقد انكم سوف تتذكرون بسهولة ما دار بيننا من حديث حول هذا
الموضوع وعلى هذا فكل شيء حتى العواطف التي يستشعرها سكان مصر
ولا سيما بعد أن يتاح لهم فهم الانجليز ، كل شيء يثبت ان « مصر المستقلة »
لا يمكن الا ان تكون قوية الميل لانجلترا .

« اعتقد ان المهم اخفاء المفاتحات الأولى معكم أو التي يمكن ان يفسدوها .
ويقدم سفرة خاصة ليراسله بها الانجليز ، ويقترح ان ترسل المكاتبات له
على عنوان : « السنيور الكونت انطوان كاسيس » في « تريستا » .. « وتحت
هذا العنوان يكتب عنوان آخر هو عنواني » ثم يقوم هو بتوصيل هذه
الرسائل الى المصريين : « وبهذه الطريقة يمكن لرسائل الحكومة (البريطانية)
أن تصل الى يدي بسهولة ، ولكن فيما يتصل بهذه النقطة الأخيرة ، ينبغي
ان يحاط الأمر بأكثر درجة من الكتمان والحيلة الممكنة حتى لا تتسرب أية
شكوك للحكومة الفرنسية .

ورغم ان مدرسة « يعقوب » تعتمد في موقفها كله على مشروع
« لاسكاريس » هذا في نظريتها الوهمية عن تأثير الثورة الفرنسية في نشوء
« فكرة القومية » و « الحركة القومية » و « الحكومة المصرية » فإن فارسهم

« لاسكاريس » يورد ملاحظة تنسف كل ادعاءات هذه المدرسة ، ببساطة وبوضوح ، وبفهم رجل معاصر لتلك الفترة . فهذه الحكومة التي يريد لها مصر : « لن يكون انشاءها قط نتيجة لثورة استحدثها نور العقل أو اختار المبادئ الفلسفية المتصارعة . ولكن تغييراً تجريبه قوة قاهره على حياة قوم وادعين وجهلاء ، يكادون الا يعرفوا في الوقت الحاضر الا عاطفتين تحركان الاخلاق : المصلحة والخوف (*) . فقليل من مال يزداد أو شيء من رخاء يضاف الى حياة هؤلاء السكان نتيجة لقيام هذه الحكومة الجديدة ، وهو أمر ليس يصعب التحقيق ، يجعلهم بغير شك المدافعين الغيورين عن هذه الحكومة ويجعلهم يحبونها . »

هذه الأفكار وان كانت نسبتها الى « يعقوب » تثبت فشل معلمه ديزيه في تشريه روح الثورة الفرنسية ، الا انها اكبر من مستواه ، ولا تدور في خلد .. وهي تثبت ان « لاسكاريس » أقدر على فهم طبيعة اللقاء الاوروبي - المصري من المعلقين والمؤرخين الذين يكتبون بعده بمائة وسبعين سنة !

فلا ثورة ولا مبادئ ولا مفاهيم جديدة .. بل تغيير يفرض بقوة الأجنبي ولمصلحة هذا الأجنبي ..

وإذا كان قد كتب علينا ان يكون « لاسكاريس » هو رائد قوميتنا .. فلنلتزم بأفكاره على أقل تقدير !

بقي أن نقول ان تاريخ رسالة « لاسكاريس » التي تضمنت هذا المشروع يقع بعد وفاة يعقوب بشهر ! ..

ونختتم حديث « يعقوب » برأي كل من « جاك تاجر » والدكتور وليم سليمان ، في هذه الفرية التي اخترعها بريطاني ، وروجها « سلامه موسى » في

(*) وما الذي كان يحرك لاسكاريس ، بل وما الذي يحرك الانسان الغربي الى اليوم الا المصلحة والخوف ..!؟

صحيفة « مصر » الطائفية كما وصفها أخلص تلاميذ سلامه موسى .. يقول
جاك تاجر :

« في نظر بعض الكتاب الوطنيين لا تحمل مسألة المعلم يعقوب اية مناقشة ..
انه خائن تعاون مع الفرنسيين وسام في ذل الشعب المصري ، ولم يحاول
الكتاب الاقباط أنفسهم أن يفرقوا بين موقف المعلم يعقوب وبين موقف سائر
الاقباط . وذهب أحدهم الى حد كتمان هذه المسألة مما ضاعف كبر ذنب
الاقباط في عيون الوطنيين(*)» ثم يتقدم « جاك تاجر » بتفسيره لحادثة يعقوب
فيقول :

« اعتمد المؤرخ « جورج داون » على حديث جرى بين القبطان « جوزيف
ادموندس » وبين الجنرال يعقوب وصديقه « لاسكاريس » على ظهر السفينة
« بلاس » وهما في طريقهما الى فرنسا . فأكد ان يعقوب كان يهدف الى تحقيق
استقلال مصر .

واعتمد سلامه موسى على هذه المذكرات ليكتب في جريدة « مصر »
القبطية عدة مقالات يجد فيها اعمال الجنرال يعقوب الذي اعتبره أول من
رفع صوته في مصر وفي أوروبا(**) مطالباً بحرية البلاد واستقلالها .

« على اننا نرى شخصياً (يقول جاك تاجر) ان مختلف النظريات التي قيل
بها حتى الآن نظريات خاطئة ونقول ان الجنرال يعقوب انكر وطنه ان لم
يكن قابلاً فقلباً منذ اللحظة التي كون الفرقة القبطية . وسرى من وجهة
اخرى ان الأمة القبطية استقبلت عمل الجنرال يعقوب بفتور . ولكن هذا
لا يعني ان يعقوب كان خائناً إذ لم يكن وقتئذ جنسية مصرية محدودة . »

(*) يقصد تاريخ مصر القديم والحديث لميخائيل شارويم القايرة ١٨٩٨ .

(**) لم يصل المعلم يعقوب الى أوروبا قط ولكن سلامه موسى كان يعتمد على الكذب
بحرأة نادرة .

الدفع مرفوض طبعاً .. اذ ان الوطنية لا تبدأ بمرسوم الجنسية .. وإذا لم تكن هناك مصر ولا جنسية مصرية ، فمن أي استقلال كان يبحث يعقوب ، ولو أن « جاك تاجر » يرفض هذه الاكذوبة وواضح من كلماته انه يرفض مزاعم « جورج داون » الذي اعتمد على «حديث» كما يرفض مقالات سلامة موسى الذي اعتمد على ما كتبه « جورج داون » لكي ينسب ليعقوب تفكيراً في الاستقلال .. «جاك تاجر» ينفي عن يعقوب كل تفكير من هذا النوع .. وهو يتهمه بانكار وطنه ، ولكن يطلب الرأفة له والبراءة من تهمة الخيانة العظمى .. لأنه لم يكن هناك وطن ولا وطنية وقتها !

على أية حال موقف جاك تاجر أشرف بكثير من مدرسة وتلاميذ سلامة موسى ..

ويفسر لنا « جاك تاجر » اسباب انحراف يعقوب فيقول :

« فإذا أردنا أن نفهم نفسية هذا الرجل ، يجب أن نلقي نظرة عن اعماله قبل الاحتلال الفرنسي . كان يعقوب ذكياً وصحيح البدن (!!) وقد اشتهر بمهارته في ركوب الخيل . كان يشغل ، كسائر ابناء طائفته ، وظيفة المباشر ، ولكنه لم يكن مسالماً مثلهم اذ أنه انضم ، قبل وصول الفرنسيين بزمان طويل ، الى صفوف ابراهيم بك ومراد بك في المعركة الكبرى التي دارت بين جيوش المماليك وجيوش القبطان باشا . وقد شكره البكوان لشجاعته واغدقا عليه النعم . وفي سنة ١٧٩٨ ، أصبح يعقوب وجيهاً وثرياً يحترمه ويعتبره الجميع .

ولما قدمه جرجس الجوهري الى الجنرال « بوسيلج » كتب هذا الأخير إلى بونابرت قائلاً : « يقول الجوهري انك لن تجد انساناً اكثر غيرة منه على مصالحنا وأنه يضع رأسه بين يديك راجياً أن تأمر بقطعها ان بدا من المعلم يعقوب أدنى خيانة » .

« وتشعر هنا ان يعقوب المقاتل اعجب بقوة هؤلاء الجند الشبان الذين

هزموا ممالك مراد بك و ابراهيم بك الذين عرف عنهم انهم لا يكسرون .
ثم ان يعقوب عرف عنه ان اخلاصه لرؤسائه يذهب به احد انكار الذات
وكان المالك هم رؤسائه بالأمس ، أما اليوم فكانت الفرنسيون رؤسائه .
« كان يعتبر نفسه جندياً من جنود بوناپرت وأخذ ينسى شيئاً فشيئاً أصله
المصري القبطي » .

« ولما سافر « ديزيه » إلى فرنسا مع بوناپرت ، استقر يعقوب بالقاهرة
حيث كان يحيط الفرنسيين بمعلومات مفيدة » .

« على ان الأقباط لم يكونوا أول من زود الجيش الفرنسي بالرجال فقد
سبقهم إلى ذلك عمر القلقجي الذي توسط للمغاربة الفحامين وجمع منهم ومن
غيرهم عدة وافرة وعرضهم على ساري عسكر ... » ثم انضم المالك إلى
الفرنسيين بعد المغاربة ، أما الأقباط فكانوا آخر من التحق بالجيش الفرنسي .
وعلى أي حال ، كان مجهودهم محدوداً جداً ، على خلاف المغاربة . فلم
يشاركوا حتى في المعارك التي سبقت تسليم الجيوش الفرنسية ولكن فرقتهم
بقيت معسكرة في القاهرة . وأخذ يفكر افرادها في حلها . والواقع انه
بينما كان يعقوب يستعد للإبحار الى فرنسا ، ركن جنده الى الفرار والاختباء
منه على الرغم من ضغطه عليهم . لا يترك الانسان بلاده باحثاً عن المغامرة
الا بدوافع قوية . وكان الاقباط لم يدركوا السبب الذي جندوا من اجله .
أما يعقوب ، فكان عالماً بما فعل . انه نسى وطنه ووهب نفسه لخدمة رؤسائه
الجدد منذ الأيام السعيدة التي تعاون خلالها مع « ديزيه » . ولكن كيف
يكسب تقديرهم وهو مباشر (صراف) ؟ لذلك انتسب الى الجيش وساعدته
أعمال البطولة التي قام بها على اكتساب عطف الفرنسيين .

« ولكن شاء القدر ان يصاب على السفينة التي كانت تقله الى فرنسا بمرض
مجهول قضى نحبه على أثره . ولم تكن آخر كلماته عن مصر ولا عن أسرته
ولا عن افراد فرقته الذين ساروا في ركابه . وبينما كان يحتضر طلب الى

الجنرال « بليار » الذي كان يجواره ، ان ينعم عليه بدفنه في قبر « ديزيه » نفسه ! ، (٤١) .

واضح ان « جاك تاجر » بجرصه على تأكيد ان « يعقوب » لم يفكر في وطنه وهو محتضر ، انه يريد ان ينفي تماماً الزعم السخيف بأنه كان يفكر في استقلال مصر . كما يكشف عن جانب من وضاعة شخصية يعقوب وانحطاطه الخلقي فمئذ ساعات ليس الا كان في غرفة الكابتن الانجليزي يبيع له الفرنسيين ويعرض خدماته ، فاذا جلس الجنرال الفرنسي الى جانب فراشه بكى من شدة حب « ديزيه » الفرنسي وطلب ان يدفن الى جانبه !!

اما الدكتور « وليم سليمان » فهو يدين يعقوب ويتبرأ منه بل ويعلن ان ادانته هذه هي ذات الموقف الذي اتخذته الكنيسة من يعقوب والذي اثبتته تاريخ الامة القبطية يقول : « وتسجل كتب التاريخ القبطي تبرأ الكنيسة المصرية من الشخص الذي ينحرف عن هذا التقليد العريق (*) . فمثلاً بالنسبة للجنرال يعقوب الذي عاش أيام الحملة الفرنسية . نقرأ في « كتاب تاريخ الامة القبطية » الذي طبعه عام ١٨٩٨ « نخله روفيله » ان يعقوب هذا سار « في خطة تحالف ما كان عليه ابناؤه جنسه .. فإنه فضلاً عن مخالفتهم في الزي والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية . كما ان رجال الدين ولاسيما البطريك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله . وسمعت من بعض شيوخ الاقباط المسنين ان البطريك نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة .. فلم يقبل .. وعاوده النصيحة مرة أخرى ، فجأوبه جواباً عنيفاً فسخط عليه . وسمعت من آخر ان ما كان بينه وبين البطريك من المنازعة والمشاحنة دفعه الى التجرؤ على الدخول في الكنيسة مرة راكباً جواده رافعاً سلاحه » (ص ٢٧٩-٢٩٠) ... « يقف البطريك والكنيسة هذا الموقف من يعقوب في

(*) يقصد ولاء الاقباط لوطنهم مصر .

وقت لم تكن القومية بالمعنى الحديث ظهرت في مصر وفي ظل حكم المماليك ومؤامراتهم المتواصلة للتفرقة بين جماهير الشعب ، تمكينا لسلطانهم ومع وجود الحملة الفرنسية في البلاد التي استمالت الكثيرين ومن بينهم بعض رجال الأزهر . وواضح ان هذا كله لا يمس القيمة التي اثبتها الدارسون لمشروع الاستقلال الذي تبناه يعقوب وصحبه « (٤٢) .

والدكتور « وليم سليمان » ، من أفضل كتابنا الاقباط وأكثرهم دقة وموضوعية وتعبيراً عن التيار الوطني الحقيقي الذي جسده تاريخ الاقباط المصريين . وموقفه عن « يعقوب » هذا (كما عبر ببراعة عن احتقاره بلفظة هذا) هو رأي الجماهير القبطية ، والكنيسة القبطية والشرفاء الاقباط . لا في عهد الحملة الفرنسية فحسب بل على امتداد سنوات الوعي الوطني فهزلة « يعقوب هذا » التي ابتدعتها الانجليز - لاسباب مفهومة - بعد سنة ١٩٢٤ لم تكن لتجد كاتباً مصرياً يقبل بعثها أو الاشادة بـ يعقوب هذا .. اما حكاية « ان هذا كله لا يمس ... الخ » فأعتقد ان د. وليم سليمان قد اضطر اليها تحت ضغط اعتبارات ، منها ظروف الصراع الذي دار حول « يعقوب هذا » .. بين الدكتور « لويس عوض » مكتشفه الجديد ، وبين مؤلف هذا الكتاب . ذلك الصراع المعاصر لتاريخ نشر مقال الدكتور « وليم سليمان » الذي ورد به تعليقه على يعقوب في أحد هوامشه . وكان من المستحيل أن تقف المجلة - التي نشر بها « د. وليم سليمان » مقاله - الى جانب الذين فضحوا دور يعقوب الخزي ، ولو أن مجرد نشر مثل هذا الهامش ، في تلك المجلة ، مجرد نشره يعد نموذجاً للشجاعة الأدبية والامانة العلمية التي يتحلى بها « د. وليم سليمان » . ولا شك انه اذا ما اتبحت له الفرصة لإعادة نشر مقاله في مجلة أخرى ، أو كدراسة مستقلة ، لاشك انه سيحذف هذا السطر الذي ينقض كل ما سبقه من تعليق . اذ كيف لا تمس قيمة مشروع ، اذا ما ثبت ان صاحبه عميل خارج عن ارادة أمته وطائفته ، سلوكه مستنكر من الجميع .. بل ان

الدكتور «وليم سليمان» لم يجد مثلاً على الشذوذ والانحراف عن «التقليد الوطني العريق للاقباط» الا يعقوب هذا.

وإذا كان الدكتور «وليم سليمان» يعد من مفاخر «أمتنا المصرية» وشواهد وطنية الاقباط «انه في شهر سبتمبر ١٦٩٩ تلقى القنصل الفرنسي «دي مايبه» أمراً من ملك فرنسا باختيار ثلاثة من أولاد الاقباط لارسالهم الى فرنسا وتربيتهم هناك على النحو الذي كان يُربى عليه أولاد بعض الامم الشرقية . ولكن عائلة واحدة لم توافق على ذلك مها كان عدد اولادها . . اذا كان ذلك من مفاخر امتنا فلا شك انه يعلم ان التاريخ لا يتكون من الاشادات وحدها بل والادانات ايضاً .. وما دمنا قد أشدنا بهذا الموقف - عن حق - فلكي يكتمل الموقف التاريخي ، لا بد من أن ندين ذلك الذي أفلحت جهوده في «تفسير» عدد من اولاد الاقباط وأولاد المسلمين الى فرنسا ..

على أية حال ان موقف «وليم سليمان» من «يعقوب هذا» واضح .. اما هذا التعليق الذي وضعه مكرها ، فيثبت أي عنت يلقاه الكاتب اذا ما حاول ان يقول الحق كل الحق فيما يتعلق بتاريخنا ...

الجبرتي ونخبة عصره

الجبرتي هو شيخنا العبقرى ابن عصره.. هو ثمرة الفكر الاسلامى، والحضارة الاسلامية، فى أحلك عصور تخلفهما.. ولكن مع ميزة يتفوق بها على مثقفينا اليوم، هى انه كان ابن هذه الحضارة وثمره هذا الفكر، قبل ان يتسلل الغزو الفكرى الى العقل العربى.. قبل ان تتم خطوات التغريب التى تمت.. فهو يحتفظ بنقاء الجوهر وان كان الشكل قد أصابه ما يصيب كل الظواهر فى مرحلة الانحطاط والجمود والتخلف.. بل وما أصاب - بالضرورة - صفاء الجوهر ووضوحه، وقدراته، لكنه لم يكن قد تم تشويهه أو تزيفه بفعل التغريب الذى تم خلال المائة وسبعين عاماً الماضية.

هو الجبرتي.. الأزهرى(*).. اسلامى، ينتسب لحضارته الاسلامية، ويعتز ويفخر بها، مؤمن بتفوقها فى الجوهر والقيم ويمجدها ويقدرتها على التفوق فى الشكل والتطبيق لو وجدت العاملين لها.

عربى يصف نفسه بأنه من ابناء العرب، وعندما يثنى على مملوك يصفه

(*) كما عبره سلامه موسى.. وعبر بذلك عن الحق الساذج الذى تكنه له مدرسة التغريب.. ولكن «لويس عوض» أذكى فهو يبالح فى الثناء على الجبرتي، لتشويه سمعته!

بأن من يراه يظن انه من اولاد العرب .

مصري محب لمصر.. موله في حبها ككل المصريين رغم انه حبشي الجد ،
يعتبرها عن قناعة وحب « الاقليم الحسن الأحسن » الذي تفاخر « بملكها
الملك » . « ولما صرت في سن التمييز(*) كانت مصر اذ ذاك محاسنها باهرة
وفضائلها ظاهرة ولأعدادها قاهرة . يعيش رغدا بها الفقير وتتسع للجليل
والحقير . وكان لأهل مصر سنن وطرائق في مكارم الأخلاق لا توجد في
غيرها » (٤٣) .

عدو للاستعمار الغربي ، واع بالواجهة الحضارية ، رافض للاحتلال
الفرنسي ، مؤمن بإمكانية البعث الاسلامي .. بكل قلبه مع المجاهدين المقاتلين
ضد الغزاة الغربيين .

على وعي تام بنقائص وخطايا بل وجرائم الحكم المملوكي والسلطة في
الدولة العثمانية .. لم يعجبه في بيان نابليون الا عبارة واحدة هي وصفه للدولة
العثمانية بأنها « المفعمة جهالة » !.. وما من وثيقة معاصرة « للجبرتي » حافلة
بنقد الدولة العثمانية مثل كتابه الذي يعد المرجع العربي الأساسي لهذه الفترة .
ولكنه لم يضع نفسه أبداً في موضع الإختيار التمس الذي تحاول المدرسة
الاستعمارية أن تضعه فيه ، الا وهو الإختيار بين قبول التخلف والظلم التركي ،
أو إختيار « التقدم » في ظل الاستعمار الغربي .

ابدا .. لم يكن هذا هو قدر أمتنا ، ولا الإختيار الوحيد المتاح لها ..
بل كانت لدى النخبة دائماً ، الآمال وكان لأمتنا الفرصة ، لتحقيق احتمال
ثالث .. هو بناء تقدمنا الوطني .

كان « الجبرتي » واعياً بأن الطريق الثالث يقضي على التخلف ويحمي من
الغزو الغربي .. ولكنه يتطلب كقطة بدء .. صد الغزو الغربي ، منع

(*) ولد الجبر في سنة ١١٦٧ هـ ١٧٥٣ م - ٢٥٤ .

الاستعمار الغربي من الاستقرار فوق أرضنا .. وأن حریتنا فوق أرضنا هي السبیل الوحيد لعلاج مشاكل تخلفنا .. واننا اذا فقدنا هذه الحرية .. اذا سقطنا في قبضة المحتل ، فسنفقد حرية الاختيار .. ونفقد بالتالي فرصة بناء تقدمنا الوطني .

والمدرسة الاستعمارية عندما تشوه موقف « الجبرتي » ، بل وعندما تشوه موقف المثقفين العرب من عهد ابي العلاء المعري الى الجبرتي .. فهي انما تهدف في الحقيقة الى الايحاء بموقف مستقبلي ، وليس الدفاع عن موقف تاريخي .

فعندما تقول هذه المدرسة .. ان المثقفين العرب يمثلهم « ابو العلاء المعري » قد اختاروا العيش تحت حماية الحكم البيزنطي الذي كان يهدر استقلالهم القومي والديني ، ولكنه يمنحهم حرية الفكر ! .. بينما رفضت هذه النخبة الاستبداد المصري الفاطمي .. الذي كان يحمي دينها وقوميتها ولكنه يضيق على حریتها الفكرية (*). .. وعندما تلح مرة اخرى على هذه الفكرة فتزعم ان النخبة المصرية في عصر الحملة الفرنسية ، وعلى رأسها « الجبرتي » ، انتابتهم الحيرة ، أو حتى رجحوا الحكم الفرنسي في كثير من الاحيان . فإن هذه المدرسة في الحقيقة تريد بتدريسنا عبرة التاريخ ، أن تلقننا كيف يجب أن يكون سلوك النخبة المعاصرة .. بزعم أن نفس لعنة الاختيار التعس ما زالت تواجهنا .. فلنفهم جيدا ان ما سيقال عن موقف « جبرتي » القرن التاسع عشر ، انما هو موجه « للجبرتيين » في النصف الثاني من القرن العشرين ! ..

والصورة التي يرسمها لويس عوض للجبرتي هي :

« اما تنديده بعصر الترك والماليك فتفيض به كل صفحة من صفحات

(*) راجع « على هامش رسالة الغفران » لـ لويس عوض . الذي نشر عام ١٩٦٦ .

تاريخه « عجائب الآثار » . وأما رأيه في الحكم الفرنسي وفي الحضارة الفرنسية ، فقد اختلط فيه السلب والايجاب بسبب موضوعيته واستقلاله في الرأي عن عواطف الفوغاء وعن ترهيب الحكام وترغيبهم .. حتى وصفه الفرنسيون بأنه شيخ متعصب ووصفه أبناء جنسه بأنه نصير الفرنسيين . واما موقفه من محمد علي باشا فقد كان واضحاً وقاطعاً . كان يعتقد ويجاهر بالقول والقلم منذ ولاية محمد علي ١٨٠٥ حتى وفاته هو في ١٨٢٥ ان محمد علي مجرد مغتصب لحكم مصر من امراءها الشرعيين وهم المماليك المصرية . وان عهده رغم كل ما كان فيه من انشاءات واصلاحات كان عهداً يقوم على الظلم والجور .

والعبارة التي صيغت بدقة ومهارة تهدف الى القول أو تهدف الى افهام قارئها ، ان موقف الجبرتي يتسم بالوضوح الشديد ازاء عصرين :

١ - عصر الاتراك والمماليك .

٢ - حكم محمد علي .

الأول التنديد به تقيض به كل صفحة من صفحات تاريخه ، والثاني كان رفضه له واضحاً وقاطعاً ..

يبقى الثالث .. وهو مربوط الفرس ، وهو موقف الجبرتي ، أو النخبة المثقفة التي يمثلها ، من الاحتلال الفرنسي .. هنا لا نجد الوضوح ولا الرفض القاطع ، بل سرعان ما نكتشف أن الاصرار على وضوح موقف الجبرتي من عصري المماليك ومحمد علي ، إنما قصد به تشويه موقفه من الاحتلال الفرنسي ! .. فهو موقف غير واضح ، موقف يختلط فيه السلب والايجاب .. وذلك لأنه مستقل في رأيه عن « عواطف الفوغاء » !

ومعروف ان « الفوغاء » كانوا ضد الحكم الفرنسي .. بل في رأي المدرسة الاستعمارية ، ان كل معارضة لحكم الاستعمار هي غوغائية !

من كل هذا يجب أن يكون موقف الجبرتي ، غير واضح ، وغير قاطع ، بل متأرجح بين السلب والايجاب !

فهل حقاً كان ذلك هو موقف الجبرتي؟! .. هل كان حقاً متحرراً من مشاعر النوغاء ، المقصود بها هنا ، رفض الحكم الفرنسي ، والثورة عليه؟!!

ما هو موقف الجبرتي من الغزو الفرنسي ، ومن الوجود الفرنسي على أرضنا .

لعل خير ما يدلنا على هذا الموقف هو المقدمة التي كتبها للجزء الثالث ولاحظ انه كتبها سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) أي بعد أربع سنوات من زوال الاحتلال الفرنسي ، وبعد أن خمدت تماماً « مشاعر النوغاء » وبردت العواطف - ان كانت الوطنية انفعالاً - .. وبعد أن جاء العثمانيون ، وأنسى سلوكهم كل ما سبقه من جرائم .. الا انه في قضايا الوجود لا يتأثر موقف الشرفاء بالجزئيات ، وأبشع حكم محلي أشرف وأحسن من أفضل حكم أجنبي استعماري . وهذه قاعدة عامة صالحة لكل زمان ومكان ..

لذلك يؤرخ الجبرتي سنة (١٢١٣ - ١٧٩٨) قائلاً : « هي أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع . وتتابع الأهوال واختلاف الاحوال . وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الاسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (٤٤) » .

ولا شك ان تتبع تاريخ الحملة الفرنسية في مصر وما انزلته من تنكيل وإبادة وحرق واعتصار حتى الموت لموارد البلاد ، يؤكد ان « الجبرتي » لم تجرّفه البلاغة حين لخص هذا التاريخ في « الشرور والمحن والاهوال والتدمير والخراب » .

إما عن « اختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع » .. فهذه هي الحقيقة التي أفاق عليها الشرق الاسلامي بعد غيبوبة طال أكثر من ستة قرون منذ أن طرد آخر الفرنجة من ساحل الشام ، ومنذ أن اسر ملك الفرنجة في احدى القرى المصرية . ثم جاء الاعصار التركي يحتاج أوروبا ، ويحجر القسطنطينية ، ويدق أسوار فينا .. ونام الشرق على ان « المطبوع والموضوع » هو تفوق الشرق الاسلامي على الغرب المسيحي ، ورغم كل النذر التي كانت تشير الى ان « الموضوع » يتعرض لتغيير عنيف ، وان « المطبوع » قد انقلبت طبيعته ، وان الغرب « المهزوم » تطور الى خطر جارف على الشرق المنتشي بسلافة اجداده ، النائم على هذه الأجداد .. رغم كل النذر التي حملتها سفن الفرنجة ، فقد كان عطر الماضي نفاذاً قوياً أدار الرؤوس الى الحد الذي استحال عليها أن تبصر ما يطرق حواسها الخمس . بل وأن تفهم أو تفسر هذا الذي تلمسه وتراه يخترق الجسد ويقطع منه وكان الجسد قد فقد القدرة على الحس كما فقد القدرة على المقاومة .

فلما جاءت الحملة الفرنسية تضرب العالم الاسلامي في قلبه العربي ، وتختار من القلب العربي .. كنانة الله ومركز الثقل فيه . كان الانتباه المفاجيء العنيف الى ان « المطبوع » قد انعكس و « الموضوع » قد انقلب ..

اختلت قوانين الكون .. وانهارت صورة العالم المفترض .. ولكن الجبرتي لا يفسر ذلك الانقلاب - كما تزعم المدرسة الاستعمارية - بالكفر بالقيم الاسلامية أو التنكر لحضارتنا .. بل يفسره التفسير الحضاري السليم : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وهذه الآية التي يقتبسها الشيخ عبد الرحمن الجبرتي هي والآيات اللاتي تسبقها وتلوها تشكل قانوناً لتفسير التطور الحضاري ، وعوامل انهيار الأمم ، قانوناً لا ترقى اليه التفسيرات المطروحة كلها .. وتجعل الجبرتي على وعي بحركة التاريخ وبنأى عن صورة الأبله الفاعرفاه امام الأحداث كما تصوره

المدرسة الاستعمارية ، أو بالأحرى كما تصور الشيخ الأزهري في مواجهة
الحملة الفرنسية ..

ابدا الشيخ يعرف :

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض
الا قليلاً من انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما
كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وما كان الجبرتي بالذي تنطلي عليه خرافة وحدة الحضارة فدينه يعلمه
« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولا يزالون مختلفين » .

بل ها هو الجبرتي يحلل في مظهر التقديس - الذي كبه اثناء الاحتلال -
اسباب الهزيمة فيقول :

« وان من اعظم الدلائل على ما رميت به مصر ، وحل به لأهلها تنوع
البؤس والإصر بحلول كفره الفرنسيين .. ووقوع هذا العذاب البئيس .
حصول الكسوف الكلتّي في شهر ذي الحجة بطالع مشرق الجوزاء المنسوب
اليه اقليم مصر . وقد كان هؤلاء الاقوام وامثالهم ممن لهم في الخروج مشارك ولروم
الافساد متربص متدارك ، كل يريد الحلول بأرضها . والتفيؤ بظلال خصبها وروضها .
فيرجع بخفي حنين . وتنقلب أمنيته منية وحين . ولم تزل منذ وضع أساسها
وأضاء في ديجور الاقطار نبراسها . محمية عن تطرق أيدي المفسدين . مصانة
عن أن يطرق حماها عصابة المعتدين . لا يطمع خارجي في الحلول بساحتها .
ولا تحدّثه نفسه بالتغلب على رياستها . رهبة من سطوة حماها . وأسود
غيضانها . الذين كانوا من قديم الزمان كالشجى في حلق العدو . والحسام
المجرد في وجوههم بحيث سلبهم الراحة والهدوء لا يتوجهون لجيش الا
هزموه . ولا يحاربهم متغلب الاغلبوه . هؤلاء التتار قد استولوا على كل
أرض . واتزلوا دولة كل ملك من شامخ الى خفض . كثيراً ما قهرتهم جند

القاهرة . وباءوا عند توجيههم اليها بصفة خاسرة . بحيث لم تقم لهم بعد تلك الهزيمة دولة ، ولا تحقق منهم بعد تلك الغلبة صولة . وذلك وقت ان كان الناس ناس والزمان زمان وجند أهل هذا القطر متيقظين لسداد الثغور بأبطال الرجال وعقبان الفرسان . وان الدولة العثمانية ابقاها الله وأشادها . ووضع على اساس العظمة والعز عمادها . كانت وسدت أمور مصر لمن بها من الحكام . اعتماداً على شهرة شجاعتهم وحاستهم السائرة بين الخاص والعام . وتلك الحكام أيضاً اعتمدوا على سابق الشهرة . وركنوا الى الدهر ولم يأمنوا غدره . فخرّبوا الثغور وأشادوا القصور واستبدلوا ابطال الرجال بربات الحدور .. »

« ولما لم يقتفوا آثار من مضى من الدول . واضاعوا ما تعب في تأسيس قواعده الأول . تطرق الخلل لهذا القطر العظيم من كل جهة وأضحت وجوه محاسنه بما ابتدعوه مشوهة . »

« فلما دهمت الفرنسيين ثغرها الخالي ووقفت منه على طلل بالي . سهل عليهم الحال فافتحموه ودخلوا من باب الاقليم بدون أن يفتحوه وتقاعدت المسامر المصرية عن التسارع لاستنقاذ الثغر فعظم البلا . وأخذ العدو يطوي بساط الأرض حتى اذا التقى الجمعان لم يسع القوم الا الفرار في الفلا .. فيالله من خطب فظيع وحادث جلل شنيع اغمقت به محاسن مصر الفريدة وتخلخلت قواعده مملكتها العتيبة ، فأصبحت مقهورة بعد أن كانت هي القاهرة . »

« ولقد كادت نعم الرزية ، وتصير القضية أندلسية ، لولا عناية من ايده الله بالنصر والتمكين .. وهو الملك الاعظم والسلطان الأفخم غياث المسلمين ملاذ المؤمنين . رقاب الأمم . ملجأ العرب والعجم !! »

ولقد عكس الجبرتي الاحساس العام الذي ساد الأمة مع النبأ الأول الذي أعلن وصول الأساطيل .. الا وهو بعث ذكريات المواجهة التاريخية بين

الشرق والصليبيين لذلك نراه في الصفحات الأولى يتحدث عن « الفرنج »
وستطور ملاحظاته بعد ذلك فيصبح الفرنسيون فرنسيين .. والانجليز
انجليزاً .. ولكن في الصدمة الأولى .. كان الاحساس العام او النذير هو :
جاء الفرنجة !

ومصر طوال سنوات الحملة الفرنسية، كانت في نظر الجبرتي « في الأسر » ..
فذلك هو اللفظ الذي عبر به عن وضع مصر وشعبها ... ولم يتغير هذا
الموقف بعد تجربة الحكم الفرنسي ، بالعكس كانت الفرحة بالجلاء والحمد لله
والته بزوال حكم الفرنسيين(*) ولكن « لويس عوض » يزعم أن الرأي الذي
يستخلص من تاريخ الجبرتي هو :

« ١ - ان الحكم الفرنسي رغم شروره الكثيرة وضرورة رفضه كان في
كثير من وجوهه أفضل للمصريين من الحكم المملوكي ومن الارهاب التركي (**). »

« ٢ - انه بوجه عام كان يبغض الثورات التي تحكها الفوغاء المهيجون
المحترفون ويشيع فيها اعمال العنف وسفك الدماء والسلب والنهب حتي ولو
كانت باسم الوطنية أو الجهاد الديني .

« ٣ - انه كما كان يقظاً الى أعمال الارهاب والاستغلال التي قام بها

(*) وفي مقدمة كتابه « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين » الذي الفه بالاشتراك مع
الشيخ حسن العطار يقول: حتماً لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا . وجعل
الدولة العثمانية ، والملكية الخاقانية ، بهجة الدين والدنيا ، وصلاة وسلاماً على من نصر بالرب
والصبا ، وأشاد هذا الدين القويم بشبا السميرية والظبا ، وعلى آله وأصحابه الداحضين لشركة
كل قانع متمرد ، الفائزين ببذل نفيس نفوسهم بكل نصر بديع متجدد .

(**) في الطبعة السابقة كان نص العبارة « ومن الارهاب العربي » (٤٥) ولكن في الطبعة
الصادرة عن دار الهلال جرى تنقيحها على ما يبدو فتحول الارهاب « العربي » الى ارهاب
« تركي » (٤٦) . والطبعة الأولى هي الأصح لأن السطور التي تتلوها كلها تتحدث عن ارهاب
(البدو) .. وتنكيلهم بالفلاحين المصريين ولكن وقع التغيير في الطبعة الثانية لمجاملة القراء ! ..
وهذا يعطينا فكرة عن مدى احترام هذا الكاتب للحقائق ولآرائه !

الفرنسيون كان أيضاً يقطاً الى اجتهادهم في اقامة العدالة تشريعاً وتنفيذاً بطريقتهم لم يألفها المجتمع المصري في عهد المماليك . ولعل هذا الجانب في الجبرتي من أوضح جوانبه .

٤ - من صفحات الجبرتي نستطيع ان نستخلص موقف الرأي العام أو شرائح كبيرة منه في نظام الحكم الذي اقامه الفرنسيون . ولا سيما التنظيمات السياسية والإدارية والقضائية .

٥ - من صفحات الجبرتي نستطيع ان نستخلص ما استحدثه الفرنسيون في نظام الحكم بمصر مدى السلطة التي كان يتمتع بها الوزراء والحكام المصريون وما هو صوري منها ، وما هو حقيقي ومدى مسئوليات السلطات العسكرية الفرنسية أمام المجالس النيابية المصرية التي انشأوها ، (٤٧) .

ويعقب هذا العرض ملحوظة أخرى تقرر عاملاً من عوامل تفكير الجبرتي ، وبالتالي «موقف الرأي العام او شرائح كبيرة منه» .. وهو موقف الجبرتي .. وبالتالي .. الخ .. من المفاضلة بين الطبقات الحاكمة .. وبالطبع يفوز الفرنسيون بالافضلية عند « الجبرتي » والرأي العام .. الخ ..

« فهو يذكر (أي الجبرتي) ان الكشاف او السناجق أي حكام الاقاليم كانوا أشد ظمناً من سادتهم الجدد » .

ويقول ان الجبرتي شاهد حضارة الغرب والفلسفات السياسية والاجتماعية التي كانت تتصارع في عصره شاهدها : « معلنه في بيانات الحملة الفرنسية او مطبقة في التنظيمات السياسية والاجتماعية التي استحدثتها هذه الحملة » .

وينسب اليه أنه وقف موقف « الوزير المسئول لأنه اشترك في عضوية الديوان الذي انشأه عبد الله منو » .

ولا شك ان هذه « الوزارة » تهمة ينفبها الجبرتي ، ووزر لا يدعيه ، فالمرء يكون وزيراً اذا ما سموه كذلك ، او اذا ما تصرف كوزير او عومل

كوزير .. وما من شيء من ذلك قد وقع « للجبرتي » ، بل ان تاريخه الذي يعترف الجميع بأنه المصدر الوحيد لمعرفة تقدير النخبة المصرية للديوان ، قد عكس - كما رأينا - صورة أبعد ما تكون عن الوزارة ، وتضمن أعضاءه من أي شبهة مسئولية . وليس في تاريخ الجبرتي كله ملاحظة واحدة عن رأي قاله الجبرتي في اجتماع للديوان ، او موقف ، فضلاً عن قرار أصدره كوزير !! بل ان الطريقة التي كتب بها عن الديوان ، وأرخ فيها عضويته للديوان تركت المؤرخين حائرين فترة طويلة حول خلو تاريخ الجبرتي من أية اشارة الى تعيينه في الديوان ، بينما المصادر الفرنسية تشير الى ذلك ! الى ان اكتشف الأسلوب الغريب الذي سجل به الجبرتي عضويته للديوان .. إذ انه عدد اسماء المشايخ اعضاء الديوان ووصل الى الشيخ مصطفى الصاوي فأضاف بعده « وكتبه » . وفهمت طويلاً على انه يقصد كاتب الشيخ مصطفى الصاوي الى ان اكتشف بعد ذلك انه يقصد نفسه ، أي كاتب هذا التاريخ .. هل كان « الجبرتي » يملك أن يعبر بأبلغ من هذه الصورة عن تقديره لهذا المنصب الوهمي !

على أية حال أنت « الجبرتي » لم يترك فرصة لسوء فهم نظرة المصريين للسلطة الاسلامية (اسما بالطبع فلم تكن اسلامية السلوك) كما ان البديل كما قلنا لم يكن عودة السلطة العثمانية التي - كما بينا - لم تكن موجودة بأي حال قبل الحملة الفرنسية ، ولم يكن هناك من يعتقد بإمكانية عودتها لحكم مصر حكماً فعلياً . بل كان الاحتمال الوارد هو عودة المماليك مع نمو الوجود المدني المصري الى جانبهم .

الجبرتي لم يترك مجالاً للشك في طبيعة اختيار المصريين - لو فرض - بين استمرار السلطة الفرنسية ، او عودة السلطة الاسلامية سواء أكانت ممثلة في المماليك او حتى في شكل فتح عثماني جديد ..
موقف الجبرتي هو :

١ - الاحتلال الفرنسي هو كسوف قومي وحضاري لمصر « فمن اعظم ذلك حصول الخسوف الكلي في منتصف شهر ذي الحجة ختام سنة اثنتي

عشرة (١٢١٢ - ١٧٩٨) بطالع الجوزاء المنسوب اليه اقليم مصر وحضر
طاقفة الفرنسيس أثر ذلك في أوائل السنة التالية ، (*) .

فالاحتلال الفرنسي كان يمثل خسوفاً كلياً لهذا الجانب من الكون المنسوب
اليه اقليم مصر ..

ومن الطبيعي ان يكون المصريون وفي مقدمتهم الجبرتي ضد الاحتلال
الفرنسي ، يتعجلون زواله بين لحظة وأخرى ، ولا يرضون بأي تضحية في
سبيل التعجيل بهذا الزوال . لتعود شمسهم الى الاشرار ..

٢ - وهم يعرفون سيئات الحكم العثماني ولا يتوقعون منه إلا كل شر
ومفاسد ومظالم . الجبرتي يسجل في وفيات (١١٦٨ - ١٧٥٤) أي قبل
الحملة بنصف قرن تقريباً . يسجل وفاة : « آخر سلاطين بني عثمان في حسن
السيرة والشهامة والحرمة واستقامة الاحوال والمآثر الحسنة » (٤٩) .

من نصف قرن مات آخر السلاطين في حسن السيرة والشهامة .. الخ ..
وعندما أرسل الديوان رسولاً الى الاستانة او اسطمبول يطلب النجدة لمواجهة
الغزو الفرنسي .. « اتريق » (سخر) الجبرتي بأنهم بعثوه يأتي بالترياق من
العراق .. وعندما أصدر نابليون بياناته لم يعجب الجبرتي منها إلا قوله عن
الدولة العلية « المقعمة جهالة » !.

والمصريون هم الذين هتفوا « يا رب يا متجلي .. إهلك العثمالي » .. لكن
هذا الوعي .. لا يفسد عليهم الرؤيا السليمة .. بل ان المصريين لا يترددون
في قبول هذا الثمن الفادح .. أعني دخول عسكر العثمالي مصر ، اذا كان
ذلك هو ثمن تحقيق جلاء الفرنسيين .. لأنهم يدركون ان استمرار الاحتلال
الفرنسي يعني زوال الوجود القومي .. بينما حتى عودة العثمانيين تعني استمرار
الوجود « التمس » ولكن مع إمكانية تغييره في نفس الوقت .

(*) المجرية .

هذه القضية ما زالت غير واضحة في حوار العرب المعاصرين .. أيهما أفضل ان نبقى عرباً متخلفين .. أم نزول كعرب مقابل تحقيق بعض مظاهر التقدم والأمن تحت حكم عصري أجنبي؟!!

لكن يجب ان نفهم معنى « العثماني » .. انها لم تكن اكثر من تطلع الى قوة عسكرية تزيح الفرنسيين ، ولكن ما من أحد في مصر ، كان على استعداد لقبول ، فضلاً عن ان يتطلع الى « حكم عثماني » فهذه قضية كان المصريون قد حددوا موقفهم منها منذ زمن بعيد .. بل وحسمها التاريخ ، منذ ان حالت حروب الدولة ضد روسيا ، وتحلفها الداخلي ، دون نجاحها في فرض سلطتها على الأطراف النائية .. وخاصة مصر .. « فعودة العثماني » كانت ترمز الى جلاء الفرنسيين .. ومن هنا كانت أمي صادقة الحس واعية بالمغزى التاريخي لهذا الحدث ، عندما عبرت عن فرحتها :

« فلما كان بعد العشاء دخل ذلك الأغا مصر في موكب فحصل للناس ضجة عظيمة وازدحوا على مشاهدتهم له والفرجة عليه . وارتفعت أصواتهم وعلا ضجيجهم وركبوا على مصاطب الدكاكين والسقائف وانطلقت النساء بالزغاريت من الطيقان . واختلفت آراؤهم في ذلك القادم ولم يعلموا ما هو . فدخل من باب النصر وشق القاهرة ولم يزل سائراً حتى وصل الى بيت حسن أغا بسويقة اللالا فنزل هناك . فلما استقر به الجلوس . ازدحم الناس والاعيان للسلام عليه ولمشاهدته بالمشاعل والفوانيس . فلما كان صبح تلك الليلة عمل ديواناً وجمع العلماء والوجاقلية واعيان الناس وكبار النصارى من الاقباط والشوام فلما تكاملوا أبرز لهم فرماناً من الوزير فقريء عليهم بالجلس فدلّ مضمونه على انه اغات الجمارك أي المكوس بمصر وبولاق ومصر القديمة . وفيه التحكير على جميع الواردات من أصناف الاقوات فيشترها بالثمن الذي يسعره هو بمعرفة المحتسب ويودعه في المخازن وأبرز فرماناً آخر فقريء بالجلس مضمونه ان الوزير أقام مصطفى باشا الذي كان أسر بأبي قير وكيلاً عنه

وقائقام بمصر الى حين حضوره . وان السيد احمد المحروقي كبير التجار ملازم ومقيد بتحصيل الثلاثة آلاف كيس المينة لترحيل الفرنساوية وانقض المجلس على ذلك وأخذ السيد احمد المحروقي في تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الاسواق والحرف وشرعوا في تحكير الاقوات فغلت أسعارها وضاعت مؤن الناس ودهى الناس من أول احكامهم بهاتين الداهيتين . وكان أول قادم منهم امير المكوسات ومحكر الاقوات وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم . واجتهد السيد احمد المحروقي في توزيع ذلك وجمعه في ايام قليلة فكان كل من توجه عليه مقدار من ذلك اجتهد في تحصيله وأخرجه عن طيب قلب وانشراح خاطر وبادر بالدفع من غير تأخير لعله ان ذلك لترحيل الفرنساوية ويقول سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس وسممهم وهم يحقدون ذلك عليهم « (٥٠) » .

لا نظن ان الجبرتي قد ترك عذراً لمن يسيء الفهم :

١ - ظهور الاغيا التركي في شوارع القاهرة اثار موجة عارمة من الفرح وأطلق زغاريد النساء .. لأن مفهوم هذا الحضور هو زوال الفرنسيين .

٢ - الدولة العثمانية تستفتح وجودها بطلب المال .. وأول « قادم منهم امير المكوسات » هذه هي الدولة العثمانية ، ومع ذلك فالمصريون الذين اشتهروا بأنهم لا يدفعون إلا بعد الضرب والتفتيش . سددوا هذا المطلوب خلال ايام .. بل وكانوا يدفعون - ربما لأول وآخر مرة في تاريخ المصريين - « بسرور وطيب نفس » !.. لماذا؟ .. ليس حياً في الدولة العثمانية ولا استجابة للحق الإلهي .. « بل لعلمهم ان ذلك لترحيل الفرنساوية » .. ومن هنا فهي : « سنة مباركة ويوم سعيد » ..

فرحيل الفرنساوية هو المقصود.. وفي سبيله كل شيء يهون. حتى مظاهرات الأطفال التي يقودها فقهاء المكاتب كانت تحرص عندما تهتف : « الله ينصر

السلطان» .. ان تشفع ذلك بمصرع آخر: «وهلك فرط الرمان» رمز الاحتلال. والجبرتي ينتقد هذه الانفعالية في سلوك المصريين باعتبار ما أعقبته من نتائج. إذ لم يتم جلاء الفرنسيين - كما هو معروف بسبب نقض الانجليز لاتفاقية العريش - فلم تثمر هذه الشهادة المملنة ، إلا «الحقد والعداوة التي تأسست في قلوب الفرنسيين وأوجبت ما حصل بعد ذلك من وقوع العذاب البئيس» .. ورأيه «وقد قيل قاتل يحد وإلا فدمع» .. وقال الشعبي من جملة كلامه .. وصادفنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء ، (٥١) .

وموقف الجبرتي هنا شبيه بالتعليقات التي انطلقت بعد هزيمة ١٩٦٧ تستنكر سلوكنا الاعلامي قبل الهزيمة .

بل هو موقف كل المنتقدين لأسلوبنا في العمل .. فهم يأخذون علينا عدم الجدية ، وأن صياحنا أعلى باستمرار من افعالنا . وإن عداوتنا المملنة اكبر من قدرتنا على تحويلها الى رد فعل .. واننا أعجل الأمم الى الفتنة وأعجزها عنها ..

ولناخذ مثالا نتفهم به وجهة نظر الجبرتي والمصريين في عودة العمالي .. لنرى كذب الادعاء بأن الرأي العام كان منقسماً بين عملاء تركيا وعملاء فرنسا ! .. فهنا تكن الاخطاء الحقيقية او المفترضة للحكم المصري والأردني في غزة والضفة الغربية ، فلا شك في الفرحة الحقيقية التي اجتاحت القطاع في عام ١٩٥٧ عند عودة الراية المصرية ، وظهور الموظفين المدنيين .. حتى ولو كان أول قادم منهم هو امير المكوسات ، ولا شك في انها ستكون فرحة حقيقية وصادقة اذا ما عادت الراية المصرية الى غزة من جديد ، وظهر جنود البادية في نابلس والقدس .. فرغم كل ما تعنيه كلمة «جنود البادية» للفلسطيني .. إلا انه يدرك تماماً أن عودتهم تعني استمراره عربياً ، بصرف النظر عن كل القضايا الأخرى ، بينما استمرار الاحتلال الاسرائيلي يعني زوال الأرض والوطن والكيان والقومية والحضارة والتاريخ والمستقبل وفناء الانسان العربي ذاته .. فهل يمكن أن يأتي مؤرخ بعد مائة عام ويقول ان

الفرحين بعودة الوجود العربي الى القطاع والضفة ، كانوا عملاء الاستعمار العربي؟!

وهل يحترم التاريخ مؤرخاً يأتي بعد مائة وسبعين عاماً فيقطع من تاريخنا المعاصر خبراً من صحيفة عن فرار عدد من الفدائيين من الاردن ولجوئهم الى اسرائيل ليبنى على ذلك نظرية تزعم وجود تيار او رأي عام بين المثقفين الفدائيين كان يفضل الحكم الاسرائيلي على الحكم العربي !!

أما رأي الجبرتي والمصريين في الطبقات الحاكمة فإن أصل العبارة التي استنتج منها «لويس عوض» ، او أرادنا ان نفهم منها ، ان الجبرتي والمصريين كانوا يفضلون الفرنسيين هي :

« ورجعوا اليهم يجمع من عسكرهم (أي الفرنسيين) ومعهم الآلات من المدافع فاحتاطوا بالبلدة وضربوا عليهم مدفعاً ارتجوا له ، ثم هجموا عليهم ودخلوا اليهم وبأيديهم السيوف المسلوطة يقدمهم طلبهم . وطلبوا خدمة الضريح الذين يقال لهم اولاد الخادم وهم ملتزموا بالبلدة وأكابرها .. ومتهمون بكثرة الاموال من قديم الزمان . وكانوا قبل ذلك بنحو ثلاثة أشهر قبضوا عليهم باغراء القبط وأخذوا منهم خمسة عشر الف ريال فرانسه . بحجة مسالمتهم للعرب فلما وصلوا الى دورهم طلبوهم فلم يمكنهم التقيب خوفاً على نهب الدور وغير ذلك فظهروا لهم فأخذوهم الى خارج البلد وقيدوهم وأقاموا نحو خمسة أيام خارجها يأخذون في كل يوم ستائة ريال سوى الاغنام والكلف . ثم ارتحلوا وأخذوا المذكورين صحبتهم الى منوف وحبسوهم أياماً ثم نقلوهم الى الجيزة ايام الحرابة في مصر . فلما انقضت تلك الايام وسرحوا في البلاد نزلت طائفة الى طننتاء وهم بصحبتهم وقرروا عليهم أحدا وخمسين الفريال فرانسه وعلى أهل البلدة كذلك بل أزيد وأقاموا حول البلد محافظين عليهم وأطلقوا بعضهم وحجزوا المسمى بمصطفى الخادم وطالبوه بالمسال وفي كل وقت ينوعون عليه العقاب (الحديث لا يزال عن الفرنسيين) والعذاب والضرب حتى على كفوف يديه ورجليه ويربطونه في الشمس في قوة الحر والوقت مصيف وهو رجل

جسم كبير الكرش فخرجت له نفاخات في جسده (*) واستمروا على ذلك الى انقضاء العام حتى اخذوا عساكر المقام (مقام السيد البدوي) وكانت من ذهب خالص زنتها نحو خمسة آلاف مثقال . وأما المحلة الكبرى فإنهم رجعوا عليها وقرروا عليها نيفاً ومائة ألف ريال فرانسه . وأخذوا في تحصيلها وتوزيعها وهجموا دورها وتتبع المياسير من أهلها . كل ذلك مع استمرار طلب الكلف الشاقة في كل يوم منها ومن طنتداء والتعنت عليهم .. وتسلط طوائف الكشوفية التابعين لهم الذين هم أقبح في الظلم من الفرنسيين بل ومن العرب فإنهم معظم البلاء فإنهم هم الذين يعرفون دسائس أهل البلاد ويشيعون احوالهم ويتجسسون على عوراتهم ويفرون بهم . واستمروا على ذلك أيضاً . ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ، (٥٢) .

هذا النص ، الوثيقة ، التي تدين الحكم الفرنسي ، بممارسة أبشع أساليب التنكيل والتعذيب البربرية ، هل يمكن أن يكون هو ذاته الوثيقة التي تثبت ان المصريين يفضلون حكم الفرنسيين؟! أي مؤرخ يحترم نفسه ذلك الذي يجترئ من هذا النص سطرين ابتداء من كلمة « وتسلط » .. الى « ويفرون بهم » .. فيغفل كل ما جاء بالنص .. ويستخلص من السطرين ان الجبرتي كان يفضل الفرنسيين على الكشاف .. مع ان الجبرتي كان حريصاً ، وكأنه كان يعلم بسوء فهم البعض لكلامه ، فأوضح سبب غضبه على الكشاف؛ وهو «علمهم بدسائس أهل البلد » . وأدبيات جميع الأمم ، حافلة يجمل بمائة ، تدور كلها حول فكرة ان «اعوان الظالم شر من الظالم» . ومعروف ان الحاكم المستبد الظالم والأجنبي بالذات يفضل ان يقوم له بالأعمال الشديدة القذارة والبشاعة ، عملاء من البلد ، بل وكثيراً ما يقوم هو بانصاف المظلومين اذا ما اشتكوا اليه ..

(*) أي تقدم او تطور او تحديث رآه المصريون !!

وهذه اللعبة كان الانجليز يمارسونها على نطاق واسع في مستعمراتهم .. وفي مصر بالذات حيث كان وصول المفتش الانجليزي يعني تحقيق العدل ! ولكن حتى هذا الفهم لم يترك الجبرتي مكاناً له . فالفرنسيون لم ينصفوا ولا تميزوا .. بل ان سب أعوانهم ومساعدتهم مترتب على معاوتهم للفرنسيين في الظلم . فأصل إدانته لهم ، هو خدمتهم للفرنسيين .. فهل تبلغ الغفلة بمؤرخ أن يفضل الأصل على الظل ! يدين الجلاد والجاسوس ويعفى الذي باسمه وبأمره وبتشريعه وأهم من ذلك بحماية سيفه يتم الاعدام واليه ترفع التقارير ... ولو انه في الحالة التي تناقشها كان الفرنسيون هم القانون والجلاد ..

وما من سجن عربي في بلد مستقل حديثاً .. إلا وفيه سجين تنتابه حالات يأس تجعله يتمنى عودة أيام الاستعمار .. فهل يجوز ان يستنتج مؤرخ من ذلك قانوناً بأن « الوطنيين كانوا يفضلون الاستعمار ويتمنون عودته »!

نفس الشيء بالنسبة لعبارة الجبرتي : « وايذاء عسكر العثماني للرعية وخطفهم ما يجذونه معهم حتى تمنوا زوالهم ورجوع الفرنسيين على حالتها التي كانوا عليها » .

وهل من شك حول موقف الشيخ السادات من الوجود الفرنسي ، فهو الذي قاد المقاومة ، وتبادل والفرنسيون كراهة عميقة معلنة .. وناله من اضطهادهم ما هو معروف . ولكن هل كان السادات يقاوم الفرنسيين من فرط امتنانه وتحمسه للعثمانية ؟!

من يستطيع أن يكتب عريضة اتهام ضد الدولة العثمانية وجيشها مثل التي كتبها السادات ؟! ومتى ؟ في عنفوان ثورة القاهرة الثانية .. حيث كان للسادات دور في قيادتها عرفه الفرنسيون ، فأزولوا به قصاصاً وحشياً رهيباً ، عبر عن الحقد الذي أفقدهم حتى أبسط مظاهر التمدين . إذ القوا القبض على زوجته وكانوا يضربون الشيخ « ابو الانوار السادات » « أمامها كل يوم .. وهي تبكي ! » ... هو السادات الذي يكتب الى عثمان كتحدا الدولة :

« الزامك الكبير والصغير والغني والفقير اطعام عسكرم الذي أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات وبلغ في النهب والفساد غاية الغايات فكان جهادهم في أماكن الموبقات والملاهي حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهي ، فاستحك الدمار والخراب . ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب . فبذلك كان عسكرم مخذولاً وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولاً . كيف لا وأكبركم اضمرت سوء المرتزقة في تضيق معاشهم وأخذ مرتباتهم واتلاف ما بأيديهم من ارزاقهم وتعلقاتهم وقد اختم أهل البلد بعد أمنها (٥٣) . » . والجبرتي لا يكف عن انتقاد « سنن عساكرهم وطرائقهم القبيحة » وينتقد جهلهم العسكري، وإهمالهم احتلال المواقع الاستراتيجية بعد اتفاقية العريش، مما أوقع بهم الهزيمة عندما نقضت الاتفاقية :

« فلم يطلع إليها احد من العثمانيين ولم يلتفتوا لتحصينها ولا ربطها بالمساكر والجبخانة . وأعرضوا عن المحاذرة وركبهم الغرور لأجل نفاق المقدور (٥٤) . » .

وليس أمرٌ من نقد الجبرتي للمهايك ، بل ان الصورة البغيضة المتاحة عن مراد بيك ، هي من صنع الجبرتي وحده .. وأي ملامح يمكن أن تبقى لمراد بعد هذه الأوصاف : « وكان يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الاقدام مع عدم الشجاعة . ولم يعهد عليه أنه انتصر في حرب باشره أبداً على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور كما قال القائل : أسد على وفي الحروب نعامة .. »

وحق عندما يعمر مراد بيك مسجد « عمرو بن العاص » يعلق الجبرتي بقسوة على مصدر هذا المال : « فيا ليتها لم تزن ولم تتصدق » !

« وبالجملة فنناقب المترجم لا تحصى وأوصافه لا تستقصى . وهو كان من أعظم الأسباب في خراب الاقليم المصري بما تجدد منه ومن مماليكه واتباعه

من الجور والتهور ومساحته لهم فلعل لهم يزول بزواله (٥٥) .

والجبرتي يؤرخ سنواته كآلاتي : « ولم يقع بها شيء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم (٥٦) » .

ولكن إذا ما تقاتل المماليك مع الفرنسيين.. فلا جدال أين يقف الجبرتي.. بل ان نغمته على المماليك تتزايد بقدر عجزهم عن مقاومة الفرنسيين.. عجزهم عن حماية مصر من الغزو الفرنسي ..

أما المماليك الذين يقاتلون ويستشهدون فأولئك لا يضمن عليهم الجبرتي ولا معاصروه بالثناء . فالشيخ خليل المنير ينشئ قصيدة في مدح ايوب بيك الدفتردار يثبتها الجبرتي في تاريخه : « لم يبرأ منهم سوى أيوب من ألم .. » .

ويؤرخ الجبرتي للملوك الذي استشهد دفاعاً عن مصر : « ولما حصل ذلك وحضروا الى برانباه عدى قبل بيومين وصار يقول انا بعت نفسي في سبيل الله . فلما التقى الجمعان لبس سلاحه بعد ما توضأ وصلى ركعتين وركب في مماليكه وقال اللهم اني نويت الجهاد في سبيلك . واقتحم مصاف الفرنسيين والقي نفسه في نارهم واستشهد في ذلك اليوم . وهي منقبة اختص بها دون اقرانه بل ودون غيرهم من جميع أهل مصر » (٥٧) بل ويثني على قتال « حسن بيك الجداوي » في ثورة القاهرة الثانية ، ويطمع له في المغفرة (٥٨) .

والرافعي مثل الجبرتي .. إذا ما ساءته هزيمة المماليك انهال عليهم سباً وتجريحاً وجردهم من كل صفة ايجابية ، فإذا ما أبدوا شجاعة أو صمدوا في موقعة ، طرب وأثنى عليهم :

« ولا غرو فقد كانوا احلاس الخيل وابناء الطعن والضرب . ولم ينقذ نابليون إلا وصول المسدد من الجنرال لكلك ، فاضطر المماليك الى

الانسحاب (٥٩) . ولو ان الجبرتي يفسر افلات نابليون بسبب آخر وهو
« أشرف الفرنسيون على الهزيمة لكونهم على الخيل واذا بالخبير وصل الى
ابراهيم بيك بأن العرب مالوا على الحملة يقصدون نهبها فعند ذلك فر بمن معه
على أثره . وترك قتال الفرنسيين ولحقوا بالعرب فأجلوهم عن
متاعهم (*) » .

(*) وليس لابراهيم بك ما يأسف عليه ، فحتى لو كان قد أطلع على الشيب وعرف اي دور
سيلعبه نابليون في تاريخ العالم لما كان له ان يفضل هزيمته وقتله على انقاذ المتاع ، لأنه لو فعل لما
اهتم التاريخ كثيراً بانتصاره على نابليون في الصالحية . فقد كان على نابليون لكي يصبح نابليون
التاريخ ، ان ينجو أولاً من الصالحية بفضل غباء واثانية ابراهيم بك !

المشايع والتكنولوجيا

أما عن « التكنولوجيا » والزمع بان « النخبة » عرفت « لأول مرة » ، من الفرنسيين ، بالعلوم الوضعية والتكنولوجيا وكيف استجابوا لها بعد أن كانوا لا يعرفون إلا الروحانيات ..

فقد أشرنا في غير هذا الموضع الى سخافة القول بأن حضارتنا قد مرت بمرحلة لم تعرف فيها الا الروحانيات ! ورأينا كيف ولد الجبرتي وعاش في بيت يأتي اليه الطلبة من أوروبا يتعلمون الكيمياء والميكانيكا ! بل وكيف كان الجبرتي فخوراً بمعرفة أبيه العلمية الى حد أنه ينسب تطور الصناعة في أوروبا الى معرفة أبيه التي نقلها تلاميذه الأوروبيون ! وحولوا معرفة الشيخ الجبرتي من القوة الى الفعل .. فكانت الثورة الصناعية في أوروبا !

كيف إذن ننسب مثل هذا الفخور ، الى حضارة غريبة عن العلوم الوضعية لا تعرف من العلم إلا الروحانيات !

رجالات الاسلام ليسوا بحاجة الى من يعلمهم ان كون الدنيا معبراً للآخرة .. لا يعني عدم الاهتمام بها.. فمئذ صدر الاسلام ، والمسلمون يدعون الى العمل لدينهم « كأنهم يعيشون أبداً » .. ودينهم يأمرهم بأن لا ينسوا نصيبهم من الدنيا .. ويعرفون انها « خضراء حلوة » وان المال والبنون زينة

الحياة الدنيا .. وان « الخير لم يذكر في القرآن الا وهو يعني المال ، ! ولكن عندما يهوي ليل التخلف وتضيع الدنيا من يد الناس ، فمن الذي يلوم الحضارة ذاتها .. لأن ابناءها العاجزين عن كسب الدنيا ، حاولوا خداع أنفسهم بالحديث عن الآخرة؟! ولو أن سلوكهم في مجموعه لم يعكس إلا شدة التثبث بهذه « الغانية » وعلى نحو يفوق حرص اسلافهم الذين عمروا الدنيا ، لأنهم كانوا يؤمنون ان تعمير هذه الأرض هو تحقيق لارادته سبحانه وتعالى لكي تأخذ الأرض زينتها ..

ومعجزة التراث العربي ، انه باتصاله واستمراره اتاح دائماً ، حتى في أحلك عصور التخلف ، الفرصة للذين يعودون اليه لكي يتعرفوا على الموقف الأصيل من القشور الزائفة ، ولذلك يذهل المؤرخ عندما يلمس وعياً متفوقاً لأحد الشيوخ أو العلماء ، أو حتى النخبة ، متفوقاً عن المستوى العام السائد في عصره ..

وتفسير هذا التناقض بسيط للغاية ، ذلك ان عقلية الشيوخ هي امتداد للفكر الاسلامي ، الذي انفصل عن حركة التاريخ .. واحتفظ بكيانه المستقل .. بينما تخلف الجماهير هو الواقع المادي وهو ثمرة عوامل مادية اقتصادية اجتماعية وجغرافية .. الخ ، لا سبيل لتغييرها بمجرد توفر جانب من المعرفة الصحيحة عند نخبة .. بل حتى هذه النخبة نراها تزرع تحت تخلف الواقع في سلوكها الاجتماعي ، ومواجهتها للكون ، رغم علمية تفكيرها ، فالجبرتي مثلاً يرفض الحرافات ، ويتفوق على الفرنسيين في فهم مغزى الاهتمام بالبدع والموالد عندما يعلق على حرص الفرنسيين على احياء موالد الأولياء فيقول : « ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات » فهو يفرق بين التدين الحقيقي الذي يحاربه الاستعمار ، وبين الافيون الذي يروجه المستعمر . بل يتفوق « الجبرتي » في علميته ، على « نابليون » الذي يلجأ

رغم ثقافته ، ورغم كل القاعدة المادية التي يقوم عليها فكر الثورة الفرنسية ، يلجأ الى الدجل والحرافات لتدعيم حكمه في مصر ، ولا غرابة فالموقف السياسي لا يحدده الوعي .. بل المصالح والموقع من حركة التاريخ .. والجبرتي كمثل حركة وطنية معادية للاستعمار ، كان يقف على الجانب الأكثر تقدماً من حركة التاريخ .

فعندما أصدر نابليون منشوره الذي يقول فيه : « الله قدر في الأزل هلاك اعداء الاسلام وتكسير الصليبان على يدي » مثيراً بذلك احقاداً غير موجودة إلا في خيلة الصليبية الغربية ! ثم محاولاً اثبات ان غزوه لمصر واستقراره بها هو « قضاء وقدر » .. على أساس الفهم الغربي « للقضاء والقدر » عند المسلمين .. ذلك الفهم الذي روجه الجهل والتعصب اللذان يتميز بهما العقل الغربي ، في كل ما يتعلق بفهم الحضارات المخالفة .

أما كيف فهمت العقلية الشرقية المسلمة هذا المنشور الدعائي .. فهذه هي عبارات الجبرتي : « وقد اوردت ذلك (*) » وان كان فيه بعض طول للاطلاع على ما فيه من التموهيات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التي تنادي على بطلانها بديهية العقل فضلاً عن النظر .

أها أكثر علمية ، وأقدر على أن يقود مصر في طريق العقلانية .. الذي استخدم المطبعة في الزعم بأن الله « قدر في الأزل ان أجيء من المغرب الى أرض مصر .. ولا يشك العاقل ان هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه .. واعلموا أيضاً امتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل . وأشار في آيات أخرى الى أمور تقع في المستقبل (***) ، « ولكن

(*) يقصد نص المنشور .

(**) منشور نابليون من النص العربي .

يأتي وقت يرى فيه جميع الناس أنني أهتدي بأوامر من السماء (*) ..

ما من حاكم شرقي كان يستطيع ادعاء ذلك .. ولكن ايها اكثر
« علمانية » الدجال « نابليون » .. ام الشيخ الأزهري ، الذي يرفض هذا
الزعم ، ويعتذر عن نشره ، ويبرر هذا النشر بأنه اراد اطلاق قرائه على
ما فيه « من التمويهات على العقول وفساد التخيلات التي تنادي على بطلانها
بديهية العقل فضلاً عن النظر » !!

كان الجبرتي على صلة بالعلوم الوضعية والدينية في تراثنا ، ولم يكن يجهل
ان العلم لا يقوم على الروحانيات وحدها ، بل وما كان بالذي يحس بعقدة
النقص ، وهو يتجول في بيت « حسن كاشف » حيث مكتبة الغزاة لأنه في
هذه المكتبة وجد « كثيراً من الكتب الاسلامية مترجمة بلغتهم ورأيت
عندهم كتاب الشفاء والبردة للبوصيري ويحفظون جملة من أبياتها وترجموها
بلغتهم » . ولا كان تسجيله لنظام المكتبة والاستعارة منها دليل انبهار
بمن يرى الصاروخ لأول مرة ، وآخر معلوماته عن وسائل المواصلات ، كانت
الافعال ! بالعكس فقبل الحملة بنصف قرن يسجل الجبرتي وفاة أحد التجار
فيصف مكتبته :

« ومات الخوارج الحاج احمد بن محمد الشرايبي ١١٦٨ (١٧٥٤ - ٥٥)
وكان من أعيان المشتهرين كأسلافه . وبيتهم المشهور بالازبكية بيت المجد
والفخر والعز ومما ليكهم واولاد مما ليكهم من أعيان مصر جريحيه وامراء
ومنهم يوسف بك الشرايبي . وكانوا غاية من الغنى والرفاهية والنظام ومكارم
الاخلاق والاحسان للخاص والعام ويتردد الى منزلهم العلماء والفضلاء
ومجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة والتغيير وانتفاع الطلبة ولا
يكتبون عليها وقفية ولا يدخلونها في موارثهم ويرغبون فيها ويشترونها

(*) منشور نابليون من النص الفرنسي .

بأغلى ثمن ويضعونها على الرفوف والخزائن والخورنقات وفي مجالسهم جميعاً . فكل من دخل الى بيتهم من اهل العلم الى أي مكان يقصد الاعارة او المراجعة وجد بغيته ومطلوبه في أي علم كان من العلوم ، ولو لم يكن الطالب معروفاً . ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه فإن رده في مكانه رده وان لم يرده واختص به أو باعه لا يسأل عنه . وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مراراً ويعتدرون عن الجاني بضرورة الاحتياج (٦٠) .

ووالد الجبرتي نفسه ضاعت مكتبته من كثرة المستعيرين . وتاريخه حافل باسماء الذين كانوا يعيرون كتبهم ويشترون الكتب أو ينسخونها ويوقفونها على الطلبة .

وقد انتقد « هيرولد » - بحق - غرور الغربيين الذين ظنوا شيوخ الأزهر كالسكان الأصليين في استراليا سبهرهم الاعيب الساحر الغربي ، وكانوا بذلك يعبرون عن جهلهم هم لا سذاجة الشيوخ .. والمؤلم ان يأتي مصريون اليوم فيتصورون شيوخنا هنوداً حمراً يتأملون « الرجل الحصان » !

يقول « كرسوفر هيرولد » : « لقد توقع الفرنسيون بالغرور المعهود في الغربيين أن يستجيب الشيوخ لعجائب الصناعة بدهشة صبيانية كدهشة الشعوب المتوحشة . ولعله لم يخطر لهؤلاء الصناعيين انهم هم السذج الأقل بصرأ بشئون الدنيا من الشيوخ الذين لم يبد عليهم التأثر بما شهدوا . لقد تأثر الشيوخ ما في ذلك ريب ، وقد أعجبوا ، ان كان بين الجبرتي وبينهم شبه ولو قليل ، بهذا الانقطاع للعلم ، أكثر من اعجابهم بعرض الالاعيب والحيل الرخيصة . ولكنهم أبوا الخضوع لسيطرة الغريب » .

ويتساءل : « اي الرجلين كان اكثر سذاجة ! أهو الشرقي الذي لم يسمع من قبل بالكهرباء .. ام الاوروبي الذي ظن ان اكتشاف الكهرباء يعطيه حقاً أبدياً في السيادة على غيره !!؟ »

ولا شك ان « نابليون » كان اكثر الجميع سذاجة ، أو دجالاً حقيقياً ،

كما يعتقد ، عندما زعم ان « الوطنيين كانوا غاية في البطء في فهم كنه هذا المجمع الذي ضم رجالاً وقورين مجتهدين (العلماء) لا يحكون ولا يدبرون، ولا يقومون بأي وظيفة دينية . وقد حسبوم يصنعون الذهب »^(*) (٦١) .. على أية حال لقد شهد نابليون انه عندما اكتشف الوطنيون كنه هؤلاء الرجال « لم يحرقوم » كما كانت العامة تفعل في أوروبا بالعلماء .. بل « تلقى العلماء الاجلال لا من الشيوخ والاعيان فحسب، بل من اقل الطبقات وادناها »^(٦٢) .

فأمتي لم تكن منقطعة الصلة الفكرية بالعلم .. بل كان العلم المادي في تراثها وفي روحها ، وفي تاريخها ، وان لم يكن في واقعها بحكم دورة التخلف والتقدم التي تتعرض لها كل ظواهر الكون .. لكنها كانت مهينة لتقبل العلم، مفطورة على حب واحترام العلماء .. متمطشة للتجدد... لا بالفكر والمادة معاً كما تدعو المدرسة الاستعمارية .. وكما تزعم ان الجبرتي « قبل تجدد الكيان الاجتماعي بالمادة والفكر جميعاً .. »^(٦٣) .. هذا الزعم غير صحيح لا على اطلاقه ، ولا بالنسبة للجبرتي .. بل هو جوهر الخلاف بين مدرستي التغريب والتحديث ، فالمدرسة الاستعمارية تدعى ان « قبول التجدد بالمادة ورفض التجدد بالفكر هو من مظاهر التمزق الحضاري الذي كثيراً ما يودي بالمجتمعات والافراد في عصور الانتقال »^(**) .. وهو عرض مشوه بالطبع للقضية ..

فكما أوضحنا ان الذين يصرون على وحدة الحضارة ، هم في الحقيقة لا يهدفون الى اكثر من تحقيق انتماء النخبة الشرقية الى فكر وعقيدة وأسلوب معيشة الحضارة الغربية، دون ان يمتد هذا التغيير الى الأعماق، ودون أن يحقق

(*) وماذا كانوا يصنعون ؟ بل وخلف ماذا يلهت العلم الغربي حتى اليوم الا الذهب والبارود الذي عاناه ثوار القاهرة من مكشفات العلماء القورين .

(**) لويس عوض .

هذا الانتفاء تطوير المجتمع بالطبع . وقد رأينا كيف رفض الجبرتي الوجود الفرنسي ، اما الشيخ حسن العطار صديقه الذي يستشهد به « لويس عوض » عادة على « المنبهين بالتكنولوجيا » والمتفتحين للتجدد ، فان انبهاره لم يزد الا سخرية بسلوكهم الاجتماعي ، واهم من ذلك تعجبه الفناء لهم وتمنيه هزيمتهم :

« ان الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم

في مصرنا بين حمار وخمار

وعن قريب لهم في الشام مهلكة

يضيع لهم فيها آجال أعمار^(٦٤)

ولم تكن المعرفة التكنولوجية تقدم للمصريين في شكل علاقة علمية ، بتجرد العلماء من الجانب المتقدم ، وثقة وتطلع الجانب المتخلف ، حتى يمكن أن يتم التلقين الحضاري .. بل كان العلماء الفرنسيون ، يتصرفون بعقلية الأفاق الأوروبي الذي يحاول ان يخيف الزوج في الادغال بالأعيب تجمله يبدو في صورة الساحر الذي لا يقهر ! وكان المصريون ينظرون بخذر وقلق وتوجس ، لأنهم يعرفون الهدف الحقيقي من استعراض العضلات العلمية الذي يجريه المحتلون أمامهم ، وبهذه الروح ، رأى الجبرتي محاولة اطلاق منطاد ..

« كتبوا عدة أوراق مطبوعة وألصقوها بالاسواق مضمونها انه في يوم الجمعة حادي عشرينه قصدنا ان نظير مركب ببركة الأزبكية في الهواء بحيلة فرنساوية . فكثير لفظ الناس في هذا كعادتهم . فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع الناس والكثير من الافرنج ليروا تلك المعجبه وكتت يحملتهم . فرأيت قماشاً على هيئة الآوية على عمود قائم وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثل دائرة الغريبال وفي وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الادهان . وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها الى الدائرة وهي مشدودة

ببكر وأحبال واطراف الأحبال بأيدي اناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها . فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخانها الى ذلك القماش وملاه فانتفخ وصار مثل الكرة وطلب الدخان الصعود الى مركزه فلم يجد منفذاً فجذبها معه الى العلو فجذبوها بتلك الأحبال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الأرض فقطعوا تلك الاحبال فصعدت الى الجومع الهواء ومشت هنيئة لطيفة ثم سقطت طارتها بالفتيلة وسقط أيضاً ذلك القماش وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الاوراق المبسوطة . فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها . ولم يتبين صحة ما قالوه من انها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها الى البلاد البعيدة لكشف الاخبار وارسال المراسلات بل ظهر انها مثل الطائرة التي يعملها الفراشون بالمواسم والافراح (٦٥) !

أبها اكثر علمية .. الفرنسيون الذين كانوا يأملون في طيران البالونة الى ان تختفي عن الانظار فيزعمون انها طارت الى فرنسا !.. والذين اشاعوا أنها يمكن ان تستخدم في التجسس للإرهاب وخلافه؟! أم الجبرتي الذي يفهم سبب انتفاخها وهو امتلائها بالغاز .. ثم ارتفاعها بسبب طلب الدخان الصعود .. وهو صحيح تماماً .. ثم الذي يعلق في موضوعية كاشفاً الخدعة ، وأنها لا تزيد عن تطوير في الطائرة التي اعتاد الفراشون عملها في الافراح ؟

وفي نفس الصفحة التي يسجل فيها الجبرتي أول فشل لعملية استعراض التكنولوجيا . نجده يشكر لهم نجاحهم في تسميم الكلاب « فارتاحوا هم وارتاح الناس » .

وبقدر ما كان الجبرتي متحفظاً بل معادياً للتكنولوجيا الارهابية ، كان متفتحاً للتكنولوجيا العمرانية التي يمكن أن يستفيد منها الناس وذلك واضح في أعجابه ووصفه لعربة اليد تماماً كما أعجب خلفه « رفاة الطهطاوي » بعربة الرش في باريس بعد ثلث قرن ..

ومعلومات « الجبرتي » عن العلماء ومواد اجاثهم أفضل من معلومات « نابليون » عن معرفة الشيوخ فالجبرتي لا يحدثننا عن سحرة ولا تحضير الذهب بل يكاد يحدد كافة فروع العلم الذي كان يدرس : « وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالمهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين . حارة الناصرية » .
 « كذلك أفردوا اماكن للمهندسين وصناع الدقائق وسكن الحكيم روبا بيت ذي الفقار كتحدا يجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه في ناحية .
 وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والادهان واستخراج الاملاح وقدورا عظيمة وبرامات وجعل له مكاناً أسفل وأعلى وبها رفوف عليها القدر المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة وبها كذلك عدة من الاطباء والجراحية . وأفردوا مكاناً في بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوي وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع وآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه وخلصات المفردات وأملاح الارمدة المستخرجة من الاعشاب والنباتات واستخراج المياه الجلاءه والحلالة وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلوري المختلف الاشكال والهيئات على الرفوف والسدلات وبدخلها أنواع المستخرجات (٦٦) » ..

تأمل هذا الوصف العلمي الدقيق من متفرج «متخلف» ثم بعدها مباشرة..
 تأمل كيف يقدم الفرنسي علمه كالأعيب الحواة!.. لتعرف اننا كنا متقدمين في الجوهر الحضاري متخلفين في الشكل، وانهم كانوا على العكس من ذلك..

« ومن اغرب ما رأيت في ذلك المكان ان بعض المتقيدين لذلك اخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة اخرى فعلا المآن وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر قلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ثم فعل كذلك بياه أخرى فجمد حجراً

أزرق وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتياً . وأخذ مرة شيئاً قليلاً من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القربان انزعجنا منه فضحكوا منا واخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص وأدخل معها أخرى على غير هيئتها وأنزلها في الماء وأصعدهما بجرعة انحبس بها الهواء في أحدهما وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر الشعلة اليها في الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضا وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقة الطبائع (٦٧) .

ولم تكن كل المعلومات التي نقلها الجبرتي عن العلماء الفرنسيين ذات قيمة علمية جادة ، فهو يقرر انه سمع منهم تفسيراً لمرض الطاعون « ويقولون ان العفونة تنحبس بأغوار الأرض ، فإذا دخل الشتاء وبردت الاغوار بسريان النيل والامطار والرطوبات خرج ما كان منحبسا بالأرض من الابخرة الفاسدة فيمتعفن الهواء فيحصل الوباء والطاعون (٦٨) » .

ولا يجوز ان نتوقف طويلاً عند حديث التكنولوجيا ، بعد ما عرفناه عن موقف رجال الاحتلال في قصة مصنع « الجوخ » حيث رفضوا السماح للعالم المصريين بالعمل في المصنع خوفاً من تعلمهم اسرار الصناعة .

كان لا بد أن تجلو قوات الاحتلال الأجنبي .. لكي يفتح الطريق أمام المصريين لدخول عصر العلم والصناعة .. وكانت الحملة الفرنسية قد سجلت فشلها المزري ، بجريرة حرق وإعدام سليمان الحلبي .. ولم يبق الا الجلاء .

الفصل التّابع

ولله الحمد والمنه

زوال الفرنسيس

بمقتل كليبر بلغ التوتر أقصاه ، وتركزت عيون السلطة على الأزهر ، وبدأت تقوم بحملات تفتيش دورية ، بحثاً عن خيوط التنظيم الذي اغتال قائد الجيش ، ولم يكشف من اعضائه الاخلية واحدة . وأراد المشايخ الكبار أن يقطعوا الطريق على المشاكل فتوجهوا : « في عصريتها عند كبير الفرنسيس « منو » واستأذنه في قفل الجامع وتسميره فقال بعض القبطه الحاضرين .. هذا لا يصح ولا يتفق . فحلق عليه الشيخ الشرقاوي وقال اكفونا شر دسائسكم يا قبطه^(١) » « واشتد الأمر بالناس وضاعت منافعهم وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيح تقبل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته » « جمعوا الوجاقلية وأمروهم باحضار ما عندهم من الأسلحة . فأحضروا ما أحضروه فشددوا عليهم في ذلك فقالوا لم يكن عندنا غير الذي احضرناه فقالوا وأين الذي كنا نرى لمعانه عند متاريسكم » « افرجوا عن الشيخ السادات ونزل الى بيته بعد أن اغلق الذي تقرر عليه واستولوا على حصصه واقطاعه وقطعوا مرتباته وكذلك جهات حريمه والحصص الموقفة على زاوية اسلافه وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس وان لا يركب بدون اذن منهم ويقتصد في أموره ومعاشه ويقلل اتباعه » .

وحاولت السلطة ان تقترب للجهاير ، باسلوب طائفي : « فشرعوا في ترتيب الديوان على نسق غير الأول من تسعة أنفار متعممين(*) لا غير وليس فيهم قبطي ولا وجاقلي ولا شامي ولا غير ذلك وليس فيه خصوصي وعمومي على ما سبق شرحه . بل هو ديوان واحد مركب من تسعة رؤساء هم الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان والمهدي كاتب السر والشيخ الامير والشيخ الصاوي وكاتبه (الجبرتي نفسه) والشيخ موسى السرسري والشيخ خليل البكري والسيد علي الرشدي نسيب ساري عسكر والشيخ الفيومي والقاضي الشيخ اسماعيل الزرقاني وكاتب سلسلة التاريخ السيد اسماعيل الخشاب والشيخ علي كاتب عربي وقاسم افندي كاتب رومي وترجمان كبير القس رفائيل وترجمان صغير الياس فخر الشامي(٢) » .

وبعد كبير جاء هذا الجنرال الذي تكن له المصادر الغربية احتقاراً متجدداً .. ولا تكف عن الانتقاص من قدره .. ولا شك ان ذلك يرجع الى « اسلامه » وتزوجه من « هجبية » . ولو ان اسلامه لم يقنع المصريين بل اعتبره الجبرتي اسلاماً سياسياً .. ويصفه بأنه « أظهر أنه أسلم » ويتهمه بأن « غرضه باطناً كان اغلاق الأزهر » .. إلا أن المؤرخين الغربيين لا يفتفرون له ذلك، تماماً كما ثاروا على « سلاتين » ، فغوردون بعد ثمانين عاماً يكتب منتقداً اسلام سلاتين ، ولو أنه أسلم خوفاً من الموت : « ليس بالأمر الهين لأوروبي ان ينكر ديننا خوفاً من الموت(٣) » .

ولم يكن « مينو » اكثر من استعماري نموذجي من الرجال المتوسطين الذين قامت على اكتافهم امبراطوريات الغرب بلا عبقرية ولا نظريات ولا تعقيدات .. بل كلما كان أفقهم محدوداً أكثر كلما كان نجاحهم أكبر !

« مينو » لم ير في مصر اكثر من امكانية هائلة : « لزراعة القطن وقصب

(*) مشايخ .

السكر والنيلة ومركزاً لتجارة الرقيق مع أواسط افريقيا والعاج والتبر والتوابل ومزرعة نموذجية للاخوة بين الفلاحين الكادحين في سعادة والمستعمرين الفرنسيين في سماحة^(*) .

وقد سبق احفاده اعضاء المنظمة السرية باعلان « مصر قطعة من فرنسا » بل ولعله اكثر الثلاثة (نابليون - كليبر - مينو) تنفيذاً لسياسة تغريب مصر.. بل لعله تخطى في قراراته كل ما جرؤ عليه خلفاؤه من الاستعماريين . فقد استطاع « منو » في مطلع القرن التاسع عشر أن يحقق ما عجز عنه ماريشال الظهير البربري بعد مائه عام !

ومن حق استعماري القرن العشرين أن يأسفوا على فشل « الاصلاحات المحمودة^(*) » التي هي « لنفع الأهالي » .. ولكن ليس من حقهم ان يلوموا المصريين على عدم سرورهم لقرارات «منو» بالغاء قوانين المواريث الاسلامية، والغاء القانون الجنائي الاسلامي . خاصة وان هذه « الاصلاحات » الصادرة من حاكم شهر اسلامه ، صاحبها : « انحرفت طباعهم عن المسلمين زيادة عن أول . وأستوحشوا منهم . ونزل بالرعية الذل والهوان . وتطاولت عليهم الفرنسية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد الأقباط والشوام والأروام بالاهانة » .

المهم كانت الحملة الفرنسية قد انتهت تاريخياً بفضل الرفض الشامل الذي واجهها به المصريون .. وأخيراً جاءت الحملة البريطانية ، التركية .. وعندما تواترت انباء وصول الجيشين الانجليزي والتركي ، توتر الجو في الديوان ووقعت يوم ٢٠ شوال ١٢١٥ (١٨٠١) محاورة أو مبارزة لفضية بين المشايخ والفرنسيين حول مدى مسئولية القيادة المصرية عن التحركات المنتظرة من

(*) كريستوفر هيروولد في كتابه : بونايرت في مصر .

جانب الجماهير عندما تشبكت القوات الفرنسية مع « المحررين الجدد » ،
هذه المحاوره يلخصها الجبرتي :

« قال بعض الحاضرين : العقلاء لا يسعون في الفساد . واذا تحركت
فتنة لزموا بيوتهم » ، « فقال الوكيل (الفرنسي) ينبغي للعقلاء ولأمثالكم
نصيحة المفسدين فإن البلاء يعم المفسد وغيره » .

« فقال بعضهم هذا ليس يجيد بل العقاب لا يكون إلا على المذنب . قال
تعالى كل نفس بما كسبت رهينة . وقال آخر من المجلس ولا تزروا وازرة
وزر أخرى .

« فقال الوكيل . المفسدون فيما تقدم أهاجوا الفتنة فعمت العقوبة .
والمدافع والبنبات لا عقل لها حتى تميز بين المفسد والمصلح فانها لا تقرأ
القرآن .

« وقال آخر المخلص نيته تخلصه .

« فقال الوكيل . ان المصلح من يشمل اصلاحه الرعية فإن صلاحه في
حد ذاته يخصه فقط والثاني اكثر نفعاً » ، « وطال البحث والمناقشة في نحو
ذلك (٥) » .

وواضح ان الجهة «منفكة» كما يقول الازهريون.. أي ان الحوار لا يلتقي..
لأن الطرفين يقصدان غايتين مختلفتين .. الشيوخ يشككون في مشروعية
اجراءات السلطة . وهم لا يريدون أن يتدخلوا لشل يد الثورة ان وقعت ، بل
هم يحاولون اساساً شل يد السلطة عن البطش بهم بادعاء انهم غير مسئولين عن
سلوك الجماهير ، وأنه لا يجوز معاقبة من لم تثبت ادانته ، ولا يجوز فرض
العقوبات الجماعية بلا تمييز .

والوكيل كممثل للسلطة يبرر اجراءات القمع ، ويحاول أن يحمل القيادة
الوطنية مسئولية ما يقع ، ولا يقبل منها التظاهر بالسلبية أو الحياد . ومن

ثم فلا عجب أن تبدو حجج الفريقين متكافئة . بل وان تكون كلها ذات موقف اخلاقي اسلامي ! فالاسلام كما يحتم على القادة نصح الرعية وارشادهم .. فهو ايضاً لا يعاقب إلا المسيء .. والحوار استمر ، لأن القيادة عجزت عن التحدث بصراحة ، واعلان ان حركة الجماهير المنتظرة ليست فتنة بل جهاد ، وان مكاثمهم الطبيعي - لو لم يكونوا في « القبضة مأسورين » - هو على رأس هذه التي يسميها المحتل فتنة . وان الخير كل الخير والاصلاح المنشود ، في مقاتلة الوكيل وما يمثله الوكيل .. ومن ثم فالنصيحة المفترض في الشيوخ تقديمها للعامة .. هي الدعوة الى الجهاد .. ولكن الضرورات حتمت ان تدور المناقشة في هذا الاطار الذي جرت فيه وأن يكتفي المشايخ بتجريد اجراءات السلطة القمعية من شرعيتها واخلاقياتها .. مما اضطر « عبدالله جاك مينو » الى اصدار بيان « وهو مبني على جواب المناقشة المذكور » .

وإذا كانت القاهرة لم تثر هذه المرة فليسرعة الزحف البريطاني من ناحية ولأن التنكيل الفرنسي الذي اعقب الثورة الثانية ومقتل « كليبر » قد اصابها بضربة قاسية يلخصها « الجبرتي » بقوله : « على انه لم يبق في الناس إلا رسوم هافنة .. » أضف الى ذلك طبيعة المصريين التي ترفض خوض معركة لا مبرر لها .. فقد كان واضحاً هذه المرة ان الجلاء محتوم .

وكاجراء وقائي ألقت السلطة القبض على السادات ولكن « من غير اهانة » فلما سأل « عن ذنبه وجرمه الموجب لحبسه » أجيب بأن ذلك « لم يكن إلا الحذر من اثاره الفتن في البلد واهاجة العامة لبغضك الفرنسي لما سبق لك منهم من الايذاء » .

ومصادر « الجبرتي » في الدوائر الفرنسية قوية جداً .. فهو يتتبع بوضوح الخلاف بين « مينو ورينه » ويثبت فساد رأي « مينو » الذي تباطأ في التوجه الى الاسكندرية حتى ضاعت فرصته في الدفاع عنها ويثبت لرينه انه كان يلح على مينو في التوجه للاسكندرية قبل هجوم الانجليز .

« فعند ذلك جمع رينه سوارى عسكره وعرض عليهم ذلك وسفه رأيه (رأى مينو) وان هذا الخبر لا أصل له . وأنا أعلم أننا لا نصل الى الصالحية حتى يأتي الخبر بخلاف ذلك. ويأتينا الأمر بالرجوع والذهاب الى الاسكندرية فلا نستفيد إلا التعب والمشقة . وارتحل بمن معه من غير استعجال فوصلوا الى القرين في ثلاثة ايام . واذا بمراسلة ساري عسكر منو الى رينه يخبره بان الانجليز وصلوا الى «ابى قير» وطلعوا الى البر وتجاربو مع أمير الاسكندرية ومن معه من الفرنساوية وظهروا عليهم ويستعجله في الرجوع والذهاب الى الاسكندرية فقال رينه هذا ما كنت اخمنه واظنه وارتحل راجعاً^(٦) » فحالة الجيش الفرنسي لم تكن خافية على المصريين ويبقى على المؤرخين ان يكتشفوا مصادر « الجبرتي » في الجيش الفرنسي ..

وعندما وصل الاتراك الى العريش بعد نزول الانجليز بالقرب من الاسكندرية «اعتقل اربعة مشايخ وضموا الى السادات وهم الشرقاوي والمهدي والصاوي والفيومي» .

ومع وضوح هزيمة الفرنسيين اتخذت اجتماعات الديوان طابعاً هزلياً . فالمصريون يريدون بمهارتهم التاريخية تقوية الفرصة على المهزوم الخائق المتوتر ، المتعطش لانزال ضربة انتقام بالأمة الشامته فيه . والفرنسيون يريدون هدوء الوضع ولو كان على اساس التخادع المتبادل . فالاتفاق عام من الطرفين ، على كسب الوقت ، في انتظار ان يحل الآخرون المشكلة » ثم قال الخازندار ان الفرنساوية لا يجبون الكذب فلزام ان تصدقوا كل ما اخبروكم به . فقال بعض الحاضرين انما يكذب الحشاشون . والفرنساوية لا يأكلون الحشيش » . وبلعها الحشاشون والفرنسيون الكاذبون !..

وقال الخازندار : « ان الفرنساوية لا يتركون الديار المصرية ولا يخرجون منها ابداً لأنها صارت بلادهم وداخلة في حكمهم . وعلى الفرض والتقدير اذا غلبوا على مصر فانهم يخرجون منها الى الصعيد . وطال الكلام في مثل

هذه التموهيات والخرافات وأجوبة الحاضرين بحسب المقتضيات ، وحتى
عندما صدرت الاوامر باعادة فرش الديوان علق الجبرتي ساخراً :

« وتجلذي للشامتين أريهم
اني لريب الدهر لا اتضعع »

وعندما وصلت مدفعية الانجليز الى ضواحي القاهرة عقد الديوان وأعلن
ممثل السلطة الفرنسية « واعلموا أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية
فلازم من اعتقادكم ذلك واركزوه في اذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله
تعالى » . وتعليق الجبرتي حاد كالسيف : « وكلام كثير من هذا النمط في
معنى ذلك من بحر الغفلة » !

واشترك البكري والسيد أحمد الزرو ، وشاهد زور من الشرقية ،
والجنرال بليار، في تمثيلية ساذجة أقسم فيها رجل شرقاوي انه « سمع من رجل
واصل من رشيد الى منية كنانه ان اسطولاً فرنسياً حضر الى الاسكندرية
وان الانكليز رجعت اليهم وان الحرب قائمة بينهم على ظهر البحر^(٧) » .
ونشطت الدعاية الفرنسية في ترويج « التموهيات » والايخبار التي « لا
أصل لها » كما يصفها الجبرتي ..

وعقد الديوان آخر جلساته .. أو كما يقول الجبرتي : « آخر الدواوين »
وتليت فيه « كثير من أمثال هذه الخرافات والتموهيات » « وتموهيات
وهلسيات ليس في ذكرها فائدة » .

وللجبرتي الحق في تعليقه العنيف ، فالبيانات كانت تتحدث عن نية
نابليون في بناء جامع وعن « المحبة والاخوة التي كانت موجودة ما بين اهل
الديار المصرية . قد كان الأهل والجيش المذكورون مثل الرعية الوحدة » ..
اما الرد البليغ على ادعاء المنهزمين ان الجيش الافرنسي : « هل بت ان
يصادف يوم اننا نرجع الى عندكم لاجل تمام الخير الذي يصدر من حكم
الفرنساوي » فكان الرد البليغ من المشايخ :

« ان الامر لله .

« والمملك لله .

« وهو الذي يمكن منه من يشاء^(٨) » .

« وانفض الديوان .. وركب المشايخ وخرجوا للسلام على الوزير يوسف باشا الذي يقال له الصدر الأعظم » .

وكان السادات قد عبر عن عواطفه بالتبكير في الحضور للوزير ولكن بقية المشايخ منعوا في انتظار حضور هذا الديوان السخيف . ولم تكن المقابلة مشجعة فان « الصدر الاعظم » « لم يقم لقدمهم » .

ومع غرق سفينة الفرنسيين اشتد هرب الجرذان ، ونزلت « هوى » من القلعة بعد ان حملت متاعها على حمار وكانت « هذه المرأة زوجة لبعض الامراء الكشاف ثم انها خرجت عن طورها (تمردت) وتزوجت نقولا واقامت معه مدة فلما حدثت هذه الحوادث جمعت ثيابها واحتالت حتى نزلت من القلعة وهي على حمار ومتاعها محمول على حمار آخر فنزلت عند بعض العطف واعطت المكاريه الاجرة وصرفتهم من خارج واختفت » .

وسارع يعقوب بالفرار مع الجيش المحتل ، ولكن الذين كانوا معه اما بالاغراء أو بالاكراه أو بالترهيب مما ينتظرهم من عقاب عما ارتكبوه .. ما ان اتاحت لهم فرصة العودة الى مصر المحروسة حتى بادروا بالعودة ، تاركين يعقوب والآغا عبد العال^(*) ينصرفان مع مخلفات الحملة ..

وفي يوم الخميس ٣ ربيع الثاني ١٢١٦ (أغسطس ١٨٠١) حضرت جماعة

(*) الآغا عبد العال هاجر الى فرنسا مع جيش الحملة وكان بالطبع من ابرز وجوه « الوفد المصري » .. وفي فرنسا تنصر !! ليستطيع العيش هناك .. وعلى فراش الموت عاد للاسلام ليستطيع العيش في الآخرة (راجع تخلص الابريز للطهطاوي) .

من عسكر القبط الذين كانوا ذهبوا بصحبة الفرنساوية فتخلفوا عنهم ورجعوا الى مصر (٩) .

وطويت صفحة طالت في حساب « الجبرتي » « ثلاث سنوات وواحد وعشرين يوماً » وذلك من ابتداء معركة انبابه الى نزولهم من القلعة .. ويضاف الى حساب الجبرتي مدة احتلالهم للاسكندرية قبل احتلال القاهرة ، وحصارهم فيها بعد انسحابهم من القاهرة ..

وبدأت صفحة جديدة .. بدخول القوات العثمانية .. وعودة المالك .. ولم يكن في تجربة المصريين ولا في سلوك الجنود القادمين ما يبعث على التفاؤل . ولكن غرائز الأمم لا تخطيء .. كانت أمتنا تدرك ان زوال الحكم الفرنسي هو في حد ذاته نصر حاسم في معركة وجودها .

كذلك كانت الفرحة التي سجلها الجبرتي ، فرحة طبيعية ومقبولة ، وكان اليوم تاريخياً حقاً ، سواء بوعي المحتفين به ، أو بحكم ما ترتب عليه من نتائج وما يمكن أن يترتب عليه حتى اليوم ..

« فلما اصبح يوم الخميس خامسه اجتمع الناس من جميع الطوائف وسائر الأجناس وهرع الناس للفرجة وخرجت البنت من خدرها واكثروا الدور المطلة على الشارع بأعلى الاثمان وجلس الناس على السقائف والحوانيت صفوفاً وانجر الموكب من أول النهار الى قريب الظهر ودخل من باب النصر وشق من وسط المدينة .. فكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً وموسماً وبهجة وعيداً . عمت المسلمين فيه المسرات ونزلت في قلوب الكافرين الحسرات . ودقت البشائر وقرت التواظر وأمروا بوقود المنارات سبع ليال متواليات فله الحمد والله على هذه النعمة . ونرجو من فضله أن يصلح فساد القلوب ويوفق أولى الأمر للخير والعدل المطلوب (*) (١٠) . »

(*) لا شك ان الجبرتي وهو يعيد كتابة هذه اليوميات عام (١٢٢٠ - ١٨٠٥) كان يعرف ان دعاءه لم يستجب .

وبعكس ما كان متوقفاً من أحداث فترة الاحتلال، لم تقع أية معارك ولا مذابح طائفية . فسرعان ما تغلبت روح الحضارة الاسلامية . وعاد الشعب المصري الى اخوته ووحدته الطبيعية.. ورغم الاجراءات المحتومة التي تعقب زوال كل احتلال من جلاء «منو» الى سقوط النازية.. فاننا لا نجد في «الجبرتي» الا قرارات اعدام نفذت في مسلمين : بنت البكري .. هوى .. و « قتلوا شخصاً يسمى مصطفى الصيرفي من خط الصاعغة قطعوا رأسه تحت داره عند حانوته . وسبب ذلك انه كان يتداخل في نصارى القبط الذين يتعاطون الفرد (الغرامات) ويوزعونها ، وتولى فردة أهل الصاعغة وسوق السلاح وتجارهم بأمور نقت عليه وأضر أشخاصاً » . وعندما اعدم الصيرفي هرب السيد أحمد الزور ونجا يجلده .. كذلك عوقب الشيخ البكري فانترع منه مملوكه : « وتجرع فراقه (١١) » .

اما الآخرون فسرعان ما جرى نقل البارودة من كتف الى كتف وكان نصاري الاروام ابرع المنتقلين :

« ففي يوم الاحد نودي بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصراني ولا يهودي سواء كان قبطياً أو رومياً أو شامياً فانهم من رعايا السلطان . والماضي لا يعاد . والعجب ان بعض نصارى الاروام الذين كانوا بعسكر الفرنسيين تزبوا بزبي العثمانية وتسلمحوا بالأسلحة واليقطانات ودخلوا في ضمنهم وشمخوا بأناهم وتعرضوا بالأذية للمسلمين في الطرقات بالضرب والسب باللغة التركية ويقولون في ضمن سبهم للمسلم : « فرنسيس كافر ولا يميزم الا الفطن الحاذق أو يكون لهم معرفة سابقة (١٢) » .

وفي هذه المرة لا يجد نصارى الاروام مؤرخاً يحاول ان يخلع صفة مبدئية أو عقائدية على سلوكهم وانضمامهم للجيش العثماني !

وكان الله في عون المصريين !

ولم يكن نصارى الروم وحدهم بل أبدي الموكلون «بتنظيم مالية البلاد» في عهد الفرنسيين استعدادهم لمواصلة مهمتهم «التنظيمية» لحساب العثمالي والأمراء .. فلما طلب الوزير من التجار مائة كيس وعشرة أكياس. فاجتمع المستعدون لجمع الفردة في أيام الفرنساوية كالسيد أحمد الزرو (شاهد الزور) وكاتب البهار و ارادوا توزيعها على المحترفين كما دعتهم (١٣) .

اما النساء المتحررات أو اللاتي ذفن طعم تحرير المرأة على أوسع نطاق ويجهود ثلاثين ألف شاب فرنسي . فلم يكن أقل استعداداً من نصارى الأروام ومنظمي الفردة في نقل الولاء .. فقد اندفعن الى التزوج من عسكر الانكشارية بعد تقمص الشكل المطلوب : « وفيه نودي على أن أهل البلدة لا يباهرون المساكر العثمانية ولا يزوجونهم النساء وكان هذا الأمر كثر بينهم وبين أهل البلد واكثرهم النساء اللاتي درن مع الفرنساوية . ولما حضر العثمانية تحجبين وتنقبن وتوسط لهن اشباهن من الرجال والنساء وحسنوهن للطلاب ورغبوا فيهن الخطاب فأمهروهن المهور الغالية وانزلوهن المناصب العالية (١٤) .

وطويت صفحة تحرير المرأة بانتقال اللاتي « درن » (لاحظ دقة تعبير الجبرتي) مع الفرنساوية ، من حانات الفرنسيين^١ ومعسكرات الحملة الى حريم العسكر العثمانية ..

وعاش الجيش !!

ولم يفت الجند العثماني ، استغلال الحزازات التي زرعا الحكم الاستعماري في ابتزاز المسيحيين . وهنا نجد أمانة الجبرتي المؤرخ المصري ، وتجرده من كل شائبة تعصب .. وهو يسجل هذا الموقف ويفضحه ويسمه بالخزى أمام التاريخ ..

« واما القلقات والبنكجيرية الذين تقيدوا بجمادات النصارى فانهم كلفوم

اضعاف ما كلفوا به المسلمين ويطلبون منهم بعد كلف المآكل واللوازم مصروف الجيب وأجرة الحمام وغير ذلك. وتسلمت عليهم المسلمون بالدعاوى والشكاوى على أيدي اولئك القلقات فيخلصون منهم ما لزمهم بأدنى شبهة ولا يعطون المدعي إلا القليل من ذلك والمدعي يكتفي بما حصل له من التشفي والظفر بعدوه^(١٥) .

ان العداوات التي زرعت على يد الحكم الفرنسي ، والسلوك المنحرف ليعقوب وشكرا لله وعبدالله ، وجدت من يستثمرها بعد زوال الحكم الفرنسي . ولكن سرعان ما تغلبت الحكمة المصرية ، وانتصر التسامح الذي تتميز به حضارتنا وعهد الى «صاحبنا العلامة السيد اسمعيل الوهبي المعروف بالحشاب» بترصيف « فرمانات باللغة العربية مضمونها الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة ، وعدم التعرض لهم وفي ضمنه آيات قرآنية وأحاديث نبوية والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة اعراضهم وأموالهم » كذلك وصلت فرمانات في مطلع شهر جمادي الأولى ١٢١٦ (سبتمبر ١٨٠١) « بالتنبه بذكر اعيان الكتبة الاقباط والوصية بهم مثل جرجس الجوهري وواصف وملطي » .

وهكذا لم يبق امام الجند العثماني إلا نهب المسلمين : « لأنهم اخوانكم المجاهدين الذين حاربو عنكم وانقذوكم من الكفار الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ويأخذون أموالكم ويفجرون بنسائكم وينهبون بيوتكم . وهم ضيوفكم ايأما قليلة^(١٦) » .

وتعاون الجند العثماني مع المماليك على خراب مصر ، مستأنفين المهمة التي اعفوا منها ثلاث سنوات. ويصور الجبرتي بشاعة الهول الذي نزل بالفلاحين عندما يقول : « وتمنى اكثر الناس وخصوصاً الفلاحين احكام الفرنساوية » . ووصلت الدراما الى ذروتها باستئناف القتال بين الدولة والمماليك فسا

كانت الدولة العثمانية والتي تفوت الفرصة النادرة التي اتاحها لها الاحداث ، وهي دخول قوتها مصر .. وما كانت والتي تقبل ان تتركها راضية للمالِك وتسحب جيشها كما سيفعل الانجليز ليندموا على قرارهم ويعودوا بعد سبع سنوات ليس اكثر.

وبنفس الاسلوب الذي كرره الفريقان آلاف المرات : « عمل الوزير الديوان وحضر عنده الأفراد فقبض على ابراهيم بك وباقي الأمراء الصناجق وحبسهم . وأرسل طاهر باشا بطائفة من العسكر الارنؤود الى محمد بك الالفى بالصعيد. ووقفت طائفة العسكر والأرنؤود بالاخطاط والجهات وخارج البلد يقبضون على من يصادفونه من الممالِك والاجناد . وأحاطت العسكر بالأمراء المعتقلين واختفى باقيهم ونودي عليهم وبالتواعد لمن اخفاهم أو آواهم . وباتوا بليلة كانت أسوأ عليهم من ليلة كسرتهم وهزيمتهم من الفرنسيس . وخاب أملهم وضاع تعبهم وطعمهم . وكان في ظنهم ان العثمالي يرجع الى بلاده ويترك لهم مصر ويعودون الى حالتهم الأولى يتصرفون في الاقليم كيف شاءوا » .

اما الممالِك الذين كانوا في الاسكندرية فقد انقذهم الانجليز بعد ان قتل وجرح نخبة منهم . واستخدم انجليز « الجيزة » الحيلة لتحرير ابراهيم بك .. من اسر العثمانية .

كان واضحاً ان الممالِك لن يتركوا مصر للاتراك .. واكثر وضوحاً انهم لن يستطيعوا بعد اليوم حكم مصر لا لحسابهم ، ولا باسم السلطان كما كان الحال من قبل .. فقد انتهى دورهم في التاريخ في موقعة امبابه .. بل انتهى دورهم قبل ذلك بثلاثة قرون يوم دخل السلطان سليم القاهرة ، ولكن بلادنا اشتهرت بتحنيط الجثث . ولذا فهي لا تدفن الظاهرة التاريخية إلا بعدما تتعفن - تماماً، وحتى عندما تتعفن - احياناً - تحيطها بالمجامر والعود والبخور لنخفي رائحتها !

واذا كان الممالِك استناداً الى هذه الخاصة في مجتمعنا قد استطاعوا

خداع التاريخ وتعطيل قوانينه ثلاثة قرون فقد كان واضحاً بعد معركة انبابة ان مصر لن تكون لهم .

وكانت الدولة العثمانية مقفلة مغلقة بل واعجز من الممالك عن تقديم حل افضل .. فلا هي تقبل ان تترك مصر للمالك .. ولا هي قادرة على انتزاع مصر من المالك ..

وكانت قوى عديدة قد ظهرت في الساحة ، واصبحت هي الاصل والعثمانيون والممالك بمثابة الظل .. كانت الاستعمارات الغربية قد ركزت انتباهها على مصر ، وعرفت انها المدخل الاساسي للعالم العربي والاسلامي .. ومن ثم قررت استحالة عودة الأوضاع الى ما كانت عليه ، لأن ذلك يعني سد الطريق على مصالح الغرب ، وعلى محاولات تغلغه .. حتى لو كان هذا السد مجرد حجر متخلف .

والاستعمار الغربي لن يسمح أيضاً بان يتغير الوضع في مصر ، على نحو يحميها من اطماع الغرب ، ويمكنها من مواجهة عدوانه .. ذلك التغيير الذي كان يتمثل في بناء مصر الحديثة .. أو وطن عربي حديث .. أو حتى دولة عثمانية حديثة .. فلا حد لما يمكن ان تشعه تجربة ناجحة في مصر ..

وكانت هناك قوة تحمل امكانية هذا البعث .. هي القيادة المصرية التي صلب عودها خلال مقاومة الفرنسيين .. وكانت تتفق مع جميع الاطراف على استحالة عودة القديم الى ما كان عليه ، بعد ما ثبت عجزه عن حماية الوطن . ولكنها كانت تختلف - بالطبع - مع الاستعمار الغربي ، لأنها كانت تتطلع الى بناء مستقبل جديد يختلف تماماً عما كان يريده الغربيون .. كانت تتطلع الى تحديث مصر العربية في اطار الحضارة الاسلامية .. بينما كان الغرب الاستعماري يريد اقتطاع مصر من المحيط العربي - الاسلامي - وتغريبها .. وبذلك تنضج للاستعمار .. وكشرط لنجاح عملية التغريب هذه ، كان لا بد من تدمير القيادة الوطنية .

وهكذا أصبحت ضرورة « عالمية » أن يظهر البطل الذي يدمر القيادة الشرعية للامة العربية ويحطم محاولة البعث الاسلامي الصحيح.. ويحول دون وقوع الثورة الصناعية الحقيقية .. ويتولى إحداث « التغريب » المشوه الذي يضع مصر والوطن العربي تحت رحمة الغرب الاستعماري .

أصبح هناك دور يبحث عن بطل ..

وظهر البطل ..

رجل الغرب الذي سيحقق المخطط بنجاح .

رجل تمثل بدقة نادرة ، اتجاه الغرب ، و « الضرورة العالمية » . وحدد لنفسه مهمة واحدة هي تلبية هذه الضرورة .. تنفيذ مطلب الغرب . وبمعكس كل الممكن .. كان يتقدم بنجاح رائع ، وكان يداً ساحرة تدفعه وتسدّد خطاه ..

فلما انجز دوره المطلوب .. وحاول ان يتخطى حدوده ، كان انهياره السريع اكثر اثاره من نجاحه ..

ولكنه كوفىء بعرش مصر .. ولورثته من بعده .. بل ولكل من يحتذيه نموذجاً ومثالاً .. كل من يسير على درب التغريب .. لكي لا يكون تحديث أبداً ..

رمضان ١٣٩١ - أكتوبر ١٩٧١

بيروت

الهوامش والمراجع

الفصل : خطبة الكتاب

(١) دائرة المعارف البريطانية - ولاحظ ان السيدة « أمينة السعيد » زارت اليابان سنة ١٩٧١ فاستاءت من مركز المرأة التخلف وعبوديتها للرجل . واقتضرت طبعا بمركز المرأة العربية !

ويكفي اليابان فخراً انتصار الين على الدولار !..

(٢) تاريخ الفكر المصري الحديث - الفكر السياسي والاجتماعي للدكتور لويس عوض - وهي محاضرات القيت في معهد الدراسات العربية ، ثم نشرت في صحيفة الاهرام . والمراجع المشار اليه هنا هو المنشور عن دار الهلال في جزئين - ابريل ١٩٦٩ - ج ٢ ص ١٧ .

الفصل : مدخل

(١) بونايرت في مصر - تأليف كرسنوفر هيرولد - ترجمة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة - ص ١٢ - ١٣ .

(٢) بونايرت ص ١٧ عن : Charles-Roux, Origines P. 88

(٣ - ٤ - ٥) نفس المصدر .

(٦ - ٧) بونايرت عن 8 - 607 La Jonquière, II.

الفصل : الاول

(١) الراقمي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة ج ١ ص ٢٣ - ٢٤ .

ودخلت الخيل الازهر (٣٣)

(٢) ن.م. ص ٢٤

(٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩) الجبرتي - عجائب الآثار في التراجم والاخبار
لمحقق زمانه ونادرة اوانة الرافل في حلال العلوم المتوشح بنفائس منطوقها والمفهوم السابق في حلبة
للهان اللوذعي - العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الحنفي أمطره الله تعالى بهوا مع احسانه
وبره الحنفي - طبعة ١٢٩٧ هـ - ١٨٨٠ - ج ١

(١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٥) الجبرتي ج ٢

(١٦) الرافعي ج ١

(١٧) آلن مورهد - النيل الأزرق - دار المعارف .

(١٨) ن.م.

(١٩) بونابرت عن : 84 - 93 Correspondance de l'armée francaise xxx.

(٢٠) مورهد .

(٢١) الرافعي ج ٢ عن : مراسلات نابليون الجزء الخاص وثيقة رقم ٢٣٨

(٢٢) الرافعي ج ١ عن الجنرال رينه في كتابه : « مصر بعد واقعة عين شمس » .

(٢٣) الجبرتي ج ٣

(٢٤) بونابرت عن نقولا الترك .

(٢٥) مورهد .

(٢٦) بونابرت .

(٢٧) الجبرتي ج ٣

(٢٨) ج ١

(٢٩) ن.م.

(٣٠) الجبرتي ج ٢

(٣١) ج ١

(٣٢) ج ٢

(٣٣) المصريون المحدثون عاداتهم وطباعهم - لين .

(٣٤) مورهد

(٣٥) الجبرتي ج ٢

(٣٦) ن.م.

(٣٧) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي ج ٧ .

(٣٨) الجبرتي ج ٢

(٣٩) ن.م.

(٤٠) الجبرتي ج ١

(٤١ - ٤٢) الجبرتي ج ٢

(٤٣) الجبرتي ج ١

(٤٤ - ٤٥) الجبرتي ج ٢

(٤٦) الجبرتي ج ١

(٤٧) الجبرتي ج ٢

(٤٨) الكواكبي : طبائع الاستبداد .

(٤٩) الجبرتي ج ١

(٥٠ - ٥١) الجبرتي ج ٢

(٥٢ - ٥٣ - ٥٤) الجبرتي ج ١

(٥٥ - ٥٦ - ٥٧) الجبرتي ج ٢

(٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١) الجبرتي ج ١

(٦٢) الجبرتي ج ٢

(٦٣ - ٦٤) الجبرتي ج ١

(٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩) الجبرتي ج ٢

(٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠)

الجبرتي ج ١

(٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ -

٩٣) الجبرتي ج ٢

الفصل : الثاني

(١) بونابرت عن : Correspondance XXIX. 429 ونفس الفكرة كتبها «مونج» منظم الجمع العلمي الى زوجته : « لو استوطن مصر ٢٠٠٠٠ أسرة فرنسية ، ليشتغل افرادها بالشروعات التجارية والمؤسسات الصناعية .. الخ لفدا هذا البلد اجمل مستعمراتنا وألمها وافضلها موقماً » . ويمتلق هيرولد « هذه الروح هي التي مكنت الفرنسيين من استعمار الجزائر ، وما تتحض عنه هذا الاستعمار من نتائج » .

(٢) بونابرت .

(٣) ن.م.

(٤) بونابرت عن : Correspondance IV. 147.

(٥) » .

(٦) » عن : Francois I. 184.

(٧) » عن : Correspondant IV. 182 - 183.

(٨) »

(٩) بونايرت عن : نقولا الترك .

(١٠) الجبرتي ج ٣

(١١) بونايرت عن: Correspondance, IV. 190

(١٢) نقولا الترك .

(١٣) الجبرتي ج ٣

(١٤) مورهيدي .

(١٥) مورهيدي .

(١٦) بونايرت عن : Correspondance XXIX. 460

(١٧) Desvernois P. 97. : عن »

(١٨) Correspondance IV. 216 : عن »

(١٩) . »

(٢٠) Correspondance P. 158. : عن »

(٢١) Millet P. 44. : عن »

(٢٢) . »

(٢٣) Francois I 203 : عن »

(٢٤) La Jonquiere II. 162. : عن »

(٢٥) Las Cases I. 504. : عن »

(٢٦) Gourgaud II. 261 - 66 : عن »

(٢٧) الجبرتي ج ٣

(٢٨) مورهيدي .

(٢٩) مورهيدي .

(٣٠) الجبرتي ج ٣

(٣١) مورهيدي .

(٣٢) الجبرتي ج ٣ ولدينا وثيقة برأي الجبرتي في هذا المنشور تغني عن كل نقاش في البحث عن تأثير هذا المنشور في « النخبة » .. وذلك في الكتاب الذي ألفه بالاشتراك مع الشيخ حسن العطار يقول الجبرتي :

« وقد كانت الفرنسيين حين حاولهم بالاسكندرية كتبوا مكتوباً وطبعوه وأرسلوا منه نسخاً الى البلاد التي يقدمون عليها تطميناً لهم ومكيدةً لثلاث عصى البلاد وتحاربهم . فأوموم فيه انهم قدموا من طرف السلطان وانهم جاءوا ليزيلوا عنهم الظلم . فكانت هذه ايضاً من المكاييد الحربية !

ثم ينبري الجبرتي للرد على المنشور وتقنيده ما جاء فيه من « الكلمات المفككة والتراكيب الملمبكة فيقول :

قوله : بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد ولا شريك في ملكه .. في ذكر هذه الجمل الثلاث اشارة الى انهم موافقون للعلل الثلاث ومخالفون لهم بل ولجميع الملل .

قوله : « القادر على كل شيء » ومن قدرته الباهرة وآياته الظاهرة جلب هؤلاء الشياطين . الى مراتع الملوك والسلاطين . ورجوع الكرة عليهم . وقطع دايرهم ونواصيمهم .

قوله : « انفي ما قدمت لكم الا لكيا اخلص حقكم من يد الظالمين » هذه اول كذبة ابتدوها وقرية ابتكرها ، ثم ترقى الى ما هو اعظم من ذلك رماه الله في المهالك .

قوله : « واحترم نبيه » معطوف على ما قبله من عطف الكذب على الكذب . لأنه لو احترمه لأمن به وصدقه واحترم أمته .

قوله : « والقرآن العظيم » معطوف على نبيه . وهذا كذب . فان احترام القرآن تعظيمه . وتعظيمه بالتصديق بما فيه ... اما التعظيم الحسي .. وهؤلاء قد شوهوا الكثير منهم يتغوط ويمسح بأوراق المصاحف ويرميها ملطخة في الطرقات ومحل التجاسات فانهم لا يستنجون بالماء البتة . وجليلهم وحقيهم يستعمل ما يجده من الأوراق ..

قوله : « فليوروا الحجة التي كتبها الله لهم » هذا من الجهل والكفر بكان فإن الله لا يملك الناس شيئا بحجة يكتبها لهم . (رائع في التعبير عن تفوق الفكر الاسلامي عن تفكير اوروبا في القرون الوسطى) .

قوله : « في المناصب السامية » اي المرتفعة ، فيه احتراز عن دفع اللوم عنهم بتقليد مناصب الاحكام الجليلة للأسافل والرعاع ، كجعلهم برطلين الطنجي وهو المسمى عند العامة بفرط الرمان . كتحدا مستحفظان . (هذا هو ما فهمته النخبة من ادعاء الفرنسيين العمل على شغل المصريين للمناصب) .

ومنشئه (اي المنشور) ملعون عجل الله لهم الوبال والنكال وأخرس منهم عضو المقال . وفرق جمعهم . وشئت شلمهم . وأفسد رأيهم . واخذ انفاسهم . وهدم اساسهم . (من كتاب مظهر التقديس) .

(٣٣) الراقعي ج ١

(٣٤) الراقعي ج ١

(٣٥) بونايرت عن : Correspondance de l'armée francaise P. 158.

(٣٦) » عن : Correspondante IV. 217.

(٣٧) » عن : Denan I. 27.

(٣٨) » .

(٣٩) » .

- (٤٠) بونايرت عن : Bourienne I. 261 .
 (٤١ - ٤٢) بونايرت .
 (٤٣) بونايرت عن : Vertray P. 48 .
 (٤٤) » عن : Desvernois P. 118 .
 (٤٥) » عن : La Jonquière II. 170 .
 (٤٦) الرافعي ج ١ .
 (٤٧) مورهد عن مقدمة تويني لكتاب شفيق غربال بداية المسألة المصرية .
 (٤٨) مورهد .
 (٤٩) بونايرت عن : Desvernois P. 124 .
 (٥٠) » .
 (٥١) فقولا الترك .

الفصل : الثالث

- (من ١ الى ٨) الجبرتي ج ٣
 (٩) الرافعي ج ١ عن مراسلات نابليون ج ٤ وثيقة رقم ٣١٤٧ .
 (١٠) الجبرتي .
 (١١) الرافعي ج ١ عن : تاريخ الحملة الفرنسية في مصر - الجزء الثاني - مارتان .
 (١٢) » عن : كتاب التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية ج ٣ لمؤلفه « ريبو » .
 (١٣) » ج ١
 (١٤) » ج ١ عن تقرير وزير الخارجية فاليران الى حكومة الديركتوار في ١٤ فبراير ١٧٩٨ .
 (١٥) الرافعي عن كتاب : رحلة في الوجه البحري ومصر العليا .
 (١٦) بونايرت عن : La Jonquière II 468 - 69 .
 (١٧) الرافعي ج ١
 (١٨) » ج ١
 (١٩) » عن تقرير الجنرال ديموي المؤرخ ٣ ترميدور (٢١ - ٧ - ١٧٩٨) .
 (٢٠) » يوميات ارکان حرب الجنرال كليبر بتاريخ ٢٥ يوليو ١٧٩٨
 (من ٢١ الى ٢٦) الرافعي ج ١
 (٢٧) الجبرتي ج ٣
 (من ٢٨ الى ٣٣) الرافعي ج ١
 (٣٤ ، ٣٥) الرافعي ج ٢

- (٣٦) الراقعي عن التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الخامس .
 (من ٣٧ الى ٣٩) الراقعي ج ١
 (٤٠) بونابرت ٣٤٨
 (٤١) الراقعي ج ١
 (٤٢) » ج ١
 (٤٣) بونابرت .
 (٤٤) الراقعي ج ١
 (٤٥) بونابرت عن رسالة بليار الى ديزيه .

(٤٦) » عن : La Jonquiere III. 598.

(٤٧) الراقعي ج ١

(٤٨) وليم سليمان - مجلة الطليعة - اكتوبر ١٩٦٩ عن : NADV, SAFRAN.

Egypt in search of political Community. London 1961 P. 150.

- (٤٩) الراقعي عن : يوميات الجنرال لوجيه .
 (٥٠) » عن : يوميات الكابتن سافاري الذي أصبح الدوق « روفيجو » .
 (٥١) » ج ١
 (٥٢) » عن : تعليمات نابليون « لمارمون » .
 (٥٣) » عن : خطاب الجنرال مورا الى نابليون ٤ ديسمبر ١٧٩٨
 (٥٤) » عن : الجنرال لوجيه .
 (٥٥) الجبرتي ج ٣
 (٥٦) الراقعي ج ٢ التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الخامس.
 (٥٧) الراقعي عن : « ريبو » في التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية . الجزء الخامس.
 (٥٨) الجبرتي ج ٣
 (٥٩) الراقعي عن : مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٧١ .

الفصل : الرابع

- (من ١ الى ٣) الجبرتي ج ٣
 (٤) الراقعي عن : التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية- الجزء الرابع .
 (٥) » عن : مذكرات نابليون التي املاها على الجنرال برتران في سانت هيلين .
 (٦) » ج ١
 (٧) الجبرتي ج ٣

(٨) بونايرت عن : Corespondance V. 89 - 90.

(٩) الجبرتي ج ٣

(١٠) بونايرت .

(١١ ، ١٢) بونايرت .

(١٣ ، ١٤) الرافعي ج ١

(١٥) الرافعي عن : دي لاجونكيير - الجزء الثالث .

(١٦) الجبرتي ج ٣

(١٧) ٢٦٦ بونايرت .

(١٨) بونايرت عن المراسلات ج ٥

(١٩) الجبرتي ج ٣

(٢٠) الرافعي ج ١

(٢١) « عن مذكرات نابليون .

(٢٢) « عن مراسلات نابليون الجزء الخاص وثيقة رقم ٤٠٢٨ .

(٢٣) الجبرتي ج ٣

(٢٤) الرافعي ج ١

(٢٥) بونايرت عن : Vertray P. 86.

(٢٦) « عن : مراسلات الخامس ٧٩ - ٩٠ .

(٢٧) هيرولد - بونايرت في مصر .

(٢٨) م.ن .

(٢٩) الرافعي عن جريدة كورية دلجيببت العدد الصادر في ٢٠ برومير (١ نوفمبر ١٧٩٨)

(٣٠) الجبرتي ج ٣

(٣١) بونايرت عن : Denon I. 107

(٣٢) « عن مراسلات ه

(٣٣) الرافعي ج ١

(٣٤) الرافعي عن مذكرات بوريين الجزء الأول .

(٣٥) بونايرت عن المراسلات ٣٠

(٣٦) « عن Bourrienne Vol. 11 Ch. XV.

(٣٧) « عن La Jonquière IV. 271

(٣٨-٣٩) بونايرت .

(٤٠) بونايرت عن La Janquière V. 23

(١) الجبرتي ج ٣

(٢) ن.م.

(٣) بونابرت .

(٤) ن.م.

(٥) بونابرت عن 82 - 481 XXIX Correspondance.

(من ٦ الى ٨) لويس عوض (تاريخ الفكر) ج ٢

(من ٩ الى ١١) الرافعي ج ١

(١٢) لويس عوض ج ٢

(١٣) الجبرتي .

(١٤) لويس عوض ج ٢

(١٥) ن.م.

(١٦) الجبرتي .

(١٧) الرافعي ج ٢

(١٨) » ج ٢

(١٩) الجبرتي ج ٣

(٢٠) الرافعي ج ٢

(٢١) » عن تقرير نابليون الى حكومة الديركتوار .

(٢٢) لويس عوض ج ٢

(٢٣) الرافعي ج ٢

(٢٤ ، ٢٥) لويس عوض : المؤثرات الاجنبية .

(من ٢٦ الى ٢٨) لويس عوض: تاريخ الفكر .

(٢٩) لويس عوض

(٣٠) ل. ع. المؤثرات الأجنبية .

(٣١) ل. ع. تاريخ الفكر - الجزء الاول .

(من ٣٢ الى ٣٤) ل. ع. المؤثرات الأجنبية .

- (٣٥) ل. ع .
 (٣٦) وليم سليمان مجلة الطليعة اكتوبر ١٩٦٩
 (٣٧ ، ٣٨) الرافعي ج ٢
 (من ٣٩ الى ٤١) ن.م .
 (٤٢) الجبرتي ج ٣
 (٤٣) الرافعي ج ٢
 (٤٤) » ج ١
 (٤٥) لويس عوض - المؤثرات الأجنبية .
 (من ٤٦ الى ٤٨) ن.م .
 (٤٩) الجبرتي ج ٣
 (٥٠) الرافعي ج ١
 (٥١) بونابرت .
 Belliard, Histoire, Cited in Ivray P. 33 : (٥٢) بونابرت عن :
 (٥٣) الجبرتي ج ٣

الفصل : السادس

- (١) الرافعي ج ١
 (٢) » ج ٢
 (٣) ن.م .
 (٤) الرافعي عن:التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية - الجزء السابع .
 (٥) » عن : يوميات وذكريات عن حملة مصر .
 (٦) الجبرتي ج ٣
 (٧) ن.م .
 (من ٨ الى ١١) بونابرت .
 (١٢) ن.م .
 (١٣) لويس عوض - المؤثرات الاجنبية .
 (١٤) الجبرتي ج ٣
 (١٥) ل. ع . تاريخ الفكر المصري .
 (١٦) ل. ع . المؤثرات .
 (١٧ ، ١٨) الجبرتي ج ٣

- (من ١٩ الى ٢٤) الجبرتي ج ٣
 (٢٥) الراقعي - الجزء الثاني .
 (٢٦ ، ٢٧) الجبرتي ج ٣
 (من ٢٨ الى ٣٠) الراقعي ج ٢
 (٣١) الراقعي عن : كتاب صورة مصر اثناء اقامة الجيش الفرنسي للمسيو جلان احد
 اعضاء بعثة العلوم والفنون في عهد الحملة الفرنسية .
 (٣٢) ن.م.
 (٣٣) الجبرتي ج ٣
 (٣٤) الراقعي ج ٢
 (٣٥) » عن كتاب : الجنرال عبد الله منو والفترة الاخيرة من الحملة الفونسية تأليف
 المسو ريجو .
 (٣٦) الجبرتي ج ٣
 (٣٧ ، ٣٨) ن.م.
 (٣٩) الجبرتي ج ٣
 (٤٠) مورهد .
 (٤١) بونابرت عن الجبرتي .
 (٤٢) حسين فوزي - سندباد مصري .
 (٤٣) د. وليم سليمان الطليعة - ديسمبر ١٩٦٦
 (٤٤) د. وليم سليمان عن تاريخ الكنيسة القبطية للشماس منسي القمص - الطبعة الأولى ١٩٢٤
 (٤٥) د. وليم سليمان عن جاك تاجر .
 (٤٦) د. وليم سليمان عن : In the Valley of the Nile P. 221
 (٤٧) ن.م.
 (٤٨ ، ٤٩) الراقعي ج ١
 (٥٠ ، ٥١) الجبرتي ج ٣
 (٥٢ ، ٥٣) الراقعي ج ١
 (٥٤ ، ٥٥) بونابرت .
 (٥٦) بونابرت عن : Lavallette I. 312
 (٥٧ ، ٥٨) »
 (٥٩) » عن : Correspondance XXX 36 - 37
 (من ٦٠ الى ٧٣) الجبرتي ج ٣

(٧٤) جاك تاجر : « اقباط ومسلمون » عن البند الرابع من الأمر المؤرخ ١٠ فاندميز عام ١٠ للثورة الفرنسية .

(من ٧٥ الى ٧٩) الجبرتي ج ٣

(٨٠) جاك تاجر - اقباط ومسلمون .

(٨١ ، ٨٢) ن.م.

الفصل : السابع

(١) الجبرتي ج ٣

قد كان يجدر بنا ان نخصص فصلاً كاملاً عن مظاهر الوحدة العربية في مواجهة الهجمة الاستعمارية الوحشية ، لكن رأينا أن نفرد لهذا الأمر دراسة شاملة ، واكتفينا بهذا الهامش كمجرد إشارة لطبيعة الوحدة العربية ذات الروح الاسلامية التي هبت تقاوم غزو مصر ، وتشترك مع المصريين في مجاهدة العدو ، على نحو لم يتكرر له مثيل الى العصر الحاضر ، رغم كل الصفحات التي سودتها ، والأشرطة التي سجلناها في الحديث عن الوحدة المصرية .

يقول الجبرتي : « ان رجلاً مغربياً يقال له الشيخ الكيلاني ، كان مجاوراً بمكة والمدينة والطائف . فلما وردت اخبار الفرنسيين الى الحجاز وانهم ملكوا الديار المصرية ازعج اهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم وجردوا الكعبة وان هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد ويجرضهم على نصرة الحق والدين وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً في معنى ذلك فاتمظ جملة من الناس وبدلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر الى القصير مع ما انضم اليهم من أهل ينبع وخلافه فورد الخبر في اواخره (رجب ١٢١٣ - ديسمبر ١٧٩٨) انه انضم اليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة بمن كان خرج معهم مع 'غز مصر عند وقعة انبياه وركب الفز معهم أيضاً وحاربوا الفرنسيين فلم تثبت الفز كعادتهم وانزمو وتبعهم هوارة الصعيد والمتجمعة من القرى . وثبت الحجازيون ثم انكفوا لقتلهم وذلك بناحية جرجا وهرب الفز والماليك الى ناحية اسنا » .

وعن هؤلاء المتطوعين من الجزيرة العربية يقول هيرولد : « كان أرهب امداد » مراد « هم المقاتلون العرب القادمون من الحجاز ، الذين عبروا البحر الأحمر بالألوف ، وقد زعموا كلهم انهم من سلالة الرسول ، وكانوا يلبسون العمامم الخضراء ، ويحملون البنادق والسيوف والرماح والخنجر ، وفي خلقهم صلابة تنطق بها وجوههم . وقد تبين ان كثيراً منهم من الحجاج المغاربة الذين التقطوا بسرعة في الطريق ، ولكن اكثرهم - وأشدهم تعصباً بالطبع - عرب خلص من شبه الجزيرة ، ومع أن شريف مكة لم يشجعهم بالضبط على الانضمام الى مراد ، فانه لم يفعل شيئاً ليثنيهم . وقد ارسل في الوقت ذاته الرسائل الودية لبوفابرت لأن موارده كانت تعتمد الى حد كبير على ما يصدره من البن الى مصر . وتجمع الروايات على ان « المكين » أو « اشرف

ينبع « كما سماهم الفرنسيون هؤلاء المقاتلين ذوي الجلود البرونزية والأجساد النحيلة ، كانوا مصداقاً لحكم بونابرت على العرب : « ان ضراوتهم لا يعسدها الا انحطاط مستوى معيشتهم ، لأنهم معرضون أبدا للرمال الساخنة والشمس المحرقة ، محرومون من الماء . لا رحمة في قلوبهم ولا عهد . فهم صورة مجسمة للرجل التوحش كأبشع ما يتصوره العقل . وكان هؤلاء الرجال من سلالة اسلافهم الذين فتحوا نصف العالم قبل أحد عشر قرناً قد جاءوا في عام ١٧٩٨ ليقاتلوا الفرنسيين الكافرين بنفس الايمان » .

« ونزلت كل الامداد العربية في ثمر القصير الصغير . واتفق انه حين وصلت أول قوة عربية كان بونابرت قد أرسل لتوه أسطولاً صغيراً من السويس ليحتل القصير . ووصل الاسطول الفرنسي والاسطول المكي في وقت واحد ، وهو اتفاق ما كان في استطاعة بونابرت أن يتكهن به ، وضرب الاسطول الفرنسي ضرباً شديداً ، وقفل راجعاً الى السويس ، واختتم قائده تقريره راجعاً الى يرسل مستقبلاً في مهام مستحيلة التنفيذ كهذه المهمة » (٢) .

ولم تقتصر المشاركة العربية على عرب المشرق الذين رأيناهم يساهمون بالجنود والمتطوعين من الحجاز ، والفدائيين من حلب ، بل امتدت لتشمل عرب المغرب ، وقد لعب المجاهدون من المغرب دوراً بارزاً في اعمال المقاومة ، بل وتحتل شخصية مغربية مكانة أسطورية في هذه الفترة فقد روى الجبرتي : « وورد عليهم رجل مغربي يدعى المهدي ، ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد وصحبة نحو الثمانين قرناً فكان يكتب أهل البلاد ويدعوم الى الجهاد فاجتمع عليه أهل البجيرة وغيرهم وحضروا الى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنسيين واستمر اياماً كثيرة يجتمع عليه أهل تلك النواحي وتفرق والمغربي المذكور تارة يقرب وتارة يشرق » (٣) .

وقد مر بنا بمض من المقاومة التي استثارها هؤلاء المغاربة . وهكذا نجد ابناء الجزيرة العربية يقاتلون في أسبوط ، وابناء المغرب يحررون دمنهور ، وبطل من حلب يعدم على الخازوق في القاهرة ، لأنه نفذ أبرع عملية ارهابية ضد قوات الاحتلال .

فإذا ما تأملنا حجم المساهمة العربية في معركة ١٩٦٧ نجد اننا لم نتقدم كثيراً في ميدان الوحدة العربية ، بعد « تخلص مفهوم القومية من الترسبات الدينية » بل الأصدق ان نقول اننا قد تقهقرنا كثيراً !..

(٢) بونابرت .

(٣) الجبرتي ج ٣

(٤) بونابرت .

(٥) ن.٤٠ .

(٦) الجبرتي عن محضر التحقيق في مصرع كليبر .

(٧) بونابرت عن : François I, 430

(٨) »

(٩) ن.٤٠ .

(١٠) ن.م.

(١١ ، ١٢) لويس عوض تاريخ الفكر - الجزء الثاني .

(١٣ ، ١٤) الرافعي ج ٢

(١٥) ن.م.

(١٦) نقولا الترك .

(١٧) الجبرتي ج ٣

(١٨) لويس عوض تاريخ الفكر الجزء الثاني.

(١٩) الجبرتي ج ٣

(٢٠) د ج ١

(٢١) لويس عوض تاريخ الفكر ج ١

(٢٢) ن.م.

(٢٣) بونايرت

(٢٤) لويس عوض - تاريخ الفكر ج ٢

(٢٥) بونايرت

(٢٦) الجبرتي ج ٣

(٢٧) بونايرت

(٢٨) د عن : المراسلات الخامس .

(٢٩) الرافعي ج ١

(٣٠) الجبرتي ج ٤

(٣١) الرافعي عن التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية - الجزء الثالث .

(٣٢ ، ٣٣) الجبرتي ج ٣

(٣٤) بونايرت عن : Sauzet P, 188

(٣٥) بونايرت عن : La Jonquière III, 136 - 165, Belliard, Histoire

IV, 113 - 115

(٣٦) مورهد

(٣٧) بونايرت

(٣٨) د عن : Correspondance V, 192

(٣٩ ، ٤٠) ن.م.

(٤١) بونايرت

(٤٢) لويس عوض - تاريخ الفكر ج ٢

(٤٣) الجبرتي ج ٣

(٤٤) بونايرت

الفصل : الثامن

- (٢٠١) بونايرت
(٣) الجبرتي ج ٣
La Jonquière IV, 39 (٤) بونايرت
(٦٠٥) بونايرت
La Jonquière III, 598 (٧) بونايرت عن :
(٩٠٨) بونايرت
La jonquiere II, 63 (١٠) بونايرت عن :
(١٢٠١١) بونايرت
(١٣) الجبرتي ج ٣
(١٤) بونايرت
(من ١٥ الى ١٧) الجبرتي ج ٣
(١٨) لويس عوض - تاريخ الفكر ج ٢
(١٩) مورهد
(٢٠) لويس عوض : المؤثرات الأجنبية .
(٢٢٠٢١) الجبرتي ج ٣
(٢٣) الجنرال يعقوب لشفيق غربال .
(٢٤) الراقعي ج ١
(٢٥) » ج ٢
(٢٦) الجبرتي ج ٣
(٢٧) البند العاشر من اتفاقية العريش .
(٢٨) الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس (محمد شفيق غربال ١٩٣٢) .
(٢٩) لويس عوض : المؤثرات الأجنبية .
(من ٣٠ الى ٣٢) ن.م .
(٣٣) ولسن تاريخ الحملة البريطانية على مصر .
(٣٤) بونايرت
(٣٥) الراقعي ج ١ عن : تقرير الضابط الفرنسي شاربيه .
(٣٦) الراقعي ج ١
(من ٣٧ الى ٣٩) لويس عوض : المؤثرات الأجنبية - المبحث الثاني .

- (٤٠) بونابرت
 (٤١) جاك تاجر : اقباط ومسلمون .
 (٤٢) مجلة الطليعة - ديسمبر ١٩٦٦
 (٤٣) الجبرتي ج ١
 (٤٤) » ج ٣
 (٤٥) لويس عوض - المؤثرات الأجنبية - المبحث الثاني - طبعة ١٩٦٣
 (٤٦ ، ٤٧) لويس عوض - تاريخ الفكر - طبعة سنة ١٩٦٩
 (٤٨) الجبرتي ج ٢
 (٤٩) » ج ١
 (٥٠) » ج ٣
 (٥١) ن.م.
 (من ٥٢ الى ٥٥) الجبرتي - الجزء الثالث .
 (٥٦) الجبرتي ج ٢
 (٥٧ ، ٥٨) الجبرتي ج ٣
 (٥٩) الراقعي ج ١
 (٦٠) الجبرتي ج ١
 (٦١) بونابرت .
 (٦٢) » عن : Correspondance XXIX 493
 (٦٣) لويس - تاريخ الفكر ج ٢
 (من ٦٤ الى ٦٧) الجبرتي ج ٣

الفصل : التاسع

- (٢ ، ١) الجبرتي ج ٣
 (٣) مورهد .
 (٤) بونابرت .
 (من ٥ الى ١٦) الجبرتي ج ٣

فهرست

صفحة	
٧	خطبة الكتاب
٢٣	مدخل
٣١	الفصل الأول : قبل ان يخلت الناموس
٣٣	هل كانت مصر مستعمرة تركية؟
٥١	نظرة على المجتمع المصري
٥٥	الصفحة الاخيرة
٧٣	المتعصمون
٩٨	العامة
١٠٦	المحاولة الاخيرة
١١٢	المحاولة العثمانية
١٢٣	الفصل الثاني : نابليون والمهمة الحضارية
١٢٥	سأستعمر مصر
١٣٢	بلاد السلطان
١٤٥	محبنا السلطان العثماني

١٦٣	الفصل الثالث : المدفع والمنشور
١٦٥	الدجال يدخل القاهرة
١٨٢	المقاومة والتنكيل
٢١٥	الفصل الرابع : وثارت مدينتي
٢١٧	تنظيم الثورة
٢٢٨	مع الثورة
٢٤٩	الفصل الخامس : المؤسسات الاستعمارية
٢٥١	وايش يكون نفعم
٢٥٨	التفسير الاستعماري
٢٨٦	المتعاونون
٢٩١	الفصل السادس : الثورة الخالدة
٢٩٣	ثورة القاهرة للثانية
٣٢٦	الثورة الصناعية
٣٣٦	الشربتلي والليمونة
٣٤٩	محاولة تمزيق الوحدة الوطنية
٣٧٣	الفصل السابع : الليمونة سحقت الشربتلي
٣٧٥	نادرة ولكنها غير عجيبة
٣٨٤	المحاكمة
٣٩٥	تحرير المرأة من تحت الزنار
٤١٥	مطلق الانثى .. ومطلق التزوير
٤١٩	الفصل الثامن : الجنرال العميل والشيخ المؤرخ

صفحة

٤٢١

٤٦٤

٤٨٥

٤٩٥

٤٩٧

٥١٣

يعقوب يبحث عن سيد

الجبرتي ونخبة عصره

المشايع والتكنولوجيا

الفصل التاسع : والله الحمد والمنه

زوال الفرنسييس

الهوامش والمراجع

صدر للمؤلف

- ١٩٥٠ مصريون لا طوائف
- ١٩٥١ الجبهة الشعبية
- ١٩٥٢ قانون الاحزاب
- ١٩٥٧ روسي وامريكي في اليمن
- ١٩٦١ شرف المهنة
- ١٩٦٨ الطبعة الثالثة الغزو الفكري
- ١٩٦٨ الطبعة الثالثة الماركسية والغزو الفكري
- ١٩٧٠ الطبعة الثانية دراسة في فكر منحل
- ١٩٧٠ الطبعة الثانية اخطر من النكسة
- ١٩٧٠ الطبعة الثانية الحق المر
- ١٩٦٩ الطبعة الثانية النكسة والغزو الفكري
- ١٩٦٩ طريق المسلمين الى الثورة الصناعية
- ١٩٦٩ الجهاد ثورتنا الدائمة
- ١٩٦٩ الطبعة الثانية ماذا يريد الطلبة المصريون

١٩٦٨		ايللي كوهين من جديد
١٩٧٠		الثورة الفلسطينية
١٩٧٠	الطبعة الثانية	القومية والغزو الفكري
١٩٧١	الطبعة الثانية	من احوال المصطفى
١٩٦٩	الطبعة الثانية	حكايات عن عمر
١٩٦٩		ابو ذر والحق المر